



Bibliothèque de l'Université

السيرة النبوية

محمد رسول الله

والذي رُمعته

—

صلى الله عليه وسلم

عبد محمد بن جوده السخار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ .

(قرآن كريم)

(١)

أنفاس المدينة تسبيح ، شهيقها وحى السماء وزفيرها شكر وحمد
لله رب العالمين ، وسمعها قرآن مجيد ، وبصرها ابتهاج لبديع
السموات والأرض العزيز الحكيم ، وقوادها أنوار قدسية أضاءها نور
النور ، وروحها طاهرة قد تحررت من دنس الأرض فصارت مجنحة
قادرة على أن تسمو لتتصل بروح الروح ، وعزيمتها ماضية زائدا مضاء
أنها توكلت على الحى الذى لا يموت .

وكان ثوب الليل حالك السواد ، قد هجع الوجود إلا أعين المؤمنين
كانت شاخصة إلى السماء قد تحركت ألسنتهم بالدعاء واطمأنت
قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . وكان رسول الله فى
داره قانتا آناء الليل ساجدا وقائما يناجى ربه حاضر القلب دافع العين ،
حتى إذا ما انتهى من المناجاة ذهب إلى فراشه ، وكانت عباته قد
ثبتت ثنتين ، فنامت عيناه ولم يعرف قلبه النوم فقد كان متصلا بالملا
الأعلى على الدوام .

ورأى عليه السلام فى النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين
محلقي رءوسهم ومقصرين ، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وطاف
هو وأصحابه مع الطائفين . وفى السحر قبل أن يؤذن بلال بالفجر خرج
إلى المسجد متطلق الوجه تغمره سعادة عارمة ، فدخول مكة والطواف
بالبیت العتيق وزيارة مراتع الصبا والشباب كانت أمنية من أعز أمانيه

وأمانى المهاجرين من أصحابه .

كانت قلوبهم تهوى إلى الحرم وإلى الصفا وإلى الحجون وإلى زيارة قبور الأحبة من المسلمين الذين ماتوا فى مكة قبل الهجرة ، فى طالما استرجعت خيالاتهم ذكريات مجنة وذى المجاز وعكاظ وزمزم وأبى قبيس ودار الندوة وحجر إسماعيل ، ويا طالما رأوا أنفسهم بأعين الأمانى يحطمون الأصنام التى دنست أول بيت وضع للناس ليكون منارة التوحيد .

وارتقى بلال حجرة حفصة وراح يرعى السماء حتى إذا ما حان الفجر تجاوب الأذان فى جنبات المدينة فخرج الناس من الدور من العالية ومن السافلة ليصلوا خلف الرسول . وجاء أبو بكر وعمر وعثمان وكبار المهاجرين إلى المسجد فلما قضيت الصلاة اجتمعوا عند أسطوانة المهاجرين ، فأقبل عليهم رسول الله — ﷺ — بآدى البشر ثم أخذ مكانه بينهم وجعل يقص عليهم رؤياه وقد ألقوا إليه سمعهم مستبشرين فرحين بما أتاهم الله ، فقد صاروا جميعا موقنين أن الفتح قريب ، وأن مكة ستفتح لهم أبوابها إن طوعا أو كرها ، فرؤيا الأنبياء حق وما رأى نبي الإسلام عليه السلام رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . وأخبر عليه السلام أصحابه أنه يريد الخروج للعمرة فخفقت القلوب بالسرور وتهللت الوجوه بالفرح وقاموا ليتجهزوا للسفر ، وبعث عليه السلام يستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادر من الأعراب ممن أسلم ، غفار ومزينة وجهينة وأسلم ، خشية من قریش أن يحاربوه وأن يصدوه عن البيت فتناقل كثير منهم وقالوا : — أنذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه

فنفقاتلهم !

واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بذلك ،
فأنزل الله تكذيبهم في اعتذارهم بقوله : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس
في قلوبهم ﴾ (١) .

وخرج — ﷺ — بعد أن اغتسل بيته ولبس ثوبين وركب راحلته
القصواء من عند بابه ، وخرج معه أم سلمة وأم عمارة وأم منيع وأم عامر
الأشهلية ، وخرج معه المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من
العرب ، وقد استعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي وساق معه
الهدى سبعين بدنة فيها جمل أبي جهل الذي غنمه رسول الله —
ﷺ — يوم بدر .

وصلى عليه السلام الظهر بأصحابه بذي الحليفة ، ثم أحرم بالعمرة
وأحرم معه أغلب أصحابه وأشعر من الهدى عدة وهي موجهاة للقبلة
في الشق الأيمن من سنامها ، ثم أمر — ﷺ — ناجية بن جندب ،
وكان اسمه ذكوان فغير عليه السلام اسمه وسماه ناجية لما نجا من
قريش ، فأشعر ما بقي وقلدهن نعلا نعلا ، وأشعر المسلمون بدنهم
بجرح صفحة سنامها وقلدوها بأن وضعوا في أعناقها قطعة جلد أو نعل
بالية ليعلم أنه هدى فيكف الناس عنه .

كان الناس سبعمائة فكانت كل بدنة عن عشرة ، وليس معهم
سلاح إلا السيوف في القرب . وقال له عمر بن الخطاب :
— أتخشى يا رسول الله من أبي سفيان وأصحابه ولم تأخذ للحرب

عدتها ؟

— لست أحب أن أحمل السلاح معتمرا .

وخرج عليه السلام معتمرا في ذي القعدة ليأمن أهل مكة ومن حولهم من حربته ويعلموا أنه — ﷺ — إنما خرج زائرا للبيت ومعظما له . وكان مع المسلمين مائتا فرس هي مدخراتهم التي كونوها ليرهبوا بها عدو الله وعدوهم . كانوا يملكون يوم بدر فرسا واحدة فلما أمرهم الله أن يعدوا ما استطاعوا من رباط الخيل راح — ﷺ — يعنى بتربية الخيول ، وتكوين فرق فرسان المسلمين الخفيفة حتى استطاع أن يخرج إلى مكة معتمرا في مائتي فارس من خيل المسلمين .

وقدّم عليه السلام عباد بن بشر أمامه طليعة في عشرين فارسا ؛ وبعث بشر بن سفيان الكعبي إلى مكة عينا له ليتحسس أخبار قريش ليكون على بينة من أمر أعدائه ، وإنساب المسلمون في الصحراء وقد ارتفعت التلبية من أعماق القلوب :

— لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وانشروحت الصدور وانهمرت من الأعين الدموع فهم في الطريق إلى بيت الله الحرام ، وقد طهر الله قلوبهم من الشرك والضلال تداعبهم آمال الطواف بالبيت العتيق والسعي بين الصفا والمروة وإطفاء الظمأ من ماء زمزم ميراث أبيهم إسماعيل ، وما خطر لهم على قلب أن تصدهم قريش عن البيت فالكعبة بيت الله لا يصد عنها أحد من عباد الله ، فإليها يحج العرب من موحدين ونصارى ومشركين .

وبلغ رسول الله — ﷺ — والذين معه عسفان فجاء إليه بشر بن

سفيان فقال :

— يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بخروجك واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش وأجلبت ثقيف معهم ومعهم النساء والصبيان وقد لبسوا جلود النمر ، وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدا . وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم . كانت خيل خالد مائى فرس وقد صفت إلى جهة القبلة ، فأمر — ﷺ — عباد بن بشر فتقدم فى خيله فقام بازاء خالد وصف أصحابه ، وحانت صلاة الظهر فأذن بلال وأقام فاستقبل رسول الله — ﷺ — القبلة وصف الناس خلفه فركع بهم وسجد ثم سلم فقال خالد بن الوليد :

— قد كانوا على غرة لو حملنا عليهم أصبنا منهم ، ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم .
فنزل جبريل بين الظهر والعصر بقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴿ (١)

وحانت صلاة العصر فصلى رسول الله ﷺ — بأصحابه صلاة
الخوف ، فلما جعل المسلمون يسجد بعضهم وبعضهم قائم ينظر
إليهم قال المشركون :
— لقد أخبروا بما أردنا بهم .

كانت حركات قريش تدل على أنها تريد منعه ومن معه عن البيت ،
فالتفت عليه السلام إلى أصحابه وقال :
— أشيروا على أيها الناس . أتريدون أن تؤم البيت فمن صدنا عنه
قاتلناه ؟

فقال أبو بكر :

— يا رسول الله خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حربا
فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه .

— يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني
وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا . وإن
أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم
قوة ؟ فما تظن قريش ؟ والله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى
يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة .

ثم قال عليه السلام :

— هل من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم التي هم بها ؟

فقال ناجية بن جندب :

— أنا يا رسول الله .

فسلك بهم طريقا وعرا فانطلقوا يضربون فيه حتى نال منهم
الجهد ، فلما خرجوا منه وقد شق عليهم ذلك وأفضوا إلى أرض سهلة

قال — ﷺ :

— قولوا نستغفر الله ونتوب إليه .

فارتفعت أصوات المسلمين بالاستغفار والتوبة ، فقال عليه السلام :

— والله إنها للحطة التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها .
قيل لبنى إسرائيل : ﴿ ادخلوا الباب سجدا وقلوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾^(١) ، فبدلوا وقالوا : حنطة استهزاء وجراءة على الله .
ولم يشعر بهم خالد بن الوليد إلا وقد نزلوا بذلك المحل فانطلق نذيرا لقريش ، ثم أمر — ﷺ — الناس أن يسلكوا طريقا تخرجهم على مهبط الحديدية من أسفل مكة فسلكوا ذلك الطريق ، وأصبح المسلمون على حدود الحرم وإن هى إلا خطوات حتى يصبخوا فى الأرض الحرام التى يأمن فيها الطير ، فثارت الدماء فى العروق وارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير وخفقت الأئدة وجدا ، وكان المهاجرون يتلفتون فى تأثر وقد غمرتهم إحساسات الشوق بعد أن شموا عبير الأرض التى تفتحت عليها أعينهم أول ما تفتحت والتى التصقوا بها التصاق الأبناء بالأم الرءوم حتى أخرجهم منها الظالمون بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾^(٢) .

(١) البقرة ٥٨ .

(٢) الحج ٤٠ .

وانطلق الرسول عليه السلام على ناقته القصواء والمسلمون من حوله على خيلهم وإبلهم حتى إذا سلك ثنية المرار ولا ح له سهل الحديدية ولم يبق إلا أن يتقدم بضعة أميال ليطوف بالبيت ويتحقق كل ما رآه في رؤياه ، إذا بالقصواء قد بركت فانجفل الناس إليها وقالوا :

— حل حل .

فألحت وتمادت على عدم القيام وظن الناس أنها قد حرنت فقالوا :

— خلأت القصواء .

وعادوا يقولون لها :

— حل حل .

فقال — ﷺ :

— ما حل ؟

— خلأت القصواء .

— ما خلأت « حرنت » وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس

الفيل عن مكة .

علم رسول الله — ﷺ — أن ذلك صد له من الله عن مكة أن

يدخلها قهرا ، فقال عليه السلام :

— والذي نفس محمد بيده لا تدعونى قريش إلى خطة يعظمون بها

حرمات الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

(٢)

كان خالد بن الوليد قد صف فرسانه عند كراع الغميم وهو يحسب أن المسلمين لن يستطيعوا أن يصلوا إلى مكة إلا إذا شقوا طريقهم في فرسانه الذين كانوا في عدة القتال وكان واثقا أن ذلك لن يكون ، فالمسلمون قد جاءوا محرمين ليس معهم إلا السيوف في القرب ولن تغنى سيوفهم شيئا إذا ما عمدوا إلى العنف ، ولكن لما سلك المسلمون ذات اليمين في طريق يخرجهم إلى ثنية المرار في غفلة منه وأصبحوا على بعد تسعة أميال من مكة ولم ير إلا غبار الجيش ، تيقن أنه قد خدع وأصبح بقاؤه في موضعه بلا معنى ، فركض راجعا إلى قريش ينذرهم أن محمد بن عبد الله والذين معه قد بلغوا الحديبية وأنهم في طريقهم إلى الحرم .

كان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وكثير من سادات قريش في سوق بصرى في تجارة قريش ، وكان أمر مكة لسهيل بن عمرو . فراح خالد يقص على سهيل وحويطب بن عبد العزى وبديل بن ورقاء سيد بني خزاعة ومكرز بن حرب أخى بنى عامر والحليس بن علقمة سيد الأحابيش وعروة بن مسعود الثقفى ما كان من المسلمين ، فرأى بنو كعب وبنو عامر أن يناجزوا محمدا عليه السلام والذين معه ، ورأى بديل بن ورقاء سيد بنى خزاعة أن يمشى إلى محمد — ﷺ ، وأن يسأله عما أقدمه إلى مكة في أصحابه ، فنظر إليه سادات قريش في ريبة

فخزاعة مسلمها ومشرکہا لا يخفون علیہ — ﷺ — شیئا کان بمکة بل یخبرونه به وهو بالمدينة ، وكانت قریش ربما تفتن ذلك .
وسار بدیل بن ورقاء فی رجال من خزاعة حتی أتوا رسول الله علیہ السلام وهو بالحديبية فقال :

— إنی ترکت کعب بن لؤی وعامر بن لؤی قد نزلا أعداد میاه الحديبية معهم العوذ المطافیل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البیت .
فقال النبی — ﷺ — :

— إنا لم نأت لقتال أحد ولكن جئنا معتمرین ، وإن قریشا قد نهکتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاءوا مآدناهم^(١) مدة ویخلوا بینی و بین الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن یدخلوا فیما دخل فیہ الناس فعلوا وإلا فقد جموا^(٢) ، فوالله لأقاتلنهم علی أمری هذا حتی تنفرد سالفتی أو لینفذن الله أمره .
قال بدیل :

— سنبلغهم ما تقول .
فانطلق حتی أتى قریشا فقال :
— إنا قد جئناکم من عند هذا الرجل وسمعناه یقول قولا فإن شئتم أن نعرض علیکم فعلنا .
فقال سفهاؤهم :
— لا حاجة لنا فی أن تحدثنا عنه بشيء .

(١) مآدناهم مدة : جعلنا بیننا و بینهم مدة نترك الحرب فیها .

(٢) جموا : استراحوا .

وقال ذور الرأى منهم :

— هات كما سمعته يقول .

فحدثهم بما قال رسول الله — ﷺ ، وقال لهم :

— إنه لم يأت لقتال إنما جاء زائرا لهذا البيت .

فاتهموه ولقوه بما يكره وقالوا :

— إن كان قد جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا

تحدث بذلك عنا العرب ، أريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده

معتبرا تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما

بيننا ؟ ! والله لا كان هذا أبدا وبنا عين تطرف .

ثم بعثوا إليه — ﷺ — مكرز بن حفص أخا بني عامر ، فلما رآه

رسول الله عليه السلام مقبلا قال :

— هذا الرجل غادر .

فلما انتهى إلى رسول الله — ﷺ — وكلمه قال له رسول الله —

عليه صلوات الله وسلامه ، نحوا مما قال لبديل ، فرجع إلى قريش

وأخبرهم بما قال له رسول الله عليه السلام ، ثم بعثوا إليه — ﷺ —

الحليس بن علقمة وكان سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله عليه السلام

قال :

— إن هذا من قوم يتألهون (أى يتعبدون) ويعظمون أمر الإله .

ابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه .

فلما رأى الهدى يسيل عليه بقلائد من عرض الوادى قد أكل أوباره

من طول الحبس عن محله الذى ينحرف فيه من الحرم ، واستقبله الناس

يلبون قد شعثوا صباح وقال :

— سبحان الله ! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، أباي الله أن
يحج لخم وجذام ونهد وحمير ويمنع ابن عبد المطلب . هلك قريش
ورب الكعبة ، إنما القوم أتوا عمّارا .
فقال رسول الله ﷺ :
— أجل يا أنخا بنى كنانة .
ورجع إلى قريش فقال لهم :
— إني رأيت ما لا يحل منعه ، رأيت الهدى^(١) في قلائده قد أكل
أوباره والرجال قد شعثوا .
فقالوا له :

— اجلس فإنما أنت أعرابي ولا علم لك .
فعند ذلك غضب الحليس وقال :
— يا معشر قريش والله ما على هذا حالناكم ولا على هذا
عاقدناكم بصدد عن بيت الله من جاء معظما . والذي نفس الحليس بيده
لتخلن بين محمد وما جاء له أو لأنفرن بالأحايش نفرة رجل واحد .
كان الأحايش بنى الهون بن خزيمة وبنى الحارث بن عبد مناف بن
كنانة وبنى المصطلق بن خزيمة تحالفوا تحت جبل بأسفل مكة يقال
له حُبش هم وقريش على أنهم يد واحدة على من عاداهم ما سجا ليل
ووضح نهار ومارسا حبش ، فسموا أحايش قريش . فلما رأى سادات
قريش غضب سيد الأحايش قالوا له :

(١) الهدى : ما أهدى إلى مكة من الإبل ، والقلائد : ما يعلق في أعناقها
للدلالة على أنها هدى .

— مه يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .
ثم بعثوا إلى رسول الله — ﷺ — عروة بن مسعود الثقفي ، إنه
سمع قريشا توبخ بديلا ومن معه من خزاعة فقال :
— يا معشر قريش إني رأيت ما يلقي منكم من بعثتموه إلى محمد
إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى
ولد — وكان عروة لسبيعة بنت عبد شمس — وقد سمعت بالذي
نابكم فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي .
— صدقت ما أنت عندنا بمتهم .
فخرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — فجلس بين يديه ثم قال :
— يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك
لتفضيها بهم ؟ يا محمد أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد
من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإنها قريش قد خرجت معها العوذ
المطافيل^(١) قد لبسوا جلود النمر يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة
أبدا . وإني لأرى وجوها وأوشابا^(٢) من الناس خليقا أن يفسروا
ويدعوك ، وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا غدا عنك .
وأبو بكر جالس خلف رسول الله — ﷺ — فقال له :
— اعضض بظر اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟
وغضب عروة فاللات إلهة الطائف وهو سيد بني ثقيف ، وإنها
لكلمة تحط من شأنه وشأن معبوده فقال في حنق :

(١) المطافيل جمع مطفل وهي ذات الطفل .

(٢) أوشاب : الأوباش والأخلاق .

— من هذا يا محمد ؟

— هذا ابن أبي قحافة .

فقال عروة لأبي بكر :

— لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها .

هم عروة بأن يقول لأبي بكر كلمة غليظة يجيبه بها عن كلمته التي قذفها في وجهه . ولكنه لما علم أن القائل أبو بكر الصديق أمسك فقد كانت لأبي بكر يد عنده لم يجزه بها ، فقد استعان عروة في حمل دية فأعانه الرجل بالواحد من الإبل والرجل بالاثنين وأعانه أبو بكر بعشرة إبل شواب^(١) ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله — ﷺ — وهو يكلمه وهذه عادة العرب أن الرجل يتناول لحية من يكلمه عند الملاطفة .

وكان المغيرة بن شعبة واقفا على رأس رسول الله — ﷺ — ، وقد لبس درعه وغطت خوذته وجهه ولم يكن يبدو منه إلا عيناه — إنه يرى عروة وهو يتناول لحية رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — ولا يرى عليه السلام يصنع النظير بالنظير ، فجعل يقرع يد عروة إذا تناول لحية رسول الله — ﷺ — بنعل سيفه ويقول :
— اكفف يدك عن مس لحية رسول الله — ﷺ — فإنه لا ينبغي لمشارك ذلك .

فالتفت إليه عروة وقال :

— ويحك ما أفضلك وما أغلظك ، ليت شعري من هذا الذي آذاني

(١) شواب : جمع مفردة شابة .

من بين أصحابك ؟ والله إنى لا أحسب فيكم ألام منه ولا شر منزلة .
فتبسم — ﷺ — وقال :

— هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة .
— يا غدر والله ما غسلت عنك غدرتك بعكاظ إلا بالأمس ، وقد
أورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر .

كان المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك من
ثقيف صحبهم إلى مصر فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء إلى المدينة
فأسلم ، ولما قتلهم المغيرة تهايج الحيان من ثقيف رهط القتلى ورهط
المغيرة ، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر .
وراح رسول الله — ﷺ — يخبر عروة بن مسعود أنه لم يأت
لحرب . ورأى عروة ما يصنع به أصحابه إذا تكلم خفضوا أصواتهم
وإذا سقطت منه شعرة أسرعوا وأخذوها ولا يحدون إليه النظر تعظيما
له ، فلما عاد عروة إلى قريش قال لهم :

— يا معشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه
والنجاشى فى ملكه ، والله ما رأيت ملكا فى قومه قط مثل محمد فى
أصحابه . ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا فروا رأيكم فإنه عرض
عليكم رشدا ، فاقبلوا ما عرض عليكم فإنى لكم ناصح مع أنى أخاف
أن لا تنصروا عليه .

— لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور ولكن نرده عامنا هذا ويرجع إلى

قابل .

— ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة (١) .

(١) القارعة : الداهية المفاجئة .

ثم انصرف عظيم القريتين الذى عنته قريش بقولها ، ﴿ لولا نزل
هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ^(١) ، ومن معه إلى
الطائف . ودعا رسول الله — ﷺ — خراش بن أمية الخزاعي فبعثه
إلى قريش ، وحمله — ﷺ — على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ
أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقر عكرمة بن أبي جهل جمل رسول الله عليه
السلام ، وأراد القوم قتل خراش فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى
رسول الله — ﷺ — وأخبره بما لقى .

وبعث قريش أربعين رجلا منهم وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول
الله — ﷺ — ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا ، فأخذوا وأتى بهم
رسول الله — ﷺ — فعفا عنهم وخلي سبيلهم وكانوا رموا فى
العسكر بالحجارة والنبل .

لم يقدم المسلمون لحرب بل جاءوا لزيارة أول بيت وضع للناس ،
فلم يحملوا معهم عتاد الحرب اللهم إلا السيوف فى القرب ، وقد قال
عليه السلام لكل من جاءه من قبل قريش أنه لم يأت لقتال وإنما جاء
زائرا للبيت . وقد بعث إليهم خراش بن أمية الخزاعي على جمل له
ليقول لقريش إنه عليه السلام لم يأت لقتال فعقروا الجمل وأرادوا قتل
خراش لولا أن منعه الأحابيش ، فلو أنه جاء يبغي الهجوم على مكة
لوجد سببا للحرب فى عقر جمل رسوله ولكنه كان صادقا فى التماس
السلام ، فرأى أن يبعث إلى سادات قريش عمر بن الخطاب سفيرهم
فى الجاهلية فدعاه ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال عمر :

(١) الزخرف ٣١ .

— يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسي وما بمكة من بني
عدى بن كعب أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتى
عليها ، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني : عثمان بن عفان .
كان بنو أمية بنى عم عثمان وكانت لهم الكلمة العليا فى مكة ، فإن
كان عثمان قد أسلم وأصبح ذا النورين لزواجه من ابنتى رسول الإسلام
فالعصية القبلية لن تسمح بقتل عثمان وإلا لحق عار ذلك بينى أمية ،
فدعا رسول الله — ﷺ — عثمان بن عفان إلى أشراف قريش يخبرهم
أنه لم يأت لحرب وأنه لم يأت إلا زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمة ،
وأمر عثمان أن يأتى رجالا من المسلمين بمكة ونساء مسلمات ويدخل
عليهم ويشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله وشيك أن يظهر دينه بمكة حتى
لا يستخفى فيها بالإيمان .

وانطلق عثمان إلى مكة ، وجاء عشرة من الصحابة إلى رسول الله —
ﷺ — يستأذنون فى الدخول إلى مكة ليزوروا أهاليهم فأذن لهم ،
ولاحث لعثمان جبال مكة واستنشق عبير الأرض المقدسة فخفق قلبه
شوقا . ولقيه قبل أن يدخل أم القرى إبان بن سعيد بن العاص فأجاره
حتى يبلغ رسالة رسول الله — ﷺ .

وانقضى اليوم الأول والمسلمون فى الحديبية يترقبون سفارة
عثمان . وقال بعضهم :

— قد خلص عثمان إلى البيت فطاف به دوننا .

فقال رسول الله — ﷺ :

— ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون .

— وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه ؟

— ذلك ظنى به أن لا يطوف بالكعبة حتى تطوف ، لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف به حتى أطوف .

(٣)

كان سهيل بن عمرو وسادات قريش جالسين فى ظل الكعبة وتقدم عثمان بن عفان بين يدى إبان بن سعيد بن العاص ، فلما رأوه مدوا إليه أعينهم وقد لاح فى الوجوه تساؤل فقال إبان :
— إبنى قد أجرته حتى يبلغ رسالة محمد .

واربد وجه عكرمة بن أبى جهل فهو لا يريد سلاما بل حربا لرسول الله — ﷺ — ومن جاء معه من المهاجرين والأنصار ، وشرذ خالده ابن الوليد يفكر فى تلك الصلاة التى صلاها المسلمون بالعصر بعد أن قال لما شهد صلاة الظهر : « قد كانوا على غرة ، لو حملنا عليهم أصبنا منهم ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم » . وأتت الساعة وصلى أبو القاسم بأصحابه صلاة الخوف وقال المشركون : لقد أخبروا بما أردنا بهم ، ومنذ ذلك الوقت حفر ذلك القول فى وجدان خالد وجعله يفكر فى كل ما قاله محمد بن عبد الله فاتضحت لعين بصيرته بعض جوانب الحقيقة حتى كاد يصدق أن أبا القاسم يأتيه الخبر من السماء .

وراح عثمان بن عفان يبلغهم عن رسول الله — ﷺ — ما أرسله به وخالد يصغى فى انتباه وأصوات تصيح :
— إن محمدا لا يدخلها علينا أبدا .

فيضيق بتلك الأصوات ويرهف السمع إلى قول عروة بن مسعود قبل أن ينصرف ومن معه إلى الطائف : « يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه ، والله ما رأيت ملكا في قومه مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا فروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشدا فاقبلوا ما عرض عليكم فأني لكم ناصح ، مع أني أخاف ألا تنصروا عليه » .

إن صراعا قد نشب في جوف خالد ، ولو أصاخ السمع لصوت العقل لهب من مجلسه ولأعلن على الملأ أنه يرى رأى عروة بن مسعود وأنه من الظلم أن يصد إنسان عن بيت الله الحرام ما دام لم يأت إلا زائرا للبيت ومعظما له ، ولكنه أشاح عن صوت عقله لما فرغ عثمان بن عفان من تبليغ رسالة أبي القاسم ولما ارتفع صوت إبان بن سعيد بن العاص يقول لعثمان :

— إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

وألقي خالد سمعه إلى عثمان فلما سمعه يقول :

— ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله — ﷺ .

فعاد خالد بن الوليد يفكر في الإسلام ونبي الإسلام فيستشعر كأن أنوارا تنداح في عين ذاته تبدد ما ران عليها من ظلمات .

ومرت أيام ثلاثة ولم يعد عثمان بن عفان من سفارته ، فانتاب المسلمين قلق وراح المهاجرون والأنصار يتساءلون عما أصاب عثمان ، وكان الجد بن قيس في الأنصار وكان سيد بني سلمة في الجاهلية ، فلما هاجر رسول الله عليه السلام إلى المدينة قال عليه السلام لبني سلمة :

— من سيدكم ؟

قالوا :

— الجعد بن قيس على بخل فيه .

— وأى داء أدوا من البخل ؟

ثم قال — ﷺ :

— بل سيدكم عمرو بن الجموح .

وراض الجعد بن قيس قلبه على النفاق فكان يبدى بلسانه ما ليس في قلبه ، وكان عبد الله بن أبي بن سلول في القوم فكان يحاول في دهاء أن يفت في عضد المسلمين وأن يجعلهم ينفضون من حول رسول الله عليه السلام ، لقد بعثت قريش إلى أبي بن سلول :

— إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل .

فقال له ابنه عبد الله :

— يا أبت أذكرك الله أن لا تفضحننا في كل موطن . تطوف ولم

يطف رسول الله — ﷺ ؟ !

فأبى حينئذ رأس المنافقين وقال :

— لا أطوف حتى يطوف رسول الله .

ومر بالمسلمين ناس من المشركين يريدون العمرة فقال

المسلمون :

— نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حُلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُنَا أَنْ

صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب (١) .
فتركوهم ينطلقون إلى بيت الله حتى إذا ما أذن بلال بصلاة الظهر توجهوا إلى القبلة يصلون خلف رسول الله — ﷺ ، فلما قضيت الصلاة ذهبوا يلتمسون الظل ، وتمدد رسول الله تحت شجرة الطلع وإذا برجل جاء إليه يسعى ويقول :

— قتل عثمان بن عفان .
فهب رسول الله — ﷺ — من رقاذه وقال :
— لا نبرح حتى نناجز القوم .
والتفت عليه السلام إلى من عنده وقال :
— إن الله أمرني بالبيعة .

فبينما الناس جلوس قائلون إذ نادى عمر بن الخطاب :
— أيها الناس البيعة نزل بها روح القدس ، فاخرجوا على اسم الله .
فساروا إلى رسول الله — ﷺ — وهو تحت شجرة قد قام على رأسه عبد الله بن مغفل وفي يده غصن من السحرة (٢) يذب عنه ، ولم يتخلف منهم أحد إلا الجعد بن قيس فقد التصق بإبط ناقته يستتر بها من الناس !
وكان أول من بايعه — ﷺ — سنان بن أبي سنان الأسدي ،
فوضع يده على يده عليه السلام وقال :
— أبايحك على ما في نفسك .

(٢) السحرة : شجر الطلع .

(١) المائدة ٢ .

— وما فى نفسى ؟

— أضرب بسيفك بين يديك حتى يظهر لك الله أو أقتل .

وصار الناس يقولون له :

— نبايعك على ما بايعك عليه سنان .

وبايعهم عليه السلام على ألا يفروا ، وبايع عن عثمان فوضع يده

اليمنى على يده اليسرى وقال :

— اللهم إن عثمان ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله فأنا أبايع

عنه .

وراح الناس يتحدثون عن قتل العشرة الذين دخلوا مكة بإذن رسول

الله عليه السلام حتى جن الليل وقام محمد بن مسلمة على حرس

رسول الله — ﷺ ، فبعثت قريش خمسين رجلا عليهم مكرز بن

حفص وهو الذى بعثت قريش له — ﷺ — ليسأله فيما جاء وقال —

ﷺ — فى حقه : هذا رجل غادر، فراحوا يطوفون بعسكر رسول الله

رجاء أن يصيبوا منهم أحدا ويجدوا منهم غرة ، فلأخذهم محمد بن

مسلمة إلا مكرزا فإنه أفلت ، وأتى بهم إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم — فحبسوا .

وبلغ قريش حبس أصحابهم فجاء جمع منهم حتى رموا المسلمين

بالنبل والحجارة ، وقتل من المسلمين ابن زنيمرمى بسهم فأسر

المسلمون منهم اثنى عشر رجلا. وعند ذلك بعثت قريش إلى رسول

الله — ﷺ — جمعا على رأسهم سهيل بن عمرو فعلم أن عثمان قد

حبس وكذلك العشرة الرجال ، فاطمأن المسلمون على أصحابهم

وقال رسول الله — ﷺ — لمن حبسوا عنده :

— سهيل أمركم ؟

فقال سهيل :

— يا محمد إن الذى كان من حبس أصحابك وما كان من قتال من قاتلك لم يكن من رأى ذوى رأينا ، بل كنا كارهين له حين بلغنا ولم نعلم به وكان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أولا وثانيا .

— إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابي .

— نفعل .

فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بذلك فبعثوا بمن كان عندهم وهم عثمان والعشرة الرجال ، وأسرع المسلمون إلى عثمان يستقبلونه بالترحاب وقالوا له :

— طفت بالبيت ؟

فقال عثمان في عتاب :

— بئسما ظننتم لي ، دعني قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت .
والذى نفسى بيده لو مكثت بها معتمرا سنة ورسول الله — ﷺ —
مقيم بالحديبية ما طفت حتى يطوف رسول الله — ﷺ — .

وأنزل الله تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

وعلمت قريش بهذه البيعة فخافوا وراحوا يتشاورون في أمرهم

وتمنوا لو أن أبا سفيان بن حرب كان فيهم ليرجعوا إليه ، ولم يجدوا خيرا من الصلح فقالوا لسهيل بن عمرو :
— إيت محمدا فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا .

فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله ﷺ — قال :
— قد سهل أمركم ، القوم مأتون إليكم بأرحامهم وسائلوكم الصلح ، فابعثوا الهدى وأظهروا التلبية لعل ذلك يلين قلوبهم .
فلبوا من نواحي العسكر حتى ارتجت أصواتهم بالتلبية ، وانتهى ابن سهيل عمرو ومكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى إلى رسول الله ﷺ — وجثا سهيل على ركبته بين يديه — ﷺ — والمسلمون حوله جلوس وتكلم فأطال ، وقال له — ﷺ :
— تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به .
فقال له سهيل :

— والله لا تتحدث العرب بنا أنا أخذنا ضُغطة (أى بالشدة والإكراه) .

ثم جرى الصلح بينهما ، فلما التأم ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب إلى أبي بكر الصديق فقال :

— يا أبا بكر أليس برسول الله ﷺ — حقا ؟

— بلى .

— أولسنا بالمسلمين ؟

— بلى .

— أوليسوا بالمشركين ؟

- بلى .
- فعلام نعطيهم الدنية^(١) فى ديننا ؟
- أيها الرجل إنه رسول الله وليس نعصى رأيه فاستمسك بغرزه^(٢) حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق .
- أوليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت نطوف به ؟
- بلى ، أفأخبرك أنك تأتیه العام ؟
- لا .
- فإنك آتیه ومطوف به .
- ثم جاء عمر إلى رسول الله — ﷺ — فقال :
- أأنت رسول الله ؟
- بلى .
- ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟
- بلى .
- فلم نعطي الدنية فى ديننا إذا ؟
- إني عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى .
- أأنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟
- بلى ، هل أخبرتك أنك تأتیه العام ؟
- لا .
- فإنك آتیه ومطوف به .

(١) الدنية : الخصلة الخسيسة .

(٢) فاستمسك بغرزه : أى تمسك بأمره فلا تخالفه . والغرز للإبل بمنزلة الركاب للفرس .

(٤)

كانت قريش تأبى أن تلقى أسماها إلى محمد ﷺ ، إنها اضطهدته منذ جاء إليهم من غار حراء يقول لهم إنه رسول الله إليهم . نال منه الرجال وأذوه واضطهدوا أصحابه أشد الاضطهاد وأرغموه أن يخرج من مكة هو وغلამه زيد بن حارثة فلجأ إلى الطائف فراحوا يرضخون رجله بالحجارة حتى سالت الدماء في طريق الآلام .

إنه ما عاد إلى مكة إلا في جوار سيد من ساداتها ، ولم يطل مكثه بها فقد اضطر إلى أن يهاجر إلى المدينة وأن يترك أم القرى وفي القلب لوعة فهو يغادر أحب أرض الله إليه . ولم ترض قريش عن هذه الهجرة فنشب القتال بينها وبين المهاجرين والأنصار لا يخبو له أوار ، وقد كان أمل قريش أن تقضى على ابنها الذي سفه أحلام الآباء .

كانت قريش تطلب رأسه وإذا بها اليوم تقبل أن تجلس معه لتهادنه ، إن الفرق بين اليوم والأمس فرق معجز ، وإنه لنصر عظيم أن تقر قريش بزعامته على المدينة ولكن المسلمين المعتزين بإسلامهم ما كانوا يرون في معاهدة قريش نصرا .

تم الاتفاق شفاهة على ألا يدخل المسلمون مكة هذا العام ويعودوا من حيث أتوا إلى العام القابل ، وعلى أن تخلي لهم قريش مكة ثلاثة أيام يطوفون فيها بالبيت الحرام ، وعلى أن لا يحملوا معهم سوى سلاح الراكب السيوف في القرب ، وعلى أن يتهادن الطرفان ويكفا عن

الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وأمر رسول الله ﷺ — أوس بن خولة أن يكتب فقال له سهيل :
— لا يكتب إلا ابن عمك أو عثمان بن عفان .
فدعا عليه السلام علي بن أبي طالب فأمره فقال :
— اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل بن عمرو :
— لا أعرف هذا ولكن اكتب : باسمك اللهم .
قال المسلمون :

— والله لا يكتب إلا باسم الله الرحمن الرحيم .
وضح المسلمون فقال رسول الله ﷺ :
— اكتب باسمك اللهم .

فكتبها ، ثم قال عليه السلام :
— اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو .
فقال سهيل :

— والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا
قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .
فقال رسول الله ﷺ :

— والله إني لرسول الله ولو كذبتهموني .
ثم قال لعلي :

— امح رسول الله .

— والله لا أمحوك أبدا .

وأخذ أسيد بن حضير وسعد بن عبادۃ بيد على كرم الله وجهه
ومنعه أن يكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيننا وبينهم .
وضجت المسلمون وارتفعت الأصوات وجعلوا يقولون :

— لم نعطي هذه الدنيا في ديننا ؟

فجعل رسول الله ﷺ — يخفضهم ويومئ بيده إليهم أن
اسكتوا ، ثم قال لعلي :
— أرنيه .

فأراه إياه فمحا رسول الله ﷺ — بيده وقال :

— اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ،
اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس
ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد
حاجا أو معتمرا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على نفسه وماله ، ومن
قدم المدينة من قريش مجتازا إلى مصر أو الشام يبتغي من فضل الله فهو
آمن على دمه وماله ، وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه
رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه .

فاشتد ذلك على المسلمين وقالوا :

— سبحان الله ! كيف نرد للمشركين من جاء مسلما ؟

وعسر عليهم شرط ذلك ، وقال عمر في انفعال :

— يا رسول الله أتكتب هذا ؟ أترضى بهذا ؟

فتبسم — ﷺ — وقال :

— من جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا ،

ومن أعرض عنا وذهب إليهم فلسنا منه فى شىء وليس منا بل هو أولى بهم .

فبينا رسول الله — ﷺ — هو وسهيل بن عمرو يكتبان الكتاب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين يرسف فى الحديد متوشحا سيفه . انه كان قد أسلم وحبسه أبوه فلما سمع بأن المسلمين فى الحديدية فر من معجته وجاء إلى رسول الله — ﷺ — ورمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فخف إليه أخوه عبد الله بن سهيل بن عمرو من صفوف المسلمين وراح يحتضنه ويقبله ، وهرع المسلمون إليه يرحبون به ويهنئونه . فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل قام إليه وأخذ غصنا من شجرة به شوك وضرب به وجه أبى جندل ضربا شديدا حتى رق عليه المسلمون وبكوا ، وأخذ سهيل بتلايب ابنه وقال :

— يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلّى ، لقد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا ؟

— لم نفض الكتاب بعد .

— بل لقد لجت القضية بينى وبينك (أى تم العقد) .

— صدقت .

فجعل سهيل يجره ليرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته :

— يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنونى عن دينى ، ألا ترون ما لقيت ؟

ورأى المسلمون آثار التعذيب ، إنه اضطهد ليرجع عن الإسلام وإن رسول الله — ﷺ — يقبل أن يردّه إلى قريش ليعذبه ، فزاد

الناس ذلك إلى ما بهم ودخلهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ، فقال رسول الله ﷺ :

— يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم ذلك وأعطيناهم عهد الله ألا نغدر بهم .

وقال النبي ﷺ — لسهيل :

— فأجره لى .

— ما أنا مجير ذلك لك .

— بلى فافعل .

— ما أنا بفاعل .

فقال مكرز وحويطب :

— قد أجرناه لك ، لا نعذبه .

وقال حويطب لمكرز :

— ما رأيت قوما قط أشد حبا لمن دخل معهم من أصحاب

محمد ، أما إني أن أقول لك : لا تأخذ من محمد نصفا أبدا بعد هذا

اليوم حتى يدخلها عنوة .

فقال مكرز :

— وأنا أرى ذلك .

وعند ذلك وثب عمر بن الخطاب ومشى إلى جنب أبي جندل وأبوه

سهيل بجنبه يدفعه ، وصار عمر يقول لأبي جندل :

— اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم كدم

كلب .

وراح يدنى قائم السيف منه وهو يرجو أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، فطن الرجل بأبيه .

ودخل أبو جندل مكة في جوار حويطب ومكرز ، وعاد سهيل ليستأنف كتابة الهدنة فقال النبي — ﷺ :

— وإن بيننا عيبة^(١) مكفوفة ، وإنه لا إسلال ولا أغلال^(٢) . وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه . فتواثبت خزاعة فقالوا :

— نحن في عقد محمد وعهده ونحن على من وراءنا من قوما . وتواثبت بنو بكر فقالوا :

— نحن في عقد قريش وعهدهم .

وهمس حويطب في أذن سهيل :

— بادأنا أخوالك بالعداوة وكانوا يستترون منا فدخلوا في عهد محمد وعقده .

وفهم سهيل أنه يقصد خزاعة فقال في صوت خافض :

— ما هم إلا كغيرهم . هؤلاء أقاربنا ولحمتنا قد دخلوا مع محمد . قوم اختاروا لأنفسهم أمرا فما نصنع بهم ؟

— نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بنى بكر .

— إياك أن تسمع هذا منك بنو بكر فإنهم أهل شؤم فيسبوا خزاعة فيغضب محمد لحلفائه فينقض العهد بيننا وبينه .

فقال رسول الله — ﷺ :

(١) أى أمورا مطوية في صدور سليمة . (٢) أى لا سرقة ولا خيانة .

— وعلى أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به .

فقال سهيل :

— والله لا تتحدث العرب أنك أخذتنا ضغطة ولكن لك ذلك من العام المقبل .

فكتب : وعلى أن ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا ، ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف في القرب وسلاح الراكب .

ولقى عمر من تلك الشروط أمرا عظيما ، وجعل يرد على رسول الله ﷺ — الكلام حتى قال أبو عبيدة بن الجراح : — ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله ﷺ — يقول ما يقول ؟ تعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

فجعل يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم حتى قال له رسول الله ﷺ —

— يا عمر إني رضيت وتأبى !

وفرغ رسول الله ﷺ — من الصلح وأشهد عليه رجالا من المسلمين : أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة ورجالا من قريش حويطبا ومكرزا .

وقال سهيل بن عمرو :

— يكون هذا الكتاب عندي .

وقال رسول الله ﷺ —

— بل عندي .

فأخذه رسول الله — ﷺ ، ثم كتب محمد بن مسلمة لسهيل نسخة أخذها عنده .

كان جمل أبى جهل فى الهدى فى رأسه حلقة من ذهب ، ففر من الحديبية ودخل مكة وانتهى إلى دار أبى جهل . وخرج فى أثره عمرو ابن غنمة الأنصارى فأبى ، سفهاء مكة أن يعطوه حتى أمرهم سهيل بن عمرو بدفعه ، قال :

— إن تردوه فاعرضوا على محمد مائة من الإبل فإن قبلها فأمسكوا هذا الجمل ، وإلا فلا تتعرضوا له .

فعرضوا عليه — ﷺ — ذلك فأبى وقال :

— لو لم يكن هذا الجمل للهدى لقبلت المائة .

كان أصحاب رسول الله — ﷺ — خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح بعد أن قص عليهم رؤياه ، فلما انتهى الأمر بالهدنة دخل الناس أمر عظيم ، فلما قال عليه السلام لأصحابه :

— قوموا فأنحروا ثم احلقوا .

لم يقم منهم أحد فعاد يقول :

— قوموا فأنحروا ثم احلقوا .

إنهم يسمعونهم ويرونه ولكنهم أبوا أن يطيعوا أمره ، فقال :

— قوموا فأنحروا ثم احلقوا .

فلم يقم منهم أحد ، فدخل رسول الله — ﷺ — على أم سلمة

وهو شديد الغضب فاضطجع فقالت :

— مالك يا رسول الله ؟

— عجباً يا أم سلمة ، ألا ترين إلى الناس ! أمرهم بالأمر فلا

يفعلونه ، قلت لهم : اخلقوا وانحروا وحلوا مرارا فلم يجبنى أحد من الناس إلى ذلك وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي .

— يا رسول الله لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح . يا نبي الله اخرج ولا تكلم منهم أحدا كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو خلقتك فيخلقك .

وأخذ عليه السلام الحربة وقصد هديه وأهوى بالحربة إلى البدن رافعا صوته :

— باسم الله والله أكبر .

ثم دخل — ﷺ — قبة له من آدم^(١) أحمر ودعا بخراش بن أمية بن الفضل الخزاعي فخلق رأسه .

فلما رأى الناس ذلك قاموا فَنَحَرُوا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما ، وحلق رجال وقصر رجال وهم يقولون :

— لعلنا نطوف بالبيت .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— يرحم الله المحلقين .

قالوا :

— يا رسول الله والمقصرين ؟

— يرحم الله المحلقين .

— يا رسول الله والمقصرين ؟

(١) آدم : الجلد .

- يرحم الله المحلقين .
- يا رسول الله والمقصرين ؟
- يرحم الله المقصرين .
- يا رسول الله فلم ظهرت الترحم على المحلقين دون المقصرين .
- لأنهم لم يشكوا .

(٥)

غابت الشمس فى الأفق الغربى وراح الليل يجرجر أذياله على الحديدية ، وقبل أن يؤذن بلال بالعشاء أصابهم مطر لهم ييل أسفل نعالهم فقال عبد الله بن أبي بن سلول :

— هذا نوء الخريف مطرنا بالشعرى .

وحان أوان العشاء فارتفع صوت بلال بالأذان فأمر — ﷺ — مناديه أن ينادى ألا صلوا فى رحالكم ، فصلى عليه السلام فى قبته وصلى الناس فى خيامهم وقد توجهوا إلى البيت الحرام وفى القلوب أشواق وفى النفوس أحزان . فقد خرجوا من المدينة لا يشكون لحظة فى أنهم سيطوفون بالبيت فإذا برسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يقبل ذلك الشرط الذى اشترطته قريش من أن يرجع عنهم عامه هذا فلا يدخل عليهم مكة ، فإذا كان عام قابل خرجوا عنها له فدخلها بأصحابه فأقام بها ثلاثا .

كان عزيزا عليهم أن يصلوا إلى الحديدية وأن يشموا عبير الحرم ثم

يدوروا على أعقابهم راجعين دون أن تكتحل أعينهم بتراب مكة وأن يطوفوا بالبيت وأن يشربوا من زمزم وأن يسعوا بين الصفا والمروة ، فكانوا في يقظتهم وفي منامهم يحلمون باستلام الحجر والطواف والتكبير والتهليل .

وفي الفجر جلجل صوت بلال بالأذان فخرجوا من رحالهم واصطف خلف رسول الله — ﷺ — حتى إذا قضيت الصلاة قال :

— أتدرون ما قال ربكم ؟

— الله ورسوله أعلم .

— قال الله عز وجل : (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا برحمة الله وفضله فهو مؤمن بي وكافر بالكواكب ، ومن قال مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بي) .

وأحس عبد الله بن أبي وخزا يخز روحه ولكنه لم يضطرب ، فيا طالما نافق ويا طالما قال لرسول الله — ﷺ — استغفر لي فيستغفر له .

وأمر رسول الله عليه السلام بالرحيل فحملت الخيام على ظهور الإبل ورفعت النساء في الهوداج ، وانطلق جيش المسلمين قاصدا المدينة وقد خلف وراءه شجرة الرضوان وذكريات أليمة على النفوس ، وقد كان أقساها أنهم طووا ملابس الإحرام دون أن يطوفوا بالبيت العتيق .

وظل الناس صامتين في وجوههم أسي ، فقد حيل بينهم وبين نسكهم فهم بين الحزن والكآبة حتى سقط الليل ، ودنا عمر بن الخطاب من رسول الله — ﷺ — فسأله عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فحرك عمر بعيره حتى تقدم أمام الناس وخشى أن يكون نزل فيه قرآن .

وبلغ رسول الله — ﷺ — كراع الغميم فوقف على راحلته فراح
الناس ينشطون رواحلهم بالحداء ، فقال بعض الناس لبعض :
— ما بال الناس ؟

— أوحى إلى رسول الله — ﷺ .

فخرجوا يغذون^(١) السير فوجدوا النبي — ﷺ — واقفا على
القصواء ، فلما اجتمع إليه الناس قرأ :

﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما
تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما * وينصرك الله نصرا
عزيزا * هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع
إيمانهم والله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما * ليدخل
المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها
ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما * ويعذب
المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء
عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت
مصيرا * والله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما * إنا
أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه
وتسبحوه بكرة وأصيلا * إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق
أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله
فسيؤتيه أجرا عظيما . سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا

(١) أغذ السير : أسرع فيه .

وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك
لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما
تعملون خبيرا ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم
أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا * ومن
لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيرا * والله ملك السموات
والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما *
سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا تتبعكم يريدون
أن يعدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل
تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا * قل للمخلفين من الأعراب
ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا
يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا
أليما * ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض
حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن
يتول يعذبه عذابا أليما * لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت
الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا *
ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما * وعدكم الله مغانم
كثيرة تأخذونها فغفل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية
للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما * وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط
الله بها وكان الله على كل شىء قديرا * ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا
الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا * سنة الله التى قد خلت من قبل ولن
تجد لسنة الله تبديلا * وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم
ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا * هم

الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ
مِجْلَهُ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم
فتصيبكم منهم مَعْرَةٌ بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تَزَيَّلُوا
لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم
الْحِمِيَّةَ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ
وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيماً * لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالْحَقِّ لِنُدْخُلَ فِيهِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ
شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا
فَجَعَلَ مِنْ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ
فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ
فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ
فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ يَعِجِبُ الزَّارِعُ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴿١﴾ .

فقال عمر :

— أوفتح هو يا رسول الله ؟

— نعم والذي نفسى بيده إنه لفتح .

وتكلم بعض الصحابة وقال :

— ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت وصد هدينا .

فقال — ﷺ — لما بلغه ذلك :

— بئس الكلام بل هو أعظم الفتح . لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالبراح عن بلادهم وسألوكم القضية ويربحوا إليكم في الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم الله سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح .

أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون ؟
فقال المسلمون :

— صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتوح ..

وقدم رسول الله — ﷺ — المدينة ، وما كاد يستقر بها حتى هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أسلمت بمكة وبايعت قبل أن يهاجر رسول الله — ﷺ . إنها عرفت أن رسول الله عليه السلام أمر بقتل أبيها يوم بدر فلم تحقد على نبي الإسلام فقد كانت تعرف أنه على الحق وأن أباهما على الباطل ، فلم تأخذها العزة بالإثم بل ظلت وفية لدينها الذي انشرح له صدرها واطمأن له فؤادها .

إنها سمعت بالمسلمين في الحديبية فهزها الشوق إلى الخروج إلى إخوانها المسلمين فخرجت من مكة لتلحق بالأحبة ، ولكنها بلغت الحديبية بعد أن تركها رسول الله عليه السلام ، فلم ترض بالعودة إلى المشركين بل راحت تشتد على الطريق وحدها وقد تورمت قدمها من المشى ولكنها كانت تقاوم التعب ، فكل خطوة كانت تدنيها من النور

الذى شع من المدينة ليغمر العالمين .

إنها أخت عثمان بن عفان لأمه ، فلما بلغت المدينة لم تفكر فى أن تذهب إلى دار أخيها بل اتجهت إلى نبع النور إلى دور الرسول عليه السلام ، ودخلت على أم سلمة وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وراحت تبثها مخاوفها أن يردها رسول الله ﷺ .

فلما دخل ﷺ — على أم سلمة أعلمته بها فرحب بأم كلثوم ، فخرج أخوها عمار بن عقبة والوليد بن عقبة بن أبى معيط فى ردها بالعهد ، فلما دخلا على رسول الله عليه السلام قالا :
— يا محمد أوف لنا بما عاهدتنا عليه .

ودخل عليه السلام على أم سلمة وعندها أم كلثوم فأخبرها أن أخويها يطلبان ردها بالعهد الذى بينه وبين قريش ، فقالت بنت عقبة :
— يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف فتردنى إلى الكفار يفتنونى ولا صبر لى .

وخرج رسول الله ﷺ — من عندها وهو فى حيرة من أمره أيردها إلى الكفار ليفتنوها ولا صبر لها على إيذائهم أم يحبسها عنهم ، وفيما هو يفكر نزل عليه الروح الأمين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴿١﴾ .

ودخل عمر بن الخطاب ليمتحن أم كلثوم بنت عقبة فحلفها بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت لالتماس دنيا ولا رجل من المسلمين ، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله .

وحلفت أم كلثوم فقطعت كل أمل يداعب أخويها فى ردها فعادا إلى مكة وأنخبرا قريشا بذلك فرضوا أن تحبس النساء ، ولم يكن لأم كلثوم زوج بمكة . فلما قدمت المدينة زوجها عليه السلام زيد بن حارثة ولم تثر هذه الزيجة زوبعة بين المؤمنين ، بعد أن زوج نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه مولاه من ابنة عمته الشريفة النسب زينب بنت جحش . فقد قضى الإسلام على عادة استهجان زواج المولى من الحرة وغرس فى النفوس أن الناس سواسية وأن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

أمر الله المسلمين بألا يمسكوا بعصم الكوافر : فلما نزل نهى المسلمين عن البقاء على نكاح المشركات طلق الصحابة كل امرأة كافرة فى نكاحهم ، حتى أن عمر بن الخطاب كان له امرأتان فطلقهما فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان والأخرى صفوان بن أمية .

وجاءت إلى رسول الله ﷺ — جماعة من النساء المؤمنات مهاجرات من مكة من جملتهن سبيعة بنت الحارث ، فأقبل زوجها وهو مسافر المخزومي طالبا لها ، فاستحلف ﷺ — سبيعة

فحلفت أنها ما هاجرت ناشزة ولا هاجرت إلا لله ولرسوله ،
فأعطى — ﷺ — زوجها مسافرا ما أنفق عليها فتزوجها عمر بن
الخطاب ، فما كانت تترك امرأة مؤمنة في المدينة دون أن تحصن .

(٦)

خرج — ﷺ — على أصحابه فقال :
— أيها الناس إن الله بعثنى رحمة وكافة فأدوا عني رحمكم الله ،
ولا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم عليه
السلام .

فقال أصحابه :

— وكيف اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام يا رسول
الله ؟

— دعاهم لمثل ما دعوتكم له ، فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضى
وسلم ، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وأبى .

وكتب — ﷺ — كتابا إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام فقبل له :

— يا رسول الله إنهم لا يقرءون كتابا إلا إذا كان مختوما .

فاتخذ رسول الله — ﷺ — خاتما من فضة ، وكان نقش خاتمه

ثلاثة أسطر محمد سطر ورسول سطر والله سطر . وبعد أن ختم

الكتاب قال :

— من ينطلق بكتابي هذا فيسير إلى هرقل وله الجنة ؟

فتقدم دحية الكلبي وأخذ الكتاب ثم انطلق إلى بصرى فإذا بالرومان

والعرب يموج بعضهم فى بعض فى الأسواق وفى الطرق وفى كل مكان ، فإن هرقل قد انتصر على فارس وقد جاء ماشيا إلى بيت المقدس وفاء لنذره الذى نذره لربه إذا ما نصره الله .

كان النسر الرومانى يرفرف على الدور وعلى الحوانيت وعلى مباني الحكومة ، وكانت الأسواق غاصة بالسلع التى جاءت من القسطنطينية ومصر وسورية واليمن ، وكان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وسادات قريش فى غزة عاكفين على شراء الحنطة والخمور والحرير وأوانى الذهب والفضة بعد أن باعوا البخور وما جلبوه من اليمن فى رحلة الشتاء .

وانطلق دحية إلى الحارث ملك غسان عظيم بصرى والتمس مقابلة قيصر ، فأرسل معه عدى بن حاتم ليوصله إلى قيصر فانطلقا إلى القيصر العظيم بيت المقدس ، فلما دخلا على رجال القصر قالوا لدحية : — إذا رأيت الملك فاسجد له ثم لا ترفع رأسك أبدا حتى يأذن لك .

— لا أفعل هذا أبدا ولا أسجد لغير الله .

— إذًا لا يأخذ كتابك .

وشردوا يفكرون فقال رجل منهم :

— أنا أدلك على أمر يؤخذ فيه كتابك ولا تسجد له .

— وما هو ؟

— إن له على كل عتبة منبرا يجلس عليه ، فضع صحيفةك تجاه

المنبر فإن أحدا لا يحركها حتى يأخذها هو ثم يدعو صاحبها .

فدخل دحية إلى قاعة العرش حيث ينظر هرقل المظالم ، فوضع

كتاب رسول الله — ﷺ — تجاه المنبر وعينه عليه لا تفارقه ، فلما جاء قيصر ومن خلفه من عظماء مملكته ورأى الكتاب تناوله وراح يقلبه وينظر فيه فوجد عليه عنوان كتاب العرب ، فدعا صاحبه فتقدم دحية الكلبي وقال إنه كتاب من محمد رسول الله — ﷺ — إلى قيصر العظيم .

فدعا هرقل الترجمان الذى يقرأ بالعربية فقرأ الرجل الرسالة وأخذ يترجمها ودحية الكلبي ينظر إلى قسمات وجه قيصر وقد حبست أنفاسه ، حتى إذا ما انتهى الترجمان من الرسالة قال هرقل :
— انظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه .

كان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام ورجال من قریش فى غزوة فأتاهم والى شرطة قيصر فانطلق بهم حتى قدموا عليه فى بيت المقدس ، فإذا هو جالس وعليه التاج وعظماء الروم حوله ، فلما رأوه خروا له ساجدين ولم يرفعوا رءوسهم حتى أذن لهم .
ودعا قيصر ترجمانه وأمره أن يقرأ كتاب النبى — ﷺ — فراح الرجل يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (فلاحى القرى) ، ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون^(١) .

(١) آل عمران ٦٤ .

وقال قيصر لترجمانه :

— سلهم أيهم أقرب نسبا لهذا الرجل الذى خرج بأرض العرب

يزعم أنه نبي ؟

فقال أبو سفيان :

— أنا أقربهم نسبا إليه .

— ما قرابتك منه ؟

— هو ابن عمى .

— ادن .

ثم أمر أصحابه فجعلوا خلف ظهره ، ثم قال لترجمانه :

— قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل

الذى يزعم أنه نبي وإنما جعلتكم خلف ظهره لتردوا عليه كذبا إن قاله .

كان حكيم بن حزام ممن جلس خلف أبي سفيان وكان قد عزم

على أن يرد كذب أبي سفيان إذا لجأ إلى الكذب ، فمحمد بن عبد الله

زوج عمته خديجة الأثيرة عنده . فإن كان قلبه قد عمى عن النور الذى

جاء به ابن عبد الله فقد أبى ضميره أن يسمع عنه كذبا ثم يلزم

الصمت . وخاف أبو سفيان أن يؤثر عنه الكذب ، ولولا أن ينقل عنه

الكذب إلى قومه ويتحدثوا به فى بلاده لكذب عليه لبغضه إياه ومحبه

نقصه .

ثم قال هرقل لترجمانه :

— كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟

— هو منا ذو نسب .

— قل له هل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟

(صلح الحديبية)

— لا .

— قل له هل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل أن يقول ما قال ؟

— لا .

— هل كان من آباءه ملك ؟

— لا .

— كيف عقله ورأيه ؟

— لم نعب عليه عقلا ولا رأيا قط .

— فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفائهم ؟

— بل ضعفائهم .

— فهل يزدون أم ينقصون ؟

— بل يزدون .

— فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟

— لا .

— فهل يغدر إذا عاهد .

— لا ، ونحن الآن منه في ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

— فهل قاتلتموه ؟

— نعم .

— فكيف حربكم وحربه ؟

— دول وسجال ، ندال عليه مرة ويدال علينا أخرى .

— فما يأمركم به ؟

— يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وينهانا عما كان

يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والزكاة والعفاف ، ويأمرنا بالعهد وأداء الأمانة .

فقال لترجمانه :

— قل له إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل هذا القول قاله أحد منكم قبله فزعمت أن لا ، فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت هو يأتي بقول قبله ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان من آبائه ملك فقلت لا ، فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل يزيدون أو ينقصون فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فزعمت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب إذا حصل به انشراح الصدور والفرح به لا يسخطه أحد ، وسألتك هل قاتلتموه قلت نعم وإن حربكم وحربه دول وسجال يدال عليكم مرة وتداول عليه أخرى . وكذلك الرسل تبلى ثم تكون لها العاقبة ، وسألتك ماذا يأمركم به فزعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدقة ، والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر لأنها لا تطلب حظ الدنيا الذي لا يناله طالبه إلا بالغدر فعلمت أنه نبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه فيكم . وإن كان ما حدثني به حقا فيوشك أن يملك موضع قدمي .

وشرد هرقل لحظة تذكر خلالها تلك النبوءة التي قالها له المنجمون وهم يرتجفون فرقا : سيرث ملكك شعب مختون . كان يظن أن اليهود ذلك الشعب فصب عليهم سوط عذاب ، وما دار بخلده أبدا أن العرب هم ذلك الشعب فقد كانوا أهون من ذلك لولا أن شرفهم الله بالرسالة التي رفعتهم من الحضيض إلى ذروة المجد .

ثم قال قيصر في تواضع :

— ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت مع المشقة لقيه ، ولو كنت عنده لغسلت عند قدميه ولا أطلب منه ولاية ولا منصبا .

وعلت أصوات الذين حوله وكثر لفظهم ، وأكثر ابن أخي قيصر الغيظ الشديد . إنه قال لعمه يوم أن جاءه كتاب رسول الله عليه السلام :

— قد ابتدأ بنفسه وسماك صاحب الروم ، ألق به .

فقال له هرقل وكان رجلا متدينا حارب الفرس ليعيد الصليب المقدس إلى بيت المقدس ، وحج ماشيا من القسطنطينية إلى المدينة المباركة :

— والله إنك لضعيف الرأي ، أرمى بكتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر وهو أحق أن يبدأ بنفسه ! ولقد صدق أنا صاحب الروم وما أملكهم ولكن الله سخرهم لي ولو شاء لسلطهم عليّ كما سلط فارس على كسرى .

وظل الصخب مدة وأبو سفيان والذين معه لا يدرون ما يقولون ، ثم أمر هرقل بإنزال دحية الكلبي وإكرامه وأمر بإخراج أبي سفيان وأصحابه . وبينما أبو سفيان والذين معه ينسحبون دون أن يولوا قيصر

ظهورهم قال قيصر لقومه :

— يا قوم أستم تعلمون أن بين يدي الساعة نبيا بشركم به عيسى
ابن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم ؟
قالوا :

— بلى .

— فإن الله قد جعله في غيركم وهي رحمة الله عز وجل يضعها
حيث يشاء .

وخرج أبو سفيان وأصحابه من القصر وهم صامتون تدور في
رعوسهم تلك المناقشة التي دارت بين هرقل وشيخ بنى أمية وقد
تملكهم العجب . وتذكر حكيم بن حزام أحاديث عمته خديجة عن
زوجها الأمين وأقوال ورقة بن نوفل فراح يسأل نفسه : ترى أيحجم
عن التصديق خشية أن تذهب مفاخره في قريش ؟ إنه صاحب دار
الندوة وصاحب المكانة المرموقة في مكة ، أفيضحى بكل أمجاده
ليتبع أبا القاسم زوج سيدة نساء قريش ؟ !
ورفع أبو سفيان رأسه وقال :

— لقد أمر (عظم) أمر ابن أبي كبشة . هذا ملك بنى الأصفر
يخافه .

وخطر على قلبه أن أبا القاسم سيظهر ، فراحت الغيرة تنهش صدره
وانتابه خوف شديد .

(٧)

كانت بيت المقدس غاصة بالناس ، وراح الشعب يتدافعون
بالمناكب ليصلوا إلى ميدان قصر قيصر ، فهرقل العظيم الذى جاء
حاجا ماشيا على قدميه شكرا لله على أن نصره على أعدائه الفرس
سيعود اليوم إلى حمص ومنها إلى القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية
التي تزهر بالنصر ، وإن كانت المذاهب المتنافرة قد قطعت أوصالها
ولم تجعلها على قلب رجل واحد .

كانت الأعلام تخفق على القصر وقد اصطف الجنود أمامه وقد
لبسوا الخوذ ، والدروع تتألق فى الشمس تبهر الأبصار ، ووقف الناس
على جانبى الطريق يمدون أعينهم إلى حيث سيخرج إمبراطورهم
الظافر ، فلما نفخ فى الأبواق إيذانا بتحريك الركب العظيم ماج الناس
بعضهم فى بعض واشربأت الأعناق وحبست الأنفاس . ومس الآذان
وقع حوافر الخيل فامتلأت النفوس نشوة ، فعما قليل يرون البطل الذى
استرد الصليب وأعادته إلى كنيسته المقدسة فرد إلى الأرواح الحزينة
بشرها ومسح عن كواهل شعبه ذل العار الذى جللهم^(١) سنين مرت
عليهم كأشع كابوس يمر على شعب .

وخرج الفرسان على ظهور الجياد يحملون رماحا بأعلامها رايات
تخفق بالنسر الرومانى ، فتعالت الأصوات بالهتاف حتى إذا ما ظهرت

(١) جللهم : غطى عليهم .

عربة الإمبراطور ضج الناس بالتصفيق وارتفعت هتافاتهم بحياة المنقذ
تشق عنان السماء ، فجعل هرقل يرد تحياتهم بالتلويح إليهم بيده
وابتسامة عريضة رسمها على شفتيه .

كان الموكب فخما ينم عن البذخ والثراء ، ولكن هرقل كان يعرف
فى قرارة نفسه أن خزائنه قد خلت وأن حرب الفرس قد أذابت كل ما
عنده وأنه قد استدان من البابا ورجال الدين مبالغ ضخمة قد تدفعه إلى
فرض ضرائب جديدة على رعاياه الذين أنقضت الضرائب ظهورهم .
وكان البشر يبدو على وجوه الناس ولكن هرقل كان يعرف أن بشر
اللحظة سرعان ما يغيض بعد أن يتعد عن أعينهم ، فإمبراطوريته ممزقة
بين المؤمنين بمذهب وحدة طبيعة المسيح والمؤمنين بأن للمسيح
طبيعتين منفصلتين ، فهو إنسان لما كان على الأرض وهو إله بعد أن
ارتفع إلى السماء . وقد خلفت المناظرات بين القائلين بوحدة طبيعة
المسيح وبين القائلين باللاهوت والناسوت صدعا فى إمبراطوريته يهدد
بالانهيار .

وشرد ذهنه يفكر فى إمبراطوريته المترامية الأطراف فكانت سورية
ومصر أول ما شغل رأسه . فكنيسة بيت المقدس على مذهب يخالف
مذهب القسطنطينية ، وكنيسة الإسكندرية تبث الثورة فى نفوس
رعاياها الزنادقة المضطهدين المرهقين بالضرائب .

واحتلت كل كيانه تلك النبوءة القائلة بأن شعبا مختونا سينزع منه
ملكه ، ولوى شفته السفلى سخرية من تصرفاته . لقد سام اليهود ألوان
الاضطهاد وما خطر له على قلب لحظة أن العرب هم ذلك الشعب ،
فلو تمت لهم الوحدة السياسية واستثارهم الإلهام الدينى فسينزعون منه

سورية ومصر ، فعقيدة الإسلام الدينية أقرب إلى عقيدتهم من عقيدة خلقيدونية^(١) .

إنه يجب أن يفوز بصدقة المؤمنين بوحدة طبيعة المسيح ، وهذه الصداقة ستثير عليه البابا في القسطنطينية وأتباع الكنيسة المؤمنة باللاهوت والناسوت والأم مريم حامية القسطنطينية ، ليته يستطيع أن يجد فكرة توحد قلوب المسيحيين المتنافرة .

واستولت على عين ذاته الأقوال التي قالها دحية الكلبي رسول نبي الإسلام عليه السلام ، إن دعوة محمد بن عبد الله تقضى على المتناقضات بين المذاهب السائدة في إمبراطوريته ، وهي قادرة على أن تؤلف بين قلوب القائلين باللاهوت والناسوت والقائلين بالطبيعة الواحدة ، وهو يستشعر في أعماقه أنه دين الفطرة الذي تقبله العقول والنفوس ، فما دام المسيح قد بشر بفارقليط آخر يبقى مع الناس إلى الأبد ، فلماذا لا يكون نبي الإسلام هو ذلك النبي الذي بشرت به الأنبياء ؟

أصبح يؤمن أن ملكه لن يثبت إلا إذا اعتنق الإسلام .
وراح شبح النبوءة القائلة بأن شعبا مختونا سيسلبه ملكه يتخايل له فيزداد رغبة في أن يدخل في الدين الجديد لينقذ عرشه ، فقد تركزت كل أمانيه في الإبقاء على ملكه وبات يرتجف فرقا من أن يذهب سلطانه أو يثور عليه قومه فيقتلوه .

(١) مدينة اجتمع بها المجمع المسكوني الرابع وقد اعتبر مذهب وحدة طبيعة المسيح زندقة .

إنه فى حيرة لن يخلصه منها إلا أن يعرض الأمر على عظماء الروم إذا ما بلغ حمص . وجعل يتعجل الزمن حتى إذا ما لاحت حمص لعينيه راح قلبه يخفق بين جنبيه كجناح حمامة ، واستشعر رهبة لم يحس مثلها وهو يخوض غمار الحرب فهو مقبل على أخطر عمل يواجهه فى حياته ، وهل هناك أخطر من أن يطلب من الناس الانسلاخ من دينهم لاعتناق دين جديد ؟

ودخل حمص بين هتاف الجماهير ، وراحت عربته تخترق أقواس النصر حتى القصر وهو غارق فى مخاوفه لا يكاد يحس بالشعب الذى خرج لتحيته ولا يكاد يسمع الهتافات التى هزت جانب المدينة هذا . ودخل القصر وهرع عظماء مملكته لتهنئته ، فأمر أن تغلق الأبواب ثم اطلع فقال :

— يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟

فحاصروا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب وهم يقولون :

— أتدعوننا أن نترك النصرانية ونصير عبيدا لأعرابى ؟

وأمر عظماء مملكته مناديا ينادى :

— ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه .

فدخلت الأجناد فى سلاحها وطافت بقصره تريد قتله . فأرسل

إليهم :

— إنى أردت اختبار صلابتكم فى دينكم فقد رضيت .

وطلب من عظماء مملكته أن يعودوا ، فلما قفلوا راجعين قال لهم :

— إنى قلت مقاتلى أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت .

فسجدوا له ورضوا عنه وإن كان فى قرارة نفسه يستشعر عدم رضا عما وصلت إليه الأمور ، فهو يرجو فى قرارة نفسه أن يهتدى إلى فكرة توفق بين المذاهب المسيحية المتنازعة فى مملكته ، فإن كان عظماء الروم قد رفضوا اعتناق الإسلام فلا بد من العثور على فكرة ترضى أصحاب المذاهب جميعا ليستريح من ذلك الشقاق الذى يهدد ملكه بالزوال .

وراحت القسطنطينية تتأهب لاستقبال هرقل المظفر ، فأخذ رجال الدين يعدون كنيسة الحكمة المقدسة أيا صوفيا للترحيب بالبطل الذى أعاد الصليب المقدس إلى بيت المقدس ، وجعل رجال القصر يزينون التمثال الضخم المواجه للقصر وكان لثور يقاتل أسدا . وبين مدخل القصر وحلبة السباق أقيمت الزينات ورفعت الرايات ، وراح النسر الرومانى يرفرف على بوابة بيجاي التى تقود إلى حى البغايا . وأضاءت نوافذ المركز التجارى لسوق الحرير ليلا ، فجاء الناس إلى دار الأنوار ينظرون ثم يتدفقون إلى ساحة استعراض الجيش التى غصت بكرائم البيزنطيات والشباب والبغايا .

وكانوا أخلاطا من سورية ومصر والبلقان والرومان ، وكان نصيب البيزنطى من التحزب العنصرى ضئيلا فدماؤهم كانت مختلطة ، وما كانوا يهتمون بالأصول بل بالدين فكل من آمن بالعقيدة الأرثوذكسية المقبولة فى البلاد واستطاع التحدث باليونانية يلقي منهم القبول كأخ فى المواطنة ، وكان احتقارهم العميق للأجانب لأنهم كفرة وزنادقة وأجلافا غير ملمين بتهذيبات الحضارة الإمبراطورية ورفاهيتها ، أما كل أجنبى يعتنق ديانة الدولة ويحصل على جنسيتها فله الحق فى الزواج من

بيزنطية مهما يكن أصله أو أصلها .

وكان هرقل يعرف شدة تعصب البيزنطيين لدينهم فطرد من ذهنه فكرة عرض الإسلام عليهم كما فعل في حمص ، بل شغلته فكرة التوفيق بين المذاهب المتناحرة ليأمن عداوة أصحاب المذاهب المتعارضة مع مذهب القسطنطينية .

وأقبل الركب الملكي يتهادى في حي زيجما على القرن الذهبي وقد قام في وسطه تمثال عظيم لأفروديت^(١) فإذا بالكتل البشرية قد اصطفت على جانبي الطريق واعتلت التماثيل والأشجار ، وراح النسوة ينثرن الورود على الموكب ، وانهمرت الدموع تأثرا من أعين العجائز ، فالقائد المظفر عائد من بيت المقدس بعد أن قبل صليب المسيح .

وانطلق الركب إلى كنيسة الحكمة المقدسة ، وما إن نزل هرقل من عربته حتى استقبله البابا هونوريوس الأول بالبركات ، وتجاوبت في أرجاء الكنيسة التراتيل وحرقت أندر أنواع البخور . وسار هرقل وهو شارد اللب يفكر في الصور والتماثيل التي زينت بها الكنيسة فقام في نفسه سؤال : أيمكن رسم ألوهية المسيح وتصويرها ؟ فإن لم يكن أليس من الوثنية عبادة صور له ؟

كان ما سمعه عن الإسلام ومحاربته للوثنية هو المحرك لهذه الأفكار ، إنه وهو يتلو صلاته في كنيسة أيا صوفيا قد اعتنق مذهب تحطيم الصور وإن طوى نفسه على أفكاره ، ولما انتهت المراسيم

(١) أفروديت : إله الحب والجمال والاختصاب .

وعاد إلى قصره واسترد أنفاسه بعث إلى البابا هونوريوس الأول وراح الرجلان يفكران في تسوية لاهوتية توحد كلمة المسيحيين وترضى البعاقبة والنساطرة وتقضى على الخلاف المشبوب حول طبيعة السيد المسيح ، فهدهما فكرهما إلى أن للمسيح طاقة واحدة فقط فراح هرقل يدعو إلى فكرة وحدة الإرادة وراح البابا هونوريوس الأول يؤيدها . ولقيت الفكرة بعض النجاح بالقسطنطينية ولم ترض أصحاب مذهب وحدة الطبيعة . ولم ينجح هرقل في لم الشمل ورأب الصدع بل أضاف إلى المذاهب المسيحية التي يتعذر حصرها مذهباً جديداً فتح باباً واسعاً للجدل والحوار .

كان أتباع وحدة الطبيعة يضيقون بالظلم الواقع بهم وما يملأ صدورهم من كراهية مقيمة لمراسيم خلقيدونية جعلتهم متذمرين على الدوام ، يبحثون عن الخلاص^(١) .

وعاد دحية الكلبي إلى رسول الله — ﷺ — ومعه كتاب هرقل ، فقرأ عليه صلوات الله وسلامه عليه : (إني مسلم ولكنني مغلوب) . فقال عليه السلام .

— كذب عدو الله ليس بمسلم .

وقدم دحية إليه عليه السلام هدية هرقل فقسمها بين المسلمين . وشرح هرقل بالملك فطلب الرياسة وآثرها على الإسلام : ﴿ قل يا أيها

(١) وقع هرقل الوثيقة المحتوية على الاعتراف الجديد (Ezthesis) سنة

٦٣٦ م ، وفي نفس السنة وقعت معركة اليرموك بين العرب والروم وقد وجد السوريون الخلاص الذي كانوا ينشدونه .

الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل * واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴿١﴾ .

(٨)

حبست قريش أبا بصير بن أسيد بن جارية الثقفى ومنعته من الهجرة إلى رسول الله عليه السلام ، فانقلت منهم وانطلق إلى المدينة ليلحق بإخوانه المسلمين . ولما علمت قريش بخروجه كتب فى رده أزهري بن عوف عم عبد الله بن عوف والأخنس بن شريق كتابا إلى رسول الله ﷺ — وبعثنا رجلا من بنى عامر بن لؤى ومعه مولى لهم وجعل لهما الأخنس فى طلب أبى بصير جعلنا . فقدم على رسول الله عليه السلام بالكتاب فقرأه أبى على رسول الله ﷺ — فإذا فيه : « قد عرفت ما شارتناك عليه من رد من قدم عليك من أصحابنا فابعث إلينا بصحابنا » .

فقال النبى ﷺ :

— يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق إلى قومك .

— يا رسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنوننى عن دينى ؟

— انطلق فإن الله سيجعل لك فرجا ومخرجا .
ودفعه إليهما والدموع في أعين المسلمين ، وصار المسلمون
يقولون له :

— الرجل يكون خيرا من ألف رجل .
يغرونه بالذين معه ، حتى إذا كانا بذى الحليفة على بعد ستة أميال
من المدينة سل أحد الرجلين سيفه ثم هزه وقال :

— لأضربن بسيفي هذا فى الأوس والخزرج يوما إلى الليل .
فقال له أبو بصير :

— أو صارم سيفك هذا ؟

— نعم .

— ناولنيه أنظر إليه .

فناول له إياه ، فلما قبض عليه ضربه به حتى فارق الحياة ، ولما رأى
المولى مقتل صاحبه أطلق لساقيه الريح ، وراح أبو بصير يطلبه وفى يده
السيف وكانت مطاردة رهبة خيم عليها الموت ، المولى على دابته
يطوى الأرض وقد تملكه الرعب وأبو بصير على غير العامرى يجدّ فى
أثره ، واستشعر المولى تعباً وانبهرت أنفاسه وسال العرق حتى ملأ
عينيه ولكنه لم يستطع أن يهدىء من سرعة عدو دابته ، والموت قد
أصبح أدنى إليه من شراك نعله . ولاحت له المدينة فقوى الأمل من
روحه حتى إذا بلغ مسجد الرسول عليه السلام نزل عن دابته فوسع من
خطوه حتى أتى رسول الله — ﷺ — وهو جالس فى المسجد ، فلما
رآه رسول الله — ﷺ — والحصا يطن تحت قدميه من شدة عدوه
قال عليه السلام :

— إن هذا الرجل قد رأى فرعا .
فلما انتهى إلى رسول الله — ﷺ — وهو جالس في المسجد
قال له :

— ويحك مالك ؟

— قتل صاحبكم صاحبي وأفلت منه ولم أكد ، وإنى لمقتول .
واستغاث برسول الله — ﷺ — فأمنه ، فإذا أبو بصير أناخ بعير
العامري بباب المسجد ودخل متوشحا السيف ووثب على رسول
الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله وفّت ذمتك وأدى الله عنك ، استلمتني بيد القوم وقد
امتنعت بدينى أن أفتن فيه ويفتن بى .
فقال له رسول الله — ﷺ :
— اذهب حيث شئت .

— يا رسول الله هذا سلب العامري رحله وسيفه فخمسه .
— إذا خمسته رأونى لم أوف لهم بالذى عاهدتهم عليه ، ولكن
شأنك بسلب صاحبك واذهب حيث شئت .
فخرج أبو بصير معه خمسة نفر كانوا قدموا مسلمين من مكة حيث
قدم ولم يطلبهم أحد ، فقال رسول الله — ﷺ :
— ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال !

وسار أبو بصير والذين معه حتى نزلوا بين العيص وذى المروة من
أرض جهينة على طريق عيرات قريش مما يلى سيف البحر ، وجاءت
قافلة لقريش فانقضوا عليها انقضاض الأسود الكاسرة فقتلوا بعض
الرجال وفر الآخرون وسلبوا ما فى القافلة . فلما بلغ الخبر قريش نزل

بهم هم ثقيل ، ولكنهم راحوا يطمئنون أنفسهم أنها غارة من غارات قطاع الطريق .

وكان أبو جندل بن سهيل بن عمرو في مكة حزينا بعد أن رده المسلمون إلى أبيه تنفيذا لصلح الحديبية ، فلما بلغه قول الرسول عليه السلام : (ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال) عزم على الخروج ليلحق بأبي بصير وليكون شوكة في جنب المشركين ، فراح يدور على المسلمين المحبوسين في مكة يزين لهم اللحاق بأبي بصير فاتفق معه سبعون رجلا على الخروج لإعلاء كلمة الله .

وفي جنح الليل انسل الرجال ، وما كادت الشمس تشرق في الأفق الشرقى حتى كان سبعون راكبا يطوون الصحراء حتى إذا بلغوا مكان أبي بصير وجدوه يؤم أصحابه ويصلى بهم فصلوا خلفه ، فلما قضيت الصلاة أقبل الرجال على الرجال يتعانقون وقد انعكست أنوار القلوب على الوجوه .

وصار أبو جندل بن سهيل بن عمرو زعيم الفدائيين يؤمهم في الصلاة ويقودهم في الغارات على قوافل قريش ، واجتمع إليه الناس من بني غفار وأسلم وجهينة وطوائف من الناس حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل وهم مسلمون . ولاحت في الأفق البعيد عير لقريش فامتطى الرجال صهوة الخيل ثم انقضوا على القافلة انقضاض النسر ، فدارت معركة بين المسلمين والحراس قعقع فيها السلاح وسالت الدماء وسقطت الجثث على الرمال وأصوات المسلمين تدوى بالتكبير فتزلزل قلوب الكافرين . وانجلت المعركة عن قتل أصحاب العير وسقوط القافلة غنيمة في أيدي أبي جندل وأبي بصير والذين معهما من المجاهدين .

وخرج رجال من مكة يتسمون أخبار القافلة ، إنها غابت عن موعد أوبتها والمخاوف من أن يكون أبو بصير قد أخذها قد استولت على القلوب . وراح سادات قريش يتحدثون نجوى ، وأخذ أبو سفيان يلوم سهيل بن عمرو لأنه أعاد ابنه عنوة يوم الحديبية ولم يتركه يذهب مع المسلمين وقد ذهب أخ له من قبل ، فلو أن أزهري بن عوف والأخنس بن شريق لم يبعثا في طلب أبي بصير لما انفلت إلى مكة ، ولو أن سهيل بن عمرو ترك ابنه يذهب حيث شاء ما نزلت بقريش النكبات التي أنزلها بهم هؤلاء الرجال الذين قطعوا مادة قريش من طريق الشام .

وعاد الرجال الذين خرجوا من مكة للبحث عن غير قريش القادمة من الشام مطأطئي الرعوس قد عبرت قسما وجوههم عن النبأ الفاجع ، ودقت الأفتدة فزعا في الصدور . ولا ح الهلع في الوجوه وندت صيحات وله من بين شفاه النسوة قبل أن يفتح رجل من العائدين فمه ، فقد قرأ في أعينهم المأساة التي حاقت بأصحاب العير .

وتقدم أبو سفيان من الرجال والدماء تتدفق في عروقه كالنار من الغضب وقال :

— ماذا أصاب العير ؟

فراح رجل ينشد ما قال أبو جندل :

أنا بذى المروة بالساحل
بالبيض فيها والقنا الذبل^(١)
من بعد إسلامهم الواصل

أبلغ قريشا عن أبي جندل
في معشر تخفق راياتهم
يأبسون أن تبقى لهم رفقة

(صلح الحديبية)

(١) الذبل : الدقيقة اللاصقة القشر .

أو يجعل الله لهم مخرجاً والحق لا يغلب بالباطل
فيسلم المرء بإسلامه أو يقتل المرء ولم يأتل^(١)
وذاع النبأ في مكة فامتلات الدور بالنوح ، وانسل سادات قريش إلى
دار الندوة ليتشاوروا في ذلك البلاء الذى نزل بهم فهؤلأء الركب قد
فتحوا على مكة باباً لا يصلح إقراره .

(٩)

هزم هرقل كسرى برويز واسترد الصليب المقدس من المدائن وأعادته إلى
بيت المقدس ، ولكن ألقاب كسرى الثانى لم تهتز بل ظل الرجل الخالد
بين الآلهة والإله العظيم جداً بين الرجال صاحب الصيت الذائع الذى
يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل .

ولم يزر كسرى المظفر المدائن منذ حوالى سنة ٦٠٤ م حتى زمن غزو
هرقل سنة ٦٢٧ ، وذلك لأن المنجمين والعافة نبئوه بأنها شؤم عليه ، إنما
كانت إقامته المحببة إلى نفسه دستكرد التى تقع على الطريق الحربى الواسع
الذى يذهب من المدائن إلى همدان .

وكان كسرى الثانى على الرغم من هزيمته يرتدى أفخر الثياب ،
فملابسه قد زينت بأشرطة تتكون من ثوب ذى أكمام يتدلى إلى ما تحت
الركبتين وسروال واسع وكلها مرصعة بالجواهر . وأطراف الثوب
والحمالة وغمد السيف وكذلك السروال مزينة بفصوص كثيرة من

(١) يأتل : لم يقصر .

اللؤلؤ ، وقد زين رقبته بعقود من اللؤلؤ .

ودخل كسرى برويز قاعة العرش وجلس تحت التاج وكان معلقا بسلسلة ذهب من الإيوان ذرعها سبعون ذراعا كيما يماس رأس الملك ولا يؤذيه ولا يثقله ، وهو يزن واحدا وتسعين ونصف كيلو جرام . وأحاط بالمظفر كبار رجال البلاط ، ونفذت إلى قاعة العرش أضواء أخاذة من خلال الخمسين ومائة كوة التي في القبة والتي يبلغ قطر كل واحدة منها من اثني عشر إلى خمسة عشر سنتيا .

وسمح لطالبي المثل بين يدي الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال بالدخول . فدخل بعضهم فخرؤا ساجدين . فلما أذن لهم برفع رءوسهم أخذوا بمنظر صاحب الصيت الذائع الذي يصحو مع الشمس فسرّدوا ما جاءوا من أجله وهم يرتجفون ، حتى إذا ما غادروا الرجل الخالد أخذوا يزفرون في ارتياح كأنما يلفظون عن صدورهم عبثا ثقيلا .

ودخل عبد الله بن حذافة السهمي على كسرى ثابت الخطو ، فيا طالما دخل عليه من قبل ولم يسجد له بل سار يتقدم حتى وصل إليه فدفع إليه كتاب رسول الله — ﷺ ، فإذا به كتاب مختوم ، فجعل يقلبه لحظات بين يديه ثم دفعه إلى ترجمانه فراح يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس .

و غضب صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل ، فكيف بدأ محمد بنفسه ؟ وصاح ومزق الكتاب وأمر بإخراج عبد الله بن حذافة فخرج ثابت الجنان فقعده على راحلته وسار ، حتى إذا ما وصل إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أخبره الخبر فقال عليه السلام :
— اللهم مزق ملكه .

— غضب كسرى برويز غضبا استولى على كل تفكيره ، فقرآن ذلك الرجل الذى بعث إليه كتابا يدعو فيه إلى الإسلام قد وعد بنصر الروم : ﴿ ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ﴾ (١) .

لقد انتصر هرقل على كسرى ولكن ينبغى ألا يفرح محمد وأتباعه بهذا النصر بل ينبغى اعتباره ثائرا على المجوسية . فبين العرب قبائل تدين بالمجوسية وإن عليه وهو رأس الدولة المجوسية أن يحمى تلك القبائل وأن يعلن الحرب على محمد والمسلمين .

لم يعترف كسرى بمحمد رئيسا على الدولة الإسلامية بل كتب إلى باذان عامله على اليمن : « إنه بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي فسر إليه فاستبته فإن تاب وإلا فابعث إلى برأسه ، يكتب إلى هذا الكتاب وهو عبدى ؟ ! » .

فبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبي — ﷺ — مع قهرمانه وبعث

معه رجلا آخر من فارس وبعث معهما إلى رسول الله ﷺ — يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فخرجا وقدا الطائف فوجدا رجلا من قريش في أرض الطائف فسألاه عنه فقال : — هو بالمدينة .

فلما قدما عليه — ﷺ — المدينة قالاه :

— شاهنشاه ملك الملوك كسرى بعث إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتي بك وقد بعثنا إليك ، فإن أبيت هلكت وأهلك قومك وخربت بلادك .

إن فارس تعلن الحرب على المسلمين فإما أن يسلم رسول الله ﷺ — نفسه للرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال ، واما يبعث الشاهنشاه جنده ليحارب المسلمين ويستولى على المدينة . وقال لهما رسول الله ﷺ — في هدوء : — ارجعا حتى تأتيا غدا .

عاد كسرى الثاني بعد أن هرب من دستكرد رافضا عروض الصلح التي قدمها هرقل إلى قصره في المدائن ، ثم لم يلبث أن تركه ليعبر دجلة ويقيم مع عشيقته شيرين . وحينئذ ثار القواد الفرس وكانوا ساخطين على إصرار كسرى على مواصلة حرب لا أمل فيها .

وعرف قائده شهربراز أن كسرى قد أمر قائدا ممن يرأسهم بقتله فأخذ حذره وتحلل من عهود الإخلاص له . ومرض كسرى بالزحار^(١) فنقلوه إلى المدائن ليرتب وراثته العرش وكان معه شيرين

الزحار : الصوت والنفس بأنين واستطلاق البطن بشدة وتقطع في البطن (الدوستاريا) . .

وولداه مردانشاه وشهريار ، وكانت نيته تثبيت مردانشاه على العرش .
ولما علم قباد الملقب بشيروه وهو ابن كسرى من ماريا بما حدث
عزم على الدفاع عن حقوقه . واستوثق من مساعدة القائد العام الجديد
كشنسب اسباد وهو أخوه من الرضاعة وقد فاوض هذا هرقل وأبدى
استعداده للصالح مع الفرس ، وانضم لشيروه عظماء آخرون ممن كانوا
حانقين على الشاهنشاه .

وأمر شيروه ففتحت قلعة النسيان وأفرج عن عدد كبير من مسجونى
الدولة فانضموا إلى الأمير ، فلما جن الليل ترك الحرس القصر حيث كان
ينام كسرى وشيرين وفي الصباح الباكر سمع الناس يصيحون فرحين :
— قباد شاهنشاه .. قباد شاهنشاه .

وحيث هرب كسرى وقد أخذه الهلع ، فاختبأ فى حديقة القصر
حيث عثر عليه فأخذه . وكان إسكافى يجلس فى حانوت على الطريق
فلما بصر بفرسان من الجند معهم فارس مقنع عرف أن المقنع كسرى
فحذفه بقالب فعطف إليه رجل ممن كان مع كسرى من الجند فاخترط
سيفه فضرب عنق الإسكاف ثم لحق بأصحابه .

وألقي الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال صاحب
الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل فى
غياهب السجن . وتردد شيروه فى الإقدام على قتل أبيه ولكن العظماء
خبروه بين أن يقتل كسرى فيكونوا حوله باخعين له بالطاعة وبين أن
يخلعوه ويخطوا الطاعة لكسرى . وقد حاول الملك الجديد أن يجد الفرصة
فوجه إلى أبيه الاتهامات : قتل الملك هرمزد . قسوة كبرى على أبنائه ،
إساءته إلى من أودع السجن ، سوء نظره فى استخلاص النساء لنفسه

مع ترك العطف عليهن بالمودة وحبسه إياهن قبله مكرهات ، ظلمه الرعية عامة في جباية الخراج وما انتهك منهم في غلظته وفضاظته عليهم وجمعه الأموال التي اجتباها الناس في عنف شديد ، تجميره من جمر في ثغور الروم وغيرهم من الجنود وتفريقه بينهم وبين أهلهم وغدره بموريق ملك الروم وكفره بأنعامه .

وفي جوف الليل قتل كسرى الثاني الذى لقب بالمظفر والذى لقب نفسه بالرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال ، صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل .
وأشرقت الشمس على المدينة وجلس رسول الله عليه السلام في المسجد فجاء إليه رسولا باذان ، إنه عليه السلام قال لهما بالأمس :
(ارجعا عنى يومكما هذا حتى تأتياى الغد فأخبركما بما أريد) . فجاءاه الغد فقال لهما :

— أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها ، وأن الله تعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله .
فرجعا إلى باذان وقالاه :

— أمرنا أن نبليغك أن ربه قد قتل ربك كسرى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى (سنة سبع من الهجرة) .
قال باذان :

— إن كان نبيا فسيكون ما قال :
ثم جاء الخبر بأن كسرى قتل تلك الليلة فكبر المسلمون ، وقال —
ﷺ :

— لتفتحن عصابة من المسلمين كنوز كسرى التي في القصر الأبيض

وكان عمر بن الخطاب يصفى إلى رسول الله عليه السلام ولم يدر
بخلده أن فتح فارس سيكون في خلافته وكان سعد بن أبي وقاص قد ألقى
إلى رسول الله عليه السلام سمعه وما خطر له على قلب أنه الأسد الذي
سيقود جيوش المسلمين وأنه القائد الذي سيعث إلى المدينة كنوز
كسرى التى فى القصر الأبيض .

(١٠)

قامت مصر بدور خطير فى تاريخ المسيحية ، وقد اختارت كنيسة
الإسكندرية منذ أن أصبحت الكلمة لكنيسة القسطنطينية أن تقف فى
جانب كل المذاهب المعارضة لكنيسة الأباطرة ، وكانت بما ملأها من
نوازع البغضاء للحكومة الإمبراطورية تناصر الفتن والأمانى المحلية .
كان مذهب الثالث مذهباً عسيراً كما أن مذهب التجسد لا يزيده
يسراً ، فلا عجب أن كان الطريق السوى فى علم البحث عن طبيعة
المسيح وشخصه من الحرج بصورة تجعل علماء اللاهوت أنفسهم مهما
بلغ من حسن قصدهم عرضة للانزلاق فى هذا الاتجاه أو ذاك .
وقد انتصرت النصرانية على الوثنية وهى تخوض إحدى حروبها
الأهلية يوم كان أتباع آريوس يحاولون بإنكارهم الألوهية التامة للمسيح
أن يؤسسوا فكرة عن الربوبية تنطوى على قدر أكبر من التوحيد .
وأصدر أول مجمع مسكونى وهو مجمع نيقية قراراً باستئزال اللعنة عليهم
وقد اتهموا بالزندقة .

كانت الزندقة تعرف من الناحية الرسمية بأنها نبذ أى قانون يصدر عن

المجالس العامة للكنيسة ، ذلك أن القوم كانوا يرون أن أى مجلس مسكونى هو جمعية تنعقد برياسة الإمبراطور وتمثل فيها كل الكنائس المتجانسة التى يتم الاتصال بينها والتشاور هو الهيئة الملهمه التى تعد قراراتها ملزمة لعالم المسيحية .

ومنذ الأيام الأولى للمسيحية كان أسقف روما بوصفه الأسقف الأكبر يصدر تصريحات مذهبية ، كما أن يوستينانوس خلق للإمبراطور مركزا مماثلا لذلك ، ولكن كان لابد من قيام مجلس مسكونى عام لضمان قبول مثل هذه التصريحات .

وقد عقدت مجالس مسكونية سبعة فأصبحت قراراتها والكتب المقدسة أساسا للعقيدة الأرثوذكسية ، وقد ظل مذهب آريوس طوال القرن الرابع بأكمله يستمتع بمحبة الدوائر الراقية بالقسطنطينية ، ولم يقض على ذلك المذهب ببلاد الشرق إلا بعد انعقاد المجمع المسكونى الثانى فى عام ٣٨١ ، وكان نصر الأرثوذكسية هو نفسه نصر الإسكندرية برئاسة أثاناسيوس . وظلت الإسكندرية طوال القرن الخامس وهى تحاول أن تتابع نصرها بإرغام عالم المسيحية على الأخذ باللون الخاص الذى اتخذته للاهوتها .

وقد سنحت فرصتها المواتية عندما ذهب نسطوريوس بطريرك القسطنطينية إلى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين هما اللاهوتى والناسوتى ، وكانت تلك حركة بغضت إلى قلوب الناس لأنها تؤدي بصورة منطقية إلى مهاجمة مريم العذراء نصيرة القسطنطينية وراعتها المحبوبة التى كانت مهددة عندئذ بالحرمان من لقبها أم الرب ، فالتحمت ضده الإسكندرية مع روما وشعب القسطنطينية ، وتناست الإسكندرية مؤقتا غيرها بسبب

البطيريركية الجديدة ، فالقسطنطينية التي أعطيت الرئاسة عليها في المجلس المسكوني الثاني ، وأصدر المجمع المسكوني الثالث المنعقد في أفسس قراره بأن نسطوريوس الأنطاكي بطيريك القسطنطينية قد زل فوق في الزندقة حيث فرق بين الرب وبين الإنسان في شخص المسيح ، وقد كان لقوة شخصية كيرلس بطيريك الإسكندرية أثرها البالغ في صدور هذا القرار .

ولم يقف خصوم المذهب النسطوري عند هذا الحد ، فقد أذاع قسيس مغمور يقال له أوطيخا (يوتيوخوس) مبدأ يقرر وحدة طبيعة المسيح اعترفت به الإسكندرية . ورغبة في البت في المسألة جمع الإمبراطور مرقيانوس المجمع المسكوني الرابع في خلقيدونية في عام ٤٥١ م وكان مرقيانوس شغوفاً من الناحية السياسية أن يكون على علاقة طيبة مع روما وكان البابا ليو يعارض تلك الحركة بشدة ، وعندئذ أدين مذهب وحدة طبيعة المسيح وكان ذلك نتيجة لضغط الإمبراطور وعد المذهب زندقية من الزندقات .

وكان مجلس خلقيدونية نقطة تحول في تاريخ الإمبراطورية الرومانية بمصر وسورية ، فنظرية وحدة طبيعة المسيح تناسب المزاج الشرقي فما لبثت أن انتشرت في كل الكنائس المؤمنة بمذهب وحدة الطبيعة ، وقد جمعت بينها معارضتها لمجمع خلقيدونية ، وصارت تلك الزندقة نقطة التجمع لأهالي الولايات الذين في صدورهم غل من السلطة المركزية للإمبراطورية فكانت وسيلة التعبير عن النزعات القومية والانفصالية . وحملت الإسكندرية علم الثورة على قرارات مجمع خلقيدونية ، فبطريقها ديوسقوروس أخذ يغوص وراء نظرية أوطيخا عن المسيح . ولم

توافق روما على ذلك واتسعت هوة الخلاف بين روما والقسطنطينية من جهة أخرى .

وكانت المسائل اللاهوتية المختلف عليها في الخصومات المتعلقة بوحدة طبيعة المسيح صغيرة فهي تدور حول الفرق بين طبيعة واحدة وطبيعتين لا يمكن الفصل بينهما ، ولكن النتائج السياسية كانت هائلة ذلك أن مذهب وحدة طبيعة المسيح ظل مشكلة فرضت نفسها على تاريخ الإمبراطورية زهاء قرنين من الزمان . وفي الجمع المسكوني الخامس المنعقد بالقسطنطينية في عام ٥٥٣ م اعترف يوستينانوس بإخفاقه في نشر ميثاق يوفق بين الطرفين المتنازعين .

وفي عام ٥٧٠ م ولد رسول الله — ﷺ ، ومرت الأيام وبعثه الله رسولا للبشرية جميعا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وهاجر عليه السلام بدينه إلى المدينة وكان صلح الحديبية وكان أن بعث عليه السلام رسولا إلى هرقل إمبراطور الروم يدعوهم إلى الإسلام ، ولم يؤمن هرقل بالدين الجديد ولكنه تأثر به فراح يحاول أن يوفق المذاهب المتناحرة على هدى الإسلام ، فأعلن ميثاق التوفيق المسمى بوحدة إرادة المسيح ، ثم راح يتأهب لحرب الصور والتماثيل في الكنائس .

كان المصريون على خلاف مع الرومان في المذهب الديني وكانوا يثنون من وطأة الضرائب . وكانوا يتلفتون يبحثون عن الخلاص وما كانوا يدرون من أين تهب عليهم ريح النجاة ، فلما انتصر هرقل على الفرس استشعر المصريون أسى فقد حسبوا أن قبضة النسر ستظل قابضة على أعناقهم ، فلما بلغهم بعد أن نهضة قد قامت في قلب جزيرة العرب ، وحتى إن كانت قد وصلت إليهم أنباؤها فما كان ليخطر لهم على

قلب أن العرب المتنافرين سيكون لهم دولة تستطيع أن تقضى على الإمبراطوريتين العظيمتين المتنافستين على سيادة العالم .

كان رسول الله — ﷺ — في مسجده بالمدينة ومن حوله أصحابه قد عاهدوا قريشا على السلم ، وما كان ذلك السلم ليجعل رسول الله عليه السلام يركن إلى الدعة والهدوء ، فالله قد أمره أن يبلغ رسالته فبعث عليه السلام رسله إلى ملوك الأرض وحكامها ، إنه أرسل إلى قيصر يدعوهُ إلى الإسلام . وأرسل إلى كسرى كتابا مزقه الملك المغرور فكتب الله على نفسه أن يمزق ملكه وأراد أن يبعث بكتاب إلى مصر فقال : — أيها الناس أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله .

فوثب إليه حاطب بن أبي بلتعة وقال :

— أنا يا رسول الله .

— بارك الله فيك يا حاطب .

فأخذ حاطب الكتاب وودع رسول الله — ﷺ — وسار إلى منزله ، وشد على راحلته وودع أهله ، وسار إلى مصر فهو يعرف الطريق وقد خرج إليها للتجارة أكثر من مرة ، ولكنه كان يستشعر طوال الرحلة أنه خرج في تجارة لن تبور ، تجارة تنجيه من عذاب أليم .

كان على مصر جريج بن ميناء وقد لقب بالمقوقس ، والمقوقس لغة المطول للبناء ، وكان مصرياً صميماً ولكنه كان يحكم مصر من قبل هرقل يجمع له الضرائب ثم يحملها إلى القسطنطينية ، وكان يحيا حياة الأباطرة الرومان . وكانت الإسكندرية مقر حكمه ليكون على مقربة

من عاصمة الإمبراطورية الرومانية .

وذهب حاطب إلى منف ولم يسر فيها وهو مبهور بمبانيها الضخمة وأبوابها الفخمة فقد زارها كثيرا من قبل . وانطلق إلى قصر الحاكم فلم يجده فذهب إلى الإسكندرية فأخبر أنه في مجلس مشرف على البحر ، فركب حاطب سفينة وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه ، فلما رآه أمر بإحضاره بين يديه ، فلما جرى به نظر إلى الكتاب وفضه وقرأه :

— (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

والتفت إلى حاطب وقال له :

— ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها ؟

وصمت حاطب تأدبا فأعاد المقوقس قوله لما رأى من الموجودين استحسانا :

— ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم ؟

فقال له حاطب :

— ألسنت تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله ؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى

رفعه الله إليه ؟

ونظر إليه المقوقس في إعجاب ، إنه قابل كثيرا من العرب قبل أن يبعث فيهم محمد بن عبد الله ، كانوا فصحاء ولكنهم ما كانوا يدرون ما الكتاب ولا الإيمان بل كانوا عبدة أوثان ، فقال :

— أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم .

— إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بغيرك به . وراح المقوقس ومن عنده يرمقون حاطب في دهشتهم ، إنهم فهموا أنه يقصد فرعون موسى ، ولكن من أين لذلك العربى مثل هذا العلم ؟ واستمر حاطب يقول :

— إن هذا النبی دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له يهود وأقربهم النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى ببعسى عليهما الصلاة والسلام إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوما فهم أمتة فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا النبي ولسنا نهاك عن دين المسيح عليه السلام ولكننا نأمرك به .

فقال المقوقس :

— إني قد نظرت في أمر هذا النبي فرأيت لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب عنه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء « أى الشيء الغائب المستور » والإخبار بالنجوى ، وسأأنظر .

أكرم هرقل وفادة دحية الكلبي رسول النبي العربى فلم يجد المقوقس

غضاضة في أن يكرم حاطب فدفع له مائة دينار وخمسة أثواب وأنزله في ضيافته ، فلما حان الرحيل دعا المقوقس كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى النبي : « بسم الله الرحمن الرحيم . محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك . أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبياً قد بقي وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبثياب ، وأهديت لك بغلة لتركبها والسلام عليك » .

ما أقام حاطب عند المقوقس إلا خمسة أيام خرج بعدها من قصره وفي رفقته مارية القبطية وأختها سيرين وطبيب وبغلة بيضاء وهدايا المقوقس ، وما انفصل الركب وانساب في الحقول حتى وقعت الأعين على جباة الضرائب الرومان يظلمون الفلاحين وينزلون بهم ألوان العذاب فلاح الأسى في الوجوه وارتفعت الرعوس تنظر إلى السماء كأنما يسألون رب الكون الخلاص وما دروا أن الخلاص قريب وأن حاطب بن بلتعة رسول محمد بن عبد الله عليه السلام إلى عظيم القبط هو طلائع ذلك الخلاص .

وراح حاطب يفكر فيما قال له المقوقس وهو يودعه : « القبط لا تطاوعني على اتباعه وأنا أضن بملكى أن أفارقه » . أضحى إنسان بالحقيقة التي أشرقت لعين ذاته في سبيل ملك زائل ؟ ! أيستمر يخبط في الظلمات وهو يعرف طريق النور ؟ أضحى بآخرته في سبيل دنياه ؟

واستمر حاطب والذين معه يطوون الأرض في حراسة جند مصر إلى أن دخل جزيرة العرب ، ووجد قافلة من الشام تريد المدينة فرد الجيش وارتفق بالقافلة حتى دخل على رسول الله عليه السلام وذكر له قول المقوقس : « القبط لا تطاوعني على اتباعه ولا أحب أن تعلم بمحاورتي

إياك وأنا أضن بملكى أن أفارقه ، فارجع إلى صاحبك وارحل من عندى
ولا تسمع منك القبط حرفا واحدا » . فقال عليه السلام :
— ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه .

وقال عليه السلام للطبيب :

— ارجع إلى أهلك ! نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا

نشبع .

وأخذ عليه السلام مارية وعشرين ثوبا من قباطى مصر وهدايا العسل
والبغلة البيضاء وسماها دلدل ، وما كان العرب يعرفون البغال من قبل وما
كان فيهم بغلة غيرها ، وأهدى سيرين لحسان بن ثابت . وأعادت مارية
ذكريات هاجر المصرية^(١) أم العرب فقال — ﷺ — لأصحابه :

— إنكم ستفتحون مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة

ورحماء .

(١١)

كان اليهود فى خير يطوون أفئدتهم على البغضاء لمحمد رسول الله عليه
السلام ، وكانوا يتحينون الفرص ليطعنوا الإسلام طعنة فى الصميم . فلما
عاد المسلمون بعد صلح الحديبية إلى المدينة دون أن تسمح لهم قريش
بدخول مكة والطواف حول البيت ظن اليهود أن نبي الإسلام —
صلوات الله وسلامه عليه — لم يقبل شروط الصلح المجحفة بالمسلمين إلا

(١) كانت زوجا لسيدنا إبراهيم عليه السلام .

لو هن دب في كيان ملكه ، فأرادو أن يستغلوا ذلك الضعف فبعثوا إلى غطفان ليؤلبوهم على حرب رسول الله — ﷺ .

وجاء الخبر إلى الرسول عليه السلام أن خير تنأهب لقتاله فلم ينتظر حتى يفجأه اليهود وحلفاؤهم بهجومهم ، فاستنفر — ﷺ — من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه ، وجاءه المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة فقال :

— لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد فأما الغنيمة فلا .

ثم أمر مناديا ينادي بذلك فتأدى به ، وشق خروج المسلمين إلى خيبر على من بقى بالمدينة من اليهود ، وخرج رسول الله — ﷺ — في المحرم افتتاح سنة سبع بعد أن أقام شهرا وبعض شهر من مرجعه من الحديبية واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ، وخرج معه من نسائه أم سلمة ، وقال — ﷺ — في سيره لعامر بن الأكوع عم سلمة بن الأكوع :

— انزل فحرك بنا الركب .

فقال معتذرا :

— يا رسول الله قد تولى قولى .

لم يعد عامر يقول شعرا ، فقال له عمر :

— اسمع وأطع .

فنزل يرتجز بقوله :

والله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
إنا إذا قوم بغوا علينا	وإن أرادوا فتنة أينا
فأنزلن سكينه علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا

(صلح الحديبية)

فقال له رسول الله — ﷺ :

— يرحمك ربك .

وما خص بها رسول الله — ﷺ — أحدا قط إلا استشهد ، فقال
عمر :

— وجبت والله يا رسول الله ، لو متعتنا بعامر .

ولما خرج رسول الله — ﷺ — من المدينة سلك على عصر (جبل)
فبنى له فيه مسجدا ، ثم على الصهباء ، ثم أقبل بجيشه حتى نزل بواد يقال
له الرجيع فنزل بين خيبر وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل
خيبر وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله — ﷺ — ، فلما سمعت غطفان
بمنزل رسول الله — ﷺ — من خيبر جمعوا ثم خرجوا ليظاهروا يهود
عليه ، حتى إذا ساروا مرحلة من مراحل السفر سمعوا خلفهم في أموالهم
وأهلهم حسا وظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا
في أهلهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله — ﷺ — وبين خيبر .

كان المسلمون ألفا وستمئة مقاتل مجهزين تجهيزا حسنا منهم مائتا
فارس ، وكان لكل مقاتل راحلته السريعة ، وقد خرج مع الجيش نساء
المقاتلين ليعتنين بالجرحي وكان هذا يحدث لأول مرة في تاريخ الحروب
فقد كانت النساء يصاحبن الجيوش في الغزوات للترفيه أو لتحريض
الرجال على القتال .

وحمل الجيش الراية السوداء العظيمة المعروفة بالعقاب (النسر
الأسود) وكانت من برد لعائشة ، ولما أشرف عليه السلام على خيبر قال
لأصحابه :

— قفوا .

ثم قال :

— اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ،
ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإننا نسألك خير
هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر
ما فيها ، أقدموا باسم الله .

وأشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير :
— الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فقال — ﷺ :

— أربعوا على أنفسكم (ارفقوا بأنفسكم) لا تبالغوا في رفع
أصواتكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو
معكم .

ولما نزل بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة ، وكان رسول الله —
ﷺ — إذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذانا أمسك وإذا
لم يسمع أذانا أغار ، فنزلوا خير ليلا فبات رسول الله ﷺ — حتى إذا
أصبح لم يسمع أذانا ، فركب وركب المسلمون معه ، فركب أنس بن
مالك خلف أبي طلحة وإن قدمه لشمس قدم رسول الله — ﷺ ، وأصبح
يهود وأفدتهم تخفق وفتحوا حصونهم وغدوا إلى أعمالهم معهم المساحي
والفتوس والمكاتل ، فلما نظروا إلى رسول الله — ﷺ — قالوا :
— محمد والخميس (١) .

فولوا هاربين إلى حصونهم وجعل رسول الله ﷺ — يقول :

(١) سمي الجيش خميسا لأنه خمسة أقسام : المقدمة والساقة والميمنة والميسرة
والقلب .

— الله أكبر ، خربت خير . إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

ووعظ رسول الله — ﷺ — الناس وفرق فيهم الرايات وارتفعت أصواتهم :

— يا منصور أمت . يا منصور أمت .

كان يهود في حصونهم يرتجفون ، إنهم عشرة آلاف مقاتل وكان عبد الله ابن أبي بن سلول كبير المنافقين أرسل إليهم يخبرهم بأن محمدا سائر إليهم فخذوا حذرهم وأدخلوا أموالكم حصونكم وأخرجوا إلى قتاله ولا تخافوا منه . إن عددكم كثير وقوم محمد شرذمة^(١) قليلون عزل لا سلاح معهم إلا قليل .

فكانوا يخرجون ويصطفون صفوفًا ثم يقولون مستهزئين :

— محمد يغزونا ؟ هيهات هيهات .

كانوا واثقين من أنهم سيسيرون إلى محمد عليه السلام ليحاربوه في المدينة ولكنهم أصبحوا فوجدوا محمدا عليه السلام وجيشه يتقدمون صوب الحصون .

كانت حصون خير حصونا ذوات عدد منها النطاقة وحصن الصعب ابن معاذ وحصن ناعم وحصن قلعة الزبير — هذه الحصون النطاقة ، والشق وبه حصون منها حصن أبي وحصن النزار ، وحصون الكتيبة ومنها القموص والوطيح وسلام .

ونزل رسول الله — ﷺ — قريبا من حصون النطاقة فجاءه الحباب

(١) شرذمة : جماعة قليلة العدد .

ابن المنذر فقال :

— يا رسول الله إنك نزلت منزلك هذا فإن كان عن أمر أمرت به فلا تتكلم ، وإن كان الرأي تكلمنا .
— هو الرأي .

— يا رسول الله إن أهل النطاقة لي بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مرمى سهم منهم ، ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم ، ولا نأمن من بيأتهم يدخلون في حمرة النخل (النخل المجتمع بعضه على بعض) ، تحول يا رسول الله .

— أشرت بالرأي ، إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا .
ودعا رسول الله — ﷺ — محمد بن مسلمة فقال :
— انظر لنا منزلا بعيدا .

فطاف محمد بن مسلمة وقال :
— يا رسول الله وجدت لك منزلا .
— على بركة الله .

وتحول عليه السلام لما أمسى إلى الصخرة ، وأمر الناس بالتحول فتحولوا إليها ، واتخذوا ذلك الموقع معسكرا ، وابتنى رسول الله — ﷺ — هناك مسجدا يصلي به طول مقامه بخير .

وراح يهود يرمون المسلمين بالسهام وبالنبال من حصون النطاقة ، فأمر — ﷺ — بقطع نخيل أهل الحصون فوق المسلمون في قطعها حتى قطعوا أربعمئة نخلة ثم نهاهم عن القطع ، وهجم المسلمون على حصن ناعم وراحوا يرمون بالسهام ويهود تقاتل ورسول الله — ﷺ — على فرس يقال له الظرب وعليه درعان ومغفر وبيضة وفي يده

قناة وترس ، وقد دفع — ﷺ — لواءه إلى عمر بن الخطاب ونهض من نهض معه من الناس فلقوا أهل خيبر ، فانكشف عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله — ﷺ — يحينه أصحابه ويحبينهم ، وكان رسول الله قد أخذته الشقيقة^(١) فلم يخرج إلى الناس فأخذ أبو بكر راية رسول الله — ﷺ — ، ثم نهض فقاتل قتالا شديدا ، ثم رجع فأخذها عمر بن الخطاب فقاتل قتالا شديدا أشد من القتال الأول ، ثم رجع وهجم الأنصار على الحصون ، كان الحر شديدا وكان محمود بن مسلمة يحارب بلا هوادة حتى أعياه الحرب وثقل السلاح فانحاز إلى ظل حصن ناعم ، فرفع مرحب وكنانة بن الربيع حجر الرحي بينهما وألقياه عليه فهشم البيضة على رأسه ونزلت جلدة جبينه على وجهه وندرت عينه ، فأدركه المسلمون فأتوا به النبي فسوى الجلدة إلى مكانها وعصبه بخرقه فمات من شدة الجراحة .

وجاء أخوه محمد بن مسلمة إلى رسول الله — ﷺ — فقال في غيظ :

— إن اليهود قتلوا أخي محمود بن مسلمة .
كان محمد بن مسلمة يريد أن يثار لأخيه وأن يندفع إلى حصون اليهود يشحن فيهم القتل ، فقال — ﷺ :
— لا تمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم ، فإذا لقيتموهم فقولوا : اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت ، ثم الزموا الأرض جلوسا فإذا غشوكم

(١) الشقيقة : نوع من صداع يعرض في مقدم الرأس وإلى أحد جانبيه .

فانهضوا وكبروا .

وخرجت كتائب اليهود يتقدمهم ياسر ، فكشف الأنصار حتى انتهى
إلى رسول الله — ﷺ — في موقعه ، فاشتد ذلك على رسول الله عليه
السلام وأمسى مهموما .

(١٢)

القتال رهيب وأهل حصون النطاخة يخرجون للقتال ثم يعودون إلى
الحصون يرمون المسلمين بالحجارة والسهام ، ورسول الله — ﷺ —
يذهب كل يوم بمحمد بن مسلمة للقتال ويخلف على محل العسكر عثمان
ابن عفان ، فإذا أمسى ورجع إلى ذلك المحل ومن جرح من المسلمين
يحمل إلى ذلك المحل ليداوى جرحه .

وكان — ﷺ — يناوب بين أصحابه في حراسة الليل ، فلما كانت
الليلة السادسة استعمل عليه السلام عمر بن الخطاب فطاف عمر
بأصحابه حول العسكر وفرقهم ، فأوتى برجل من يهود خيبر في جوف
الليل فأمر به عمر أن يضرب عنقه فقال :
— اذهب بي إلى نبيكم حتى أكلمه .

فأمسك عنه وانتهى به إلى النبي — ﷺ — فوجده يصلي ،
فسمع — صلوات الله وسلامه عليه — كلام عمر فسلم وأدخله عليه ،
فدخل باليهودي فقال رسول الله — ﷺ — لليهودي :

— ما وراءك ؟

— تؤمنني يا أبا القاسم ؟

— نعم .

— خرجت من حصن النطاة من عند قوم يتسللون من الحصن في هذه الليلة .

— فأين يذهبون ؟

— إلى الشق يجعلون فيه ذراريهم ويتهيئون للقتال ، وفي هذا الحصن الذى هو الحصن الصعب من حصون النطاة فى بيت فيه تحت الأرض منجنيق ودبابات ودروع وسيوف فإذا دخلت الحصن غدا وأنت تدخله .

قال رسول الله عليه السلام :

— إن شاء الله .

قال اليهودى :

— إن شاء الله أوقفك عليه فإنه لا يعرفه غيرى ، وأخرى .

— ما هى ؟

— يستخرج المنجنيق^(١) وينصب على الشق ويدخل الرجال تحت الدبابات فيحفروا الحصن فتفتحه من يومك وكذلك تفعل بحصون الكتيبة .

وراح اليهودى يتلفت بعينين زائغتين ثم قال :

— يا أبا القاسم احقن دمي .

— أنت آمن .

— ولى زوجة فهبها لى .

(١) المنجنيق : آلة حربية ترمى بالحجارة وتهدم الحصون .

— هي لك .

ثم دعاه إلى الإسلام فقال :

— أنظرني أياما .

ثم قال عليه السلام لمحمد بن مسلمة :

— لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لا يولى الدبر يفتح الله على يديه فيمكنه من قاتل أخيك .

وعند ذلك لم يكن من الصحابة أحد له منزلة عند النبي — ﷺ — إلا يرجو أن يعطاها . وتمنى عمر بن الخطاب أن يكون ذلك الرجل فما أحب الإمارة إلا ذلك اليوم ، وبات الناس يذكرون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله — ﷺ — كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال رسول الله — ﷺ :

— أين علي بن أبي طالب ؟

— هو يا رسول الله يشتكى عينيه .

— من يأتيني به ؟

فذهب سلمة بن الأكوع فدعاه ، فجاء على بعير له حتى أناخ قريبا من رسول الله — ﷺ — وهو أرمد قد عصب عينيه بشقة برد قطري ، فراح سلمة يقوده إلى رسول الله — ﷺ — فقال له رسول الله عليه السلام :

— ما لك ؟

— رمدت .

— ادن مني .

فوضع رأسه في حجره عليه السلام وفتح له عينيه فدلكهما فبرأ حتى

كأن لم يكن بهما وجع ، وألبسه عليه السلام درعه وشد سيفه ذا الفقار
في وسطه وأعطاه الراية وقال له :
— امش ولا تلتفت .

فسار شيئاً ثم وقف ولم يلتفت ، فصرخ :

— يا رسول الله علام أقاتل الناس ؟

— قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا
فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله
تعالى : وأن خبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك
رجلاً واحداً خيراً من أن يكون لك حمر النعم .

فانطلق عليّ بالراية وعليه حلة أرجوان حمراء يهول حتى ركزها
تحت الحصن ، فاطلع عليه يهودى من رأس الحصن فقال :
— من أنت ؟

— على بن أبى طالب .

وخرج إليه أهل الحصن وكان أول من خرج الحارث أخو مرحب ،
وكان معروفاً بالشجاعة ، والتقى الجمعان ودار القتال ومشى الرجال إلى
الرجال فانكشف المسلمون وثبت على كرم الله وجهه ، وهجم على
الحارث فتضارباً فقتله ، فلما رأى المسلمون ثبات على كروا على أعدائهم
الذين زلزل مقتل الحارث قلوبهم فانهزم اليهود إلى الحصن وأصوات
المسلمين تهز خيبر :

— يا منصور أمت .. يا منصور أمت .

وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر معصفر وحجر قد ثقبه
مثل البيضة على رأسه وهو يرتجز :

قد علمت خيبر أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب

أطعن أحيانا وحينما أضرب إذا الحروب أقبلت تلهب
كأن حماي كالحمى لا يقرب

فبرز له على بن أبى طالب فقال :

أنا الذى سميتى أمى حيدرة كليث غابات شديد قسورة^(١)

أكيلكم بالسيف كيل السندرة^(٢)

وحمل مرحب عليه وضربه ضربة اتقاها بترسه ، ثم بدره على كرم
الله وجهه فضربه فقد الحجر والمغفر وقلق رأسه حتى أخذ السيف فى
الأضراس .

وأراد عامر بن الأكوع أن يضرب بسيفه ساق يهودى فرجع إليه
سيفه وجاءت ذبابته فى ركبتة فسقط يتلوى من الألم ، فحمله المسلمون
إلى معسكر رسول الله ﷺ .

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يرتجز :

قد علمت خير أنى ياسر شاكى السلاح بطل مغاور
إذا الليوث أقبلت تبادر إن حماي فيه موت حاضر

وقال :

— هل من مبارز ؟

فخرج له الزبير بن العوام وأمه صفية بنت عبد المطلب عمه رسول
الله ﷺ — تنظر وقد استولى عليها خوف شديد فهى تعلم أن ياسر

(١) قسورة : اسم من أسماء الأسد .

(٢) السندرة : مكيال كبير .

من فرسان اليهود وشجعانهم ، ولم تستطع أن ترقب المبارزة بأعين
مفتوحة وعصف بها الخوف فقالت :

— يا رسول الله إنه يقتل ابني .

— بل ابنك يقتله إن شاء الله .

وراح الزبير يرتجز :

قد علمت خير ألى زُبَار

قرم^(١) لقرم غيرنكس^(٢) فرار

أين حماة المجد أين الأخيار

ياسر ، لا يفررك جمع الكفار

فجمعهم مثل السراب الختار^(٣)

وراح الزبير وياسر يتبادلان الضربات ثم ضرب الزبير اليهودى ضربة
قاتلة فتركه كأمس الدابر ، فارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير ورفت
على شفتى صفية بسمة اطمئنان وإن اغرورقت عيناها بالدموع ، وقال
رسول الله عليه السلام :

— فذاك عم ونخال ، لكل نبى حوارى وحوارى الزبير .

وجاء يسار وكان عبدا حبشيا إلى رسول الله ﷺ — وكان أجيرا

لرجل من اليهود كان يرعى غنمه وقال :

— إن أسلمت فماذا لى ؟

— الجنة .

(٢) النكس : الضعيف الجبان .

(١) القرم هنا : السيد .

(٣) الختار : الخداع .

فأسلم ، فلما أسلم قال :

— يا رسول الله إني كنت أجيرا لصاحب هذه الغنم فكيف أصنع بها ؟ إنها أمانة وهي للناس الشاة والشاتان وأكثر من ذلك .

كان رسول الله عليه السلام يحارب اليهود وكانت الغنم لليهود فلم يأمر بمصادرتها بل أمر برد الأمانة إلى أصحابها ، فقال له عليه السلام :
— اضرب في وجهها فإنها سترجع إلى ربها .

فقام يسار فأخذ حفنة من حصباء فرمى بها في وجهها وقال :
— ارجعي إلى صاحبك فوالله لا أصحابك .

فخرجت مجتمعة كأن سائقا يسوقها حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم يسار إلى الحصن منشرح الصدر قد غمرته سعادة لأنه هدى إلى الصراط وراح يقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله ولم يسجد لله سجدة ، فأتى به إلى رسول الله ﷺ — ومعه نفر من أصحابه فقال — ﷺ :
— لقد كرم الله هذا العبد وساقه إلى خير ، وقد كان الإسلام من نفسه حقا .

وراح عامر بن سلمة يتلوى من الألم وعمر بن الخطاب يرنو إليه وهو على ثقة من أنه يجود بأنفاسه ، فعامر كان يرتجز لرسول الله عليه السلام فقال له : يرحمك ربك . فقال له عمر : وجبت يا رسول الله لولا أمتعتنا به . لأنه — ﷺ — ما قال ذلك لأحد في مثل هذا الموطن إلا استشهد .

ومات عامر بن سلمة وخاض الناس في موته فمن قائل : قتله سلاحه ، ومن قائل : قتل نفسه فليس بشهيد . فانطلق سلمة بن الأكوع إلى رسول الله ﷺ — وقال وقد تملكه إشفاق أن لا يكون

أخوه شهيدا :

— يزعم أسيد بن حضير وجماعته من أصحابك أن عامرا أحبط عمله
إذ قتل بسيفه .
فقال ﷺ :
— إنه لشهيد .
وصلى عليه — ﷺ — والمسلمون .

(١٣)

دار القتال رهيبا عند حصن ناعم ، على بن أبي طالب يتقدم ويضرب
بسيفه لا يلتفت خلفه ، وأصوات المسلمين تدوى في آذان يهود كأنها
صواعق منذرة بالموت .
— يا منصور أمت أمت .

وبلغ على كرم الله وجهه باب الحصن فاجتذبه وحمله على ظهره
فراح المسلمون يصعدون عليه يبارزون يهود الذين كانوا بأعلى الحصن .
ولاحت هزيمة يهود فانسل نفر منهم إلى حصن صعب ليتحصنوا به ،
وقتل من قتل وأسر من أسر وتم فتح أول حصن من حصون اليهود فأخذ
المسلمون يكبرون وقد غمرهم السرور .

وأصاب المسلمين مجاعة ، وأرسلت أسلم إلى رسول الله — ﷺ —
أسماء بن حارثة وأمرته أن يقول له — ﷺ — إن أسلم يقرئوك السلام
ويقولون أجهدنا الجوع . فلامهم رجل وقال :
— من بين العرب تصنعون هذا ؟

فقال أخو أسماء بن حارثة :

— والله إني لأرجو أن يكون البعث إلى رسول الله — ﷺ —
مفتاح الخير .

فجاءه — ﷺ — أسماء وبلغه ما قالت أسلم ، فقال :
— اللهم إنك قد عرفت حالهم وأن ليس بهم قوة وأن ليس بيدي شيء
أعطيهم إياه .

ولم يجد المسلمون غير الحمر الإنسية فذبحوها ووضعوها في القدور
على النار . وبينما القدور تفور بها جاء داعي رسول الله — ﷺ — ينهى
المسلمين عن أكل لحوم الحمر الأهلية فكفوا القدور على وجوهها .
وقام فيهم رسول الله — ﷺ — فقال :

— لا يحل لامرأة يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى مأؤه زرع غيره
« يعني إيتاء الحبالي من السبايا » ، ولا يحل لامرأة يؤمن بالله واليوم
الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها^(١) ، ولا يحل لامرأة
يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنا حتى يقسم ، ولا يحل لامرأة يؤمن
بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها^(٢)
ردها فيه ، ولا يحل لامرأة يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فيء
المسلمين حتى إذا أنخلقه رده فيه .

وأشرقت الشمس وعند رسول الله — ﷺ — وفد أسلم فدعاهم :
— اللهم افتح أكثر الحصون طعاما وودكا^(٣) .

(١) يستبرؤها : يتأكد من براءة رحمها من الحمل ، وذلك بالحيض .

(٢) أعجفها : هزلها وأضعفها . (٣) الودك : الدسم .

ودفع اللواء للحباب بن المنذر وندب الناس فخرج مع الحباب
صناديد المهاجرين والأنصار وانطلقوا إلى حصن الصعب وهم يكبرون ،
وخرج من الحصن رجل يقال له يوشع مبارزا فخرج له الحباب بن المنذر
وقد كثر عن أنيابه وقال :
— يا منصور أمت أمت .

وتبادلا ضربتين فبدره الحباب قائد جيش المسلمين بضربة أردته قتيلا
فكبر المسلمون ، وقرع التكبير آذان يهود في الحصن فزاغت أعينهم
وانبهرت أنفاسهم ونزل بهم هم ثقيل واستولى عليهم يأس مرير ، فقد
أطلت من سيوف المسلمين ريب المنون .

وخرج آخر مبارزا يقال له الديال فبرز له عمارة بن عقبة الغفاري
فمشى كل منهما إلى صاحبه مشى الوعول ؛ اليهودي في الدروع على
رأسه خوذة تتألق في الشمس وفي يده رمح ذو ثلاث شعب كان في فخامة
جالوت لما حارب الصبي داود عليه السلام^(١) ، وكان عمارة في يده
ترس وفي الأخرى سيف يميني ، وضرب الديال عمارة بضربة اتقاها
بالترس وفي مثل لمح البصر هوى بسيفه على هامة اليهودي فقتله وقال له :
— خذها وأنا الغلام الغفاري .

فقال الناس في أسي :

— حبط جهاده .

لم يكبر عمارة وهو يضرب اليهودي ولم يهتف بشعار المسلمين بل
دعا بدعوة الجاهلية فساء ذلك الناس . وحملت اليهود حملة منكرة

(١) القصة في سورة البقرة الآية ٢٤٦ — ٢٥١ .

فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله — ﷺ — وهو واقف قد نزل عن فرسه ، فثبت الحجاب بن المنذر ، فحرض رسول الله عليه السلام المسلمين على الجهاد فأقبلوا وزحف بهم الحجاب فراح الرجال الصناديد يلعبون بالسيوف يضربون الهامات ويطعنون في القلوب . فاختلطت صرخات الفرع بأنات الألم بصوت ارتطام الأجساد بالأرض بأصوات التكبير بالهتاف بشعار المسلمين ، وسالت الدماء في اليهود المنهزمين .

وزلزل اليهود زلزالا شديدا وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وراحوا يولون الأدبار لا يلوون على شيء حتى دخلوا الحصن وأغلقوه عليهم . ولم يقف الحصن في وجه الليوث الذين أمدتهم إيمانهم بالنصر المبين بقوة جعلتهم يتسلقون الحصن دون أن يفت في عزيمتهم الحجارة التي تلقى عليهم والسهام التي تصوب إلى صدورهم .

وتمكن نفر من المسلمين من أن يتسلقوا الحصن وأن يشتوا أقدامهم فوقه فدارت معركة رهية بين الفاتحين وبين الذين يدافعون عن أعناقهم وأعراضهم وأموالهم ، وتمكن فريق من المسلمين من أن يصلوا إلى باب الحصن ففتحوه فتدفق المسلمون كالسيل الجارف لتدور معركة فاصلة بينهم وبين الخمسمائة مقاتل الذين كانوا في حصن الصعب ، ولما أصبحت الدائرة على اليهود انسلف فريق منهم إلى حصن قلة وهو بقلة جبل ليستأنفوا القتال إذا ما تحول المسلمون للهجوم على ذلك الحصن .

وأخذ المسلمون يقتلون ويأسرون حتى وقع الحصن في أيديهم فوجدوا في ذلك الحصن من الشعير والتمر والسمن والعسل والسكر والزيت والودك شيئا كثيرا ، وراح الرجال يحملون ما تصل إليه أيديهم (صلح الحديبية)

فنادى رسول الله — ﷺ :

— كلوا واعلفوا ولا تحملوا .

كان نفر من المحاريين يريدون أن يخرجوا بما غنموا إلى بلادهم فنهى رسول الله — ﷺ — عن ذلك وأباح الأكل والعلف في المعسكر ، وقد أصاب عبد الله بن مغفل من فيء خير جراب شحم فاحتمله على عنقه يريد رحله فلقيه صاحب المغنم الذى جعل عليها فأخذ بناصيته وقال :

— هلم بهذا حتى نقسمه بين المسلمين .

— والله لا أعطيكه .

فجعل أبو اليسر كعب بن عمرو بن زيد الأنصارى صاحب المغنم يجاذبه الجراب ، فرآهما رسول الله — ﷺ — وهما يصنعان ذلك فتبسم ضاحكا ثم قال لصاحب المغنم :

— لا أبا لك ، خل بينه وبينه .

فأرسله فانطلق به عبد الله بن مغفل إلى رحله وأصحابه فأكلوا .
وراح اليهودى الذى أمناه رسول الله — ﷺ — ووهب له زوجه يقود المسلمين فى سراديب تحت أرض الحصن حتى وصلوا إلى بيت تكدست فيه منجنيق ودبابات ودروع وسيوف ، فأخذوا يحملونها إلى حيث كان رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه .

وذكر الناس ما كان من عمارة بن عقبة الغفارى لما ضرب الدبال وقال له : خذها وأنا الغلام الغفارى وقول الناس حبط جهاده ، فقال — ﷺ :

— يؤجر ويحمد .

وراح المسلمون يحاصرون حصن قلة وهو آخر حصون النطاقة ،

فراح اليهود يسددون إليهم السهام ويلقون عليهم الحجارة دون أن يخرجوا للمبارزة من حصنهم . وانقضى اليوم الأول من الحصار وما نال المسلمون من الحصن شيئاً .

واستمر الحصار واليهود يرقبون ما يجرى أمام الحصن على نيران المسلمين حتى إذا ما صلوا الصبح وأشرقت الشمس وارتفعت أصوات المسلمين بشعارهم :

— يا منصور أمت أمت .

وشدت الأقواس وأطلقت السهام فسقطت أجساد من فوق الحصن تهوى كالشهاب . ولكن اليوم الثانى مر دون أن ينال المسلمون من الحصن شيئاً فهو على قمة جبل يسيطر على كل الطرق التى تقود إليه . وجاء اليوم الثالث وحاول المسلمون أن يزحفوا صاعدين إلى الحصن ولكن اليهود أمطروهم ببوابل من السهام فعجزوا عن التقدم ، ورأوا أن يحاصروا الحصن حتى ينال الجوع والعطش من المحاصرين فينزّلوا على حكم المسلمين .

وجاء الليل فانسل يهودى تحت جناح الظلام إلى معسكر المسلمين وكان محمد بن مسلمة يحرسه ، فالتمس اليهودى مقابلة رسول الله ﷺ — فقاده ابن مسلمة إلى حيث كان عليه السلام فقال :

— يا أبا القاسم تؤمننى على أن أدلك على ما تستريح به ؟ فإنك لو مكثت شهراً لا تقدر على فتح هذا الحصن فإن به دُبُولاً^(١) تحت الأرض يخرجون ليلاً فيشربون منها ، فإن قطعت عنهم شربهم أهلكتهم .

(١) الدبول : جمع دَبَل : النهر الصغير .

وسار عليه السلام إلى دبولهم فقطعها فلم يجد اليهود مفرا من أن يخرجوا من الحصن ليقاتلوا دفاعا عن حياتهم التي أصبحت مهددة بالبوار من العطش ، فدارت معركة رهيبة بين أهل الكتاب الأول الذين تنكروا لكتابهم وبين الذين يريدون أن يحقوا الحق وأن تكون كلمة الله هي العليا . وزهقت أرواح نفر من اليهود وسقط من المسلمين شهداء وحمل المسلمون على اليهود حملة رجل واحد وأصواتهم تفعل في أعدائهم ما تفعله السيوف البتارة ، فما أن يدوى بين السماء والأرض شعار المسلمين « يا منصور أمت أمت » حتى تتخلخل مفاصل أعدائهم ويكادوا أن يموتوا رعبا قبل أن تصل إلى أفئدتهم السهام أو تقطف رءوسهم السيوف .

ورأت النسوة من الحصون هزيمة الرجال فأخذن في الولولة والعويل ورحن يحرضنهم على القتال ولكن أصواتهن ذهبت أدراج الرياح . فقد كان المقاتلون اليهود ذاهلين عن كل شيء إلا الحرص على النجاة بجلودهم .

ودخل اليهود الحصن والمسلمون في أثرهم ، ودارت معركة داخل الحصن وأصوات الهلع تغطي على قعقة السلاح . وجزى النسوة في رعب في أرجاء الحصن يفوق سرعة كر الرجال وفرهم . وخفتت أصوات السيوف وارتفع الصراخ فقد كان المسلمون يأسرون الرجال والنساء والولدان ويحملون الغنائم إلى معسكر المسلمين .

ولاح في الأفق البعيد ركب قادم من المدينة فأتجهت إليه الأنظار حتى إذا ما دنا من المعسكر عرف الناس القادمين ، إنهم سبعون بيتا من دوس

على رأسهم الطفيل بن عمرو الدوسي وفيهم أبو هريرة . كان الطفيل قد أسلم قبل أن يهاجر رسول الله عليه السلام وعاد إلى قومه فأجابه أبو هريرة وحده وأبطأ عليه قومه ، فعاد إلى رسول الله — ﷺ — وأخبره بإبطاء قومه وقال له :

— ادع عليهم .

فقال — ﷺ :

— اللهم اهد دوسا واثت بها .

ثم قال له :

— اخرج إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

فخرج إلى قومه فلم يزل بأرض دوس يدعوها حتى هاجر رسول الله — ﷺ — إلى المدينة ومضت غزوة بدر وأُحُد والخندق ، ثم قدم على رسول الله — ﷺ — بمن أسلم من قومه حتى نزل المدينة ، فصرى أبو هريرة الصبح خلف سباع بن عرفة فقراً في السجدة الأولى بسورة مريم وفي الآخرة ويل للمطففين .

فقال أبو هريرة في نفسه :

— ويل لأبي !

وتذكر أبو هريرة رجال الأزد قتل رجل كان بأرض الأزد إلا وكان له مكيالان : مكيال لنفسه وآخر يبخس به الناس .

ونزل الطفيل بن عمرو والذين معه في معسكر المسلمين ينتظرون النهار ليدخلوا على رسول الله عليه السلام ، فضل غلام لأبي هريرة فجعل ينشد :

يا ليلة من طولها وعنائها على أنها من دارة الكفر نجت

وأذن بلال بالفجر فنهض كل من في المعسكر وصلوا خلف رسول الله عليه السلام ، فلما قضيت الصلاة دخل سادات الأزد على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال الطفيل بن عمرو :

— يا رسول الله اجعلنا ميمتك واجعل شعارنا مبرور .

وطلع غلام أنى هريرة الذى كان ضل فى الليلة الماضية فقال له عليه السلام :

. — هذا غلامك يا أبا هريرة ؟

فقال أبو هريرة وهو متفرح فى الله :

— هو حر لوجه الله .

(١٤)

فتح رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — حصون النطااة الثلاثة وخرج حصن قلة فى سهم الزبير بن العوام فعرف بقلة الزبير ، وسار المسلمون إلى حصار حصون الشق وقد صار الأزد ميمنة جيش المسلمين وصار شعارهم مبرور . وبدأ المسلمون بحصن أبى فقاتل أهله قتالا شديدا ، وخرج رجل منهم يقال له غزوال يدعو إلى البراز فيرز له الحباب وحمل عليه فقطع يده اليمنى ونصف ذراعه فبادر راجعا منهزما إلى الحصن ، فتبعه الحباب فقطع عرقوبه فوق فذقف عليه ، فخرج آخر مبارزا فخرج له رجل من المسلمين فقتل اليهودى المسلم فارتفعت صيحات الفرح من فوق الحصن .

فقام اليهودى مكانه للبراز وقد انتفخت أوداجه^(١) غرورا فخرج له أبو دجانة وعصب رأسه بعصابة حمراء . فاستبشر المسلمون ، فما خرج أبو دجانة يتبختر وقد عصب رأسه بعصابته إلا أذاق خصمه المنون .
وضرب أبو دجانة اليهودى فقطع رجله ثم دَفَفَ^(٢) عليه فتركه جثة هامدة فنزل الرعب فى قلوب اليهود فأحجموا عن البراز ، فكبر المسلمون وتحاملوا على الحصن ودخلوه يتقدمهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثا ومتاعا وغنا وطعاما . وهرب من كان فيه ولحق بحصن يقال له حصن البرىء وهو الحصن الثانى من حصنى الشق فتمنعوا به أشد التمتع وكان أهله أشد رميا للمسلمين بالنبل والحجارة حتى أصاب النبل ثياب رسول الله — ﷺ — وعلقت به .

وثارت الدماء فى عروق المسلمين قحملوا على الحصن حملة رجل واحد ، ونصبوا المنجنيق الذى وجدوه فى حصن الصعب وجعلوا يصوبون القذائف إلى الحصن حتى أوجدوا به ثقبا فراحوا يتدفقون منه ويقاتلون المدافعين .

وسقط حصن أبى فوجدوا فيه فيما وجدوا آنية من نحاس وفخار كانت اليهود تأكل فيها وتشرب ، فقال عليه السلام :
— سخنوا فيها الماء ثم اطبخوا بعد وكلوا واشربوا .

وانهزم من سلم من يهود تلك الحصون إلى حصون الكثيبة وهى ثلاثة حصون : القموص والوطيح وسلام ، فراح المسلمون يحاصرون

(١) الأوداج : جمع مفردة ودَج وهو عرق يظهر فى صفحتى العنق .

(٢) دَفَفَ عليه : أجهز عليه .

القموص عشرين ليلة وكان منيعا ، إنه حصن أى الحقيق وفيه صفية بنت حى بن أخطب وكرائم نساء اليهود .

وقاد على بن أبى طالب هجوم المسلمين فانطلق لا يلوى على شىء لا يهاب النبل الذى تساقط على المسلمين كالطر ، فلما رأى اليهود تقدمه أوجسوا منه خيفة وراحوا يرمونه بالحجارة وهو كالليث يعدو إلى الحصن لا يلتفت خلفه . واندفع الرجال فى أثره وشعار الناس يا منصور أمت أمت ، وشعار ميمنته من الأزد مبرور .

وتداعى الحصن تحت هجمات على كرم الله وجهه وصناديد المسلمين . وسُبيت صفية بنت حى وبنت عم لها وجاء بلال بهما فمر على قتلى يهود ، فلما رأتهم بنت عم صفية صاحت وصكت وجهها وحشت التراب على رأسها ، فلما رآها — ﷺ — قال : — اغربوا عنى هذه الشيطانة .

والتفت إلى بلال وقال :

— أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟
وذهب بلال بهما إلى حيث جمع السبى فجاء دحية الكلبي فقال :
— يا نبي الله أعطني جارية من السبى .
— اذهب فخذ جارية .

فأخذ صفية بنت حى ، فجاء رجل إلى النبي — ﷺ — فقال :
— يا رسول الله أعطيت دحية صفية سيّدة قريظة والنضير ، لا تصلح إلا لك .

— ادعوه بها .

فجاء بها : فلما نظر إليها النبي — ﷺ — قال :

— خذ جارية من السبي غيرها .

وذهب دحية إلى حيث جمع السبي وأخذ جارية أخرى هي أخت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق زوج صفية .

وحاصر المسلمون حصن الوطيح وحصن السلام ومكثوا على حصارهما أربعة عشر يوما فلم يخرج أحد منهما ، فهم — ﷺ — أن يجعل على من فيها المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله — ﷺ — الصلح في حقن دماء المقاتلة وترك الذرية لهم ويخرجون من خير وأرضها بذرارهم وأن لا يصحب واحد منهم إلا ثوبا واحدا على ظهره ، فصالحهم على أن ذمة الله ورسوله بريئة منهم أن يكتموه شيئا من متاعهم يسألهم عنه .

ووجد في الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وألف رمح وخمسمائة فرس عربية ، ووجدوا في أثناء الغنime صحائف متعددة من التوراة فجاءت يهود تطلبها فأمر — ﷺ — بدفعها إليهم ، وغيبوا الجلد الذي كان فيه حلى بنى النضير وعقود الدر والجوهر الذين جلوا به ، فإنهم لما جلوا كان سلام بن أبي الحقيق رافعا له ليراه الناس وهو يقول بأعلى صوته : « هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها » فقال رسول الله — ﷺ — لكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق :

— أين مسك (جلد) حبي بن أخطب ؟

إن رسول الله يسأل عن كنز حبي عظيم بنى النضير فجحد أن يكون يعلم مكانه وقال :

— نفد في النفقة والحروب .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— كان أكثر من ذلك .

ثم جاء رجل من يهود إلى رسول الله — ﷺ — فقال :
— يا رسول الله إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة .
فقال رسول الله — ﷺ — لكنانة :
— أرايت إن وجدناه عندك أقتلك ؟

— نعم .

فأمر رسول الله — ﷺ — بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض
كنزهم ، ثم سأله عما بقى فأبى أن يؤديه ، فأمر رسول الله — ﷺ —
الزبير بن العوام به فقال :
— عذبه حتى نستأصل ما عنده .

فراح الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه ، وجيء
بكنز بنى النضير فإذا به أساور ودمالج وخلائيل وأقرطة وخواتم الذهب
وعقود الجواهر والزمرد وعقود أظفار مجزع بالذهب ، إنها الحلى التى كان
أعيان مكة يستعيرونها من بنى النضير إذا كان لأحدهم عرس .
ودفع رسول الله — ﷺ — بكنانة لمحمد بن مسلمة فضرب عنقه
بأخيه محمود ، وقال — ﷺ — لأصحابه :
— يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوبا .

وراح المسلمون يتطلعون صوب المدينة فإذا ركب يشتد على
الطريق ، إنه جعفر بن أبى طالب ومعه الأشعريون أبو موسى الأشعري
وأخوه أبو رهم وأبو بردة وسبعون رجلا عليهم ثياب الصوف ، منهم
اثنان وستون من الحبشة وثمانية روميون من أهل الشام . وراح المسلمون
القادمون من الحبشة يقولون فى شوق :

- غدا نلقى الأحبة ، محمدا وحزبه .
وأقبل عليه — ﷺ — جعفر فقام عليه السلام إلى جعفر وقبله بين
عينيه وقال :
— جعفر أشد الناس بى خَلقا وُخَلقا .
فانتشى جعفر بهذا القول ورقص من نشوة الخطاب ، وراح —
ﷺ — يخدم وفد النجاشى بنفسه فقال له أصحابه :
— نحن نكفيك يا رسول الله .
— إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم .
واستمر رسول الله عليه السلام يخدم وفد النجاشى بنفسه وينظر إلى
جعفر بن أبى طالب فى غدوه ورواحه وهو مسرور ثم قال :
— لا أدرى بأيهما أنا أسر ، بفتح خير أم بقدوم جعفر .

(١٥)

- أمر رسول الله — ﷺ — بالغنائم فجمعت واستعمل عليها فروة بن
عمرو البياضى ، وأمر بذلك فجزىء خمسة أجزاء وكتب فى سهم منها
لله وسائر السُّهُمان أغفال ، فكان أول ما خرج سهم النبى — ﷺ — ،
وأمر ببيع الأربعة الأخماس فىمن يزيد فباعها فروة وقسم ذلك بين
أصحابه .
وكان الذى ولى إحصاء الناس زيد بن ثابت فأحصاهم ألفا وأربعمائة
رجل ، والخيل مائتى فرس ، فكانت السُّهُمان على ثمانية عشر سهما
لكل مائة سهم ، وكان الخمس الذى صار إلى رسول الله — ﷺ — —

يعطى منه على ما أراه الله .

وكانت المقاسم على أموال خير على الشق ونطاة والكتيبة فكانت الكتيبة خمس الله وسهم النبي — ﷺ — وذوي القرى واليتامى والمساكين ، وطُعم أزواج النبي — ﷺ — وطعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ ، وبين أهل فذك بالصلح . فإنه لما أقبل رسول الله — ﷺ — على خير ودنا منها بعث محيصة بن مسعود إلى أهل فذك يدعوهم إلى الإسلام ويخوفهم فجاءهم محيصة فجعلوا يتربصون ويقولون :

— إن بخير عشرة آلاف مقاتل فيهم عامر وياسر والحارث وسيد اليهود مرحب ، ما نرى أن محمدا يقرب إليه .

فمكث محيصة عندهم يومين ثم أراد الرجوع فقالوا :

— نحن نرسل معك رجالا منا يأخذون لنا الصلح .

كانوا يظنون أن رسول الله — ﷺ — لا يقدر على فتح خير حتى جاءهم أناس من حصن ناعم وأخبروهم أن رسول الله — ﷺ — فتحه ، فأرسلوا رجلا من رؤسائهم يقال له نون بن يوشع في نفر يصلحون رسول الله — ﷺ — أن يحقن دماءهم ويجليهم ويخلوا بينه وبين الأموال ، فكانت فذك لرسول الله — ﷺ — لأنها لم تؤخذ بمقاتلة فكان عليه السلام ينفق منها ويعود منها على صغير بني هاشم ويزوج منها أيمهم .

وأعطى عليه السلام من أموال خير محيصة بن مسعود أعطاه ثلاثين وسقا^(١) من شعير وثلاثين وسقا من تمر . وكانت الشق والنطاة في

(١) الوسق : ستون صاعا أو حمل بعير .

سُهمان المسلمين . وقسمت خير على أهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله ﷺ — كسهم من حضرها .

وقسم رسول الله ﷺ — من الكتيبة — وهو وادى خاص — لفاطمة ابنته مائتي وسق . ولعلي بن أبي طالب مائة وسق ، ولأسامة بن زيد مائتي وسق وخمسين وسقا نوى ، ولعائشة أم المؤمنين مائتي وسق ، ولأبي بكر الصديق مائة وسق ، ولعقيل بن أبي طالب مائة وسق وأربعين وسقا ، ولبنى جعفر خمسين وسقا ، واستمر عليه السلام يقسم السهمان فقد جاء الله بالفرج .

وكانت غطفان قد أرادت وسيدهم عيينة بن حصن أن يعينوا أهل خير وكانوا أربعة آلاف ، فإن يهود خير لما سمعوا بمجيئه ﷺ — إليهم أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهودة بن قيس في أربعة عشر رجلا إلى غطفان ليستمدوا بهم وشرطوا لهم نصف ثمار خير إن غلبوا المسلمين ، فجمعوا ثم خرجوا ليظاهروا يهود خير فلما ساروا قليلا سمعوا صوتا : — أيها الناس أهليكم خولفتم إليهم .

فألقي الله الرعب في قلوبهم فرجعوا على الصعب والذلول فأقاموا في أهلهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ — وبين أهل خير : وقدمت غطفان عليه ﷺ — خير ، قال عيينة بن حصن لرسول الله عليه السلام وقد وجدته فتح حصونها :

— أعطني مما غنمت من حلفائي فأني امتنعت عنك وعن قتالك . فقال رسول الله ﷺ :

— كذبت ولكن الصباح الذي سمعت أنفذك إلى أهلك ، ولكن لك

ذو الرقية .

قال عيينة في دهش :

— وما ذو الرقية ؟

— الجبل الذى رأيت فى منامك أنك أخذته .

لما سمع عيينة بن حصن الخليع المطاع الذى تتبعه ألف امرأة الصوت ورجع إلى أهله ولم يجد شيئاً رجع بعد ذلك بمن معه إلى خير ، فلما كانوا بالقرب منها نزلوا ليقضوا ليلتهم فنام عيينة وانتبه وقال لقومه :

— أبشروا فإنى رأيت الليلة فى النوم أنى أعطيت ذا الرقية (وهو جبل بخير) لقد والله أخذت برقة محمد .

وقدم حجاج بن علاط السلمى وأسلم ، وكان الحجاج مكثراً من المال فقال :

— يا رسول الله إن مالى عند امرأتى بمكة ومتفرق فى تجارة مكة ، فأذن لى أن آتى مكة لأخذ مالى قبل أن يعلموا بإسلامى فلا أقدر على أخذ شيء منه .

فأذن له رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله لا بد أن أقول .

كان الحجاج يلتمس من رسول الله عليه السلام أن يتقول وأن يذكر خلاف الواقع وأن يقول ما يحتال به لما يوصله إلى أخذ ماله ، فقال له ﷺ :

— قل .

وجعل رسول الله — ﷺ — صفية عند أم سليم التى هى أم أنس خادمه لتصلح من شأنها حتى تطهر من الحيض فلما اطمأن رسول

الله — ﷺ — أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية وقد سألت :

— أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله — ﷺ ؟

ف قيل لها :

— الذراع .

فأكثر فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدي رسول الله — ﷺ — تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ، ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله — ﷺ . فأما بشر فأساغها وأما رسول الله — ﷺ — فلفظها ثم قال :

— إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم .

ثم دعا بها فاعترفت فقال :

— ما حملك على ذلك ؟

— بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبيا فسيُخبر .

فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ، ومات بشر من أكلته التي أكل .

وركب الناس وانطلقوا وكل خالجة فيهم تشكر الله على ما آتاهم من نصر ، ولما قطع عليه السلام ستة أميال من خير وأراد أن يعرس بصفية فأبت فوجد^(١) النبي — ﷺ — في نفسه ، فلما سار ووصل الصهباء مال إلى دومة هناك ودخل على صفية وما من الناس أحد أكره إليها منه ،

. (١) وجد : حزن .

قتل أباهما وزوجها وقومها ، فقال — ﷺ :
— أما إني أعتذر إليك مما صنعت بقومك ، إنهم صنعوا كذا وكذا .
وما زال يعتذر إليها حتى ذهب ذلك الكره من نفسها ، وخيرها عليه
السلام بين أن يعتقها فترجع إلى من بقى من أهلها أو تسلم فيتخذها
لنفسه فقالت :

— أختار الله ورسوله .

ورأى عليه السلام بأعلى عينها خضرة فقال :
— ما هذه الخضرة ؟

— كان رأسي في حجر ابن أبي الحقيق وأنا عروس وأنا نائمة ، فرأيت
كأن القمر وقع في حجري فأخبرته بذلك فلطمني فقال :
— والله ، ما تتمنين إلا ملك العرب .

وأعرس بها رسول الله — ﷺ — بعد أن ظهرت من الحيض في
قبة ، فما قامت من مقعدها ومن الناس أحد أحب إليها منه — ﷺ .
وبات تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري متوشحا سيفه يحرسه ويطوف
بتلك القبة حتى أصبح رسول الله — ﷺ — فرأى مكان أبي أيوب
فقال :

— مالك يا أبا أيوب ؟

— يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة قتلت أباهما وزوجها
وقومها وهي حديثة عهد بكفر ، فبت أحفظك .

— اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني .

فأصبح النبي — ﷺ — عروسا فقال :

— كل من عنده شيء فليجيء به .

وبسط نطعا فجعل الرجل يجيء بالتمر وجعل الرجل يجيء بالسمن وجعل الرجل يجيء بالأقط^(١) والسويق^(٢) وخلط السمن والتمر والأقط والسويق وصنع الحيس ، وقال عليه السلام لأنس بن مالك :

— آذن من حولك .

وأولم عليه السلام على صفية ، فلما انتهى الناس من الوليمة قالوا :

— إن لم يحجبها فهي أم ولد وإن حجبها فهي امرأته .

وأقام عليه السلام بذلك المحل ثلاثة أيام ، وحن أوان الرحيل فوضع — ﷺ — ركبته لتركب صفية عليها فأبت أن تضع قدمها على ركبته ووضعت فخذاها على ركبته وركبت على عجز ناقته ، فجاء الليل فجعلت تنعس فتضرب رأسها مؤخرة الرجل فيمسها بيده ويقول :

— يا هذه مهلا .

ووجدت منه رقة وكياسة ولطفا فقالت :

— ما رأيت أحدا قط أحسن خلقا من رسول الله — ﷺ .

وحجبها عليه السلام فأصبحت صفية بنت حيى بن أخطب أم المؤمنين .

(١) الأقط : يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك .

(٢) السويق : طعام يصنع من الحنطة والشعير .

بلغ قريش أن رسول الله ﷺ — سار إلى خيبر فأظهر جماعة منهم السرور وقالوا إنها قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالا ، وأن محمد بن عبد الله سيدوق الهزيمة عند حصون خيبر ، وقال حويطب بن عبد العزى إن رسول الله يغلب أهل خيبر ، ووقع بين الفريقين مراهنة على مائة بعير ، وخرجوا يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان . فلما رأوا الحجاج قالوا :

— الحجاج بن علاط عنده والله الخبر .

ونخفوا إليه وقالوا :

— أخبرنا يا حجاج فإنه بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر وهى بلد يهود وريف الحجاز .

— قد بلغنى ذلك وعندى من الخبر ما يسركم .

فعدوا إلى ناقته وطافوا بها يقولون :

— إيه يا حجاج !

— هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وقتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط وأسر محمد أسراً وقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم ممن أصاب من رجالهم .

فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا :

— لقد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل

بين أظهركم .

وقال حجاج :

— أعينوني على جمع مالى بمكة على غرمائى فإنى أريد أن أقدم خبير
فأصيب من قل^(١) محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ما
هنالك .

فقاموا فجمعوا له ماله كأحث جمع سمع به ، وجاء صاحبه فقال :
— مالى لعلّى الحق بخير فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقنى
التجار .

وأظهر المشركون الفرح والسرور وانكسر من كان بمكة من
المسلمين ، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب فجعل لا يستطيع أن
يقوم ، ثم بعث إلى حجاج غلاما وقال :
— قل له يقول لك العباس الله أعلى وأجل من أن يكون الذى جئت
به حقا .

فقال له الحجاج :

— اقرأ على أبى الفضل السلام وقل له ليخل لى بعض بيوته لآتيه
بالخبر على ما يسره واكتم عنى .

فأقبل الغلام فقال :

— أبشر أبا الفضل .

فوثب العباس فرحا كأن لم يمسه شيء وأخبره بذلك ، فأعتقه العباس
وقال :

(١) الفل : الجمع .

— لله عليّ عتق عشر رقاب .

ولم يستطع العباس صبرا فخرج إلى حيث كان حجاج حتى وقف إلى جنبه وهو في خيمة من خيام التجار فقال :

— يا حجاج ، ما هذا الخبر الذي جئت به ؟

— وهل عندك حفظ لما وضعت عندك ؟

— نعم .

— فاستأخر عني حتى أفرغ .

فلما فرغ حجاج من جمع كل شيء كان له بمكة وأجمع الخروج لقي العباس فقال :

— احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل فإني أخشى الطلب ثلاثا ثم قل ما

شئت .

— أفعل .

— إني قد أسلمت وإن لي مالا عند امرأتي ودينا على الناس ، ولو علموا بإسلامي لم يدفعوه إلى . إني تركت رسول الله — ﷺ — قد فتح خير وجرت سهام الله وسهام رسوله فيها وتركته عروسا بابنة ملكهم حبي بن أخطب وقتل ابن أبي الحقيق .

فلما أمسى حجاج خرج وطالت على العباس تلك الليالي الثلاث ، فلما مضت الثلاث عمد العباس إلى حلة فلبسها وتخلق بمخلوق وأخذ بيده قضيبا ثم أقبل يخطر حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مر بهم :

— لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل . هذا والله التجلد بحر المصيبة .

فقال العباس في هدوء ليخفي شماته :

— كلا والله الذي حلفت به لم يصبني إلا خير بحمد الله ، أخبرني

حجاج أن خير فتحها الله على يد رسول الله — ﷺ — وجرت فيها سهام الله وسهام رسول الله ، واصطفى رسول الله صفية بنت ملكهم حبي بن أخطب لنفسه وأنه تركه عروسا بها . وإنما قال ذلك لكم ليخلص ماله وإلا فهو ممن أسلم .

فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين ، فقال المشركون :

— انفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن .
ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك وأن رسول الله لما فرغ من خير انصرف إلى وادى القرى فنزل به مع غروب الشمس ومعه غلام له يقال له مدعم أهداه إليه رفاعة بن زيد الجذامي ، فبينما هو يضع رحل رسول الله — ﷺ — أتاه سهم غرب فقتله فقال الناس :
— هنيئا له الجنة .

فقال رسول الله — ﷺ :

— كلا والذي نفس محمد بيده ، إن شملته لتحترق عليه في النار .
كان غلها من فيء المسلمين يوم خير ، فسمعها رجل من أصحاب رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أصبت شراكين لتعلن لي .

— لقد لك مثلهما من النار .

كانت يهود وادى القرى قد ثوى إليها ناس من العرب ، فلما نزل المسلمون استقبلوهم بالرمل حيث نزلوا ، ولم يكن المسلمون على تعبئة وهم يصيحون من آطامهم ، فعبا رسول الله — ﷺ — أصحابه وصفهم للقتال ودفع لواءه إلى سعد بن عباد وراية إلى الحباب بن المنذر

وراية إلى سهل بن حنيف وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحققوا دماءهم وحسابهم على الله ، فبرز رجل منهم فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه على بن أبي طالب فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه أبو دجانة الأنصاري فقتله ، حتى قتل منهم اثنا عشر رجلا كلما قتل رجل منهم دعى من بقى إلى الإسلام .

ولقد كانت الصلاة تحضر فيصل على السلام بأصحابه ثم يعود فيدعو أهل وادى القرى إلى الله ورسوله ، فقاتلهم — صلى الله عليه وسلم — حتى أمسى ، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم وفتحها عنوة وغنم أموالهم وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا ، فأقام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بوادى القرى أربعة أيام وقسم ما أصاب على أصحابه وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود وعاملهم عليها . فلما بلغ يهود تيماء ما كان من أمر خير وفدك ووادى القرى صالحوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على الجزية .

وشرد سلمان الفارسي يفكر ، إنه يرى نفسه وقد انتهت رحلة البحث عن الحقيقة إلى عمورية ببلاد الروم ، إنه سمع هناك أنه قد أظل زمان نبي يبعث بدين إبراهيم حنيفا يهاجر إلى أرض ذات نخل بين حرتين ، ومر به ركب ذات يوم فسألهم عن بلادهم فعلم أنهم من جزيرة العرب مبعث ذلك النبي الأمي ، فأعطاهم بقراته وغنمه على أن يحملوه معهم إلى أرضهم . واصطحبوه معهم حتى قدموا به هذا الوادى وادى القرى ، وتذكر سلمان كيف ظلموه وباعوه إلى رجل من يهود فاذا بالدموع تطفر إلى عيني الباحث عن الحقيقة وراح يقلب عينيه في

النخيل ، إنه طمع في ذلك اليوم أن تكون هي البلدة التي وصفت له
والتي ستكون مهاجر النبي المنتظر .

وانثالت الذكريات على رأس سلمان فإذا به يرى ذلك اليهودي الذي
قدم يوما من بني قريظة إلى وادي القرى فابتاعه من مولاه ، واختلطت
مشاهد بيعه بمشاهد خروج بني قريظة من حصونهم بمشاهد عمله في نخل
بني قريظة بتلك اللحظات التي لا تنسى لحظات أول مرة سمع فيها بمقدم
رسول الله — ﷺ — إلى المدينة .

وتزاحمت في رأسه ذكريات إسلامه وذكريات أيامه مع رسول الله
عليه السلام ، ثم شرد إلى الأفق البعيد وهو يحمد الله على أن هداه إلى
الصراط المستقيم وأن سكب في قلبه أنوار اليقين .

وانصرف رسول الله — ﷺ — راجعا إلى المدينة ، فلما كان ببعض
الطريق قال من آخر الليل :

— من رجل يحفظ علينا الفجر لعنا ننام ؟

فقال بلال :

— أنا يا رسول الله .

فنزل رسول الله — ﷺ — ونزل الناس فناموا وقام بلال يصلي ،
فصلى ما شاء الله أن يصلي ثم استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمقه (١)
فغلبته عينه فنام فلم يوقظهم إلا مس الشمس ، وكان رسول الله —
ﷺ — أول أصحابه استيقاظا فقال :

— ماذا صنعت بنا يا بلال ؟

(١) يرمقه : ينظر إليه .

— يا رسول الله أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك .

— صدقت .

ثم اقتاد رسول الله — ﷺ — بعيره غير كثير ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس ، ثم أمر بلالا فأقام الصلاة فصلى رسول الله — ﷺ — بالناس ، فلما سلم أقبل على الناس فقال :

— إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ (١) .

(١٧)

خرجت المدينة تستقبل رسول الله — ﷺ — عند عودته من غزوة خيبر ، الرجال تهلل وجوههم بالبشر والولدان يغمرونهم بالفرح والنساء على أسطح المنازل قد عمرت أفئدتهم بالسرور ، والمنافقون فى كمد يظهرون غير ما تخفى الصدور .

وكانت النسوة فى دور الرسول عليه السلام يتأهبن لاستقبال نبي الإسلام الذى نصره الله بقلوب سليمة ، إلا عائشة فقد أخذت الغيرة تنهش قلبها بعد أن جاءها نبأ زواج رسول الله عليه السلام من صفية بنت حبيى ملك اليهود الشابة الجميلة ذات السبعة عشر ربيعاً .

وكانت أم حبيبة أم المؤمنين ترقب عودة رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — فى لفة ؛ إنها عادت من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب وعمرو بن أمية الضمري والمهاجرين الذين كانوا فى الحبشة واستقرت فى المدينة تنتظر أوبة النبي عليه السلام ، بينا انطلق الرجال إلى خيبر

ليجاهدوا في سبيل الله .

وكانت عائشة على علم بأن رسول الله — ﷺ — كتب إلى النجاشي يزوجه بنت أبي سفيان . فلما جاءت أم حبيبة إلى المدينة لم تستشعر عائشة نحوها غيرة فهي في الأربعين من عمرها ، وهي تستشعر في أعماقها أن ذلك الزواج مبعثه سياسي أما الزواج من اليهودية الحسناء فقد شغلها وأرق نومها .

وبلغ الركب المدينة ، وأثر النبي عليه السلام ألا يدخل على زوجاته بصفية فأنزلها في بيت حارثة بن النعمان ، وتسامعت نساء الأنصار بها فجئن ينظرن إلى جمالها . وراح عليه السلام يزور أهل بيته فبدأ بالزهراء وأخذ يقبل الحسن والحسين ، ثم دار على نسائه فأخذن يرحبن بمقدمه ويهنئنه بما فتح الله عليه ، وقد قرأ عليه السلام الغيرة في عيني بنت الصديق فراح يرقبها .

وخرجت عائشة متنقبة على حذر وأخذ رسول الله عليه السلام يتبع خطاها ، إنها تسير إلى دار الحارثة بن النعمان حيث استقرت ضررتها الجديدة . ودخلت عائشة وانتظر رسول الله عليه السلام حتى خرجت فأدركها وأخذ بثوبها وسألها ضاحكا :

— كيف رأيت يا شقيراء ؟

وجاهدت عائشة لتد غيرتها وقالت وهي تهز كتفها في استخفاف :
— رأيت يهودية .

— لا تقولي ذلك فإنها أسلمت وحسن إسلامها !

وعادت عائشة إلى حفصة لتبثها بنجواها ، وكانت حفصة موضع سر عائشة ، وكانت عائشة أكثر نساء النبي غيرة عليه حتى إنها كانت تغار

من خديجة إذا مدحها رسول الله عليه السلام ، فقد قالت له ذات يوم لما ذكر حاضنة الإسلام بخير :

— قد بذلك الله خيرا منها .

فغضب رسول الله ﷺ — وقال :

— والله ما أبدلني الله خيرا منها ، آمنت بي حين كذبتني الناس ، وواستني بماها حين حرمني الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها .

واتفق له عليه السلام أنه أرسل لحما لامرأة تناوله — ﷺ — ودفعه لآخر يدفعه لها ، فسأله عائشة عن تلك المرأة فقال :

— إن خديجة أوصتني بها .

فقالت عائشة في غضب :

— لكأنما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة .

فقام رسول الله ﷺ — مغضبا ، فلبث ما شاء الله ثم رجع فإذا أم رومان أم عائشة فقالت :

— يا رسول الله مالك ولعائشة ؟ إنها حديثه السن وأنت أحق من يتجاوز عنها .

فأخذ شوق عائشة وقال :

— والله لقد آمنت بي إذ كفر بي قومي ، ورزقت منها الولد وحرمتوه .

كانت تغار من الأموات فما بالك بالأحياء الحسان !

وانتقلت صفية إلى دور النبي عليه السلام فأثرت السلامة ، فقد فطنت مذ وطئت قدماها وجود حزين في دور رسول الله — صلوات

الله وسلامه عليه : حزب بقيادة عائشة ومعها حفصة وحزب من الزوجات الأخريات تؤيده فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه السلام ، فعزمت على أن تكون صديقة الجميع فأهدت الزهراء حلية لها من ذهب رمز مودة وولاء .

وراحت تتقرب من بنت الصديق وبنت عمر ، وكانت حفصة فيها حدة وكانت تعارض رسول الله عليه السلام وما كان عمر ليتصور أن ابنته تراجع الرسول الكريم . وذات يوم صخب على امرأته فراجعته فأنكر أن تراجعها ، فقالت :

— ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي — ﷺ — ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل .
فأفزع ذلك منهن فدخل على حفصة فقال لها :
— أتغاضب إحداكن النبي — ﷺ — حتى الليل ؟
— نعم .

— قد خبت وخسرت ، أفتأمنين أن يغضب الله بغضب رسوله فتهلكي ؟ لا تستكثري النبي — ﷺ — ولا تراجعيه في شيء ولا تهجره وسليني ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبي — ﷺ — .

وذهبت نصيحة عمر أدراج الرياح ، فحفصة معتزة بشخصيتها لا تخرج من معارضة الرسول عليه السلام ، إنه عليه السلام يذكر عندها أصحابه الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية فقال :

— لا يدخل النار إن شاء الله أحد من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها .

— بلى يا رسول الله !

فانتهرها . فتلّت الآية :

— ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ (١)

— قال الله : ﴿ ثم نتجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ (٢) .

وشجر بين النبی — ﷺ — وبين حفصة أمر ، فقال لها :

— اجعلى بينى وبينك رجلا .

— نعم .

— فأبوك إذا .

فأرسلت إلى عمر فجاء ، فلما دخل عليهما قال لها النبي — ﷺ :

— تكلمى .

— بل أنت يا رسول الله تكلم ولا تقل إلا حقا .

فرفع عمر يده فوجأها (٣) في وجهها ، فقال له النبي — ﷺ :

— كف يا عمر .

فقال عمر في غضب :

— يا عدوة الله ، النبي — ﷺ — لا يقول إلا الحق والذي بعثه

بالحق لولا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتى .

كانت صفية ترى ما يجري في دور الرسول عليه السلام فكانت وهى العاقلة الفاضلة تحاول أن تنأى بنفسها عن المعارك الخفية الناشئة بين زوجات الرسول عليه السلام . وكانت تتوّد إلى عائشة وحفصة لعلها

(١ ، ٢) مريم ٧١ — ٧٢ .

(٣) وجأها ضربه بها .

تنعم بالهدوء وتسعد بحبها لنبي الإسلام ، صلوات الله وسلامه عليه ،
ولكنها لم تسلم من التحقير . دخل عليها — ﷺ — يوما وهي تبكي
فقال لها في ذلك فقالت :

— بلغنى أن عائشة وحفصة ينالان منى ويقولان نحن خير من
صفية ، نحن بنات عم رسول الله — ﷺ .
— قولى لهن كيف تكن خيرا منى وأبى هارون وعمى موسى عليهما
الصلاة والسلام ، وزوجى محمد .

وظلت صفية تحس في أعماقها أنها غريبة في دور الرسول ، فأزواجه
عليه السلام لا يستطيعون أن ينسين أصلها . إنه كان في سفر وهي معه
وزينب بنت جحش فاعتل بعير صفية وفي إبل زينب فضل ، فقال لها :
— إن بعير صفية اعتل فلو أعطيتها بعيرا ؟
— أنا أعطى تلك اليهودية ؟

فهجر زينب بنت جحش لذلك ذا الحجة والحرم وبعض صفر ، ثم
أتاها بعد وعاد إلى ما كان عليه معها .

(١٨)

المدينة تحتفل بنصر الله والفتح قد ملأت النشوة أفئدة الناس ، فما
كان يدور بخلد أحد من الأوس والخزرج قبل أن يشرفهم الله برسالته أن
يأتى يوم تكون فيه كلمة العرب هى العليا ، وأن يضرب الذلة والمسكنة
على بنى إسرائيل الذين عبدوا أنفسهم غرورا وقالوا فى تبجح إنهم
وحدهم الناس .

وكانت أم حبيبة بنت أبي سفيان في الدار تنتظر دخولها على رسول الله ﷺ — وقد غمرها سرور امتزج برهبة ، وترامى إليها أصوات الرجال الذين اجتمعوا حول الوليمة التي أعدها عثمان بن عفان فتهللت بالفرح فأمنيتها التي عاشت لها منذ أرسل عليه السلام عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليزوجها منه ، ﷺ — تتحقق ، فلن ينقضى الليل قبل أن تناجي الرسول — صلوات الله وسلامه عليه . ومس أذنيها صوت ذى النورين عثمان بن عفان فإذا بها تتذكر أيام أن كان عثمان وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ — في الحبشة ، كانا ملاذ المسلمين هناك وكان عثمان على خلق كريم يخشى الله ويستحي منه الناس ، فكان زينة المسلمين ، وكانت وشائج القرى تربط بينه وبينها فصفية بنت أبي العاص بن أمية أمها عمته ، وكانت سعيدة بهذه القرابة ولكن أخوة الإسلام كانت تجعله أقرب إلى نفسها من أبيها أبي سفيان . ودخلت أم حبيبة على رسول الله ﷺ — وأخذت تخبره كيف كانت الخطبة ، قالت :

— رأيت في المنام كأن قائلًا يقول لي يا أم المؤمنين ففزعت فأولتها بأن رسول الله ﷺ — يتزوجني ، فما شعرت إلا وقد دخلت على جارية النجاشي فقالت لي إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ — كتب إليه يزوجك منه ، فقلت لها بشره الله بالخير .

ويقول لك وكل من يزوجك ، فأرسلت بالوكالة إلى خالد بن سعيد وأعطيت تلك الجارية سوارين وخدمتين (خلخالين) وخواتيم فضة سرورا بما بشرت به .

فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن معه من

المسلمين فحضروا ، وخطب النجاشي فقال : الحمد لله الملك القدوس ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنه الذي بشر به عيسى بن مريم عليه السلام ، أما بعد فإن رسول الله ﷺ — كتب إلي أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان فأجبنا إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ ، وقد أصدقها أربعمئة دينار — ثم سكب الدنانير بين يدي القوم ، فتكلم خالد بن سعيد بن العاص فقال : الحمد لله أحمدته وأستعينه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أما بعد فقد أجبته إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ — وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان فبارك الله لرسول الله ﷺ . ودفع النجاشي الدنانير لخالد ابن سعيد فقبضها منه .

ثم لما أرادوا أن يقوموا بعد العقد قال لهم النجاشي : اجلسوا فإن من سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج ، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا . فلما كان من الغد جاءتنى جارية النجاشي فردت على جميع ما أعطيتها وقالت : إن الملك عزم على ألا أرزأك شيئا ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر . وجاءت بورس وعنبر وزباد كثير وقالت : حاجتي إليك أن تقرني رسول الله ﷺ — مني السلام وتعلميه أني قد اتبعت دينه .

وكانت كلما دخلت على تقول : لا تنسى حاجتي إليك .

فتبسم رسول الله ﷺ — وقال :

— وعليهما السلام ورحمة الله وبركاته .

كانت أم حبيبة راضية مستبشرة بينا كان أبوها أبو سفيان في حيرة قد

نزل به هم ثقيل . إنه في دار التدوة يتشاور مع سادات قريش ، فأبو بصير وأبو جندل ومن معهما من المسلمين لا يظفرون بأحد من قريش إلا قتلوه ، وما تمر بهم غير إلا أخذوها . كان سهيل بن عمرو يوم اشترط في صلح الحديبية أن من جاء رسول الله ﷺ — مسلما من قريش رده إليهم بحسب أنه انتصر لما أملى ذلك الشرط ، وقد برهنت الأيام أنه فتح على قريش بابا من الشر تصطلي بناره ؛ فقوافل قريش الرائحة الغادية بين مكة والشام باتت في خطر ، وتجارة قريش توشك أن تبور .

ثار أبو سفيان ثورة عارمة وقال لو أنه حضر صلح الحديبية ما أصر على ذلك الشرط الذي ظن المسلمون أنه مجحف بهم وكاد يصدع ائتلافهم لولا قوة شخصية نبي الإسلام ، وقد برهنت الأيام أنه عليه السلام كان وحده يعرف أن ذلك الشرط الذي يبدو نصرا لقريش سيصبح شوكة في جنوبهم تقض مضاجعهم وتجعلهم يهرعون إليه يلتمسون منه أن يخلصهم من ثورة الذين لن تقبلهم المدينة ولن يعودوا إلى مكة ليفتنوا عن دينهم ويساموا ألوان العذاب .

وراح سادات قريش يقلبون وجوه الرأي ، قال قائل منهم :

— نكتب له نساله بالأرحام إلا آواهم ولا حاجة لنا بهم .

وكادوا يستقرون على هذا الرأي ولكنهم خشوا ألا تكون الكتابة وحدها كافية لإسقاط شرط في صلح أقره الجانبان وشهد عليه شهود ، فقرروا أن يذهب أبو سفيان إلى المدينة ليقر بأن من أتى رسول الله عليه السلام من مسلمي مكة فهو آمن ولا حاجة لهم به .

• وشد أبو سفيان بن حرب الرحال إلى المدينة وهو يحس في عين ذاته أن اليوم غير أمس . إنه قاد جيش قريش يوم أحد وهو يرجو أن

يستأصل شأفة المسلمين ، وقاد الأحزاب يوم الخندق وهو في زهوه لا يخالجه شك أن النصر حليفه ، أما اليوم فهو ينطلق إلى المدينة ليلتمس من محمد أن يسقط شرطاً في المعاهدة كان سادات قريش يحسبونه عين النصر .

ودخل زعيم قريش وسيدها المدينة فهرع إليه المسلمون يقودونه إلى حيث كان رسول الله ﷺ ، واجتمع الرجال في المسجد ولم يكن يفصل بين أبي سفيان وابنته أم حبيبة سوى جدار الدار ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يذهب إليها ليملاً عينيه منها ، فهي قد اختارت الله ورسوله على أبيها وكل قومها الذين عميت قلوبهم التي في صدورهم عن النور .
وقال أبو سفيان : إنا أسقطنا هذا الشرط من الشروط ، من جاء منهم إليك فأمسكه في غير حرج ، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره .

وراح عمر بن الخطاب ينظر إلى ما يجري أمامه وهو مشدوه : إنه يحس عرق الخجل يغمره وتذكر ثورته يوم الحديبية إذ وثب فأقى أبا بكر فقال : أليس هو برسول الله ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

ورن في أغواره صوت أبي بكر وهو يقول : « يأيتها الرجل إنه رسول الله ﷺ — وليس يعصي ربه وهو ناصره ، استمسك بفرزه (١) حتى تموت » فأحس كأن الأرض تميد به (٢) ، ووقعت عيناه على أبي

(١) الغرز للإبل والركاب للفرس والمراد : لازمه .

(٢) تميد : تضطرب .

عبدة بن الجراح فإذا بقوله يوم الحديبية يخز روحه ويضنيه : « ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله — ﷺ — يقول ما يقول ؟ تعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

إنه تكلم في ذلك اليوم كلاما رجا أن يكون خيرا فإذا به يعلم الساعة أن غضبه لرد أبي جندل إلى قريش مع أبيه سهيل بن عمرو لم يكن صوابا ، وأن طاعة رسول الله — ﷺ — خير مما أحبه . وعزم عمر على أن يصوم ويتصدق ويصلي ويعتق مخافة كلامه الذي تكلم به في صلح الحديبية .

وكتب رسول الله — ﷺ — إلى أبي جندل وإلى أبي بصير أن يقدموا عليه ، وأن من معهما من المسلمين يلحقون ببلادهم وأهلهم ولا يتعرضوا لأحد من بهم من قريش ولا لعيراتهم .

كان أبو بصير وأبو جندل ومن انضم إليهما من غفار وأسلم وجهينة وطوائف من العرب قد نزلوا محلا من طريق الشام تمر به عيرات قريش ، وكانوا ثلاثمائة مقاتل لا تمر بهم غير إلا أخذوها . فضاقت قريش بفعالهم وكانوا يعرفون خطر ما يقومون به فكانت نفوسهم راضية وإن كانوا في شوق إلى رؤية رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه .

وأحس أبو بصير بالوهن يدب في كيانه وعرف أنه الموت فلم يجزع ، ولكن فؤاده كان يهوى إلى المدينة وإلى رسول الله عليه السلام . وسجى في فراشه ليجود بأنفاسه ، وبينما هو يقاسى سكرات الموت قدم كتاب رسول الله فلما قرعوه ارتفعت الأصوات بالتكبير ، فمد أبو بصير عينيه إلى حيث كان أبو جندل لكأنما كان يسأله عن النبأ العظيم الذي أشاع الفرح بين الرجال ، فمد أبو جندل إليه يده بالكتاب فأخذ

أبو بصير يقرأه بعينين واهيتين ورففت على شفثيه بسمة رضا ، ثم مات
وكتاب رسول الله — ﷺ — في يده .
وراح الرجال ينظرون إليه بأعين دامعة ويترحمون عليه ويتذكرون
قول رسول الله — ﷺ — في حقه :
— ويل أمه مسعر حرب أن لو كان معه رجال .
وكان معه رجال .

(١٩)

وفد على رسول الله — ﷺ — قبل صلح الحديبية تسعة رهط من
بنى عبس فكانوا من المهاجرين الأولين ، قالوا :
— إنه قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ، ولنا
أموال ومواشي هي معاشنا ؛ فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها
وهاجرنا .

فقال رسول الله — ﷺ :
— اتقوا الله حيث كنتم ، فلن يلتكم^(١) من أعمالكم شيئا ولو كنتم
بصمد وجازان^(٢) .

ولما سمعت سعد العشيرة بخروج النبي — ﷺ — وثب رجل من
بنى أنس الله بن سعد العشيرة إلى صنم يقال له فراس فحطمه ، ثم وفد

(١) يلتكم : ينقصكم .

(٢) موضع في طريق حاج صنعاء .

إلى النبي — ﷺ — فأسلم وقال :
تبعته رسول الله إذ جاء بالهدى
وخلفت فرأى بدار هوان
شدت عليه شدة فتركه
كأن لم يكن والدهر ذو حدثان
فلما رأيت الله أظهر دينه
أجبت رسول الله حين دعاني
فأصبحت للإسلام ما عشت ناصرا
وألقيت فيها كل كلى وجراني
فمن مبلغ سعد العشيرة أننى
شريت الذى يقى بآخر فاني
ووفد إليه عليه السلام عبد العزى بن بدر بن زيد بن معاوية الجهنى
ومعه أخوه لأمه أبو روعة وهو ابن عم له ، فقال رسول الله — ﷺ —
لعبد العزى :
— أنت عبد الله .
وقال لأبى روعة :
— أنت رعت العدو إن شاء الله .
وقال :
— من أنتم ؟
— بنو غيَّان .
— أنتم بنو رشدان .
وكان لهم صنم وكانوا يعظمونه ، وكان عمرو بن مرة الجهنى

سأدنه ، فلما سمع برسول الله — ﷺ — كسره وخرج حتى أتى
النبي — ﷺ — فأسلم وشهد شهادة الحق وآمن بما جاء به من حلال
وحرام ، ثم قال :

شهدت بأن الله حق وأنسى
لآلهة الأحجار أول تبارك
وشمرت عن ساقى الإزار مهاجرا
إليك أجوب الوعث بعد الدكادك^(١)
لأصحب خير الناس نفسا ووالدا
رسول ملك الناس فوق الحبائك^(٢)

فبعثه رسول الله — ﷺ — إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه
إلا رجلا واحدا رد عليه قوله .

وكان أول من وفد على رسول الله — ﷺ — من مضر أربعمائة من
مزينة ، وذلك في شهر رجب سنة خمس ، فجعل لهم رسول الله —
ﷺ — الهجرة في دارهم وقال :

— أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم .
وكان أول من قدم منهم خزاعي بن عبد نهم فبايعه على قومه مزينة ،
وقدم معه عشرة فيهم بلال بن الحارث والنعمان بن مقرن ، ثم خرج إلى
قومه فلم يجدهم كما ظن فأقام ، فدعا رسول الله — ﷺ — حسان بن

(١) الوعث : المكان السهل والدكادك : أرض فيها غلظ .

(٢) الحبائك : طرائق النجوم . أراد فوق السموات .

ثابت فقال :

— اذكر خزاعيا ولا تهجه .

فقال حسان :

ألا أبلغ خزاعيا رسولا

بأن السدم يغسله الوفاء

وأنت خير عثمان بن عمرو

وأسناها إذا ذكر النساء (١)

وبايعت الرسول وكان خيرا

إلى خير وأذاك الثناء

فما يعجزك أو ما لا تطقه

من الأشياء لا تعجز عدا

وعدا بطنه الذي هو منه ، فقام خزاعي فقال :

— يا قوم قد خصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله .

— فإننا لا ننبؤ (٢) عليك .

فأسلموا ووفدوا على النبي — ﷺ .

وبعث بنو سعد بن بكر إلى رسول الله — ﷺ — رجلا منهم يقال

له ضمام بن ثعلبة في شهر رجب سنة خمس ، فقدم وأناخ بعيره على باب

المسجد ثم عقله . ثم دخل المسجد رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين فأقبل

حتى وقف على رسول الله — ﷺ — في أصحابه فقال :

(١) أسناها : أكثرها ضياء والمراد أشرفها .

(٢) نبعد عنك .

— أيكم ابن عبد المطلب ؟

فقال رسول الله — ﷺ :

— أنا ابن عبد المطلب .

— أمحمد ؟

— نعم .

— يا بن عبد المطلب ! إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا
تجد^(١) في نفسك .

— لا أجد في نفسي فاسأل عما بدا لك .

— أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله

بعثك إلينا رسولا ؟

— اللهم نعم .

— فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ،

الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه

الأنداد^(٢) التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟

— اللهم نعم .

— فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ،

الله أمرك أن نصلي هذه الصلاة الخمس ؟

— نعم .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة والصيام

(١) لا تجد في نفسك : لا تضر غيظا .

(٢) الأنداد : جمع ند ، وهو النظير المعادل .

والحج وشرائع الإسلام كلها ينشده عن كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال :

— فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض . وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص .

ثم انصرف إلى بعيره راجعا ، فقال رسول الله — ﷺ :

— إن صدق ذو العقيصتين (الضفيرتين) دخل الجنة .

فأتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به :

— بش اللات والعزى .

فقالوا :

— مه يا ضمام ! اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون .

— ويلكم ! إنهما والله لا ينفعان ولا يضران . إن الله قد بعث رسولا

وأنزل عليه كتابا فاستنفذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

فما أمسى من ذلك اليوم في حيه رجل أو امرأة إلا مسلما .

وقدمت أشجع على رسول الله — ﷺ — عام الخندق وهم مائة ،

رأسهم مسعود بن رجيلة بن نويرة بن طريف فتزلوا شعب سلع (جبل

بضاحية المدينة) فخرج إليهم رسول الله — ﷺ — وأمر لهم بأحمال

التمر ، فقالوا :

— يا محمد ! لا نعلم أحدا من قومنا أقرب دارا منك منا ولا أقل

عددا ، وقد ضيقنا بحربك وبحرب قومك فجيئنا نوادعك .

فوادعهم ثم أسلموا بعد ذلك .
كانت الوفود تأتي إلى رسول الله عليه السلام قبل صلح الحديبية ،
وقد جاءت الوفود بعد الصلح ، قدم أبو ثعلبة الخشني على رسول
الله ﷺ — وهو يتجهز إلى خير فأسلم وخرج معه فشهد خير ،
ثم قدم بعد ذلك نفر من خشين فنزلوا على أبي ثعلبة فأسلموا وبايعوا
ورجعوا إلى قومهم .

ووفد الأشعريون مع جعفر وأصحابه على رسول الله ﷺ ، وكان
الأشعريون خمسين رجلا منهم أبو موسى الأشعري ومعه رجلا من
عك ، وقدموا في سفن في البحر وخرجوا بجدة ، فلما دنوا من المدينة
جعلوا يقولون :

غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه

ثم قدموا فوجدوا رسول الله ﷺ — في سفره بخير ، فلقوه —
ﷺ — فبايعوه وأسلموا ، فقال رسول الله ﷺ :
— الأشعريون في الناس كصرة فيها مسك .

وقدم على رسول الله ﷺ — رجل من بني سليم يقال له قيس بن
نسيبة ، فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابه ووعى ذلك كله ، ودعاه
رسول الله ﷺ — إلى الإسلام فأسلم ورجع إلى قومه فقال :
— قد سمعت برجمة^(١) الروم وهينة فارس وأشعار العرب وكهانة
الكهان وكلام مقاول حمير ، فما يشبه كلام محمد شيئا من كلامهم
فأطيعوني وخذوا نصيبكم منه .

(١) رطانة .

كانت هدنة الحديبية سببا في انتشار الإسلام ، فإن الكفار لما أمنوا القتال اختلطوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام فأسلم كثير منهم حتى إن الذين أسلموا في سنتين بعد الصلح يعدلون الذين أسلموا قبلهما ، وقال أبو بكر الصديق :

— ما كان فتح الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد — ﷺ — وربه ، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد الله .

(٢٠)

أنزل رسول الله — ﷺ — مارية في بيت لحارثة بن النعمان فكانت على قرب من مسجد الرسول ودور نسائه . إنها جميلة جعدة فأعجب بها رسول الله عليه السلام فكان عامة الليل والنهار عندها ، فجزعت عائشة بنت أبي بكر وما غارت على امرأة إلا دون ما غارت على مارية . كانت مارية من قرية من صعيد مصر تدعى « حفن » قرية من بلدة « أنصتا » على الضفة الشرقية لليل تجاه الأشمونين ، وكانت لأب قبطي وأم مسيحية رومية فجاءت جميلة جمعت أروع ما في الدم المصرى والدم الرومانى .

وأعاد وفود مارية في هدايا المقوقس إلى رسول الله — ﷺ — واصطفأؤها لنفسه ذكريات بعيدة ، ذكريات إهداء ملك مصر هاجر المصرية إلى خليل الرحمن عليه السلام فقد أصبحت أم العرب لما أنجبت إسماعيل أبا العرب . ترى أنتجب مارية لرسول الله ولدا فيجدد الأواصر

بين العرب والمصريين ويصبح الجسر بين حضارة الماضي ودين المستقبل ؟

وراحت عائشة ترقب في قلق هذه الجارية الحلوة التي وفدت من وادى النيل لتثير غيرتها فجزعت لما رأت الرسول الحبيب عليه السلام يكثر من التردد عليها ويمكث لديها طويلا ، ولما كانت عائشة وحفصة صديقتين لا سر بينهما فقد عبرت عائشة عن قلقها وهي تناجي بنت عمر وتمنت لو أن الله يريحها من بنت شمعون القبطية .

وطال الحديث بين مارية ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه حول هاجر المصرية وإبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل الذى تكونت ببركته مكة حول البئر التى فجرها الله تحت قدميه وقد أشرف على الهلاك عطشا ، فألفت مارية حين تخلو بنفسها أن تفكر فى هاجر ومصريتها وأمومتها لإسماعيل والعرب ، وباتت أحلامها المجنحة تتمنى أن تهب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الولد كما وهبت هاجر جده إبراهيم الولد . وكان ﷺ — فى بيت حفصة فاستأذنت فى زيارة عائشة لأنهما كانتا متصادقتين فأذن لها ، فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى مارية وأدخلها بيت حفصة فرجعت حفصة فأبصرت مارية مع النبى — ﷺ — فى بيتها فلم تدخل حتى خرجت مارية ، ثم دخلت وقالت له : — إني رأيت من كان معك فى البيت .

وغضبت وبكت وقالت :

— يا رسول الله لقد جئت إلى بشيء ما جئت به إلى أحد من نسائك ، فى يومى وفى بيتى وعلى فراشى !

فلما رأى رسول الله في وجهها الغيرة قال لها :
— أما ترضين أن أحرمها على نفسي ولا أقربها أبدا ؟

— بلى .

وحلف ألا يقربها وقال :

— اكتمى على .

ولم تستطع حفصة أن تكتم السر فانطلقت إلى عائشة وقالت :
— قد أراحنا الله من مارية فإن رسول الله — ﷺ — قد حرّمها
على نفسه .

وعرف رسول الله عليه السلام أن حفصة لم تكتم عليه وأنها أنبأت
عائشة بأمر مارية ، فلما أخبر عائشة ببعض ما أسرته لها حفصة قالت
عائشة :

— من أنبأك هذا ؟

— نبأني العليم الخبير .

وسرعان ما ذاع الخبر بين نساء رسول الله عليه السلام فجنن يخضن
في الحديث ، فأقسم عليه السلام أن لا يجتمع بهن شهرا ، وصعد إلى
مشربة له يرقى إليها بعجلة وهو جذع يرقى عليه إلى المشربة وينحدر منها
عليه ، و غلام له أسود يقال له رباح على رأس العجلة ، وأنزل الله تعالى :
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم *
وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه
عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال
نبأني العليم الخبير * إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه

فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير . *
عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات
قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴿١﴾ .

وجاء الليل ورسول الله عليه السلام في المشربة ، فقدم على عمر بعض
أصدقائه من الأنصار فدق عليه بابه وناداه فخرج إليه فقال :
— حدث عظيم .

— ماذا ؟ أجاءت غسان ؟

كانوا حدثوا أن غسان تنعل الخيل لغزوهم ، فحسب عمر أن غسان
قد جاءت تدهم المدينة فقال الأنصاري :

— لا بل أمر أعظم من ذلك وأطول . طلق رسول الله — ﷺ —
نساءه .

— خابت حفصة وخسرت ! كنت أظن هذا كائنا .

— حتى إذا صلى الصبح شد عليه ثيابه ودخل على حفصة وهي تبكي
فقال :

— أطلقكن رسول الله — ﷺ — ؟

— لا أدري هو هذا معترلا في هذه المشربة .

— لأقولن من الكلام شيئا أضحك به النبي — ﷺ — .

وأتى رباح وهو واقف على رأس العجلة فقال :

— استأذن لعمر .

فدخل الغلام ثم خرج وقال :

— قد ذكرت لك له فصمت .

فانطلق عمر حتى أتى المسجد فجلس قليلا ثم غلبه ما يجد ، فأتى الغلام فقال :

— استأذن لعمر .

فدخل ثم خرج إليه فقال :

— قد ذكرت لك له فصمت .

فلما كان في المرة الرابعة وقال له مثل ذلك ولى مدبرا فإذا الغلام يدعوه فقال :

— ادخل قد أذن لك .

فدخل فسلم على رسول الله — ﷺ — فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه فقال :

— أطلقت يا رسول الله نساءك ؟

فرفع رأسه إلى عمر وقال :

— لا .

— الله أكبر .

— ثم قال :

— كنا معشر قريش بمكة نغلب على النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن منهن ، فكلمت زوجتي فراجعتني فأنكرت عليها فقالت تنكر أن راجعتك فوالله لقد رأيت أزواج النبی — ﷺ — يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت قد خاب من فعل ذلك وخسر ، أتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب زوجها رسول الله — ﷺ — ؟

فذهبت إلى حفصة فقلت أتراجعن رسول الله — ﷺ ؟ فقالت نعم وتهجره إحدانا اليوم إلى الليل . فقلت قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أتأمن إحدان أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله — ﷺ ؟ لا تراجعين رسول الله — ﷺ — ولا تسألينه شيئا وسلينى ما بدالك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك أحب إلى رسول الله — ﷺ — منك .

فتبسم عليه السلام فقال عمر :

— أستاذنس يا رسول الله ؟

— نعم .

فجلس وقال :

— يا رسول الله قد أثر في جنبك رمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله .

فاستوى — ﷺ — جالسا وقال :

— أفى شك أنت يا بن الخطاب ! أولئك قوم قد عجلت لهم طياتهم في الحياة الدنيا .

— أستغفر الله يا رسول الله .

ومرت الأيام ورسول الله عليه السلام يمضى سحابة يومه في شئون الناس وطرفا من الليل في مسجده يصلى ثم يصعد إلى المشربة ، ونحلت دور الرسول عليه السلام من البهجة وران عليها ترقب وقلق وانتظار . فلما مضى تسع وعشرون يوما أنزل الله تعالى عليه أن يخير نساءه في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ اللَّهَ

ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما * يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتيها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما * يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا * وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا * واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ^(١) .

فتزل عليه السلام ودخل على عائشة فقالت له :

— يا رسول الله أقسمت أن لن تدخل علينا شهرا وقد دخلت وقد

مضى تسع وعشرون يوما أعددهن .

— إن هذا الشهر تسع وعشرون .

ثم قال — ﷺ :

— يا عائشة إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمرى

أبيك .

— فما هو يا رسول الله ؟

فقرأ عليهما : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

وَزِينْتُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ وَأَسْرَحَكُمْ سَرَّاحًا جَمِيلًا ... ﴾ .

— أفي هذا أستأمر أبوي ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

ثم قالت له :

— لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت لك .

— لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها أن الله لم يبعثنى متعنتا ولكن

بعثنى معلما ميسرا .

ثم فعل بقية أزواجه — ﷺ — مثل ما فعلت عائشة ، وعاد إلى دور

الرسول عليه السلام النور الذى غاب عنها .

(٢١)

كان أبو هريرة يلزم رسول الله — ﷺ — بشبع بطنه حتى لا يأكل

الخمير ولا يلبس الحبير ولا يخدمه أحد . وكان فى سبعين رجلا من أهل

الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما بردة أو كساء قد ربطوها فى أعناقهم

يشتد بهم الألم من الجوع ، فيخرج من بيته إلى المسجد لا يخرج إلا

الجوع ، فيجد نفرا من أصحاب رسول الله — ﷺ — فيقولون :

— يا أبا هريرة ما أخرجك هذه الساعة ؟

— ما أخرجنى إلا الجوع .

— نحن والله ما أخرجنا إلا الجوع .

فقاموا فدخلوا على رسول الله — ﷺ — فقال :

— ما جاء بكم هذه الساعة ؟

— يا رسول الله جاء بنا الجوع .

فدعا رسول الله — ﷺ — بطبق فيه تمر فأعطى كل رجل منهم

تمرتين ، فقال عليه السلام :

(صلح الحديبية)

— كلوا هاتين التمرتين واشربوا عليهما من الماء فإنهما ستجزيانكم يومكم هذا .

فأكل أبو هريرة ثمرة وجعل ثمرة في حجرته ، فقال رسول الله ﷺ :

— يا أبا هريرة لم رفعت هذه الثمرة ؟

— رفعتها لأمي .

— كلها فإننا سنعطيك لها تمرتين .

فأكلها فأعطاه عليه السلام لها تمرتين ، وكانت أمه بقيت على الشرك فدخل يدعوها إلى الإسلام فلم تستجب لدعوته وأعرضت عنه فأحس أبو هريرة أسى ، إنه يحب أمه وإنه يجاهد على أن يزحزحها عن النار ولكنها تأبى في صلف واستكبار .

صحب أبو هريرة رسول الله ﷺ — في حله وترحاله يدخل بيته ويحضر مجلسه وقد اتخذ الصفة مكانا له ينتقل بين الصحابة يقرئونه القرآن ، وجعله رسول الله ﷺ — عريف أهل الصفة فإذا أراد رسول الله ﷺ — أن يجمعهم لطعام حضر تقدم إلى أبي هريرة ليدعوهم ويجمعهم لمعرفة بهم وبمنازلهم ومراتبهم .

وقضيت صلاة العشاء فانصرف الناس إلى دورهم وبقي أبو هريرة ليمضي ليله في المسجد . ودخل الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — منزله ونام أصحابه ، ولما انقضى من الليل ثلثه خرج الرسول عليه السلام إلى المسجد وقال لأبي هريرة :

— ادع لي أصحابي .

فجعل أبو هريرة يأتهم رجلا رجلا فيوقظهم حتى جمعهم فجاءوا باب

الرسول عليه السلام فاستأذنوا فأذن لهم ، فدخلوا وكانوا قرابة ثلاثين رجلا فوضع الرسول لهم صحيفة فيها صنيع شعير ووضع يده عليها وقال :

— خذوا باسم الله ، والذي نفس محمد بيده ما أمسى في آل محمد طعام ليس شيئا ترونه .

كان أبو هريرة يقاسى من الجوع ولكن ما كان يعانيه من أمه أفسى وأشد ؛ إنه يدعوها إلى الإسلام فلا تستجيب فأصابه من الهم والحزن ما أضناه .

وكان أبو هريرة يحب رسول الله ﷺ — حبا جما ويحب من أحبه رسول الله ﷺ — فقد لقي أبو هريرة الحسن بن علي فقال له :
— أرني أقبل منك حيث رأيت رسول الله ﷺ — يقبل .
فرفع القميص وقبل سرته .

وذات يوم كان الجوع يمزق أمعاءه فأتى عمر بن الخطاب فقام له وهو يسبح بعد الصلاة ، فانتظره فلما انصرف دنا منه فقال :
— أقرئني آيات من كتاب الله .

وما يريد إلا الطعام فأقرأه آيات من سورة آل عمران ، فلما بلغ أهله دخل وتركه على الباب فقال :
— ينزع ثيابه ثم يأمر لي بطعام .

فلم ير شيئا فلما طال عليه قام فمشى ، فاستقبله رسول الله ﷺ — فكلمه فقال :

— يا أبا هريرة إن خلوف فمك الليلة لشديد ؟
— أجل يا رسول الله لقد ظللت صائما وما أفطرت بعد وما أجدا ما

أفطر عليه .

— انطلق .

فانطلق معه عليه السلام حتى أتى بيته فدعا جارية له سوداء فقال :
— آتينا بتلك القصعة .

فأتتهم بقصعة فيها بقية من طعام قد أكل وبقي في جوانبها بعضه ،
فسمى عليه السلام وجعل أبو هريرة يتبعه عليه السلام فأكل حتى شبع .
كان أبو هريرة لا ينقطع عن مجالس رسول الله — صلوات الله
وسلامه عليه ، وكان جريئا على أن يسأل رسول الله — ﷺ — عن
أشياء لا يسأله أصحابه عنها ، قال :

— يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، فأنبئني
عن كل شيء .

— كل شيء خلق من ماء .

— يا رسول الله أنبئني عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة ؟

— أفش السلام وأطعم الطعام وصل الأرحام وقم بالليل والناس
نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام .

وكان أبو هريرة حريصا على أن يتعلم من رسول الله عليه السلام .
فبينما زيد بن ثابت وأبو هريرة وآخر في المسجد ذات يوم يدعون الله تعالى
ويذكرونه إذ خرج عليهم النبي — ﷺ — حتى جلس إليهم فسكتوا ،
فقال عليه السلام :

— عودوا إلى الذي كنتم فيه .

فدعا زيد هو وصاحبه قبل أبي هريرة ، وجعل رسول الله —
ﷺ — يقول :

— آمين .

ثم دعا أبو هريرة فقال :

— اللهم إني أسألك ما سألك صاحبى وأسألك علما لا ينسى .

فقال — ﷺ :

— آمين .

فقالا .

— يا رسول الله ونحن نسأل الله علما لا ينسى ، فقال :

— سبقكما بهما الغلام الدوسى .

كان أبو هريرة في الثلاثين وكان ملازما أمه ، ولم يكن يعكر صفو حياته إلا إعراض أمه الحبيبة عن الإسلام . إنه يتوسل إليها أن تلقى إليه سمعها ، ولكنها كانت تضع أصابعها في أذنيها وتشيع عنه فيستشعر كأن خناجر تصوب إلى قلبه وكأن أشواك الأرض تحز روحه فلا يجد عزاء إلا أن يتوجه إلى الله يدعو أن يهدي أمه الصراط المستقيم .

كان حريصا على إسلام أمه حرصه على شكر الله على هدايته ، فكان

يقول :

— الحمد لله الذى هدى أبا هريرة للإسلام ، الحمد لله الذى علم أبا

هريرة القرآن ، الحمد لله الذى من على أبى هريرة بمحمد — ﷺ .

وكان حريصا على أن يحفظ أحاديث رسول الله — ﷺ — حرص

عبد الله بن عمر على أن يتبع آثار النبى — ﷺ — فى منازله ، قال عليه

السلام :

— من يأخذ من أمتى خمس خصال فيعمل بهن أو يعلمهن من يعمل

بهن ؟ .

قال أبو هريرة :

— أنا يا رسول الله .

فأخذ عليه السلام بيده فعدهن فيها ثم قال :

— اتق المحارم تكن أعبد الناس .

وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا .

وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما .

ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب .

وذات يوم رفع رسول الله ﷺ — الدرة ليضربه بها فقال أبو هريرة :

— لأن يكون ضربني بها أحب إلى من حمر النعم ، ذلك بأنني أرجو

أن أكون مؤمنا وأن يستجاب لرسول الله ﷺ — دعوته .

كان أبو هريرة راضيا بحياته سعيدا بصحبة رسول الله عليه السلام ،

ولم يكن يعكر صفو حياته إلا إعراض أمه عن الإسلام ، فذهب إليها

ودعاها إلى الإسلام فأسمعته في رسول الله ﷺ — ما يكره ، فجاء

إلى رسول الله ﷺ — وهو يبكي فقال :

— يا رسول الله اني كنت أدعو أم أبي هريرة إلى الإسلام فتأبى علي ،

وإني دعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره ، فادع الله أن يُعدي أم أبي

هريرة إلى الإسلام .

ففعل ، فجاء أبو هريرة البيت فإذا الباب مجاف وسمع خضخضة

الماء ، وسمعت حسه فقالت :

— كما أنت .

فلبست درعها وعملت عن خمارها ثم قالت :

— ادخل يا أبا هريرة .

فدخل فقالت :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

فجاء يسعى إلى رسول الله — ﷺ — يبكي من الفرح كما يبكي من

الحزن فقال :

— أبشر يا رسول الله فقد أجاب الله دعوتك ، قد هدى الله أم أبي

هريرة إلى الإسلام .

وتهللت أساريه من الفرح وقال :

— يا رسول الله ادع الله أن يحبني وأمي إلى المؤمنين والمؤمنات وإلى

كل مؤمن ومؤمنة .

— اللهم حبب عبيدك هذا وأمه إلى كل مؤمن ومؤمنة .

واشتد فرح أبي هريرة ، فلما عاد إلى الدار وقف على بابها فقال :

— السلام عليك يا أمتاه ورحمة الله وبركاته .

رحمك الله كما ربيتني صغيراً .

— رحمك الله كما بررتني كبيراً .

نحاض سابور الثانى غمار معارك مع العرب انتهت بأن احتلت فارس البحرين ، وعرف سابور بذى الأكتاف لأن ساسان الأول تنبأ بأن ملك الساسانيين سيزول على أيدي أصحاب نبي عربى بشر به زرادشت بقوله : اتبعوا وصاياى حتى يأتى صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب ، فكان سابور ينقب أكتاف أسراه العرب .

وحكم البحرين منذ ذلك الوقت مرزبان من قبل كسرى فراح يبنى بيوت نار فى الولاية وينشر الدين المجوسى فتغلغلت المجوسية فى عرب البحرين وآمنوا بالأوستا الساسانية وعكفوا على « الزند » تفسير الكتاب المقدس وتكلموا فى المبدأ والمعاد وغيرهما من أركان الدين ، وتزوجوا المحارم كما كان يفعل السادة الإيرانيون ، وعبدوا ميترا إله العقد ونور الصباح الذى عرفه البابليون بشمس . وكانوا يرتلون : لا سلطان لك لترفض عبادة الشمس التى تضيء بنورها الكون كله ، والتى تنضج بحرارتها غذاء الناس والحيوان ، والتى سميت بالإله مهر بسبب سخائها الشامل وكرمها العادل لأنه ليس فيها مكر أو جهل .

وقدسوا عناصر الطبيعة ، وحافظوا على الماء والنار من النجاسة حتى إنهم لا يغسلون بالماء وجوههم ولا يلمسونه إلا أن يكون ذلك للشرب أو رى الزرع ، وميزت الأوستا (كتابهم المقدس) بين خمسة أنواع من النار : نار المعابد والنار التى يتفجع بها الناس عادة ، والنار التى توجد فى

جسد الإنسان والحيوان ، والنار التى توجد فى النباتات ، والنار الكامنة فى السحاب ، والنار التى تشتعل أمام أهورامزدا فى الجنة .
وعرف عرب البحرين الصراع بين أهورامزدا عالم النور وأهرمين عالم الظلمات واختلاط الخير والشر والصراط المستقيم والبعث والجنة ، وما بقى من دين زرادشت القيم بعد أن طغت عليه الخرافات لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم .

وظلت قبضة الفرس قوية على البحرين حتى إذا ما انتهت الحروب بين الفرس والروم بانتصار هرقل على كسرى الثانى تراخت قبضة الفرس وأصبح أمر البحرين للمنذر بن ساوى ، وعرف الإسلام طريقه إلى تلك البلاد فقد أرسل الرسول عليه السلام إلى المنذر العلاء بن الحضرمى وبعث معه كتابا ورجالا فيهم أبو هريرة ووصاه عليه السلام به فجعله العلاء مؤذنا بين يديه ، وكان العلاء يصلى بأصحابه وقد سبقهم بآمين بعد أن قرأ الفاتحة ، فقال له أبو هريرة :
— لا تسبقنى بآمين أيها الأمير .

وبلغ الركب البحرين فإذا بأهلها على دين المجوس واليهودية يهرعون إلى بيوت النار أو الكنيس إذا ما أرادوا شكر الله على ما أتاهاهم من خير .
ودخل العلاء على المنذر وراح يعرض عليه الإسلام ، وقال فيما قال :
— يا منذر إنك عظيم العقل فى الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة . إن هذه المجوسية شر دين ينكح فيها ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتكره من أكله ، وتعبدون فى الدنيا نارا تأكلكم يوم القيامة ، ولست بعديم عقل ولا رأى فانظر هل ينبغى لمن لا يكذب فى الدنيا ألا تصدقه ؟
ولمن لا يخون ألا نأتمنه ؟ ولمن لا يخلف ألا نشق به ؟ فإن كان هكذا فهذا

هو النبي الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه أو ما نهى عنه أمر به .

وراح المنذر بن ساوى يقرأ كتاب رسول الله — ﷺ — على أهل البحرين ، وجعل العلاء وأبو هريرة ومن معهما من المسلمين يشرحون للناس أركان الدين الذي جاء به محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — فانشرحت له صدور وأضاءت أنواره أفدة هداها الله الصراط المستقيم ، فاعتنق كثير من أهل البحرين الإسلام . كانوا يؤمنون بالبعث والحساب والخلود فلما حدثهم المسلمون عن الإسلام وجدوه من نفس النبع الذي اغترف منه زرادشت إلا أن الإسلام قد أزاح عنه الأساطير وما تمججه النفوس . ورائت الدهشة على المنذر فما كان يصدق أن الناس يقبلون ديناً جديداً في مثل ذلك اليسر .

وأطرق المنذر يفكر فيما جاء به رسول الإسلام عليه السلام فوجده يطابق الفطرة ولا يدعو إلا لكل كريم ودوى بين جنبه حديث العلاء وتذكر ما أوصى به زرادشت من الاستمسك بما جاء به إلى أن يأتي صاحب الجمل الأحمر من جزيرة العرب ، وها هو ذا صاحب الجمل الأحمر يبعث إليه رسله ليدعوه إلى الهداية والرشد . أو يغلق قلبه دون النور ؟

ودخل العلاء وصحبه على المنذر بن ساوى فقال :
— قد نظرت في هذا الذي في يدى فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت في دينكم فرأيت للآخرة والدنيا . فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت ؟ ولقد عجبت أمس ممن يقبله وعجبت اليوم ممن يرده . وإن من أعظام ما جاء به أن يعظم رسوله وسأُنظر .

وكتب المنذر إلى رسول الله — ﷺ — كتابا جاء فيه : يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأحدث لي في ذلك أمرك .

وقرأ عليه السلام كتاب المنذر وسمع من رسله ، ثم كتب له كتابا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك فإني أحمد إليك الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد فإني أذكر الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرا ، وإني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية) .

(٢٣)

كانت الهدنة قائمة بين المسلمين وقريش ، ولكن بعض قبائل العرب كانت تفكر في غزو المدينة أو الإغارة على سرحها للنيل من هيبة المسلمين ، فصلح الحديبية شجع كثيرا من الناس على أن يشدوا الرحال إلى المدينة وأن يلقوا إلى نبي الإسلام عليه السلام آذانهم فيدخلوا في دين الله أفواجا ، مما يززع عقائد العرب ودين الآباء . ولم يكن الرسول عليه السلام ليبدأ بالعدوان فهو على نور من ربه لا

يخالف أمره وهو جل من قائل : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾^(١) ، ولكته ما كان يتريث حتى يدهمه في داره فما إن تلوح له عليه السلام بادرة من عدوه بأنه يتأهب للعدوان حتى يبعث البعوث ليقضى على الفتنة قبل أن تتحرك ، ويلقى الرعب الذى نصر به في قلوب الأعداء .

جاءه عليه السلام أن بنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة وهم بالميفعة — وهى وراء بطن نخل إلى النقرة قليلا بناحية نجد — يستعدون لشن غارة على المدينة ، فبعث إليهم عليه السلام فى شهر رمضان سنة سبع من مهاجرة غالب بن عبد الله الليثى فى مائة وثلاثين رجلا كان فيهم أسامة ابن زيد حب رسول الله عليه السلام .

وفى الصباح هجم المسلمون على القوم وكان فيهم رجل يدعى مرداس بن سهنيك إذا أقبل القوم كان من أشدهم على المسلمين وإذا أدبروا كان من حاميتهم . وانتهت المعركة بانهزام الكافرين وولى مرداس الأدبار فتبعه أسامة بن زيد ورجل من الأنصار ، فرفع أسامة عليه السيف فقال :

— لا إله إلا الله .

فكف الأنصارى فطعنه أسامة برمح حتى قتله ، ثم وجد فى نفسه من ذلك موجدة شديدة حتى ما يقدر على أكل الطعام حتى قدم على رسول الله ﷺ — فقبله واعتنقه . وكان عليه السلام إذا بعث أسامة بن زيد يسأل عنه أصحابه ويحب أن يثنى عليه خيرا ، فلما رجعوا لم يسألهم عنه

فجعل القوم يحدثون رسول الله — ﷺ — ويقولون :
— يا رسول الله لو رأيت ما فعل أسامة ! لقيه رجل فقال الرجل لا
إله إلا الله فشد عليه أسامة فقتله .
وراح — ﷺ — يعرض عنهم ، فلما أكثروا عليه رفع رأسه لأسامة
فقال :

— يا أسامة من لك بلا إله إلا الله ؟
— يا رسول الله إنه إنما قالها تعوذا من القتل .
— أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ ! فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا
جاءت يوم القيامة ؟
— إنما قالها خوفا من السلاح .
— هلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟
وود أسامة أن ما مضى من إسلامه لم يكن وكان أسلم يومئذ وقال :
— يا رسول الله استغفر لي .
فاستغفر له وقال :
— اعتق رقبة .

وودى رسول الله عليه السلام مرداس بن سهنيك وعاهد أسامة بن
زيد الله ألا يقتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا .
وفي شوال من نفس السنة بلغ رسول الله — ﷺ — أن جمعا من
غطفان قد واعدتهم عيينة بن حصن ليكون معهم ليزحفوا إلى رسول الله
— ﷺ — ، فدعا عليه السلام بشر بن سعد فعقد له لواء وبعث معه
ثلاثمائة رجل ، فساروا حتى أتوا يمن وجبار فدنوا من القوم فأصابوا لهم
نعما كثيرا ، وتفرق الرعاء فحذروا القوم فتفرقوا ولحقوا بعلياء

بلادهم ، وخرج بشير بن سعد في أصحابه حتى أتى محالهم فلم يجد أحداً فرجع بالنعم ، وأصاب منهم رجلين فأسرهما وقدم بهما المدينة رسول الله — ﷺ .

ودخل الرجلان على رسول الله عليه السلام وهما يرتجفات ، ف وقعت أعينهما عليه حتى أحسا شيئاً من الطمأنينة . إنه جهر الصبح حسن النعمة طيب الريح خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من إلى السماء ، لا يتكلم من غير حاجة ، يتكلم بجوامع الكلم فص فضول فيه ولا تقصير .

وراح الأسيران يصغيان إليه عليه السلام وقد سكنت الطمأننتهما . انه ليس بالجافي ولا بالمهين لا يغضب لنفسه ، ولا ينتهز وإنما يغضب للحق حتى ينصره ، لا يستخفه فرح ولا غم ، الحسن ويصوبه ويقبح القبيح ويهينه ، يعطى كل جليس له نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه .

يؤثر الداخل بوسادته ويسيطر له ثوبه ، من سأله حاجة لا يرده أو بما يسر من القول ، وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم آباء وه عندة في الحق سواء متفاضلين بالتقوى ، مجلسه مجلس حلم وحياء لا ترفع فيه الأصوات .

وراح عليه السلام يتكلم فأطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير فلما سكنت تكلموا متواضعين يشع من أحاديثهم التقوى ، ف الأسيران يصغيان وهما في دهشة من أمرهما فقد ظنا أنه سيأمر به عنقهما فإذا به عليه السلام يعرض عليهما الإسلام ويقرأ القرآن فيشعران أنهما قد أصبحا أكثر حرية مما كانا عليه وهما في أهلهم

صفت قلوبهما وأطلق لهما حرية الفكر والاختيار ورفعنا إلى السماء
ليقرعا أبواب الملكوت ، فامتلاً بنشوة روحية لم يسعدا بمثلها من قبل .
وإنهما ذاقا لذة المعرفة وتتوجا بشرف المعلومات وأحسا قربا حقيقيا
من رب الناس إله الناس ، فحديث رسول الله — ﷺ — أضاء
لبصيرتهما الحقائق فظهرت في قلوبهما الأنوار واستعدت لحمل الأمانة .
وأحسا بنسائم الألفاف تهب عليهما ، وبالحجب تنكشف عن أعين
أفئدتها ، وبالرحمة تفيض عليهما وبانشراف الصدر ، وبحقائق الأمور
الإلهية تتلأأ في النفوس ، وبالنور يغمر الوجدان فإذا الوجود كله
أنوار ، فقالا وهما متفرحان في الله :
— نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

(٢٤)

دار العام وظهر هلال ذى القعدة من السنة السابعة وهو الشهر الذى
صده عليه السلام فيه المشركون عن البيت الحرام ، فأمر أصحابه أن
يعتصروا وألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف إلا من مات أو
قتل بخير ، وخرج مع رسول الله — ﷺ — قوم المسلمين عمارا ممن لم
يشهد الحديبية فكانوا ألفين .
واستخلف رسول الله — ﷺ — على المدينة أبا ذر الغفارى ، وساق
— ﷺ — ستين بدنة وقلدها وجعل على هديه ناجية بن جندب
الأسلمى .
وحمل رسول الله — ﷺ — السلاح والدروع والرماح وقاد مائة

فرس عليها محمد بن مسلمة وعلى السلاح بشير بن سعد . وأحرم —
عليه السلام — من باب المسجد فلما انتهى إلى ذى الحليفة قدم الخيل أمامه
فقال :

— يا رسول الله حملت السلاح وقد شرطوا ألا ندخلها عليهم بسلاح
إلا بسلاح المسافر ، السيوف في القرب !
فقال رسول الله — عليه السلام :

— لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ولكن يكون قريبا منه ، فإن
هاجنا هيج من القوم كلن السلاح قريبا منا .
فمضى بالخيل محمد بن مسلمة فلما كان بمر الظهران وجد نفرا من
قريش فسألوه فقال :

— هذا رسول الله — عليه السلام — يصبح هذا المنزل غدا إن شاء الله .
وقد رأوا سلاحا كثيرا فخرجوا سراعا حتى أتوا قريشا فأخبروهم
بالذى رأوا من الخيل والسلاح ، ففزعت قريش وقالوا :
— ما أحدثنا حدثا وإنما على كتابنا ومدتنا فقيم يغزونا محمد في
أصحابه ؟ !

وأقبل المسلمون يلبون :

— لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة
لك والملك . لا شريك لك .

وارتج مر الظهران بالتلبية ، وجاء مكرز بن حفص في نفر من قريش
إلى رسول الله — عليه السلام — فقال :

— والله يا محمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر ، تدخل بالسلاح
في الحرم على قومك وقد شرطت عليهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر

السيوف في القرب !

— إني لا أدخل عليهم بالسلاح .

— هو الذى تعرف به البر والوفاء .

ثم رجع إلى مكة سريعا وقد رضى عن سفارته ، فقريش التى ساقى الجيوش من قبل وجمعت الأحزاب لاستئصال المسلمين باتت ترتجف فرقا من أن يغزوها عليه السلام . وقدم الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — السلاح إلى بطن يأجج حيث ينظر إلى أنصاب الحرم وخلف عليه أوس بن خولى الأنصارى فى مائتى رجل ، فلما اتصل خروجه لقريش خرج كبراؤهم من مكة حتى لا يروه — عليه السلام — يطوف بالبيت هو وأصحابه . كانت العداوة تنهش قلب أبى سفيان فما كان يطيق أن يرى المسلمين يطوفون بالبيت وهم يلبنون تلبية التوحيد ، وكان عكرمة بن أبى جهل ييغض محمدا عليه السلام فخرج من مكة وهو حانق فطواف الصابىء بالبيت العتيق وهم ينظرون هزيمة للكفاح الطويل الذى خاضوه لكم أنفاس الإسلام .

وخرج خالد بن الوليد مع الخارجين وإن كانت مشاعره تختلف عن مشاعر الشائين^(١) ، إنه أصبح يستشعر ميلا إلى الإسلام ولو طاع قلبه لهرول إلى حيث كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وأعلن شهادة الحق ولكنه كان يتربث ، وفكر فى أن يبقى فى مكة إلا أنه خشى أن يلتقى عيناه بعينى أخيه الوليد بن الوليد الذى كان فى صفوف المسلمين فهو واثق فى أغوار نفسه لو أن ذلك حدث لخفق قلب فارس

(١) الشائين : الحاقدين .

قريش رهبة وهو الذى لم يعرف الخوف فى حومة القتال .
 وخرج صفوان بن أمية حسدا لرسول الله عليه السلام ، وانطلق
 سهيل بن عمرو مع المنطلقين وبقي حكيم بن حزام وقد أشرف على
 الستين فهو يحب أن يرى زوج عمته سيدة نساء قريش . فما أسعد
 الأوقات التى أمضاها وهو يصفى إلى عذب حديث أبى القاسم ، ولولا
 دعوته بأن الله قد أرسله إلى الناس لما كان بين حكيم وابن عبد الله أى
 خلاف .

وقدم رسول الله ﷺ — الهدى أمامه فحبس بذى طوى ،
 وخرج على راحلته القصواء والمسلمون متوشحون السيوف محدقون
 به (١) — يلبون وقد تدفقت أرق المشاعر إلى الصدور واشتد
 وجيب الأفئدة وامتلأت المآقي بالدموع ، فالمهاجرون ينطلقون إلى أحب
 أرض الله إليهم ، إلى أرض الذكريات التى ما فتئو يحلمون بالعودة إليها مذ
 أخرجوا من ديارهم ، والأنصار يلمسون ما وعدهم به الله ورسوله ، إنها
 أميال قليلة ثم يطوفون بأول بيت وضع للناس ليكون منارة التوحيد .
 ودخل صاحب الجمل الأحمر الذى بشرت به الأنبياء على الشنية التى
 تطلعه على الحجون وعبد الله بن رواحة أخذ بزمام راحلته وهو يقول :
 خلوا بنى الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير فى رسوله
 يا رب إني مؤمن بقبيله أعرف حق الله فى قبوله
 نحن قتلناهم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله
 ضربا بذيل الهام (٢) عن مقبيله ويذهل الخليل عن خليله

(١) محدقون به : ملتفون حوله .

(٢) يذيل الهام عن مقبيله : يذيل الرعوس يقصد : ضربا شديدا تهون له الرعوس

فقال له عمر بن الخطاب :

— إيها يا بن رواحة .

فقال رسول الله — ﷺ :

— يا عمر إني أسمع .

فأسكت عمر وقال رسول الله — ﷺ :

— إيها يا بن رواحة ! قل : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز

جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

وأطرق عليه السلام تواضعا لله وهو يلبي حتى استلم الركن
بمحفنه^(١) مضطبعا^(٢) بثوبه وطاف على راحلته والمسلمون يطوفون
معه وقد اضطبعوا بشياهم ، وقريش على جبل أبي قبيس وقينقاع تنظر لا
تكاد تصدق أن ابن أبي كبشة قد جاء بأصحابه يطوف بالبيت بعد أن
خرجوا من مكة إلى رءوس الجبال :

وقال قائل من قريش :

— إن المهاجرين أوهنتهم حمى يثرب .

فأطلع الله نبيه على ما قالوا ، ثم قال — ﷺ :

— رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة .

وكشف عضده اليمنى ففعلت الصحابة كذلك وراحوا يسعون بين
الصفاء والمروة ، ثم أمرهم أن يرملوا (يهرولوا) الأشواط الثلاثة ليروا

(١) المحجن : العصا المعوجة .

(٢) اضطباع الثوب : جعله كملايس الإحرام حيث يظهر أحد الضبعين أى

الجانبين

المشركين أن لهم قوة ، فلما رأى المشركون أصحاب محمد يهرولون قال بعضهم لبعض :

— هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، إنهم لينفرون نفر الظبي .

فلما كان الطواف السابع عند فراغه وقد وقف الهدى عند المروة قال :

— هذا المنحر وكل فجأج مكة منحر .

فمنحروا عند المروة وحلق هناك وكذلك فعل المسلمون . وأمر رسول الله ﷺ — ناسا منهم أن يذهبوا إلى أصحابهم بيطن يأجج فيقيموا على السلاح ويأتى الآخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا .

وعاد رسول الله عليه السلام ، وصحبه إلى الكعبة ودخلها فلم يزل بها حتى أذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة ، فراح سادات قريش ينظرون إلى مؤذن الرسول في حنق ، وقال قائل منهم للحارث بن هشام :

— ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد ؟

— دعه فإن يكن الله يكرهه فسيغيره .

وقال عكرمة بن أبى جهل :

— لقد أكرم الله أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول .

وقال صفوان بن أمية :

— الحمد لله الذى أذهب أبى قبل أن يرى هذا .

وقال خالد بن أسيد :

— الحمد لله الذى أذهب أبى ولم يشهد هذا اليوم حيث يقوم بلال

ينشق فوق الكعبة .

وغطى سهيل بن عمرو وجهه فقد كانوا يعجبون أن يكون لهذا الكون ربا واحدا بينا أصنام الآلهة تكدست في جوف الكعبة ومن حولها .

وخرج عليه السلام من الكعبة وأم الصحابة وقد اصطفوا خلفه ورجال مكة ونساؤها مدوا أعينهم وأرهفوا أذانهم ليسمعوا قرآن محمد ، فإذا به يده عقولهم فما أكثر ما سمعوا الشعر وحفظوه وألقوا أسماعهم إلى زمزمة السحرة وسجع الكهنة ، إنه شيء آخر يحرك العواطف ولولا عمى القلوب لانحدروا من الجبال مؤمنين .

وذهب رسول الله ﷺ — إلى قبه التي نصبها بالأبطح ليستريح بينا كان قلب برة بنت الحارث الهلالية يهفو إليه عليه السلام . إنها أخت أم الفضل زوج العباس أول من آمنت به من النساء بعد خديجة ، وأخت أسماء بنت عميس الخثعمية زوج جعفر بن أبي طالب ، وسلمى بنت عميس زوج حمزة بن عبد المطلب أسد الله . إنهن الأخوات المؤمنات وإنها أرملة في السادسة والعشرين من عمرها مات عنها زوجها فصارت أمنيته أن تصبح أم المؤمنين . وإن رسول الله — عليه الصلاة والسلام — قد جاء إلى مكة وصار على مقربة منها فأصبح عليها أن تتحرك قبل أن تنقضى الأيام الثلاثة التي حددتها قريش لمكث المسلمين بأمر القرى . إنها كلمة تتحرك بها شفتاه ثم تتحقق الأحلام .

وجاء العباس إلى قبة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ليطفئ نار الشوق وليرى جعفرًا وعليًا ورجال بني هاشم . وفيما كان الحديث دائرا بين رسول الله عليه السلام ومن جاءوا لتحيته التفت — إلى الوليد بن الوليد وقال :

— أين خالد ؟

فقال الوليد بن الوليد في ثقة :

— يأت الله به .

— ما مثله يجهل الإسلام .

وخرج الوليد بن الوليد يطلب خالدا فلم يجده ، فكتب إليه كتابا وهو يدعو الله أن يهدي أخاه إلى الإسلام .

وكانت برة قد حدثت أم الفضل بأمنيتها أن تكون زوجة لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ليكون لبنى هلال شرف مصاهرة رسول الله — ﷺ — كما نالت بنى تيم وبنى عدى وبنى أمية وبنى مخزوم وهوازن وبنى أسد وبنى المصطلق ذلك الشرف ، فحدثت أم الفضل زوجها العباس فأفضى العباس إلى ابن أخيه بأمنية برة ، فبعث عليه السلام جعفر بن أبي طالب إليها ليخطبها . فما إن خرج جعفر من عندها حتى استخف بها الطرب فركبت بعيرها وانطلقت إلى حيث كان نبي الإسلام عليه السلام ، فلما أن وقعت عيناها عليه — صلوات الله وسلامه عليه — قالت :

— البعير وما عليه لله ولرسوله .

وتحدث الناس عما فعلت برة ، إنها لم تستطع الانتظار فجاءت تهب نفسها لله ولرسوله ، وقد سماها عليه السلام ميمونة . وكثر الهمس استخفافا بالشابة التي استجابت استجابة صادقة لعواطفها دون رياء ، ووجد المنافقون فرصة للغمز واللمز ومحاولة بذر بذور الاستياء في قلوب المسلمين ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتِ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ

وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك السلاتى
هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن
يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى
أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا
رحيما ﴿١﴾ .

(٢٥)

انساب المهاجرون فى دروب مكة يشمون عبير أرض الذكريات
ويلثمون بأعينهم الدور ويهرعون إلى مراتع الصبا والشباب فرحين .
كانت بعض بيوتهم خاوية لا حركة ولا نائمة قد خيم عليها السكون تبعث
الأسى فى النفوس ، ولكنهم ألقوا عليها نظرات عابرة دون أن تنزل
بأفئدتهم الهموم فقد كان اليوم يوم نصر وحبور .

كانوا فى المدينة يستشعرون شوقا طاغيا إلى مكة وكانت أعز أمانيهم
أن يعودوا إلى أم القرى وأن يرووا ظمأهم من ماء زمزم وأن يطوفوا
بالبیت العتيق وأن يسمروا بالحجون ، فإذا بكل آمالهم تتحقق ، ولم
ينغص عليهم صفو انتصارهم إلا تلك الأصنام التى تقع أعينهم عليها فى
كل مكان فإذا بأمنية جديدة تطفى على كل الأمانى ، أن يأتى ذلك اليوم
الذى يسود فيه الحق ربوع أحب بقاع الأرض إلى نفوسهم وأن ترفرف
راية التوحيد على البيت العتيق .

وكان حكيم بن حزام قد اشترى حلة سيف بن ذى يزن بثلاثمائة دينار من سوق عكاظ ، فلما وجد أن زوج عمته خديجة أم المؤمنين في مكة وأن بينه وبينهم هدنة رأى أن يهدى إليه تلك الحلة فانطلق بها إلى حيث كان الرسول عليه السلام وأهداها إليه ، فأبى رسول الله عليه السلام أن يقبلها وقال :

— لا أقبل هدية مشرك .

فجزع حكيم جزعا شديدا حيث رد هديته فباعها من أول سائمه ، ودس رسول الله إليها زيد بن حارثة فاشتراها فلبسها رسول الله ، فلما رآه حكيم فيها قال :

ما ينظر الحكام بالفصل بعدما بدا سابق ذو غرة وحجول^(١) واستمر حكيم يملأ عينيه من رسول الله عليه السلام فما رأى أحدا قط أجمل ولا أحسن من رسول الله في تلك الحلة .

وخلعها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فما كان يحب أن يزهو بجيد الثياب فكساها أسامة بن زيد بن حارثة ، فرآها عليه حكيم فقال :

— بخ بخ يا أسامة ، عليك حلة ذى يزن !

فقال لأسامة رسول الله :

— قل له وما يمنعني وأنا خير منه وأبى خير من أبيه ؟

وانقضت الأيام الثلاثة ورسول الله — ﷺ — مع الأنصار يتحدث

(١) الغرة : بياض في جبهة الفرس والمراد هنا الإشراق والنور ، والحجول : بياض في أرجل الخيول والمراد هنا جمال المنظر .

مع سعد بن عبادة ، فجاء إليه سهل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى
في نفر من قريش فصاح حويطب :
— ناشدتك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا فقد مضت
الثلاث .

فغضب سعد بن عبادة لما رأى من غلظ كلامهم للنبي — ﷺ —
فقال لحويطب :

— كذبت لا أم لك ليس بأرضك ولا أرض آبائك ، والله لا يرح
منها إلا طائعا راضيا .

فتبسم رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا سعد لا تؤذ قوما زارونا في رحالنا .

وأراد رسول الله — ﷺ — أن يبنى بيمونة في مكة ، فقال لحويطب
وصحبه :

— إني قد نكحت فيكم امرأة . فما يضركم إن مكثت حتى أدخل بها
وأصنع الطعام فناول وتناولون معنا ا

— لا حاجة لنا في طعامك . اخرج عنا من أرضنا هذه الثلاثة قد
مضت .

وهم سعد بن عبادة بأن يتكلم وتأهب حويطب للرد عليه فأسكت
عليه السلام الفريقين ، ثم إنه — ﷺ — أمر أبا رافع أن ينادى بالرحيل
لا يمسي بها أحد من المسلمين ، وخلف أبا رافع ليأتي له بيمونة حين
يمسي .

وتدفق المسلمون على الحرم يطوفون طوف الوداع وينسحبون
بظهورهم دون أن يولوا الكعبة الأدبار تعظيما لها ، وفي الأعين دموع

وفي الحلق غصص ، وكفار قريش على رؤوس الجبال ينظرون في دهش
فقد قيل لهم فيما قيل إن محمدا وصحبه لا يوقرون البيت ، فإذا بتلك
الحجة تنهار فالمسلمون يعظمون بيت أبيهم إبراهيم ويتجشمون المشاق
لزيارته والطواف به ورفع أكف الضراعة إلى الله عند باب بيته .

وفعلت الأيام الثلاثة في قلوب مشركي قريش الأفاعيل ، كانوا
يرصدون حركات المسلمين ويرقبون صلواتهم ويلقون السمع إلى القرآن
المجيد فخطر لأناس منهم أن ينحدروا من الجبال إلى حيث استقر
المسلمون لينهلوا من النبع الصافي الرقراق الذي هفت^(١) إليه الأفئدة لولا
الخوف من الناس وخشية بطش الجبارين .

واسل المسلمون من مكة حتى إذا ما غابت الشمس خلف الجبال
وبدأ زحف الليل لم يكن بها غير أبي رافع وميمونة ، فذهب أبو رافع
ليقود بعير ميمونة إلى معسكر رسول الله عليه السلام ، وطفق أبو رافع
يشق طريقه بين الجموع الهادرة في غضب في جهد شديد ، وكان يؤذيه
مالقى من عناء من أهل مكة ويزيد في غضبه ما نال النبي — ﷺ —
من أذى ألسنتهم وميمونة ، فلم يجد مفرا من التهديد فقال لهم :
— ما شئتم ، هذه والله الخيل والسلاح يبطن يأجج وأنتم تريدون
نقض العهد والمدة .

كانوا يرتجفون من فكرة نقض العهد فقد أصبح من الواضح وضوح
النهار أنه لا قبل لهم بمحمد وصحبه ، فإن أراد أن يميل عليهم فلن يجد من
يقف في وجهه وإنهم بهذه السباب المتدفقة من أفواههم يعطونه فرصة

(١) هفا إليه : مال إليه وأحبه .

نقض العهد وفتح مكة ، فتقاصرت أنفس السفهاء فولوا راجعين منكسين .

ولما خرج رسول الله ﷺ — من مكة جاءه على بن أبى طالب وكلمه فى عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب وكانت مع أمها سلمى بنت عميس ، فقال :

— علام نترك بنت عمنا يتيمة بين أظهر المشركين ؟
وبعث عليه السلام إلى أبى رافع أن يأتى بعمارة ، فخرج أبو رافع بميمونة وعمارة حتى إذا ما لحق بركب المسلمين تناول على كرم الله وجهه ابنة عمه فأخذ بيدها وقال لفاطمة الزهراء :
— دونك ابنة عمك .

وسار ركب المسلمين حتى إذا بلغوا سرف نزلوا بها ونصبت قبة رسول الله عليه السلام تحت شجرة هناك ، ودخل بميمونة بعد أن صنع طعاما لأصحابه . وسعدت الزوجة الشابة بذلك الزواج الذى شرفها وشرف قومها وحفرت فى عين ذاتها ذكريات هذه البقعة المباركة التى جعلت منها أما للمؤمنين ، إن لحظات سرف هى زاد حياتها وهى خير زاد يغذى روحها حتى الممات .

وانصرف المسلمون راجعين إلى المدينة ، واختلف على بن أبى طالب وزيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب فى أيهم يكفل عمارة بنت حمزة أسد الله وأسد رسوله ، فقال زيد بن حارثة :

— أنا أحق بها لأنها بنت أخى وأنا وصيه .
وقال زيد حقا فالنبي ﷺ — كان قد آخى بين حمزة وزيد وجعل حمزة وصيه .

وقال على كرم الله وجهه :

— أنا أحق بها لأنها بنت عمى وجئت بها من مكة .

وقال جعفر :

— أنا أحق بها لأنها بنت عمى وخالتها تحتى .

وكانت أسماء بنت عميس زوجة جعفر ، وكانت سلمى بنت عميس أم عمارة بنت حمزة ، وكان جعفر يرى أنه أحق الثلاثة بكفالة بنت عمه ، فلما بلغ الأمر رسول الله عليه السلام قضى بها لجعفر وقال :
— الخالة بمنزلة الأم .

وهز الفرع جعفر فحجبل حول النبي — ﷺ — فقال عليه السلام :
— ما هذا يا جعفر ؟

— يا رسول الله كان التجاشى إذا رضى أحد أقام فحجبل حوله .
وقدّم رسول الله — ﷺ — الخالة فى الحضانة على العمة فقد كانت
صفية بنت عبد المطلب موجودة ، وقال — ﷺ — لعلّى :
— أنت أختى وصاحبى ، أنت منى وأنا منك .

وقال جعفر :

— أشبهت خلقتى وخلقتى .

وقال لزيد :

— أنت مولى الله ومولى رسوله .

عاد خالد بن الوليد إلى داره وهو مطرق يفكر فيما رأى من محمد بن عبد الله وصحبه . إنه قد خيل إليه أنهم مصابيح نور وأن فؤاده قد هفا إليهم وأن صدره قد انشرح لما سمع من الذكر الحكيم ، وراح يسأل نفسه ما الذى يجعله يحجم عن الحق ما دام قد استبان الطريق ؟ إنه يستشعر نسائم الألفاف تهب عليه والحجب تنكشف عن عين قلبه فاشتعل سراج فؤاده بأنوار بصيرته فإذا به يشاهد ما وراء حواسه الخمس وينفذ في عالم الملكوت .

ونخف إليه أحد مواليه وقال له :

— إن مولاي الوليد بن الوليد قد طلبك فلم يجداك فكتب لك هذا الكتاب .

وتناول خالد الكتاب في لهفة وراح يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإننى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وقلة عقلك ومثل الإسلام لا يجهله أحد . قد سألتنى عنك رسول الله — ﷺ — فقال أين خالد ؟ فقلت يأتى الله به . فقال ما مثله يجهل الإسلام ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيرا له . فاستدرك يا أخى ما فاتك فقد فاتك مواقف صالحة . ونشط خالد للخروج وزاده الكتاب رغبة في الإسلام وسرته مقالة رسول الله . وأطلق لخياله العنان ، إنه حارب محمدا — ﷺ — وهو

يعتقد أنه في جانب الحق ، وإنه شهد المواطن كلها على محمد عليه السلام
فليس موطن يشهده إلا ينصرف وهو يرى في نفسه أنه موضع (١) في غير
شيء وأن محمداً — ﷺ — يظهر ، حتى إذا كانت عمرة القضية قذف
الله في قلبه الإسلام وحضر له رشده .

تفتحت نفسه لاستقبال الأنوار واستعد للمعرفة بفؤاده لا بجارحة من
جوارحه ، ففاضت عليه الرحمة وانشرح صدره وتألفت في وجدانه
حقائق الأمور .

واختلجت الخواطر في نفسه فتذكر تلك الأيام التي كان أبوه الوليد
ابن المغيرة يغشى النبي وأبا بكر حتى حسبت قريش أنه أسلم ، وتمنى في
قرارة نفسه لو أن أباه قد أسلم في تلك الأيام كما أسلم أخوه الوليد ،
وأحس أسى لما تذكر أنه أذاق أخاه العذاب وهو يحسب أنه يحسن صنعاً .
ليت ربه يغفر له ما كان منه من قتل المؤمنين وتعذيب المستضعفين .
ولو أن أباه قد أسلم قبل أن يهاجر رسول الله عليه السلام إلى المدينة
لحقن دماء كثيرة روت أرض بدر وأحد ، ولما تقرر العين كما يموت
المؤمنون . ولكنها إرادة الله لا راد لقضائه فعال لما يريد .

ودار في وجدانه ذلك الحوار الذي نشب بين أبيه وأبي جهل :
— إن قريشا تزعم أنك إنما تأتى محمداً وابن أبي قحافة تصيب من
طعامهما .

— إنكم ذوو أحساب وذوو أحلام وإنكم تزعمون أن محمداً

(١) وضع : حمل ركابه على العدو ، والمراد هنا أن لا فائدة من عداوته
للسلطان .

مجنون ، وهل رأيتموه يتكهن قط ؟

— اللهم لا .

— تزعمون أنه شاعر ، هل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟

— لا .

— فتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟

— لا ، فما هو ؟

— ما هو إلا ساحر وما يقوله سحر .

— لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

— فدعنى حتى أفكر فيه .

وكاد خالد بن الوليد يصرخ فى مجلسه يقول فيم تفكر يا أبى وقد

استبان لك الحق ؟ فأبوه الوليد قد عرف جوهر رسالة محمد — ﷺ —

وألقى إليه سمعه وقال عن قرآنه إن هذا إلا سحر يؤثر ، فلماذا استكبر ولم

يتبع النور ؟ لو أنه أسلم لكان حال قريش غير الحال ولكن الله يؤتى الملك

من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير

وهو على كل شيء قدير .

وراحت آيات من القرآن المجيد تضىء وجدان خالد وتمس أذنيه مسا

رقيقا فيخشع قلبه ويفيض دمه من عينيه وتتفرح نفسه بالله : ﴿ إن فى

خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى

البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد

موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين

السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴿ (١)

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا *
وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً
ثَجَّاجًا * لِنَخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ (١) .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونَ * أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ
الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ * عَلَى أَنْ نَبْدَلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا
تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا
تَحْرَثُونَ * أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ
تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ *
أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا
تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ
الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الْعَظِيمِ ﴾ (٢) .

فَإِذَا بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ يَتِمُّ فِي إِيمَانٍ عَظِيمٍ :
— سُبْحَانَ اللَّهِ .

ودخل خالد ونام فرأى في المنام كأنه في بلاد ضيقة جدبة فخرج إلى
بلاد خضراء واسعة . فلما هب من نومه ذهب ليتجهز لينطلق على جناح
الشوق إلى المدينة ليلقى محمدا — ﷺ — وليعلن على الملأ شهادة أن لا
إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فقد كان خالد فارسا حقا حارب
الإسلام لما اعتقد أنه في جانب الحق ، وعزم على الهجرة لما أراح الله

(١) النبأ ٦ — ١٦ .

(٢) الواقعة ٥٨ — ٩٦

الحجب عن بصيرته وألقى في صدره أنوار اليقين .
وخرج خالد من داره وقد عزم على الانطلاق إلى المدينة ، فلقى
صفوان بن أمية فقال :
— يا أبا وهب أما ترى محمدا ظهر على العرب ؟ فلو قدمنا عليه
فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا .
فقال صفوان في انفعال :
— لو لم يبق غيري ما اتبعته أبدا .
فانصرف عنه خالد وهو يقول في نفسه : « هذا رجل قتل أبوه
وأخوه بيد » . فلقى عكرمة بن أبي جهل فقال له :
— يا بن أخي أما ترى محمدا ظهر على العرب ، فلو قدمنا عليه
فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا .
فقال عكرمة مثل ما قال صفوان ، فقال خالد :
— فاكم ذكر ما قلت .
— لا أذكره .
ثم لقي عثمان بن طلحة الحبشي فقال في نفسه : « هذا لي صديق » .
فأراد أن يذكر له ثم تذكر أن أباه طلحة وعمه عثمان وإخوته الأربعة
مسامح والحلاس والحارث وكلاب كلهم قتلوا يوم أحد فكره أن يذكر
له . ثم قال في نفسه : « وما علي ؟ » فقال له :
— إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صب فيه ذنوب ماء لخرج .
فالتفت إليه عثمان بن طلحة في انتباه وهو يرقب ما يقصده خالد من
هذا الحديث ، فقال خالد :

— أما ترى محمدا ظهر على العرب فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه

شرف لنا ؟

فقال عثمان في فرح :

— هذا هو الرأي .

فواعد عثمان بن طلحة خالد بن الوليد إن سبقه أقام بمحل كذا وإن سبقه خالد إليه انتظره . فلم يطلع الفجر حتى التقيا فانطلقا على راحلتهما حتى انتهيا إلى الهدة فوجدا عمرو بن العاص بها ، فقال عمرو :

— مرحبا بالقوم .

— وبك .

وقال عمرو لخالد :

— يا أبا سليمان أين تريد ؟

فقال خالد بن الوليد في حماس :

— والله لقد استقام الميسم (الطريق) وظهر الأمر ، وإن هذا الرجل

لنبي فاذهب فأسلم فحتى متى ؟ !

وقال عمرو :

— وأنا ما جئت إلا لأسلم .

وانطلقوا وعمرو بن العاص يقص ما كان بينه وبين نجاشي الحبشة وكيف أن النجاشي قد نصحه أن يتبع النبي الأمي الذي يجده مكتوبا عنده في التوراة والإنجيل وكيف بايعه على الإسلام ، وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة يصغيان وهما يحسان أن رويهما أصبحتا قادرتين على التحليق وقرع أبواب الملكوت .

وأناخوا بظهر الحرة ركابهم وأخبروا رسول الله أنهم قدموا ليشهدوا

شهادة الحق ، فسر بهم وقال لأصحابه :
— رمتكم مكة بأفلاذ كبدها .

وذاع بين المسلمين أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة قد جاءوا طائعين ليدخلوا في دين الله بعد أن استبان لهم الأمر ، وطاف بالمدينة سرور وهرع بعض الناس إلى رحالهم ، وكان الوليد بن الوليد يهرول وهو يكاد يطير من الفرح فإن نبأ إسلام أخيه خالد كان أحب إليه من كنوز الأرض .

وراح خالد وعمرو وعثمان بن طلحة يلبسون من صالح ثيابهم وقد اشتد وجيب قلوبهم فهم لا يقدمون على الصلوة ولا ابن أبي كبشة بل يقدمون على رسول الله — ﷺ — الذي أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

وارتفع صوت بلال يؤذن بالعصر فإذا بخالد وصحبه يرهفون السمع فيستشعرون كأن أنواراً تملأ جوانحهم ، والتفت الوليد بن الوليد إلى أخيه وقال :

— أسرع فإن رسول الله — ﷺ — قد سر بقدمكم وهو ينتظركم .

فأسرعوا المشى حتى بلغوا المسجد ، فانطلقوا إلى حيث كان رسول الله عليه السلام وأعين المسلمين تمتد إليهم وقد ترقرقت فيها الدموع من الانفعال ، ولو طأعوا عواطفهم لانطلق التكبير من حناجرهم فإسلام فارس قریش وعمرو بن العاص داهية قریش وعثمان بن طلحة سادن الكعبة شيء يهز المشاعر ويملأ القلوب بالبشر .

ورأى عليه السلام خالد وهو يتقدم فتبسم إليه ، وما زالت البسمة

تتوج شفتيه حتى وقف خالد بعد خطوات منه وقال في صوت متهدج
من التأثر :

— السلام عليك يا رسول الله .

فرد عليه النبي — صلوات الله وسلامه عليه — بوجه طلق فقال :

— وعليك السلام يا أبا سليمان ورحمة الله .

فقال خالد وهو يهتز من رأسه إلى قدمه من شدة الانفعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله .

فقال عليه السلام في رضا :

— الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا

يسلمك إلا إلى خير .

فقال خالد في ابتهاج :

— يا رسول الله ادع الله لي أن يغفر لي تلك المواطن التي كنت

أشهدها عليك .

فقال عليه السلام :

— الإسلام يجب ما كان قبله .

وتقدم عمرو بن العاص إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه

— وإن لوجهه عليه السلام تهللا والمسلمون حوله يترقروا في محياهم

السرور ، فما هو إلا أن جلس عمرو بين يديه — عليه الصلاة والسلام

— فما استطاع أن يرفع طرفه حياء منه — ﷺ ، إنه هجاه في مكة

هجوا فاحشا وعلم الأطفال الشعر لينشدوه خلفه في دروب أم القرى ،

وآذاه وأنزل ألوان العذاب بأصحابه وهو يأتي اليوم تائبا ، فقال بعد أن

شهد شهادة الحق :

— أبايحك يا رسول الله على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي .
ولم يحضره ما تأخر ، فقال عليه السلام :
— إن الإسلام يجب ما قبله والهجرة تجب ما قبلها .
وأسلم الرجال الثلاثة ووقفوا خلف رسول الله يصلون مع المسلمين
أول صلاة وقد خشعوا لله .
﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط
مستقيم ﴾ (١) .

(٢٧)

كانت سليم ترى في الإسلام قيذا يحد من حريتهم ويفرض عليهم
الزكاة التي نظروا إليها على أنها أثاوة ، وقد أسلم بعض رجال سليم فلم
يقابل الناس ذلك بالارتياح بل كانوا يعيرون الذين اعتنقوا الدين الجديد
ويهجونهم ، وقد قال أبو شجرة بن الحنساء قصيدة طويلة يقرع فيها من
قد أسلم :
ألا أيها المولى بكثرة قومه وحظك منهم أن تضام وتقهر
وقد رأت سليم نفسها بعد زوال المستعمرات اليهودية أنها أمام الدولة
الإسلامية وجها لوجه ، فلم يكن أمامها إلا أن تعتنق الإسلام أو تنضم
إلى غطفان وهوازن وأعدائها الألداء الذين يقفون في وجه الدعوة
الجديدة ، واستمرت سليم في حيرتها لا تدري إلى أي المعسكرين تنضم .

..... وأذاقت سليم أبناءها الذين دخلوا في دين الله صنوف العذاب . لقد بدأتهم بالعدوان فبعث رسول الله ﷺ — ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين رجلا إلى بني سليم — فكان لهم جاسوس مع القوم فخرج يعدو إلى بني سليم وحذرهم فجمعوا جمعا كثيرا وأخذوا ينتظرون سرية ابن أبي العوجاء فانقلب الحال . كان ابن أبي العوجاء يعتمد على المفاجأة في الإغارة على قومه فإذا بفرسان سليم يرصدون مقدمه وقد تأهبوا للقتال .

ووقف ابن أبي العوجاء السلمي والذين معه أمام فرسان بني سليم وجهها لوجه ، فتقدم ابن أبي العوجاء إلى صفوف بني سليم ودعاهم إلى الإسلام فقالوا :

— أى حاجة لنا بما تدعونا إليه ؟

فتراموا بالنبل ساعة وجعلت الأمداد تأقى بني سليم وأحدقوا بالمسلمين من كل ناحية ، ودارت رحى معركة رهيبة لم تكن متكافئة ، وثبت المسلمون يقاتلون في ثقة يرجون إحدى الحسينين الاستشهاد أو النصر .

وسالت دماء طاهرة واستشهد عامة المسلمين ، وقد عجب فرسان بني سليم من تلك الروح القتالية العالية والاستبسال الذى أبداه المؤمنون فأثرت فيهم مواقف الشجاعة الرائعة حتى إنهم فكروا في ذلك الدين الذى يقدم له أتباعه أرواحهم مستبشرين .

وأصيب ابن أبي العوجاء جريحا مع القتلى ، وأدار النصر رعوس بني سليم فلم يجهزوا على الجرحى . وتحت جنح الليل راح ابن أبي العوجاء يتحامل حتى أتى رسول الله ﷺ — وأخبره نبأ خيانة ذلك

الجاسوس وما حاق بالمسلمين .

وبعث عليه السلام غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوّح في بضعة عشر رجلاً لما بلغه أن القوم يأتُمرون بالمسلمين ، فخرج غالب في أصحابه حتى إذا كانوا بقديد لحقوا الحارث الليثي فأسروه فقال : — إنما خرجت إلى رسول الله — ﷺ — أريد الإسلام .

فقالوا له :

— إن كنت مسلماً لم يضرّك ربطنا لك يوماً وليلة ، وإن كنت غير ذلك استوثقنا منك .

فشدوه وثاقاً وخلفوا عليه رجلاً أسود منهم وقالوا له :

— إن نازعك فاحترز رأسه .

وساروا حتى أتوا محل القوم عند غروب الشمس فكمنوا في ناحية الوادي ، وأرسل القوم جندب الجهني جاسوساً لهم فخرج حتى أتى تلا مشرفاً على القوم المقيمين بمحلهم ، فلما استوى على رأسه انبطح عليه لينظر إذ خرج رجل منهم فقال لامرأته :

— إني لأنظر على هذا الجبل سواداً ما رأيته قبل ، انظري إلى أوعيتك لا تكون الكلاب جرت منها شيئاً .

فنظرت فقالت :

— والله ما فقدت من أوعيتي شيئاً .

— ناوليني قوسي ونبلي .

فناولته قوسه وسهمين فأرسل سهماً فخطأ ما بين عيني جندب ، وودّ جندب أن يثن ولكنه كتم آلامه فانتزع السهم وثبت مكانه ، وأرسل الرجل سهماً آخر فوضعه في منكب جندب فانتزعه وثبت

مكانه ، فقال الرجل لامرأته :

— والله لو كان جاسوسا لتحرك ، لقد خالطه سهمان لا أبا لك ،
فإذا أصبحت فانظريهما لا تمضعهما الكلاب .

ثم دخل ، فلما اطمأن بنو الملوح وناموا شن المسلمون عليهم الغارة ،
فدارت معركة في سواد الليل أسفرت عن قتل المقاتلة وسبي الذرية
واستاقوا النعم والشاة . ومروا على الحارث الليثي فاحتملوه واحتملوا
صاحبهم الذى تركوه عنده ، فخرج صريخ القوم في قومهم فجاء ما لا
قبل للمسلمين بهم فصار بين المسلمين وبينهم الوادى .

وأيقن المسلمون أنه الموت فاستلوا سيوفهم وتأهبوا لخوض معركة
حتى آخر رجل ، فلم يعد هناك ملجأ إلا الله والسيوف . واشتد بنو
الملوح ليقتلوا الذين تستروا بالليل لشن غارتهم وإذا بسحابة تحجب
السماء وإذا بمطر يهطل مدرارا فسال الوادى فلم يستطع الكافرون أن
يجوزوا به فصاروا وقوفا ينظرون في غيظ شديد إلى المسلمين وهم
متوجهون إلى المدينة .

وكان رسول الله في المدينة يعقد اللواء للزبير بن العوام ليتقم لسرية
بشير بن سعد الأنصارى التى بعثها عليه السلام إلى بنى مرة بفدك فأحاط
بهم القوم وفتكوا بهم فتكا ذريعا . وقبل أن يتحرك الزبير قدم غالب من
الكديد مؤيدا منصورا فبعثه عليه السلام فى مائتى رجل إلى حيث أصيب
أصحاب بشير بن سعد وقال عليه السلام للزبير :

— اجلس .

فسار غالب وصحبه ، فلما دنا من أعدائه ليلا قام فحمد الله وأثنى
عليه ثم قال :

— أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً فإنه لا رأى لمن لا يطاع .
ثم ألف بين القوم فقال :

— يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان ، لا يفارق رجل منكم زميله ، فإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له أين صاحبك فيقول لا أدري ، فإذا كبرت فكبروا .

وأحاطوا بالقوم لما بدا نور الصباح ، ودوى صوت غالب في الفضاء :

— الله أكبر .

وإذا بأصوات المسلمين تهر كأنها الهزيم^(١) :

— الله أكبر .. الله أكبر .

وجردوا السيوف وخرج بنو مرة للقتال فقاتلوا ساعة ، ووضع المسلمون فيهم السيوف وهم يصيحون :
— أمت .. أمت .

واجملت المعركة عن هزيمة بنى مرة والثأر لأصحاب بشير بن سعد ، وساق المسلمون النعم والشاء والذرية ، فكان سهم كل رجل عشرة أبعة .

كانت الهدنة قائمة بين المسلمين وقريش ، ولم يرض ذلك بعض قبائل العرب فكانوا يطمعون أن يقضوا عليهم . ولكنهم كانوا يريدون أن يعلنوا على الملأ أن العداوة بينهم وبين الإسلام لا تزال قائمة . فكان عليه

(١) الهزيم : صوت الرعد .

السلام يبعث السرايا ليهاجموا هؤلاء الثائرين في عقر دارهم ليقضى على الفتنة قبل أن تستفحل ، وليصون عاصمة الدولة الإسلامية الناشئة من العبث .

(٢٨)

المسلمون في مسجد رسول الله — ﷺ — التفوا حول جعفر بن أبي طالب وعمرو بن العاص يصغون إلى ما كان بين الرجلين عند النجاشي ، وكان عمرو يروى طرفا من الحديث وقد رقت على شفثيه بسمة هازقة من أقواله وأفعاله ، فإنه كان يحسب في ذلك الوقت أنه يستطيع بدهائه أن يطفئ نور الله وما دار بخلد أن الله ناصر دينه ، فلما أشرق قلبه بالأنوار أصبحت نفسه تتقاصر كلما تذكر ما كان ، وحمد الله أن الإسلام يجب ما قبله .

قال عمرو بن العاص :

— لما هاجر جعفر وأصحابه إلى الحبشة واستقرت بهم الدار . وهاجر رسول الله — ﷺ — إلى المدينة وكان من أمر بدر ما كان ، اجتمعنا في دار الندوة وقلنا : « إن لنا في أصحاب محمد الذين عند النجاشي ثأرا عمن قتل منا ببدر ، فاجمعوا مالا وأهدوه إلى النجاشي لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم ، ولينتدب لذلك رجلا من ذوى الرأى » .

فبعثوني وعمارة بن أبي معيط مع الهدايا والأدم وغيره ، فركبنا البحر وأتينا الحبشة . فلما دخلنا على النجاشي سجدنا له وسلمنا عليه وقلنا :

« إن قومنا لك ناصحون شاكرون ، ولصلاحك محبون ، وإنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء القوم الذين قدموا عليك ، وكنا قد ضيعنا عليهم الأمر وألجانأناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد ولا يخرج منهم أحد قد قتلهم الجوع والعطش ، فلما اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيتك ، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم ، وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحيونك بالتحية التي يحبك بها الناس رغبة عن دينك وستك » .

وشرد المسلمون يتذكرون أيام الشدة ، أيا أن ذاق المهاجرون ألوان الاضطهاد وحبسوا في شعب أبي طالب . وارتجف سعد بن أبي وقاص في مجلسه ، إنه تذكر ذلك اليوم الذي استبد به الجوع حتى إنه وجد شيئا طريا على الأرض فابتلعه وهو لا يدرى حتى الآن ما كان ، إن حديث عمرو ليعيد إلى ذاكرتهم أيام الكفاح يوم كانوا عزلا من كل سلاح إلا سلاح الإيمان : إنهم عذبوا بما لم يعذب به أحد واضطهدوا في الله وصبروا وصابروا فنصرهم الله ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وتذكر الزبير بن العوام عمته خديجة ، إن الطاهرة سيدة نساء قريش قد تلوت من الجوع ، ولولا رقة قلب حكيم بن حزام على عمته لمات المسلمون جوعا في شعب أبي طالب ، فحكيم كان يحمل البعير بالأقوات ويأتى بها إلى باب الشعب ثم يطلقها إلى المحصورين الجائعين ، وراح الزبير يعجب من أمر حكيم فإن مثله لا يجهل الإسلام ، وقد كان يحسب أن حكيم بن حزام سيأتى إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — مهاجرا ليعلن إسلامه قبل أن يأتى ابن العاص طائعا يعلن على الملأ الإيمان

والتسليم .

وراح عمرو يروى قصته قال : « فدعاهم النجاشي فلما حضروا صاح جعفر بالباب : يستأذن عليك حزب الله . فقال النجاشي : مروا هذا الصائح فليعد كلامه . فقال جعفر : يستأذن عليك حزب الله . قال النجاشي : نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته . فنظرت إلى صاحبي فقلت : ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله وما أجابهم النجاشي ؟ ! فساءنا ذلك ثم دخلوا عليه ولم يسجدوا له ، فقلت ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك ؟

والتقط جعفر بن أبي طالب طرف الحديث فقال :

— قال لنا النجاشي : ما يمنعكم أن تسجدوا لي وتحبوني بالتحية التي يحييني بها من أتاني من الآفاق ؟ قلنا : نسجد لله الذي خلقك وملكك ، وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان فبعث الله فينا نبيا صادقا وأمرنا بالتحية التي نعتها^(١) الله لنا ، وهي السلام تحية أهل الجنة . واثالت الذكريات على رأس عثمان بن عفان ، إنه كان هناك وكانت معه رقية بنت رسول الله — ﷺ ، إن النجاشي قد أكرمهما ولكن رجال البلاط قد أذوه بالنظر إلى رقية فقد كانت رحمها الله رائعة الحسن تخطف الأبصار .

واستمر جعفر في الحديث قال : قال النجاشي أيكم الهاتف يستأذن عليك حزب الله ؟ قلت أنا . قال فتكلم ، قلت إنك ملك من ملوك أهل الأرض ومن أهل الكتاب ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم ، وأنا أحب أن أجيب عن أصحابي فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما

(١) نعتها الله : وصفها لنا ووضحها .

وليسكت الآخر فتسمع محاورتنا . فقال لى عمرو تكلم . فقلت للنجاشى سل هذا الرجل أعبيد نحن أم أحرار ؟ فإن كنا عبيدا أبقنا من أربابنا فارددنا إليهم . فقال النجاشى أعبيد هم أم أحرار ؟ فقال عمرو بل أحرار كرام . فقال النجاشى خرجتم من العبودية . قلت سلهما هل أهرقنا دما بغير حق فيقتص منا ؟ فقال عمرو لا ولا قطرة . قلت سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها ؟ قال النجاشى يا عمرو إن كان قنطارا فعلى قضاؤه . فقال عمرو لا ولا قيراط . قال النجاشى فما تطلبون منهم ؟ قال عمرو كنا وهم على دين واحد وأمر واحد على دين آبائنا ، فتركوا ذلك الدين واتبعوا غيره ولزمنا نحن ، فبعثنا إليك قومهم لتدفعهم إلينا . فقال النجاشى ما هذا الدين الذى كنتم عليه والدين الذى اتبعتموه ؟ أصدقنى . قلت أما الذى كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان وأمره . كنا نكفر بالله عز وجل ونعبد الحجارة . وأما الذى تحولنا إليه فدين الإسلام جاءنا به من الله رسول وكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقا له . فقال النجاشى يا جعفر لقد تكلمت بأمر عظيم فعلى رسلك^(١) .

ثم أمر النجاشى فضرب بالناقوس فاجتمع إليه كل قسيس وراهب ، فلما اجتمعوا عنده قال النجاشى : أنشدكم الله الذى أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين القيامة نبيا مرسلا ؟ فقالوا : اللهم نعم قد بشرنا به عيسى وقال من آمن به فقد آمن بى ومن كفر به فقد كفر بى . فقال لى النجاشى : ماذا يقول لكم هذا الرجل ويأمركم به وما ينهاكم

(١) الرسل : الرفق والتؤدة .

عنه ؟ قلت : يقرأ علينا كتاب الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر
ويأمر بحسن الجوار وصلة الرحم وبر اليتيم ، ويأمرنا أن نعبد الله وحده
لا شريك له . فقال : اقرأ علينا شيئاً مما كان يقرأ عليهم . فقرأت عليهم
سورة العنكبوت والروم ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع
وقالوا : يا جعفر زدنا من هذا الحديث الطيب . فقرأت عليهم سورة
الكهف . فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال : إنهم يشتمون عيسى
وأمه ، فقال النجاشي : ما يقولون في عيسى وأمه ؟ فقرأت عليهم سورة
مريم ، فلما أتيت على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي بقية من سواك قدر
ما يقضى العين وقال : والله ما زاد المسيح على ما تقولون هذا . ثم أقبل
على أصحابي فقال : اذهبوا فأنتم سيوم^(١) في أرضي آمنون ، من
سبكم أو آذاكم غرم .

ثم قال : أبشروا ولا تخافوا ، ولا دهورة اليوم على حزب إبراهيم .
قالوا : يا نجاشي ومن حزب إبراهيم ؟ قال : هؤلاء الرهط^(٢) وصاحبهم
الذي جاءوا من عنده ومن اتبعهم .

وقال عمرو :

— ثم رد النجاشي علينا المال الذي حملناه وقال إنما هديتكم إلى رشوة
فاقبضوها ، فإن الله ملكني ولم يأخذ مني رشوة .

وقال جعفر :

— وانصرفنا فكنا في خير دار وأكرم جوار .

(١) السائمة : الإبل الراحية . ويقصد أنهم هاتئون ناعمون .

(٢) الرهط : ما دون العشرة من الرجال ليست فيهم امرأة .

واستمر عمرو بن العاص يروى ما كان بينه وبين النجاشي في زيارته
التالية قال :

— لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش
كانوا يرون رأيي ويسمعون مني فقلت لهم : تعلمون والله أني أرى أمر
محمد يعلو الأمور علوا منكرا وأني قد رأيت أمرا فما ترون فيه ؟ قالوا :
وماذا رأيت ؟ قلت : رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده فإن ظهر
محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من
أن نكون تحت يدى محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا
منهم إلا خير .

قالوا : إن هذا الرأي . قلت : فاجمعوا لنا ما نهديه له وكان أحب ما
يهدى إليه من أرضنا الأدم ، فجمعنا له أدما كثيرا ثم خرجنا حتى قدمنا
عليه .

فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري وكان رسول الله —
ﷺ — قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه ، فدخل عليه ثم خرج من
عنده فقلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على
النجاشي وسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأيت
قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد .

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال مرحبا بصديقي
أهديت إلى من بلادك شيئا ؟ قلت : نعم أيها الملك قد أهديت إليك أدما
كثيرا . ثم قربته إليه فأعجبه واشتراه . ثم قلت له : أيها الملك إني قد
رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطنيه لأقتله
فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا . فغضب ثم مد يده فضرب بها أنفى

ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقا^(١) منه ، ثم قلت له : أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه . قال : أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس^(٢) الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله ! قلت : أيها الملك أكذاك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو أطعني واتبعه فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أفتبايعني له على الإسلام ؟ قال : نعم . فبسط يده فبايعته على الإسلام . ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه وكنمت أصحابي إسلامي .

كان عمرو بن العاص داهية من دهاة العرب فاستطاع أن يندمج في المجتمع المدني سريعا وأن يعيد الصلات القديمة بينه وبين المهاجرين الأوائل . أما خالد بن الوليد فقد كان يحس أنه حارب الإسلام وهو ظالم لأهله وكثيرا ما كانت تنشب مشادات بينه وبين صحابة الرسول عليه السلام حتى إن عبد الرحمن بن عوف اشتكى خالد بن الوليد للنبي ﷺ فقال :

— يا خالد لم تؤذى رجلا من أهل بدر ؟ لو أنفقت مثل أحد ذهبا لم تدرك عمله .
فقال خالد :

— يا رسول الله يقعون في فأرد عليهم .
فقال عليه السلام لأصحابه :

(١) الفرق : الخوف والفرع .

(٢) الناموس ، ملك الوحي : جبريل عليه السلام .

— لا تؤذوا خالدا فإنه سيف من سيوف الله .
وجزعت قريش لإسلام خالد وعمرو وعثمان بن طلحة بن أوى طلحة
الذى كان عنده مفتاح البيت العتيق ، فقال شاعرهم ابن الزبعرى
السهمى :

أنشد عثمان بن طلحة حلفنا	وملقى نعال القوم عند المقلب ^(١)
وما عقد الآباء من كل حلفة	وما خالد من مثلها بمحلل
أففتاح بيت غير بيتك تبتغى	وما يتغى من مجد بيت مؤئل ^(٢)
فلا تأمنن خالدا بعد هذه	وعثمان جاء بالدهيم المعضل ^(٣)

(٢٩)

بعث رسول الله — ﷺ — عبد الله بن رواحة إلى أهل خيبر
خارصا^(٤) بين المسلمين ويهود فيخرص عليهم ، فقد دفع — ﷺ —
لأهل خيبر الأرض لما قالوا له :
— نحن أعلم بها منكم .
وأمرها بشطر ما يخرج منها من تمر أو زرع ، وخرصها ابن رواحة
أربعين ألف وسق فقالت يهود :
— تعديت علينا .

(١) يريد بالمقلب : موضع تقبيل الحجر الأسود .

(٢) المؤئل : القديم .

(٣) الدهيم : الداهية .

(٤) خارصا : حازرا ومقدرا .

وأرادوا أن يرشوه فقال :

— يا أعداء الله تطعموني في السحت^(١) ؟ والله لقد جئكم من عند أحب الناس إليّ ولأنتم أبغض إليّ من القردة والخنازير ، ولا يحملني بغضى إياكم وحبى إياه على ألا أعدل .
وقسم ما خرج من أرض خيبر شطرين وخيرهما في أن يختاروا أى الشطرين قال :

— ان شئتم فلكم وإن شئتم فلنا .

فقال يهود :

— بهذا قامت السماوات والأرض .

كان عبد الله بن رواحة من النقباء الاثنى عشر الذين بايعوا رسول الله ﷺ — في بيعة العقبة ، وقد قال فيه كعب بن مالك لما ذكر النقباء :
وأیضا فلا يعطيكه ابن رواحة وإخفاره^(٢) من دونه السم نافع
وقد شهد بدرا وأحدا والخنديق ومشاهد رسول الله ﷺ . إنه
اعترض ناقة رسول الله ﷺ — يوم أن خرج عليه السلام من قباء إلى
المدينة لما مرت بدار بنى الحارث بن الخزرج وقال :
— يا رسول الله هلم إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة .
كان ابن رواحة ورجال بنى الحارث ييغون أن ينزل رسول الله عليه
السلام فيهم ، ولكنه عليه السلام قال لهم :
— خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

(١) السحت : كل مال حرام لا يحل كسبه .

(٢) الإخفار : الحفظ والحماية .

ويوم بدر خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة . فخرج إليه فتنة من الأنصار ثلاثة هم : عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء وعبد الله بن رواحة . كان من أوائل من برزوا للقتال في ذلك اليوم المشهود . ولكن رجال قريش قالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار . قالوا : مالنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا .

ولما تم النصر للمسلمين يوم بدر بعث رسول الله ﷺ — عند الفتح عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية بما فتح الله عز وجل على رسول الله ﷺ — وعلى المسلمين ، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة . فراح الرجلان يذكران قتل من قتل من المشركين فقال كعب بن الأشرف وكان رجلا من طيء ثم أحد بني نبهان وكانت أمه من بني النضير حين بلغه الخبر : — أحق هذا ؟ أترون محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم فبطن الأرض خير من ظهرها .

فراح عبد الله بن رواحة يؤكد مقتل أشراف العرب وملوك الناس وهو يود لو يموت عدو الله كعب بن الأشرف كمدا .

وكان عبد الله بن رواحة فيمن حفروا الخندق ، فلما حمل حبي بن أخطب كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم على نقض عهده لرسول الله ﷺ — وانتهى إلى رسول الله عليه السلام الخبر وإلى المسلمين ، وبعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة ونخوات ابن جبير قال :

— انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقا فالحنوا إلى لحنا أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس .

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد .

ثم أقبل السعدان وعبد الله بن رواحة وخوات إلى رسول الله — ﷺ — فسلموا عليه ، ثم قالوا :

— عضل والقارة .

أى كقدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

وكان حسان بن ثابت خاض في حديث الإفك وهجا صفوان فضربه صفوان بالسيف ثم قال :

تلق ذباب^(١) السيف عنى فإنى غلام إذا هوجيت لست بشاعر
فوثب ثابت بن قيس بن الشماس على صفوان حين ضرب حسان
فجمع يديه إلى عنقه بجبل ثم انطلق به إلى دار بنى الحارث بن الخزرج ،
فلقيه عبد الله بن رواحة فقال :

— ما هذا ؟

— أما أعجبك ضرب حسان بالسيف ! والله ما أراه إلا قتله .

(١) دباب السيف : طرفه .

قال له عبد الله بن رواحة :
— هل علم رسول الله — ﷺ — بشيء مما صنعت ؟
— لا والله .
— لقد اجترأت . أطلق الرجل .
فأطلقه ثم أتوا رسول الله — ﷺ — فذكروا ذلك له ، فدعا حسان
وصفوان فقال صفوان بن المعطل :
— يا رسول الله آذاني وهجاني فاحتملني الغضب فضربته .
فقال رسول الله — ﷺ — لحسان :
— أحسن يا حسان ، أتشدهت^(١) على قومي أن هداهم الله
للإسلام ؟
ثم قال عليه السلام :
— أحسن يا حسان في الذي أصابك .
— هي لك يا رسول الله .
وافتح رسول الله — ﷺ — خبير عنوة فخمسها عليه السلام
وقسمها بين المسلمين ، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال
فدعاهم رسول الله — ﷺ — فقال :
— إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها
بيننا وبينكم ، وأقرم ما أقرم الله .
فقبلوا فبعث — ﷺ — عبد الله بن رواحة ليقسم ثمارها ، فأرادوا
أن يرشوه فغضب ابن رواحة غضبا شديدا فما خطر له على قلب أن قوما

(١) تشده : تعجب وأندهش .

يدور بخلد هم أن يرشوه ، فهو من تقباء الأنصار ممن شهد بدرا والمواقع كلها ووهب حياته لله ولرسوله ولنصرة الإسلام . إنه لا يريد الدنيا بل يطمع فيما عند الله فما بال هؤلاء الذين غرتهم الدنيا يحاولون أن يطعموه في السحت وأن يملئوا بطنه نارا ؟ إنه نائر على هؤلاء الذين يريدون حرث الدنيا قد كرههم من أعماق قلبه ، ولكن بغضه إياهم لا يحمله على ألا يعدل فهو لا يريد في كل أعماله إلا وجه الله والله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

(٣٠)

حزن المسلمون لما هزمت الفرس الروم لأن الفرس كانوا وثنيين مثل قريش والروم كانوا أهل كتاب مثل المسلمين ونزل قرآن يؤكد أن الروم سيهزمون الفرس في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وتحقق وعد الله وهزمت الروم الفرس ، وجاءت أنباء ذلك الانتصار يوم أن فتح الله على المسلمين في بدر ففرح المؤمنون بنصر الله ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . فلما استقرت الأمور في المدينة بعد صلح الحديبية بعث عليه السلام كتبا إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى

الإسلام فكان رد هرقل ملك الروم رقيقا وإن لم يؤمن بالدين الجديد ،
فرأى صلوات الله وسلامه عليه — أن يستمر الحبل موصولا بين المسلمين
والروم لعل الله يشرح صدورهم للإسلام . فبعث عليه السلام في جمادى
الأولى سنة ثمان من الهجرة الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى
بكتاب ، فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني وهو من
أمرء قيصر على الشام فقال له :

— أين تريد ؟ لعلك من رسل محمد .

— نعم .

فأوثقه ربطا ثم قدمه فضرب عنقه ، فلما بلغ رسول الله ﷺ —
ذلك اشتد الأمر عليه فلم يقتل لرسول الله عليه السلام رسول من قبل
وكان قتل الحارث بمثابة إعلان الحرب من قبل الروم على المسلمين ، فلما
اتضحت نيات الروم وبدأت العداوة وبدءوا بالعدوان كان على رسول الله
— صلوات الله وسلامه عليه — أن يتحرك وأن يرسل جيوشه إلى الشام
قبل أن يجمع الروم جموعهم ويسيروا إلى المدينة ليقضوا على الإسلام .
وجهاز عليه السلام جمعا من أصحابه عدتهم ثلاثة آلاف وأمر عليهم
زيد بن حارثة وقال :

— إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، وإن أصيب
جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس . وإن أصيب ابن رواحة فليرتض
المسلمون برجل منهم فليجعلوه عليهم .

وعقد عليه السلام لواء أبيض ودفعه لزيد بن حارثة وأوصاهم أن
يأتوا مقتل الحارث بن عمير ويدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا
وإلا استعانوا عليهم بالله تبارك وتعالى وقاتلوهم .

وودعهم الناس وقالوا لهم :

— صاحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

وخرج رسول الله — ﷺ — مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف فقال :

— أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا .

اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا بصيرا فانيا ، ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء .

وخرج جيش المسلمين فثار النقع وارتفع وقع حوافر الخيل على الأرض وأصوات أهل المدينة ترتفع بالوداع والدعاء :

— دفع الله عنكم وردكم غائمين .

فمضوا وفي الخيل خالد بن الوليد فارس قریش المظفر في كل موقعة ، ولم يكن إلا جنديا من جنود الإسلام خرج ليعلى كلمة الحق مع إخوانه الخارجين . إنه لأول مرة يخرج مطمئن الفؤاد بعد أن هداه الله إلى الطريق ، فلم يعد يحفل أن يكون على رأس الجيش أو يكون في الذيل فإن ما يملأ قلبه رضا أنه في جانب الحق وفي سبيل الله ، يستشعر في أعماقه أنه مع الله وأن الله معه .

ونزل المسلمون بأرض الشام فبلغهم أن هرقل إمبراطور الروم قاهر الفرس في مائة ألف من الروم ، وانضم إليه من قبائل العرب المنتصرة من بنى بكر ولخم وجذام خمسون ألفا ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين ، فراحوا يتشاورون ليلتين هل يعيشون لرسول الله — ﷺ — يخبرونه بعدد عدوهم فيأمر أن يمدهم برجال أو يأمرهم بأمر

فيمضوا إليه ، فشجعهم عبد الله بن رواحة على خوض غمار المعركة وقال لهم :

— يا قوم والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم له ، خرجتم تطلبون الشهادة ونحن لا نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله تعالى به ، فإنما هى إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة .

فسرت حماسته إلى صدور القوم فقال الناس :

— صدق والله ابن رواحة .

فمضوا للقتال فلقبهم هرقل فى جموع الروم والعرب ، فأنحاز المسلمون إلى مؤتة فالتقى الجمعان عندها واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة ومعه راية رسول الله — ﷺ ، إنه يصول ويجول كليث كشر عن أنيابه . وانطلق فرسان الروم إلى صاحب الراية وزيد بن حارثة يدافع عنها دفاع الأبطال ويكبر تكبيرة تزلزل قلوب الأعداء ، وتكاثر عليه الرجال فخلصت إليه الجراح وهو ثابت كالطود يرى صورة حبيبه رسول الله — ﷺ — تملأ ما بين السماء والأرض فلا يزيده ذلك إلا عزمًا وتصميمًا على النصر . وصوبت إليه السهام وارتفع سيف وهوى على عاتقه فترنح ثم سقط على الأرض يجود بأنفاسه ، وصوت رسول الله عليه السلام يسرى إلى أذنيه كالنسيم :

— إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس .

وفتح عينين واهنتين ونظر فرأى جعفر بن أبى طالب قد أخذ الراية وهو يقاتل على فرسه ، فلفظ النفس الأخير وهو قرير العين فقد قيل له — لما قال عليه السلام إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس —

اعهد يا زيد فلن ترجع لمحمد أبدا إن كان نبيا ، وهو يقول : أشهد أنه نبي .

وراح جعفر بن أبي طالب يقاتل على فرس أشقر وقد التف حوله صناديد الروم ، الدروع تغطي الصدور والخوذات تتألق في الشمس والصراع مرير والقوتان غير متكافئتين ، فمقابل المسلم عشرات من الرومان ومتنصرة العرب ، وأحس جعفر أنه مقتول فنزل عن فرسه وعقره خوفا من أن يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه المسلمين — وكان أول فرس عقر في سبيل الله ، وأخذ يضرب بسيفه وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبةً وباردا شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيده أنسابها
على إن لاقيتها ضرابها

كان جعفر في التاسعة والثلاثين من عمره مهيبا فخما يهجم على أعدائه كأنه سبع يذود عن عرينه يضرب بسيفه حتى ينثنى في يده ، وكان اللواء في يمينه فإذا بضربة سيف أطاحت بذراعه ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه فإذا بضربة بالسيف تسدد إليه فيسقط على الأرض يجود بأنفاسه .

ولعب خالد بن الوليد بسيفه ، كان يضرب بقوة فيطيح بالرعوس ، ودارت رحي معركة رهيبية يشيب من هولها الوليد فإذا بالدماء تروى أرض مؤتة ، وإذا بجثث الروم والعرب تملأ الفضاء ، وإذا بالنداءات تختلط بالأنات ، وراحت الشمس تغوص في الأفق الغربي والقتال دوار لا هوادة فيه ولا رحمة .

وأخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فجعل

يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال :
أقسمت يا نفس لتنزلني أو لتكرهني
إن أجلب الناس وشدوا الرنة (١) ما لي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنة (٢)
وأراد أن ينزل عن فرسه ليخوض في صفوف الأعداء فإذا بخوف
يكتنفه ، وتذكر موت صاحبيه زيد وجعفر . إنهما استشهدا وجادا
بروحيهما مستبشرين متفرحين في الله ، فراح يلوم نفسه :
يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت (٣)
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعل فعلهما هديت
واندفع كالعاصفة في صفوف الأعداء وهو يحمل لواء رسول الله —
ﷺ ، واستمر يتقدم لا يلوي على شيء يضرب بسيفه أعناق الروم ومن
حوله صناديد المسلمين يكبرون ويطعنون الأعداء طعنات قاتلة فوق
الدروع ويفلقون الهامات .
وأتى عبد الله بن عمر جعفر بن أبي طالب وهو مستلق آخر النهار
فعرض عليه الماء فقال :
— إني صائم فضعه على ترسي عند رأسي ، فإن عشت حتى تغرب
الشمس أفطرت .
فمات صائما قبل غروب الشمس شهيدا مذلا للدنيا بإدباره عنها ،

(١) الرنة : صوت فيه ترجيع مثل البكاء .

(٢) الشنة : قطعة من الجلد البالي .

(٣) صليت : صلى ذاق . صلى بالنار : وجد حرها .

معزاً للآخرة بإقباله عليها .

ونال التعب من الرجال فما خيم الظلام حتى انسحب الجيشان كل إلى معسكره يضمده جراحه .

وتمدد عبد الله بن رواحة ليسترخ ، وأسبل عينيه فإذا به يرى بعين خياله ذلك اليوم الذى ودع فيه أمراء رسول الله ﷺ ، إنه بكى فى ذلك اليوم فقالوا له :

— ما يبكيك يا بن رواحة ؟

— أما والله ما بى حب الدنيا ولا صباة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ — يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾^(١) . فليست أدري كيف لى بالصدر^(٢) بعد الورود .

ورن فى ضميره أصوات المسلمين :

— صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

وسمع صوت ذاته يهمس فى أغواره بالشعر الذى أنشده :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة

وضربة ذات فرغ^(٣) تقذف الزبد

أو طعنة يبدى حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبد

حتى يقال إذا مروا على جدتى أرشده الله من غاز وقد رشدا

إنه خرج وهو يتمنى الاستشهاد فما باله قد تردد لما آلت إليه راية

(١) مريم ٧١ . (٢) الصدر : الرجوع من مورد الماء .

(٣) ذات فرغ : ذات تسعة ، والزبد هنا رغوة الدم .

رسول الله — ﷺ — ؟ إنه حائق على نفسه لا يفتأ يلومها حتى وهو يلتقط أنفاسه من التعب . إنه بات وهو واثق من القتل وأنه سيلحق بصاحبيه زيد وجعفر فلم ترتعد فرائصه ولم يرتجف خشية الموت . بل أحس حينئذ إلى رسول الله — ﷺ — فراح يرى بذاكرته رسول الله عليه السلام وهو يودعه ، فارتفع صوته ينشد في رقة وقد بليت الدموع عينيه : أنت الرسول فمن يحرم نوافله (١) والوجه منه فقد أزرى به القدر فثبت الله ما آتاك من حسن في المرسلين ونصرا كالذي نصروا إلى تفرست فيك الخير نافلة فراسة خالفت فيك الذي نظروا واحتلت فكرة صورة رسول الله عليه السلام لما ودعهم وانصرف عنهم والشعر الذي قاله :

خلف السلام على أمرىء ودعته في النخل خير مشيع و خليل وعادت إلى رأسه مشاهد الرحلة كلها ، إنه أردف زيد بن أرقم على رحله وكان زيد يتيما في حجره ، فأنشد والمسلمون في طريقهم إلى اللقاء :

إذا أديتنسى وحملت رحلى	مسيرة أربع بعد الحساء
فشانك أنعم وخلاك ذم	ولا أرجع إلى أهلى ورأى
وجاء المسلمون وغادرونى	بأرض الشام مشتهى الثواء
وردك كل ذى نسب قريب	إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالى طلع بعلى	ولا نخل أسافلها رواء

(١) نوافله : عطاياها .

فلما سمع زيد بن الأرقم هذه الآيات بكى ، فخفقه بالدرة وقال ٣ :
— ما عليك يا لكع^(١) أن يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبتى
الرحل ؟

ومد عينيه في ظلام الليل يبحث عن زيد بن أرقم فألفاه يضمدا
جراحه ، فاستمر يرنو إليه في حب فاذا بذكريات غزوة بنى المصطلق
تنثال على رأسه ، إن أجير عمر بن الخطاب يزدحم على الماء وحليف بنى
عوف بن الخزرج ، فاقتتلا فصرخ حليف بنى عوف يا معشر الأنصار ،
وصرخ أجير عمر يا معشر المهاجرين ، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول
وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال :
— أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا
وجلايب قريش إلا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن
رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم :
— هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم
أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم .
فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره
الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال :
— مر به عباد بن بشر فليقتله .
— فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! لا ولكن
أذن بالرحيل .

(١) يا لكع : يا لثيم ، والمقصود مجرد الردع .

وبلغ عبد الله بن أبي بن سلول أن زيد بن أرقم قد بلغ رسول الله عليه السلام ما سمع منه ، فمشى عبد الله إلى الرسول عليه السلام ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به ، فقال من حضر رسول الله ﷺ — من الأنصار من أصحابه :

— يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل .

كان نفر من الأنصار يحدبون على ابن أبي بن سلول ويدفعون عنه ولكن ابن رواحة لم يحب نفاقه ؛ كان على ثقة من أن زيد بن أرقم لم يكذب في حديثه فقد نشأ في حجره وما جرب عليه كذبا قط ، وكان يرجو كما كان زيد يرجو أم ينزل الله قرآنا يوضح فيه نفاق ابن أبي بن سلول ، وقد نزل القرآن المجيد مصدقا لزيد : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون * وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون * وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون * سواء عليهم أاستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين * هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزان السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة لرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين

لا يعلمون ﴿١﴾ .

ورفت بسمه على شفتى ابن رواحة فهو يرى يبصيرته رسول الله عليه السلام يأخذ بأذن زيد بن أرقم ثم يقول :
— هذا الذى أوفى لله بأذنه .

وهوم وطاف به الكرى ولكنه راح يقاوم النوم ، إنه يحس أن منيته قد دنت وأنه على أبواب الاستشهاد فود أن يعيش ما بقى من حياته مع الذكريات ، فأطبق جفنيه لتمر المشاهد فى رأسه نابضة حية تثير فيه الانفعال . إنه يرى جيش المسلمين يخرج من المدينة بقيادة زيد بن حارثة تموج فى صدور رجاله الآمال . كانوا متفرحين فى الله فهذه أول مرة ينطلقون فيها إلى الشام للغزو عوضا عن التجارة ، لتأديب شرحبيل أمير الغساسنة على ما اقترف فى حق رسول نبي الإسلام عليه السلام وما دار بخلداهم أنهم سيقابلون الروم . إنه يرى الجيش وقد بلغ معان وإذا بالأنبياء تأتى إليهم أن الرومان بقيادة تيودور أخى هرقل قد خرجوا إليهم ، إنهم توقفوا عن السير ونزلوا بمعان يتشاورون .

كان رأى زيد أنهم ما خرجوا إلا لتأديب شرحبيل بن عمرو الغسانى لضربه عنق الحارث بن عمير الأزدي رسول نبي الإسلام عليه السلام ، وقال جعفر بن أبى طالب إن رسول الله — ﷺ — لم يبعثهم لقتال الروم ، إنهم قد أقاموا على معان ليلتين يفكرون فى أمرهم وقالوا :
— نكتب إلى رسول الله — ﷺ — فنخبره بعدد عدونا ، فإما يمدنا برجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

ورأى عبد الله بن رواحة نفسه وهو يشجع الناس على القتال ، ورن
في عين ذاته الشعر الذى قاله :

جلبنا الخيل من أجأ وفرع ^(١)	تغر من الحشيش لها العكوم ^(٢)
حدوناهم من الصوان ^(٣) سبتا	أزل كأن صفحته أديم ^(٤)
أقامت ليلتين على معان	فأعقب بعد فترتها جموم ^(٥)
فرحنا والجياد مسومات ^(٦)	تنفس في مناخرها السموم ^(٧)
فلا وأبى مآب لناثينها	وإن كانت بها عرب وروم
فعبأنا أعنتها فجاءت	عوابس والغبار لها بریم ^(٨)
بذى لب كأن البيض فيه	إذا برزت قوائسها ^(٩) النجوم
فراضية المعيشة طلقها	أستها فتكح أو تئيم ^(١٠)

ورن في أذنيه أمر زيد بن الحارثة بالتقدم . إنه ليرى جيش المسلمين
ينساب إلى اللقاء فإذا بجيش الروم هناك بقرية من قرى اللقاء يقال لها
مشارف ، وإذا بالعدو يدنو وإذا بالمسلمين ينحازون إلى مؤتة على مائة
ميل جنوبى بيت المقدس على البحر الميت .

-
- (١) أجأ : أحد جبلى طيء ، والفرع : أطول جبل بأجأ .
(٢) العكوم : جمع عكم وهو الجنب . (٣) الصوان : نوع من الحجارة .
(٤) الأديم : الجلد . (٥) جموم : اجتماع القوة والنشاط بعد الراحة .
(٦) مسومات : معلمات . (٧) السموم : ريح حارة
(٨) البريم : الدمع المختلط بالآثمد .
(٩) القونس : أعلى الرأس .
(١٠) تئيم : تاعم أخاه ولد معه ويقصد الكثرة والزيادة .

(صلح الحديبية)

وأرسلت الشمس أشعتها الأولى إلى سواحل البحر الميت الموحشة ،
فأخذ المسلمون مصافهم وتحركت فيالق الروم . إنها تندفع في صفوف
المسلمين الذين كانوا مسلحين بأسلحة خفيفة فلم يستطع زيد أن يقف
مكتوف اليدين وأمر بالهجوم ، فأنزل الرجال والفرسان خسائر فادحة
في جيوش الرومان ، فلو أن هناك مسلمين أكثر من الموجودين قليلا
لاندحر الروم .

إن زيد بن حارثة يقاتل براية رسول الله — ﷺ — حتى شاط (١)
في رماح القوم ، وإن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء يمينه فقطعت
فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل ، وقد أصبحت راية
رسول الله — ﷺ — في يده ، فعزم على أن يقاتل حتى يفتح الله عليه
أو يموت دونها .

(٣١)

لاح في الأفق الشرقى نور الصباح فتهاً الجيشان للقتال : المسلمون
على تعبثهم قد جعلوا على ميمنتهم رجلا من بنى عذرة يقال له قطبة بن
قتادة، وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار يقال له عبادة بن مالك. والروم
في دروعهم وعلى رعوسهم الخوذات وفي أيديهم أسلحة بتارة ولكن
قلوبهم لم تكن عامرة بالإيمان ، فلما نشب القتال استشرى القتل في الروم
ونزل عبد الله بن رواحة يخوض غمار القتال وفي يده راية رسول الله عليه

(١) شاط الرجل : إذا سال دمه فهلك .

السلام وإلى جواره خالد بن الوليد يقط الرقاب ويضع سيفه حيث شاء ،
وثابت بن الأرقم يلعب بسيفه يدافع عن راية الإسلام .
ومضى النهار والعرق يتصبب من ابن رواحة وهو يقاتل دون أن
يستريح أو ينال طعاما ، فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال :
— شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت .
فأخذه من يده ثم اتهم منه نهشة ، ثم سمع الحطمة^(١) في ناحية
الناس فقال :

— وأنت في الدنيا !

ثم ألقى عرق اللحم من يده ثم أخذ سيفه فتقدم بهز راية رسول الله —
صلوات الله وسلامه عليه — هذا ويشجع الناس على الثبات ، فتكاثروا
عليه الروم فهبروه بأسيا فهم فقتلوه وسقطت راية رسول الله عليه السلام
من يده .

وأختلط المسلمون بالروم وبمتصرة العرب ، وأراد بعض المسلمين
الانهزام فجعل عقبة بن عامر يقول :

— يقتل الإنسان مقبلا أحسن من أن يقتل مدبرا .
ورأى ثابت بن أرقم راية رسول الله — ﷺ — في يد عبد الله بن
رواحة وقد فاضت روحه فأخذ الراية وقال :
— يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم .

فقالوا :

— أنت .

— ما أنا بفاعل .

(١) الحطمة : زحام الناس وحطم بعضهم بعضا .

ودفعها إلى خالد بن الوليد وقال :

— أنت أعلم بالقتال منى .

فقال له خالد :

— أنت أحق به منى لأنك ممن شهد بدر .

واصطلح الناس على خالد بن الوليد فكادت الدموع تطفر من مقلتيه من التأثر : إنها أول مرة يحمل فيها راية الإسلام بعد أن كان حربا على المسلمين ، وحمل على الروم حملة شديدة فاندقت في يده تسعة أسياف وما ثبتت في يده إلا صحيفة يمانية ، واستمر القتال رهيبا حتى سجا^(١) الليل فعاد كل من الجيشين إلى معسكره .

ولم يركن خالد إلى الراحة بل إنه جعل مقدمة الجيش ساقا وساقته مقدمة وميمينته ميسرة وميسرته ميمنة ، فكانت حركة طوال الليل في عسكر المسلمين فظن الروم مجيء مدد للمسلمين فرعبوا فالشرذمة القليلة من العرب قد أنزلت بهم خسائر فادحة ، فماذا سينزلون بهم من خسائر بعد أن جاءهم المدد ؟

وأشرقت شمس اليوم السابع فاستؤنف القتال وشن المسلمون على الروم هجوما شديدا تكسرت منه صفوفهم ، ولما كان الروم يرون في أية مخاطرة عسكرية حماقة وقد أفزعته كثرة القتل الذي نزل بهم قرروا أن ينسحبوا إلى أماكن أكثر ملاءمة لصد هجوم المسلمين ، فثبتوا حتى آخر النهار ثم راحوا يتقهقرون في جنح الظلام إلى أماكن محصنة تقيهم من ضراوة قتل هؤلاء العرب الذين حملوا راضين أرواحهم على أكفهم

(١) سجي الليل : ستر بظلمته .

والذين يستقبلون القتل مستبشرين لكأنما يزفون إلى الموت ليحطموا ذلك الحاجز الذى يقف حائلا بينهم وبين سعادتهم الأبدية .

ولم ير خالد حافزا على أن يقتفى أثر الروم فجيشه قد أنهك وقد ثبت سبعة أيام لجيش يفوقه فى العدد والعدة ، فعزم القائد الموفق على العودة فقفل راجعا بالمسلمين إلى المدينة وقد حمل جثمان جعفر وفيه تسعون جراحة بين صدره ومنكبيه ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح .

وأطلع الله تعالى رسوله — ﷺ — على استشهاد قواده فنادى فى الناس :

— الصلاة جامعة .

فهرع المسلمون إلى المسجد ، ثم صعد المنبر وعيناه تذرفان وقال :
— أيها الناس . باب خير .. باب خير .. باب خير . أخبركم عن جيشكم هذا الغازى أنهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيدا فاستغفروا له ، ثم أخذ الراية جعفر فشدد على القوم حتى قتل شهيدا ، فاستغفروا له .

ثم صمت رسول الله — ﷺ — حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان فى عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون ثم قال :

— ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدا ، فاستغفروا له ، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ، ولكنه سيف من سيوف الله فأب بنصره .

ودخل رسول الله — ﷺ — دار جعفر بن أبى طالب فألقى زوجته أسماء بنت عميس قد انتهت من العجين ، فقال :

— اتنى بينى جعفر .

فأنته عليه السلام بهم فشمهم وذرفت عيناه حتى سقطت لحيته ،
فقال أسماء في خوف :

— يا رسول الله بأي أنت وأمي ما يكيك ؟ أبلغك عن جعفر
وأصحابه شيء ؟

فقال عليه السلام في حزن :

— نعم ، أصيبوا هذا اليوم .

فقامت تصيح واجتمع عليها النساء ، وجعل رسول الله — ﷺ —
يقول لها :

— يا أسماء لا تقولي هجرا ولا تضرني خدا .

ودخل عليه السلام على فاطمة وهو واله حزين وهي تقول :

— واعماه !

فقال عليه السلام :

— على جعفر فلتبك البواكي .

ثم قال :

— اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم .

وعمدت سلمى مولاة النبي — ﷺ — إلى شعير فطحنته ونسفته ثم

طبخته وأدمته بزيت وجعلت عليه فلفلا ، وحملته إلى دار جعفر .

وبلغ حسان بن ثابت مقتل جعفر فراح يكيه :

ولقد بكيت وعز مهلك جعفر حب النبي على البرية كلها

ولقد جزعت وقلت حين نعت لي من للجلاد لدى العقاب^(١) وظلها

(١) العقاب : طائر جارح ويقصد هنا الرامة .

بالبيض حين تسل من أغمادها ضربا وإنهال الرماح وعلها^(٢)
 بعد ابن فاطمة المبارك جعفر خير البرية كلها وأجلها
 رزءا ، وأكرمها جميعا محتدا^(٢) وأعزها متظلمها وأذلها
 للحق ، حين ينوب غير تحل كذبا ، وأنداها^(٣) يدا وأقلها
 فحشا ، وأكثرها إذا ما يجتدى^(٤) فضلا وأبذلها ندى وأبلها
 بالعرف غير محمد لا مثله حي من أحياء البرية^(٥) كلها

وجاء رسول الله عليه السلام رجل فقال :

— يا رسول الله إن النساء عيين وفتن .

كان موت جعفر فاجعة لبني هاشم ، فما إن عاد من الحبشة وقبل أن
 يتمتعوا به بعث إلى مؤتة ليقتل فكادت عقول النسوة أن تطيش وكادوا
 أن ينطقوا كفرا ، فقال له عليه السلام :

— ارجع إليهن فأسكتن .

فذهب ثم رجع فقال له مثل الأول وقال :

— نهيتن فلم يطعنني .

— اذهب فأسكتن فإن أين فاحث في أفواههن التراب .

وكانت عائشة تسمع ذلك الحوار فقالت في نفسها :

— أبعدك الله ! فوالله ما تركت نفسك وما أنت بمطيع رسول الله

— ﷺ .

(١) الإنهال : الشرب الأول والعل الشرب الثاني . يريد الطعن بعد الطعن .

(٢) المحتد : الأصل . (٣) أنداها : أكرمها .

(٤) يجتدى : يطلب جوده . (٥) البرية : الناس .

وعرفت أنه لا يقدر على أن يحشى^(١) في أفواههن التراب .
وراح عليه السلام يفكر في جعفر وقد استبد به الحزن ، ثم قال :
— اللهم قد قدم أحسن الثواب فأخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت
أحدا من عبادك في ذريته .
وأخذ رسول الله — ﷺ — عبد الله بن جعفر وإخوته في بيته
يدورون معه كلما صار في بيت إحدى نسائه ، فلما انقضى ثلاثة رجعوا
إلى بيتهم لتضمهم أسماء بنت عميس إلى قلبها المجروح .
وانصرف خالد بالناس وكان قطبة بن قتادة العذري الذي كان على
ميمة المسلمين قد حمل على مالك بن زافلة فقتله ، فقال قطبة بن قتادة :
طعنت ابن زافلة بن الأرا ش برمح مضى فيه ثم انحطم
ضربت على جيده ضربة فمال كما مال غصن السلم^(٢)
وسقنا نساء بنى عمه غداة رقوقين سوق النعم^(٣)
ولما دنوا من حول المدينة تلقاهم رسول الله — ﷺ — والمسلمون
ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله — ﷺ — مقبل مع القوم على دابة
فقال :

— خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر .
فأتى بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه ، وكان رسول الله عليه السلام
حزينا على قواده الذين أصيبوا . إنه فرح يوم خير بقدم جعفر فرحا
يعدل فرحه بفتح خير ، أما اليوم فقد زيد بن حارثة مولاه الذي

(١) يحشى : يلقى .

(٢) السلم : نوع من الشجر

(٣) رقوقين : اسم موضع .

تبناه ذات يوم والذي شرفه الله بأن أنزل اسمه في القرآن من فوق سبع سماوات . وفقد جعفر بن أبي طالب الذي كان أشبه الناس به خلقا وخلقا ، وفقد عبد الله بن رواحة أحد نقباء الخزرج ومن شهد معه المشاهد كلها ، ولم يكن وحده الذي ينز قلبه بالأسى فما أكثر المحزونين ! على بن أبي طالب واله حزين على أخيه جعفر . وأسامة بن زيد تكاد كبده أن تنفطر على أبيه ، والأنصار يحسون أسى على فقد ابن رواحة شاعرهم الذي كان من أوائل الذين تابعوا رسول الله ﷺ — بيعة العقبة .

وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون :

— يا فرار ، فررتم في سبيل الله !

فيقول رسول الله ﷺ :

— ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

وراح الشعراء يكون أصحاب مؤتة من أصحاب رسول الله ﷺ

— قال حسان بن ثابت :

تأوبننى ليل بيثرب أعسر	وهم إذا ما نوم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجت لى عبرة	سفوحا وأسباب البكاء التذكر
بلى ، إن فقدان الحبيب بلية	وكم من كريم يقتل ثم يصير
رأيت خيار المؤمنين تواردوا	شعوب وخلفاء بعدهم يتأخر
فلا يبعدن الله قتلى تابعوا	بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تابعوا	جميعا وأسباب المية تخطر
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم	إلى الموت ميمون النقية أزمهر

أغر كضوء البدر من آل هاشم
فطاعن حتى مال غير موسد
فصار مع المستشهدين ثوابه
وكنا نرى في جعفر من محمد
فما زال في الإسلام من آل هاشم
هم جبل الإسلام والناس حولهم
بهايل^(٤) منهم جعفر وابن أمه
وحمة والعباس منهم ومنهم
بهم تفرج اللاواء^(٥) في كل مأزق

أبى إذا سيم الظلامه محسر^(١)
بمترك فيه قنا متكسر
جنان وملثف الحقائق أخضر
وفاء وأمرأ حازما حين يأمر
دعائم عز لا يزلن ومفخر
رضام^(٢) إلى طود^(٣) يروق ويقهر
على ومنهم أحمد المتخير
عقيل وماء العود من حيث يعصر
غماس^(٦) إذا ما ضاق بالناس مصدر

وقعد أناس من الجيش في بيوتهم فما يخرجون ، وقد فطنت أم سلمة
أم المؤمنين إلى غياب سلمة بن هشام بن العاص عن مسجد الرسول
فقالت لامراته :

— ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله — ﷺ — ومع
المسلمين ؟

قالت والأسى في نبرات صوتها :

— ما يستطيع أن يخرج ، كلما خرج صاح به الناس : يا فرار فررتم

(١) المجسر : المقدام الجسور .

(٢) الرضام : الحجارة يتراكم بعضها فوق بعض .

(٣) الطود : الجبل .

(٤) البهايل : جمع مفردة بهلول وهو السيد العظيم .

(٥) اللاواء : الشدة .

(٦) غماس : المظلم . يزيد ظلامه من كثرة النقع المثار وقت الحر .

في سبيل الله ! حتى قعد في بيته فما يخرج .
وراح قيس بن المسحر اليعمرى يعتذر مما صنع يوم مؤتة وصنع
الناس :

فوالله لا تنفك نفسي تلومني	على موقفى والخيل قابعة قبل
وقفت بها لا مستجيرا فنافذا	ولا مانعا من كان حم له القتل
على أننى آسيت نفى بخالد	ألا خالد فى القوم ليس له مثل
وجاشت إلى النفس من نحو جعفر	بمؤتة إذ لا ينفع النابل النبل
وضم إلينا حجزتهم ^(١) كليهما	مهاجرة لا مشركون ولا عزل

(٣٢)

كان النبى — ﷺ — إذا خطب قام فأطال القيام فكان يشق عليه
قيامه، فأتى بجذع نخلة فحفر له وأقيم إلى جنبه قائما للنبى — ﷺ — ،
فكان النبى عليه السلام إذا خطب فطال القيام عليه استند فاتكأ عليه ،
وكان تميم الدارى يرى رسول الله — ﷺ — يشتد عليه وجع كان يجده
فى فخذه فقال له تميم :

— يا رسول الله ألا أصنع لك منبرا تقوم عليه فإنه أهون عليك إذا
قمت وإذا قعدت ؟

— وكيف المنبر ؟

— أنا يا رسول الله أصنعه لك .

فخرج إلى الغابة فقطع منها خشبات من أثل^(٢) فعمل له درجتين غير

(١) حجة الإزار .

(٢) الأثل : شجر عظيم لا ثمر له .

المقعد ، فتحول رسول الله ﷺ — عن الخشبة التي كان يستند إليها إذا خطب .

وجاء الناس إلى المسجد ينظرون إلى المنبر ويصلون خلف النبي عليه السلام ، ودخل ثابت بن قيس المسجد وأراد أن يجلس فلم يفسح له رجل ممن كانوا ينتظرون الصلاة . فقال له في زراية :
— يا بن فلانة .

فقال رسول الله ﷺ :

— من الذاكر فلانة ؟

فقام ثابت فقال :

— أنا يا رسول الله .

— انظر في وجه القوم .

فنظر فقال :

— ما رأيت يا ثابت ؟

رأيت أبيض وأحمر وأسود .

— فإنك لا تفضلهم إلا في الدين والتقوى .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

وكان ثابت بن قيس في أذنه قر ، وكان جهورى الصوت ، وكان إذا كلم إنسانا جهر صوته ، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ —

فيتأذى بصوته ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ . إن الذين يَغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴿ (١) 》 .

قال أبو بكر على نفسه أن لا يكلم رسول الله — ﷺ — إلا كأخى السرار .

وقد وفد بنى تميم على النبي — ﷺ — فدخلوا المسجد ، فنادوا النبي — ﷺ — من وراء الحجرات :

— يا محمد .. يا محمد .. يا محمد اخرج إلينا ، فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين .

فسمعهم النبي — ﷺ — فخرج عليهم وهو يقول :

— إنما ذلكم الله الذى مدحه زين وذمه شين .

وكان فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم أول من وأد فى العرب فقالوا :

— نحن ناس من بنى تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك .

— ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا .

فقال الزبرقان بن بدر لشاب من شبانهم :

— قم فاذكر فضلك وفضل قومك .

فقام فقال :

— الحمد لله الذى جعلنا خير خلقه وأتانا أموالا نفعل فيها ما نشاء ،
فنحن من خير أهل الأرض ومن أكثرهم عدة ومالا وسلاحا ، فمن أنكر
علينا قولنا فليأت بقول هو أحسن من قولنا وفعال هى خير من فعالنا .
كان بنو تميم على دين المجوس وكانوا على صلوات طيبة بدولة الفرس
فظنوا أنهم أرقى من سائر العرب ، وكانوا يعتقدون أنهم خير أهل الأرض
فقال رسول الله ﷺ — لثابت بن قيس :
— قم فأجب .

فقام فقال :

— الحمد لله أحمدته وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا
إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، دعا
المهاجرين والأنصار من بنى عمه أحسن الناس وجوها وأعظمهم
أحلاما^(١) فأجابوا ، فالحمد لله الذى جعلناه أنصاره ووزراء رسوله
وعزا لدينه ، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قالها
منع منا نفسه وماله ، ومن أباه قتلناه وكان رحمه من الله تعالى علينا
هينا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات .

فقال الزبرقان بن بدر لشاب من شبانهم :

— قم يا فلان فقل آياتنا تذكر فيها فضلك وفضل قومك ، فقام
الشاب فقال :

نحن الكرام فلا حى يفاخرنا فينا الرعوس وفينا يقسم الربع^(٢)

(١) أحلاما : عقولا .

(٢) الربع : ربع الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه .

ونطعم الناس عند القحط كلهم
من السديف^(١) إذا لم يؤنس القزع^(٢)
إذا أبينا فلا يأى لنا أحد
إنا كذلك عند الفخر نرتفع
فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى حسان بن ثابت ، فانطلق إليه
الرسول فقال :

— وما يريد منى وقد كنت عنده ؟
— جاءت بنى تميم بشاعرهم وخطيبهم ، فأمر رسول الله — ﷺ —
ثابت بن قيس فأجابهم وتكلم شاعرهم فأرسل إليك تجيبه .
فجاء حسان فأمره رسول الله — ﷺ — أن يجيبه فقال حسان :
نصرنا رسول الله والدين عنوة
على رغم سار من معد وحاضر
ألسنا نخوض الموت في حومة الوغى
إذا طاب ورد الموت بين المعسكر
ونضرب هام الدارعين ونتمى
إلى حسب من جرم غسان قاهر
فولا حياء الله قلنا تكرما
على الناس بالحقين هل من منافر
فأحياؤنا من خير من وطىء الحصى
وأمواتنا من خير أهل المقابر

(١) السديف : النعاج الحلوب .

(٢) القزع : صغار الإبل ، والسحاب .

فقام الأقرع بن حابس فقال :

— إني والله لقد جئت لأمر ما جاء له هؤلاء وقد قلت شعرا فاسمعه :
— هات .

فقال :

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا إذا فاخرونا عند ذكر المكارم
وإنا رعيوس الناس من كل معشر وأن ليس في أرض الحجاز كوارم
وإن لنا المرباع في كل غارة تكون بنجد أو بأرض التهام^(١)
فقال رسول الله — ﷺ :
— قم يا حسان فأجب .
فقال :

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم
يعود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتم^(٢) علينا تفخرون وأنتم
لنا خول^(٣) من بين ظفرا^(٤) وخادم
وأفضل ما نلتم من المجد والعل
رداقتنا من بعد ذكر الأكارم
فإن كنتم جيئتم لحقن دماءكم
وأموالكم أن تقسموا في المقاسم

(١) النجد : المرتفع من الأرض ، والتهام المنخفضات .

(٢) هبلتم : هجمتم .

(٣) خول : الخدم .

(٤) الظفر : المرأة تحضن ولد غيرها والرجل أيضا .

فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا
ولا تفخروا عند النبي بدارم
ولا ورب البيت مالت أكفنا
على هامكم^(١) بالمرهفات^(٢) الصوارم

وأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾* ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم ﴿٣﴾ .

فقام الأقرع بن حابس فقال :

— إن محمدا المولى ، إنه والله ما أدرى ما هذا الأمر ، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولا ، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر .

كان الأقرع بن حابس يصغى إلى القرآن وكان يرنو إلى نور الإسلام في إعجاب ، ولولا الكبر الذى كان في قلبه لأسلم وكان من السابقين في الإسلام ، فلما أراد الله له الهداية جاء إلى رسول الله عليه السلام ، وهو يتظاهر بأنه ما جاء إلا ليفاخره وإن كانت أنوار اليقين قد أضاءت فؤاده :

ودنا من النبي — ﷺ — فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله .

فقال النبي — ﷺ :

— ما ضرك ما كان قبل هذا .

ثم أعطاهم رسول الله — ﷺ — وكساهم وقد عادوا إلى أهلهم بوجوه تتألق بالأنوار .

(٢) المرهفات : السيوف .

(١) الهام : الرعوس .

(٣) الحجرات : ٤ — ٥ .

راح الروم يشجعون القبائل العربية القريبة من الشام على غزو المسلمين بعد ما رأوا صلابة المسلمين في مؤتة ، وكان هدف الروم إضعاف القوة الجديدة التي بدأت تظهر في شبه جزيرة العرب وترحف إلى ناحية الشام وتهدد حدود الدولة الرومانية التي أنهكتها حروبها مع الفرس ، وقد أخذ الروم يغرون قضاة على غزو المدينة مستهدفين توهين العرب جميعا مشركين ومسلمين حتى ينعموا براحة تمكنهم من التقاط أنفاسهم والخروج من الأزمة المالية الطاحنة التي جلبتها الحروب المستمرة بين الإمبراطوريتين العظيمتين المتنافستين على سيادة العالم .

وبلغ رسول الله ﷺ — أن جمعا من قضاة قد تجمعوا يريدون المدينة ، فدعا رسول الله ﷺ — عمرو بن العاص وذلك بعد إسلامه بسنة وعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء ، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسا وأمره أن يستعين بمن يمر به من بللى وعذرة وبلقين ، فسار الليل وكمن النهار . فلما بلغ بللى قوبل بالترحاب فجده لأبيه العاص بن وائل كانت بلوية ، وقد سرهم أن رسول الله عليه السلام قد أمر ابن أختهم فأمدوه برجال . وصدقت فراسة رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — لما أراد أن يتألفهم بعمرو .

وانطلق عمرو يسير الليل ويكمن النهار حتى خلف وادى القرى

وراءه وأشرف على ذات السلاسل وبينها وبين المدينة عشرة أيام . فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعا كثيرا فلم يشأ أن يغامر وأن يدفعه الحماس إلى أن يخوض معركة قد تكون عاقبتها وخيمة على المسلمين ، فبعث رافع بن كعب الجهني إلى رسول الله — ﷺ — يلتمس منه المدد ، وبقي عمرو بن العاص يصلى بأصحابه ينتظر مدد الرسول عليه السلام ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين وعقد له لواء وبعث معه سراة^(١) هاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعا ولا يختلفا ، فلحق بعمرو . وأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو :

— إنما قدمت على مدد وأنا الأمير .

وعند ذلك قال جمع من المهاجرين الذين مع أبي عبيدة لعمرو :

— أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه .

فقال عمرو :

— أنتم مدد لنا .

فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف قال :

— لتعلم يا عمرو أن آخر شيء عهد إلي رسول الله — ﷺ — أن

قال : إن قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا ، وإنك والله إن عصيتني لأطيعنك .

— فإني الأمير عليك .

— كان أبو عبيدة حسن الخلق لبن العريكة^(٢) فقال :

(١) السراه : العظماء .

(٢) العريكة : النفس ، ولبن العريكة : سلس الخلق .

— دونك .

وصلى عمرو بن العاص بالناس وصلى خلفه أبو عبيدة بن الجراح وأبو بكر الصديق والفراروق عمر بن الخطاب وسراة القوم من المهاجرين والأنصار ، فقد علمهم رسول الله ﷺ — الطاعة ولو أمر عليهم عبد حبشى .

كان البرد شديدا ، ولما جن الليل اشتدت برودة الجو فأراد الناس أن يوقدوا نارا ليصطلوا عليها من البرد فمنعهم عمرو وقال :
— كل من أوقد نارا لأقذفه فيها .

فشق عليهم ذلك لما فيه من شدة البرد ، فكلمه بعض سراة المهاجرين في ذلك فغالظه عمرو في القول وقال له :
— قد أمرت أن تسمع لى وتطيع .

— نعم .

— فافعل .

ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب غضب وهم أن يأتيه فمنعه أبو بكر وقال :

— إن رسول الله لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب .

وجلس الناس في المعسكر يرتجفون من البرد ، وشرذ عمرو بن العاص يفكر فإذا به يرى رسول الله عليه السلام يطلبه ، فلما وافى رسول الله عليه السلام أمره أن يأخذ ثيابه وسلاحه ، ودار في نفسه الحوار الذى كان بينه وبين النبی صلوات الله وسلامه عليه .

— يا عمرو إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك .

— إني لم أسلم رغبة في المال .

— نعم المال الصالح للرجل الصالح .

وكانت قضاة قد جمعت جموعا هائلة لتدهم أطراف المدينة ، وتأهبت للخروج دون أن تشعر أن على مقربة منهم قوة من المسلمين ترقب فرصتها لتنقض عليهم . وفي عماية الصبح أمر عمرو بن العاص بالهجوم فانقض المسلمون على أعدائهم انقضاض النسر ، وارتفع هتافهم يجلجل في المكان ويخلع القلوب من الصدور .

— أمت . أمت يا منصور .

ومضت الرماح إلى الأفدة ، وانهالت ضربات السيوف على الرقاب ، وارتفع صهيل الخيول حتى كاد يطفى على أنين الرجال ، وثار النقع فاختلط بأنفاس الناس ، وحمى وطيس^(١) القتال ، ومشى الرجال إلى الرجال وقد كسروا عن الأنياب ، وتألفت السيوف القواطع وانعكست أشعة الشمس على الدروع والخوذات والصحائف والسنان فبدت كأنها شمس لا تعرف الاستقرار ، وشجرت الرماح فدخل بعضها على بعض ، وخضبت الرمال بالدماء وتبعثرت الأجساد هنا وهناك ، وحامت طيور السماء حول حومة الموت ترقب انجلاء المعركة الرهيبة التي لا هوادة فيها لتنقض على الأجداث قبل أن تأتى السباع . وراح أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وعمرو وصناديد^(٢) المسلمين يضربون ضربا رصينا كحر النار مشتعل ، واستمروا يطلبون عدوهم لله

(١) الوطيس : التنور ، وحمى الوطيس : كناية عن شدة الحرب .

(٢) الصناديد : جمع مفردة صنديد وهو الشجاع في الحرب .

وينتظرون نصر الله يمشون كلهم وقد وطنوا أنفسهم على الموت أو النصر
نعوج أسياقهم في الضرب أحيانا وتعتدل . وراع قضاة سرعة الخيول
واستبسال القوم والزحف القاتل الذي دهمهم والقتل الذي استشرى
فيهم فتفرقوا وولوا الأدبار ، وأراد المسلمون أن يتبعوهم فمنعهم عمرو
بن العاص وهم كارهون .

وجاء الليل وهبت الريح باردة فأحس المسلمون كأن دماءهم
ستجمد في عروقهم ، وأرادوا أن يوقدوا نارا ليصطللوا من البرد فمنعهم
وهم يعجبون فقد انتهت المعركة . ولكن القائد قد أمرهم فحق عليهم
الطاعة وإن شق عليهم ذلك من شدة البرد .

واحتلم عمرو وكانت تلك الليلة شديدة البرد جدا فقال لأصحابه :
— ما ترون قد والله احتلمت فإن اغتسلت مت .

فدعا بماء فغسل فرجه وتوضأ وتيمم ثم قام وصلى بالناس ولم يعترض
كبار الصحابة ، وصلوا خلفه ، ولم يختلفوا كما اختلف اليهود فقد علمهم
— صلوات الله وسلامه عليه — أن الدين يسر وأن التنطع في الدين
مفسدة ، ثم بعث عمرو عوف بن مالك مبشرا للنبي — ﷺ —
بقدومهم وسلامتهم ، فجاءه وهو يصلى في بيته فقال :

— السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . عوف بن مالك ؟

— نعم . بأبي أنت وأمي يا رسول الله .

— أخبرني .

فأخبره بما كان من مسيرهم وما كان بين أبي عبيدة بن الجراح وعمرو

ابن العاص ومطابقة أبي عبيدة لعمرو . فقال رسول الله — ﷺ — :

- يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح .
- وأخبره بمنع عمرو المسلمين من اتباع العدو ، ومن إيقاد النار ، ومن صلاته بأصحابه وهو جنب .
- وقدم الجيش المظفر فخرج الناس لاستقبال الأجابة العائدين بالنصر ، وخرج رسول الله ﷺ — لاستقبال وزيره الصديق والفاروق وتهنئتهما بسلامة العودة ، وكان لقاء وكان عناق وكانت دموع ، ولما استقر بهم المقام كلم عليه السلام عمرو فيما فعل فقال :
- كرهت أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قتلهم ، وكرهت أن يتعقبوهم فيكون لهم مدد فيعطفون عليهم .
- فحمد رسول الله ﷺ — أمره ، وسأله عن صلاته قال :
- يا عمرو أوصليت بأصحابك وأنت جنب ؟
- والذي بعثك بالحق إني لو اغتسلت لمت ، لم أجد بردا قط مثله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (١) .
- فضحك — ﷺ ، وكان على الرغم من أحزانه الدائمة يضحك إذا ما سمع أو رأى ما يوجب الضحك ، وكان ضحكه عليه السلام تبسما ، فقد خرج نعيان وهو من أهل بدر مع أبي بكر الصديق إلى بصرى وكان في الحملة سويط وهو بدرى أيضا ، وكان سويط على الزاد فجاءه نعيان فقال له :
- أطعمني .
- لا حتى يأتى أبو بكر .

— والله لأغيظنك .

وجاء إلى الناس قد جلبوا بعيرا وأبقارا فقال :

— ابتاعوا مني غلاما عربيا فارها إلا أنه دعاء له لسان ، لعله يقول
إنه حر ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه لا تفسدوا عليّ غلامي .

— بل نبتاعه منك بعشر قلائص^(١) .

فأقبل بها يسرقها وأقبل بالقوم حتى عقلها ثم قال :

— دونكم ! هذا هو .

وذهبوا إلى سويبط فقالوا :

— قد اشتريناك .

— هو كاذب ، أنا رجل حر .

— قد أخبرنا خبرك .

ووضعوا في عنقه حبلا وذهبوا به ، فجاء أبو بكر فأخبر بذلك
فذهب هو وأصحابه فردوا القلائص على أربابها وأخذوه ، وأخبر
النبي ﷺ — بالقصة فضحك منها حولا .

وأهدى نعيمان إلى رسول الله ﷺ — جرة عسل اشتراها من
أعرابي ، وأتى بالأعرابي إلى باب النبي ﷺ — نادى الأعرابي :

— ألا أعطى ثمن عسلي ؟

فقال النبي ﷺ :

— إحدى هنات نعيمان .

(١) القلوص : من الإبل : الشابة .

وجيء بنعيان فسأله عليه السلام :

— لم فعلت هذا ؟

— أردت برك يا رسول الله ولم يكن معي شيء .

فتبسم النبي — ﷺ — وأعطى الأعرابي حقه .

كان عليه السلام يمازح الصغير ويلعب الوليد ويمازح العجوز ولا يقول إلا حقا ، ويقول : « روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كلت عميت » . وكان ضحك السن بسام الثنيات . وقيل : « المزاح هُجنة » فقليل : « بل سنة لقوله عليه الصلاة والسلام : إني لأمزح ولا أقول إلا الحق » .

(٣٤)

أظهر حي جهينة العداوة للمسلمين فبعث رسول الله — ﷺ — أبا عبيدة بن الجراح في شهر رجب سنة ثمان من الهجرة في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار وفيهم عمر بن الخطاب إلى ذلك الحي بالقبيلة مما يلي ساحل البحر ، وبينها وبين المدينة خمس ليال ، وزودهم عليه السلام جرابا من تمر فجعل أبو عبيدة يقوتهم إياه .

ومرت أيام وليال وهم في طريقهم إلى ساحل البحر الأحمر وقد كاد التمر ينفد ، فراحوا يعللون النفس أنهم سيدهمون ذلك الحي ويغنمون منه ما يطعمون ، ولكنهم لم يجدوا أحدا ولم يلقوا كيذا فراح أبو عبيدة يعد لهم التمر عدا حتى كان يعطي الواحد ثمرة كل يوم .

وبلغوا ساحل البحر واستقروا هناك يرقبون فرصتهم ، وراح

أبو عبيدة يعطى عمر والزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والذين معه
تمر ، فنقصت تمره عن رجل فوجدوا فقدوها ذلك اليوم .

وراح الزبير بن العوام يمتص التمرة كما يمص الصبى ثدى أمه ثم يشرب
عليها من الماء فتكفيه يومه إلى الليل ، وأخذ الرجال يصرون التمر بعد أن
مصوه في ثيابهم في حرص شديد فلم يكن في المكان غير ماء البحر
والسماء والرمال والخبط (ورق شجر السمر) .

وتقضت أيام ونفد التمر فلم يكن أمامهم إلا الخبط فجعلوا يبلونه بالماء
ويأكلونه حتى تقرحت أشداقهم ، وتمدد قيس بن سعد بن عبادة فإذا به
يذكر دارهم دار الجود ، إنه يرى بعين خياله رجلا واقفا على أطم
ينادى :

— من يريد الشحم واللحم فعليه بدار ألى سعد دليم .
ورأى أصحاب الصفة إذا أمسوا انطلق الرجل بالواحد والرجل
بالاثنين والرجل بالجماعة وأما أبوه سعد فينطلق بالثمانين . ورأى رسول
الله ﷺ — يزورهم في منزلهم فيقول :
— السلام عليكم ورحمة الله .

ثم قال :

— اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة .
إنه وهو من بيت جود لا يستطيع أن يرى رفاقه يموتون من الجوع
وهو ينظر ، وقد ثار الدم في عروقه لما صك أذنيه قول قائل منهم :
— والله لو لقينا عدوا ما منا حركة إليه .

فلما رأى رجلا من أهل الساحل قام فقال :

— من يشتري منا تمرا أوفيه له في المدينة بجزر يوفيهما إلتى ههنا ؟

فقال له رجل من أهل الساحل :

— أنا أفعل ، ولكن والله ما أعرفك فمن أنت ؟

— أنا قيس بن سعد بن عبادة .

— ما أعرفنى بسعد ، إن بينى وبين سعد خلة سيد أهل يثرب .

فاشترى خمس جزائر كل جزور بوسق من تمر ، فقال الرجل :

— أشهد لى .

— أشهد من تحب .

فأشهد نفرا من المهاجرين والأنصار ، وامتنع عمر بن الخطاب من أن

يشهد وقال :

— هذا يدان ولا مال له ، إنما المال لأبيه .

فقال الرجل :

— والله ما كان سعد ليحبنى بابه .

كان الرجل واثقا من أن سعد بن عبادة سوف يوفى عن ابنه ما

التزمه ، فنشب بين قيس وعمر كلام حتى أغلظ قيس الكلام . وأخذ

قيس الجزر فنحر منها واحدة فالتف الرجال يأكلون وقد تهلت

أساريهم فقد انقضت عليهم أيام كاد الجوع أن يخرط فيها أحشاءهم .

ونحر سعد من الجزر ثلاثا فى ثلاثة أيام ، وأراد أن ينحر لهم فى اليوم

الرابع فنهاه أبو عبيدة وقال :

— عزمت عليك ألا تنحر ، تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك ؟

فقال قيس فى دهش :

— أترى أبا ثابت يقضى ديون الناس ويطعمهم فى المجاعة ولا يقضى

دينا استدنته لقوم مجاهدين فى سبيل الله !

وساروا على ساحل البحر وإذا بشيء كهيئة الكتيب الضخم ،
فهرعوا إليه ، فإذا به دابة من البحر فراح أبو عبيدة يفحص عنها فقال :
— ميتة .

— اضطررتم فكلوا .

فأقاموا عليها وهم ثلاثمائة ، ودخل جابر بن عبد الله وأربعة من رفاقه
عينها فما رأهم أحد وراحوا يغترفون منها الدهن بالقلال ، ثم انطلقوا
عائدين إلى المدينة ، فلما قدم قيس قال له سعد بن عبادة :
— ما صنعت في مجاعة القوم ؟

— نحرت .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— نحرت .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— نحرت .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— نهيت .

— ومن نهاك ؟

— أميري أبو عبيدة .

فقال أبو ثابت في غضب :

— ولم ؟

— زعم أنه لا مال لي إنما المال لأبيك ، فقلت له ألى يقضى عن
الأباعد ويحمل الكل ويطعم في المجاعة ولا يصنع هذا لي ؟ فلان لموافقتي
فأبى عليه عمر بن الخطاب إلا التصميم على المنع .

فقال سعد لولده قيس :

— ذاك أربع حوائط (بساتين) أدناها ما يتحصل منه خمسون وسقا .

ووفى قيس الرجل صاحب الجزر وأعطاه ما يركبه وكساه .
وراح الناس يتحدثون عن الدابة الهائلة التى ألقى بها البحر وقالوا إن
أبا عبادة نصب لهم ضلعاً من أضلاعها ومر تحتها قيس بن سعد بن عبادة
وكان أطول رجل فى القوم راكباً على أطول بعير لم يطأ طيء رأسه .
وقالوا إن أبا عبادة أخذ منهم ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم فى وقت عينها
فأكلوا منها أياماً .

وبلغ النبى — ﷺ — ما فعل قيس فقال :

— إنه فى بيت جود ، إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت .

وجاء سعد بن عبادة إلى النبى — ﷺ — فقال :

— من عذيرى من ابن الخطاب يبخل على ابنى !

وأخبروا رسول الله — ﷺ — خيراً الدابة التى ألقى بها البحر وسألوه

ما صنعوا فى ذلك من أكلهم إياه ، فقال عليه السلام :

— رزق رزقكم الله إياه .

كانت غطفان مستمرة في عداوة المسلمين وما كانت تترك فرصة
تستطيع أن تنال فيها منهم إلا انتهزتها . وقد بلغ رسول الله ﷺ — أن
رجلا يقال له رفاعه بن قيس في جمع عظيم نزل بالغابة يريد حرب رسول
الله ﷺ ، فأمر رسول الله ﷺ — أبا قتادة أن يتجهز للخروج
ليفجأ ذلك الجمع قبل أن يتحركوا إلى المدينة .

وكان عبد الله بن أبي حدرد السلمي تزوج امرأة من قومه ، فجاء
رسول الله ﷺ — يستعينه على ذلك فقال عليه السلام :

— كم أصدقت ؟

— مائتي درهم .

— سبحان الله لو كنتم تأخذون الدراهم بطن واديكم هذا ما زدتم .
والله ما عندي ما أعينك ولكن قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة في أربعة عشر
رجلا في سرية فهل لك أن تخرج فيها فأني أرجو أن يغنمك الله مهر
امراتك .

— نعم .

وبعث عليه السلام أبا قتادة في خمسة عشر رجلا إلى غطفان وخرج
معه عبد الله بن أبي حدرد السلمي ، ودفع له ولرجلين من المسلمين ناقة
مسنة وقال :

— تبلغوا عليها واعتقبوها .

فركبها أحدهم فوالله ما قامت به ضعفا حتى ضربت ، وخرجت سرية أبى قتادة ومعهم سلاحهم النبل والسيوف يسرون الليل ويكمنون النهار حتى جاءوا القوم النزول على الماء ، فلما ذهبت فحمة العشاء خطبهم أبو قتادة وأوصاهم بتقوى الله وألف بين كل رجلين وقال :

— لا يفارق كل رجل زميله حتى يقفل (يرجع) ، ولا يجيء إلى الرجل فأسأله عن صاحبه فيقول لى لا علم لى به . وإذا كبرت فكبروا وإذا حملت فاحملوا ولا تمنعوا فى الطلب .

وكان عبد الله بن أبى حذرر فى ناحية وصاحبه فى ناحية ينتظران غرة القوم إلا ورفاعة بن قيس المجمع للقوم خرج فى طلب راع لهم فأبطأ عليهم وتخوفوا عليه ، فقال له نفر من قومه :

— نحن نكفيك ولا تذهب أنت .

فقال فى استخفاف :

— والله لا يذهب إلا أنا .

— فنحن معك .

— والله لا يتبعنى أحد منكم .

فخرج حتى مر بأبى حذرر ، فلما أمكنه نفحه بسهم فوضعه فى فؤاده فما تكلم ، فوثب عليه واحترز رأسه .

وأحاط المسلمون بالقوم فجرد أبو قتادة سيفه وكبر ، وجرد المسلمون سيوفهم وكبروا معه .

وقاتل رجال من القوم وإذا فيهم رجل طويل فأقبل على أبى حذرر فقال له متهمما به :

— يا مسلم هلم إلى الجنة .

فمال إليه أبو حدرد فذهب أمامه ، وصار يقبل عليه بوجهه مرة ويدبر عنه بوجهه مرة أخرى فراح يتبعه ، فقال له صاحبه :
— لا تتبعه فقد نهانا أميرنا أن نمنع في الطلب .

وكان الرجل الطويل يحاول أن يستدرج أبا حدرد بعيدا ، فلما سمع تحذير صاحبه قال في حلق :

— إن صاحبكم لذو مكيدة ، وإن أمره هو الأمر .

وأدركه أبو حدرد فرماه بسهم فقتله وأخذ سيفه ، وكان المسلمون يخوضون غمار المعركة فقتلوا من أشراف لطفان واستاقوا الإبل والغنم . فكانت الإبل مائة بعير والغنم ألفى شاة وسبوا سبايا كثيرة .
وعاد أبو حدرد إلى صاحبه فأخبره صاحبه أنهم جمعوا الغنائم وأن أبا قتادة تغيط عليهما . فجاء أبا قتادة فلامه فأخبره الخبر ، ثم قسمت الغنائم فأصاب كل رجل بعد إخراج الخمس اثني عشر بعيرا وعدل البعير بعشرين من الغنم ، ووقع في سهم أبا قتادة جارية حسناء وضيئة تأخذ بالألباب .

وساقوا النعم وحملوا النساء وجفون السيوف معلقة بالأقتاب ، ثم لما أصبحوا رأى أبو حدرد في السبي امرأة كأنها ظبي تكثر الالتفات خلفها وتبكي ، فقال لها :

— أى شيء تنظرين ؟

— والله أنظر إلى رجل لئن كان حيا ليستقذنا منكم .

فوقع في نفس أبا حدرد أنه الذى قتله فقال لها :

— والله لقد قتلته وهذا والله سيفه معلق بالقتب .

فقالت والدموع في عينيها كأنما لؤلؤتان :

— فأين غمده ؟

— هذا غمد سيفه .

فلما رآته بكت أحر بكاء .

وعاد أبو قتادة وفي ركابه الحسنة الوضيئة . ودفع إلى رسول الله —

ﷺ — خمس الغنيمة ليوزعه على الفقراء والمساكين ويفك به رقاب العبيد ويؤلف به قلوب الناس ويسد منه دين المدينين .

وجاء رجل إلى رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله إن أبا قتادة قد أصاب جارية وضيئة وقد كنت

وعدتني جارية من أول فيء يفيء الله به عليك .

فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى أبي قتادة قال :

— هب لي الجارية .

فوهبها له . ثم وهبها — ﷺ — لذلك الرجل الذي وعده بجارية من

أول فيء يفيء الله به .

(٣٦)

لما كان صلح الحديبية بين رسول الله — ﷺ — وبين قريش كان فيه

أن من أحب أن يدخل في عقد محمد — ﷺ — وعهده فليدخل ، ومن

أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه . فدخلت بنو بكر

في عهد قريش ودخلت خزاعة في عهد رسول الله — ﷺ .

وكان بين بنى بكر وخزاعة دماء ، وحجز الإسلام بينهما لتشاغل

الناس به وهم على ما هم عليه من العداوة . وكانت خزاعة حلفاء

(صلح الحديبية)

عبد المطلب وكان هواهم مع بنى هاشم . فإنه لما مات المطلب وثب نوفل بن عبد مناف على ساحات وأفنية كانت لعبد المطلب واغتصبه إياها ، فاضطرب عبد المطلب لذلك واستنهض قومه فلم ينهض معه أحد منهم وقالوا له :

— لا ندخل بينك وبين عمك .

وكتب إلى أخواله بنى النجار فجاء منهم سبعون راكبا فأتوا نوفلا وقالوا له :

— ورب البنية لتردن على ابن أختنا ما أخذت وإلا ملأنا منك السيف .

فرده ثم حالف عبد المطلب خزاعة بعد أن حالف نوفل بن عبد مناف بنى أخيه عبد شمس . ومنذ ذلك الوقت وخزاعة تميل إلى بنى هاشم وكان هوى خزاعة مسلمهم وكافرهم مع محمد — ﷺ .

وقد قرأ على رسول الله — ﷺ — أبي بن كعب كتاب جده عبد المطلب لخزاعة بالحديبية وهو : « باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب ابن هاشم لخزاعة ، إذا قدم عليه سرواتهم ^(١) وأهل الرأي منهم غائبهم يقر بما قاضى عليه شاهدهم ، أن بيننا وبينكم عهد الله وميثاقه وما لا ينسى أبدا ، اليد واحدة والنصر واحد ما أشرق ثبير ^(٢) وثبت حرء مكانه ، وما بل بحر صوفة . »

فقال رسول الله — ﷺ :

— ما أعرفنى بحقكم وأنتم على ما أسلفتم عليه من الحلف ؟

(١) سرواتهم : عظمائهم .

(٢) ثبير وحرء : اسماء جبلين .

فلما كانت الهدنة التي وقعت في صلح الحديبية اغتتمها بنو بكر فراح شخص منهم يهجو رسول الله ﷺ — وصار يتغنى به ، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه فثار الشر بين الحيين مما كان بينهم من عداوة . فطلب بنو بكر من أشراف قريش أن يعينوهم بالسلاح والرجال على خزاعة فأمدوهم بذلك ، فجاءوا خزاعة ليلا بغتة وهم آمنون على ماء لهم يقال له الوثير فقتلوا منهم عشرين ، وقاتل معهم جمع من قريش مستخفيا منهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبي جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو ، ولا زالوا بهم إلى أن أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة ولم يشاوروا في ذلك أبا سفيان ، وظنوا أنهم لم يعرفوا وأن هذا لا يبلغ رسول الله ﷺ .

فلما ناصرت قريش بنى بكر على خزاعة ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ — من العهد والميثاق ندموا . وجاء الحارث بن هشام إلى أبي سفيان وأخبره بما فعل القوم فقال :

— هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه وإنه لشر ، والله ليغزونا محمد ، ولقد حدثتني هند بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخدمة .

فكره القوم ذلك وخرج عمرو بن سالم الخزاعي سيد خزاعة في أربعين راكبا من خزاعة فيهم بديل بن ورقاء الخزاعي قاصدين المدينة . ودخل رسول الله ﷺ — صبيحة الواقعة على عائشة أم المؤمنين وقال لها :

— حدث في خزاعة حدث .

— يا رسول الله أترى قريشا يجترئون على نقض العهد الذي بينك

وبينهم ؟

— ينقضون العهد لأمر يريدہ اللہ .

— خیر .

— خیر .

وبات رسول اللہ — ﷺ — عند ميمونة فقام ليتوضأ للصلاة
فسمعتہ يقول :

— لبيك ! لبيك ! لبيك ! نصرت نصرت نصرت .

فلما خرج قالت :

— يا رسول الله سمعتك تقول لبيك لبيك لبيك ! نصرت نصرت
نصرت ! كأنك تكلم إنسانا فهل كان معك أحد ؟ .

— هذا راجز بنى كعب يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل .
ومضت ثلاثة أيام وصلى رسول الله — ﷺ — الصبح وجلس في
المسجد بين الناس ، فإذا بوفد خزاعة قد قدم إلى المدينة ودخل المسجد
ووقف بديل بن ورقاء وقال :

يا رب إلى ناشد محمدا	حلف أيينا وأبيه الأتلدا (١)
إن قريشا أخلفوك الموعدا	ونسقضوا ميثاقلك المؤكدا
هم بيتونا بالوثير (٢) هجدا	وقتلونا ركعا وسجدا
فقال النبي — ﷺ :	

— نصرت يا عمرو بن سالم .

(١) الأتلد : التليد : القديم ، والأتلد الأكبر . قديما وعراقا .

(٢) الوثير : موضع بالقرب من عرفة .

ودمعت عينا رسول الله — ﷺ — وقال :

— لا ينصرني الله إن لم أنصر بني كعب مما أنصر به نفسي .

ولما ندمت قريش على نقضهم العهد جاءوا إلى أبي سفيان فقالوا له :

— ما لها إلا سواك ، اخرج إلى محمد فكلمه في تجديد العهد وزيادة

المدة .

فخرج أبو سفيان ومولى له على راحتين ، فأسرع السير لأنه يرى أنه

أول من خرج من مكة إلى رسول الله — ﷺ .

وقال رسول الله — ﷺ — قبل قدوم أبي سفيان :

— كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة وهو

راجع بسخطه .

ثم رجع أولئك الركب من خزاعة وقد قرت أعينهم بما سمعوا من

رسول الله — ﷺ — بعد أن قال لهم عليه السلام :

— ارجعوا وتفرقوا في الأودية .

فرجعوا وتفرقوا ، فذهبت فرقة إلى الساحل وفيهم عمرو بن سالم ،

وفرقة فيهم بديل بن ورقاء لزمت الطريق . وإن أبا سفيان لقي بديل بن

ورقاء بعسفان فأشفق أبو سفيان أن يكون بديل جاء إلى رسول الله

— ﷺ — المدينة فقال للقوم :

— أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها ؟

— لا علم لنا بها . إنما كنا في الساحل نصلح بين الناس في قتل .

ثم صبر أبو سفيان حتى ذهب أولئك القوم فالتفت إلى مولاه فقال :

— لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى .
فجاء منزلهم ففتت أبعاد أباعرهم فوجد فيها النوى . قال أبو سفيان :
— أحلف بالله لقد جاء القوم محمدا .
وانطلق أبو سفيان ومولاه ، وأبو سفيان يرجو أن ينجح في سفارته
فيشد العقد ويزيد في المدة .

التذيل

ارتطمت البشرية بمشكلة الجنس منذ بدء الخليقة ، فعندما خلق الله أول زوجين ذرية كانت المرأة سبب أول جريمة وقعت على الأرض ، فقد قتل رجل أخاه لأن زوجة أخيه كانت أكثر حسنا من زوجته . وبعد أن كان التنظيم الأسرى معروفا منذ الأزل ، ولما طال على الناس الأمد أطلقت للفرائز حريتها فكان البغاء وكان الانحلال وكانت الحرية الجنسية المدمرة وكان انعدام التجانس في نسيج الكون ، فبعث الله الرسل لإرشاد الناس إلى حل مشاكلهم الجنسية حلا طاهرا يسمح بقيام نظام اجتماعي سليم يمكن أن يقوم عليه سعادة البشر .

كانت الشرائع السماوية كلها تحدد علاقة الرجل بالمرأة لبناء مجتمع جديد ، فالبيت نواة المجتمع البشري ، واستقرار البيت هو استقرار المجتمع . وكانت الشرائع السماوية كلها تعطي الرجل حقه وتعطي المرأة حقه ولكن كلما بعدت البشرية عن عدالة السماء ونخفت قبضة الدين على المجتمعات راح الرجال وهم الحكام والمشرعون والقضاة يشرعون قواعد تزيد في حقوقهم على حساب حقوق المرأة ، فكانت عصور الضياع التي نكبت بها الإنسانية .

إن مركز المرأة في المجتمعات هو المقياس الحقيقي لحضارة المجتمع ، فإذا نالت المرأة التوقير الذي تستحقه في مجتمع ما وأخذت حقوقها المشروعة بلا زيادة أو نقصان ، وقامت بدورها الطبيعي الذي خلقها له الله ، فإن ذلك المجتمع يكون أكثر تحضرا من مجتمع تهان فيه المرأة بأن

يطلق لها الحبل على الغارب ، تمارس فيه كل أنواع الفساد تحت شعارات خادعة براءة يفلسفها لها مخادعون يزينون الرغبات والنزوات والأهواء ويقولون إن الظواهر النفسية حرة ، وإننا نفعل على نحو ما نوجد ، وإن فعلنا ينبثق من وجودنا ويسهم في خلقنا ، وأن الإنسان حر من حيث هو شعور ، ومثل ذلك من الفلسفات التي تشجع على الخطيئة إرضاء لحرية النزوات !

كان مركز المرأة متاثلاً عند كل الشعوب التي وصلت إلى درجة معينة من الحضارة ما دامت بعيدة عن أثر الدين وتأثيره ، فكانت المرأة في مصر القديمة وفي بابل وآشور في مكانة واحدة فهي زوجة الرجل الشرعية ، على أن الرجل كان حراً في اتخاذ محظيات على قدر ما تسمح به ثروته ، وكانت خادومات المنزل إماءه وملك يمينه . فللرجل زوجة شرعية واحدة هي « زوجته المحبوبة » و « سيدة المنزل » وله حريم من المغنيات والمحظيات الحسنان وما كان هن حد يقف عنده الرجل بل يعود ذلك إلى درجة ثرائه وانفتاح شهيته .

وقد عرف قدماء المصريين تعدد الزوجات ، فرئيس عشرة الوجه القبلي « أمينى » الذى عاش فى الدولة الوسطى كان له زوجتان إحداهما وهى المسماة « نبت » ولدت له ولدين وخمس بنات ، والأخرى واسمها « حتوت » فقد أنجبت له ثلاث بنات وصبياً واحداً . وكانت الزوجتان تعيشان معاً فى سلام حتى إن السيدة نبت سميت ابنتها الثانية « حتوت » وسميت السيدة حتوت بناتها الثلاث باسم نبت !

وكانت لرمسيس الثانى زوجتان ملكيتان عظيمتان هما نفرتا مرن مرت وإسى — نفري أم منفتاح ، وعندما عقد معاهدة مع ملك الحيثيين

تزوج سياسيا . وقد فعل تحتمس الرابع مثل ذلك ، وكذلك أمنوفيس الثالث والرابع عندما اتخذوا لأسباب سياسية أسرات من بابل ومثاني وجعلوهن زوجات ملكيات عظيمات .

وكانت قصور الأمراء وحكام الأقاليم والأثرياء تموج بالحریم أو كما كان يعرف في العهد الفرعوني « بيت المحجبات » وكانت نساؤهم وأولادهن لا يستمتعون بأية حقوق قانونية قبل رب البيت . كان الحریم موجودا في جميع عصور التاريخ كحاجة من حاجات الأثرياء الوجهاء ، وكان واجب نساء الحریم أن يشرحن قلب فرعون بالأغاني والرقص ، وكذلك كان هذا هو دور الحریم في قصور الأثرياء .

ويقال في نصوص الأهرام عن الملك المتوفى إنه « يأخذ النساء من أزواجهن عند رغبته » ، أى أن للملك حق اغتصاب أية زوجة من زوجها كما كان الحال بعد ذلك لأمراء الإقطاع في العصور الوسطى . وكان الشبان في سن الخامسة عشرة يتزوجون بفتيات في الثانية عشرة من عمرهن ، وكان الأب هو الوكيل الشرعى في الزواج .

وكانت سبايا الحروب يوزعن على الجنود ، وقد نال جندى واحد بعد معركة حربية عشرة من الإماء . وكان التسرى منتشرًا بين الطبقات الدنيا ، ولا يخلو عصر من العصور من النساء اللاتي لا عائل لهن ولا حرفة يعشن منها غير البغاء .

وكان الأبناء ينسبون إلى الأمهات . وفي عصر الدولة الوسطى كان نظام التوريث في أسرات النبلاء يأتى عن طريق النساء لا الذكور ، فلم يكن الابن هو الذى يرث وإنما يرث ابن كبرى البنات ، وكان والد الأ هو الوصى الطبيعى للشباب .

عرفت البشرية منذ فجر التاريخ نظام تعدد الزوجات ، وإن قارىء التوراة ليجد أن أنبياء بنى إسرائيل قد اتخذوا أكثر من زوجة وتسروا بأكثر من محظية حتى قيل إن قصر سليمان كان به أكثر من ألف امرأة . ولم يأت في الإنجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج من أكثر من واحدة ، وإن عدم زواج السيد المسيح قد أوقع المسيحيين المؤمنين في الحرج حتى صار عندهم أبغض الحلال إلى الله الزواج !

وعرف العرب في الجاهلية نظام تعدد الزوجات والتسرى بالإماء ، وكان سادات القوم يدفعون إماءهم على الزنا لجمع الأموال ، ولما جاء الإسلام قال النبي — ﷺ : (لا تقل عبرى وعبدتى بل فتاى وفتاى) لذلك جاء في القرآن الكريم : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا ﴾ (١) . فقد كانت بعض صاحبات الرايات الحمر يضقن بهذه المهنة وكن يمارسها تحت ضغط السادة وتهديدهم .

وكان فقراء العرب يثدّون بناتهم خشية الفقر فكان ذلك نوعا من تحديد النسل ، وما كان الوأد للبنين لأن القبائل كانت في حاجة إلى الرجال للغارة والسطو ودفع العدوان ، لذلك كانوا يكرهون إنجاب البنات : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ (٢) .

وقد بلغت الاستهانة بالشرف بين بعض رجال العرب في الجاهلية أن

(١) النور : ٣٣ .

(٢) النحل ٥٨ — ٥٩ .

قبلوا الاستبضاع ، وهو إرسال الزوجة لرجل نابه أو شاعر مفوه أو حاكم حكيم لإنجاب ذرية قوية فيها بعض صفات الرجل القوى الفحل الذى يتمنى الزوج أن يأتى ابنه على مثاله !

وكانوا يجمعون بين الأختين ، ويخلف الرجل على امرأة أبيه ، وكانوا يسمون من فعل ذلك الضيزن . وكان الرجل من العرب إذا مات عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه فإن كان له حاجة فيها طرح ثوبه عليها ، وإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد . وقد كان هذا النكاح فى الجاهلية نكاح المقت .

وكان الرجل يرث امرأة ذى قرابته فيعضلها^(١) حتى تموت أو ترد إليه صداقها ، فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دمية حبسها حتى تموت فيرثها .

كانت للمرأة العربية فى الجاهلية بعض الحقوق بينا نجد لها فى جمهورية أفلاطون شيئا لا حق له ، إنها لعبة الرجال الممتازين ولا بأس من أن تكون مشاعا بينهم ، فما خلقت إلا للترفيه عن الرجال الأقوياء العظماء الذين تضع جمهورية الفيلسوف كل إمكانياتها لتكوين هؤلاء الصفوة . ويقول الدكتور على عبد الواحد وافي فى كتابه حقوق الإنسان فى الإسلام : « ... فحالة المرأة فى فرنسا مثلا كانت إلى عهد قريب ، بل لا تزال إلى الوقت الحاضر أشبه شئ بحالة الرق المدنى ، فقد نزع منها القانون صفة الأهلية فى كثير من الشؤون المدنية كما تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون المدنى الفرنسى إذ تقرر أن :

(١) عضل المرأة : منعها الزواج وضيق عليها .

« المرأة المتزوجة ، حتى لو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكيتها زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو من غير عوض بدون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية . »

ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد فإن كثيرا من آثارها ما يزال ملازما لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر ، وتوكيدا لهذا الرق المدني المفروض على المرأة الغربية المتزوجة تقرر قوانين الأم الغربية ويقضى عرفها أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان بل تحمل اسم زوجها وأسرته فتدعى مدام فلان . أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرته ، وفقدان اسم المرأة وحملها لاسم زوجها كل ذلك يرمز إلى فقدان الشخصية المدنية للزوجة واندماجها في شخصية الزوج .

وقد ظلم الإسلام الذين قالوا إن الإسلام أباح تعدد الزوجات ووقف عند ذلك ، فالحقيقة التي لا مرأ فيها أن التعدد كان معروفا قبل الإسلام وفي كل العصور وكل الديانات . فإبراهيم خليل الرحمن اتخذ أكثر من زوجة ، وكذلك موسى كليم الله وكل الرسل والأنبياء . وإنه لمن الإنصاف أن يقال إن الإسلام جاء ليحدد عدد الزوجات ، فبعد أن كان للرجل الحق في أن يتزوج أى عدد من النساء شاء فقد حدد الإسلام عدد الزوجات بأربع وأوجب العدل بينهن ، وما كان ذلك مطلوبا من قبل فقد كان للزوج أن يعدل أو لا يعدل كيف يشاء .

إن تعدد الزوجات ليس نظاما شائعا بين المسلمين ، فكثير من

المسلمين يكتفون بزوجة واحدة ، ولكن هناك أحوالا اجتماعية أو اقتصادية قد توجب تعدد الزوجات حفظا للمجتمع من الانهيار أو درءا لفساد قد ينخر في نظام اجتماعي ويقوضه على رءوس الصالحين والطلالحين المكتفين بزوجة واحدة في الظاهر ، أو الداعين إلى شيوع المرأة بين الرجال دون زواج .

لقد أصبحت الحروب جزءا من الحياة في العالم ، وكان من نتيجتها أن صار عدد النساء يزيد على عدد الرجال في معظم دول العالم . وقد واجه الأخلاقيون في أوربا هذه المشكلة بعد الحرب العالمية الثانية ، فالتبيعة تصرخ في طلب حاجاتها وتريد أن تنطلق في طريقها . ولم يجد الأخلاقيون في أنفسهم الشجاعة لتقرير مبدأ تعدد الزوجات فكانت النتيجة أن استشرت شرور الدعارة وانتشرت موجات التحرر الجنسي التي تنذر بتقويض الحضارات الغربية .

إن الإسلام في فجر تاريخه واجه موجات من الغزوات والحروب فقل عدد الرجال عن النساء ، فلم يكتف بأن أوصى ببر الأراامل وتقديم الطعام والمأوى إليهن ورضى عن الحل المادى وحده ، بل عرف أبعاد المشكلة على حقيقتها ، فالطعام لا يطعم إلا جوعها ولا يصون عرضها ، إنها في حاجة إلى إشباع جوع آخر فإن لم يجد من يسده حلالا فالتبيعة قد ترغمها على أن تسده حراما . ولما كانت رسالة الإسلام الطهارة والعفة وقدسيتها العلاقات الجنسية فقد أباح الإسلام أن يتخذ الرجل أكثر من زوجة حتى يصون المجتمع من شرور البغاء ، وهو الخطر الأعظم على حضارة الأمم .

شاد الإسلام حضارته على نظام حياة البيت وطهارتها وقام على نظام

الزوجة الواحدة في تهيئة بيت للمرأة إلا في حالات استثنائية فقد سمح بالزواج من أكثر من امرأة . فإذا قيل إن المرأة لا تجد في حالة تعدد الزوجات إلا نصف بيت فإذا ذلك أفضل من ألا تجد بيتا على الإطلاق . وما معنى عدم وجود بيت ؟ ليس المعنى أن المرأة لا تجد المأوى فحسب ، ولا أنها حرمت فرص إبداء عواطف الحب والرحمة التي وهبها الله لها فحسب ، ولكن معناها في أغلب الحالات هو الحرمان الخلقى وهو أعظم الأخطار على الحضارة .

قد يمكن إيجاد عمل للنساء يعينهن على كسب قوتهن ، ولم يغلُق الإسلام باب العمل إطلاقا في وجه المرأة ، إلا أن العضلة ليست تيسير الحصول على الطعام ولكن تيسير الحصول على بيت وزوج . ويجب أن يفهم في وضوح أن تعدد الزوجات في الإسلام — سواء أكان نظريا أم عمليا — ما هو إلا نظام استثنائي ، وهو علاج لكثير من مساوىء المدنية الحديثة ، وعلى فرض أن أعداء الإسلام يعتبرونه شرا فليقولوا لنا : أيهما أعظم شرا أتعدد الزوجات المحدود أم الدعارة والانحطاط الخلقى المطلق ؟ !

وإن المتتبع لزيجات رسول الله ﷺ — وأصحابه يجد أن الدافع لهذه الزيجات هو صيانة حياة أرامل مات عنهن أزواجهن ، فكان من واجب المسلمين الأوائل ضمهن إلى بيوتهم ليجدوا المأوى والعطف والحنان . ولم يكن الدافع إلى ذلك الزواج شهوة طاغية أو متعة رخيصة بل كان الهدف الأسمى التعفف وصيانة حرائر المسلمين من الانزلاق . ويقول مولاي محمد علي في كتابه « محمد رسول الله » يمكن تقسيم حياة النبي الأسرية إلى أربعة أقسام : كان أعزب حتى الخامسة والعشرين ،

وعاش مع زوجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الرابعة والخمسين وتزوج عدة زوجات بين الرابعة والخمسين والستين ، ولم يتزوج من الستين إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

إن فترة العزوبة هي أهم فترة يمكن بها دفع دعوى أن النبی كان عبدا لشهواته ، فلو كان عبدا لها لما قبض على ناصية عواطفه وميوله الجنسية ولما عاش حتى الخامسة والعشرين حياة نموذجية من الطهر والعفاف جعلته يعرف بين مختلف القبائل بالأمين . تحكم في ميوله الجنسية حتى الخامسة والعشرين في بلاد حارة كبلاد العرب حيث يبلغ الفتیان مرتبة الرجال سريعا وتكون عواطفهم فوارة وميولهم جامحة عنيفة ، وما استطاع أعداؤه فيما بعد عندما خاصموه أن يذكروا حادثة واحدة تمس شرفه . ومویر نفسه يعترف بأن جميع المراجع متفقة على : « أن النبی في شبابه طبع بالهدوء والدعة والطهر والابتعاد عن المعاصي التي كانت قريش تعترف بها . والشباب هو سن العواطف المتأججة الجامحة الثائرة ، فالرجل الذي يستطيع كبح جماح عواطفه وهو أعزب من المحال أن يجري وراء الشهوة وقد بلغ سن الاكتمال والرزانة . وعلى ذلك فالفترة الأولى من حياة النبی فترة الحياء والطهر دليل قاطع على استحالة أن يكون عبدا لشهواته . ومما هو جدير بالملاحظة أن تقاليد العرب وقتذاك كانت تبيح الانحراف الخلقي . لذلك لا يمكن أن يقال إنه تعفف بتأثير البيئة أو العادات المرعية ، لقد كان الانغماس في اللذات شيئا عاديا مألوفا يومئذ فلم ينغمس فيما انغمسوا فيه جميعا ، وعاش عيشة طاهرة نقية ، وهذا وحده دليل على سمو خلقه ورفعته الشخصية .

ولندرس الآن الفترة الثانية فترة الزواج من زوجة واحدة ، فقد

تزوج في الخامسة والعشرين من خديجة فعاش معها عيشة إخلاص وورع حتى قبضها الله وكان في الرابعة والخمسين ، عاش معها وحدها في بلاد قاعدتها العامة تعدد الزوجات ، وما كانت الزوجة لتشكو أو تتذمر إذا زوجها تزوج زوجة ثانية أو ثالثة . وقد أغناه زواجه من خديجة فكان في وسعه أن يتزوج من أخرى ولكن تعدد الزواج لم يكن مقصورا على الأغنياء ، فكان في مقدور الفقراء التزوج من أكثر من واحدة ، وكانت الزوجة شريكة في الحياة بمعنى الكلمة فهي تعاون زوجها على كسب معيشتها كما هي الحال في الطبقات العاملة ، وعلى هذا فما كان الفقير ليخسر شيئا إذا ما تعددت زوجاته .

كان محمد من أعرق أسر قريش ولو شاء الزواج من أخرى لكان أمرا هينا ميسورا ؛ ولكنه عاش مع زوجة واحدة عيشة كلها إخلاص وألفة وود طوال حياتهما الزوجية ، فلما ماتت تزوج من سيدة طاعنة في السن هي سودة وكانت كل مؤهلاتها أنها زوجة أحد الذين هاجروا إلى الحبشة متحملين الأذى في سبيل الدين .

وإن هذه الفترة فترة الخامسة والعشرين إلى الرابعة والخمسين هي فترة الزوجة الواحدة ، وهي القاعدة في الحياة الزوجية .

وفي السنة الثانية للهجرة بدأ القتال مع قريش والقبائل العربية الأخرى فأدى ذلك إلى قتل كثير من الذكور وهم عماد الأسرة واستمرت هذه المعارك حتى السنة الثامنة للهجرة ، وفي هذه الفترة بالذات تزوج النبي تلك المرات العديدة التي قد تبدو غريبة أمام العقلية الحديثة ولكنها كانت أمرا عاديا لا غبار عليه ولا ينتقد . ومن ذا الذي ينتقده إذا فهم أن الدافع إلى ذلك هو الرحمة والشفقة لا الجنوح إلى المتعة واللذة ؟ وقد اعترف

أحد الكتاب المسيحيين بذلك ضمنا عندما قال : « من الممكن تفسير تزوج النبی المرات المتتالية بشتى التفسيرات ولكن يجب ألا يعزب عن البال أنها كانت وليدة الشفقة والمؤاساة نظرا للحالة التعسة التي كانت عليها من تزوج منهن فقد كن من الأرامل ، لا مال ولا جمال ، بل كن على النقيض من ذلك يستحقن كل عطف » .

سبق لنا القول بأنه ما كان يخشى على رجل قضى حياته حتى الخامسة والخمسين وهو على خير ما يكون من الطهر والعفاف أن ينفمس بعد ذلك في اللذات . فإذا كانت فتنة النساء لا تؤثر فيه وهو فتى ممتلئ الشباب فكيف بها تأسره وهو رجل رزين كامل النضج العقلي ؟

قد عاش النبی طوال هذه السنين في المدينة وما كانت حياته سهلة ممتعة بل كانت على العكس من ذلك حياة كفاح ونضال ، فقد كان في هذه الفترة فترة تعدد الزوجات يخوض معارك لا تنقطع ، معارك موت أو حياة للإسلام أو المسلمين . لقد عوديت المدينة في هذه الحقبة ومشت إليها جيوش لجب للقضاء على المسلمين ، ورمته العرب جميعا عن قوس واحدة فما كان النبی آمنا لحظة . لقد كانت المعارك تلى المعارك وكل معركة أشد من سابقتها ، وكانت الغزوات تعد بسرعة . وقال له أصحابه ما نهم ملوا من حمل السلاح آناء الليل وأطراف النهار ، فكان يواسيهم ويطمئنهم ويشرهم باقتراب زمن السلام الذي يتمكن فيه المسافر من قطع الجزيرة من أدناها إلى أقصاها دون الحاجة إلى حمل سلاح .

وكان اليهود والنصارى كذلك يناصبونه العداء ، وكان خيرة أصحابه يقتلون الواحد إثر الآخر في المعارك أو غيلة . أفكانت هذه الحياة حياة لذة ومنتعة أم كانت حياة شدة وكرب ما بعدها شدة (صلح الحديبية)

وكرب ؟ وإذا شاء الجنوح إلى حياة اللذة والمتعة وهو ما لم يحدث بشهادة جميع الثقة أفكانت الظروف تواتيه ؟ إنها الحرب في انتظاره دائما ، الحرب مع المنافقين الذين يهددون بالانفجار الداخلي ، والحرب مع أعداء حافين به من كل جانب . لقد كانت الأنباء تتراعى إليه دائما أن العدو يحشد جيوشا هائلة للقضاء عليه وعلى الإسلام وكان عدد المسلمين ضئيلا . فكان عليه دائما أن يعمل على درء الخطر الساحق . فلو أن هذه الظروف حاقت برجل ماجن لبدلته وغيرته فما بالك برجل شهد الجميع بطهارته ونقاته ، رجل ما كانت لتؤثر فيه المغريات حتى تصيره ماجنا أو عبدا لشهواته .

عرفنا كيف يقضى النبی نهاره في كفاح مضن شديد ، فكيف كان يقضى ليله ؟ قد كان له عدد من الزوجات الحليلات المحصنات أفكان يقضى ليله يتمتع بهن ؟ استمع إلى شهادة القرآن وهو أصدق القائلين : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾ (١) . ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ﴾ (٢) . وجاء في الحديث أنه كان يقضى نصف الليل بل أكثر من نصفه في الصلاة وتلاوة القرآن وهو قائم حتى تتورم قدماه ، فهل بعد هذا يمكن القول أن هذا الرجل الكريم إنما اتخذ هذا العدد من الزوجات للتمتع بهن ؟ كلنا يعرف أدق خصائص حياته ، لقد كانت نضالا كلها ، كفاحا كلها ، نصبا كلها ، ليس فيها

متعة ، أو لذة حسية .

وللدكتورة بنت الشاطيء رأى فى التعدد ، فهى تقول فى كتابها « نساء النبى » : وفى مسألة التعدد جانب دقيق غفل عنه كثيرون ... ذلك هو أن الرجال ليسوا سواء ، وقد تؤثر أنثى — راضية — أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل على أن يكون لها غيره كاملا . وليس معنى هذا أن نساء النبى كن سعيدات بحياة الضرائر ، ولا هو يقتضى أن تستريح إحداهن إلى هذه المشاركة فى الزوج ، ولكن معناه على التحديد أن محمدا « كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال الذى تؤثر الزوجة أن يكون لها أى مكان فى بيته ، على أن تكون لها مع غيره مملكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة » .

وليس من بين زوجاته — صلى الله عليه وسلم — من دخلت بيته وفى حسابها أن تنفرد به ، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية إلى حد يسهل علينا تصويره لو ذكرنا أن نخولة بنت حكيم اقترحت على الرسول أن يخطب عائشة بنت أبى بكر وسودة بنت زمعة فى وقت واحد ، وأن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث هى التى عرضت أن تتزوج الرسول وفى بيته عشر نساء : ثمانى زوجات واثنتان ملك يمين . وأن عمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على أبى بكر وعنده « أم رومان » حماة النبى — صلى الله عليه وسلم ، وأن على بن أبى طالب هم بأن يتزوج على فاطمة الزهراء بنت النبى ، وأن أبى بكر وعمر صهرى الرسول رغبا فى الزواج من أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب حين مات زوجها وفى بيت كل منهما أكثر من زوجة .

ولو خيرت زوجات النبى بين حياتهن تلك المشتركة فى بيت واحد ومع زوج واحد وبين حياة أخرى منفردة فى غير ذلك البيت ، لما رضين

عن حياتهن بديلا ...

وكن مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة ، تضنيهن الغيرة ويشقيهن ألا تنفرد كل منهن بقلب زوجها . وقد شهد بيت الرسول من غيرة نسائه المجتمع ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتت ، وإن لم تر فيه الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات ومظهر من مظاهر التنافس على حب زوجهن والرغبة في الاستئثار به . وما من شك في أن الرسول قد عانى من ذلك كثيرا ، لكنه راض نفسه على احتماله تقديرا للدوافع الطبيعية التي كانت تدفع إليه قسرا ودون اختيار . وما تزال الإنسانية تصغى حتى اليوم وغدا وبعده إلى كلمته في زوجته عائشة حين لجت بها غيرتها :

« ويحها لو استطاعت ما فعلت ! » .

وترى فيها آية على سلامة الفطرة وصحة النفس وعمق الفهم بطبيعة حواء . وقد كان نساؤه يعرفن هذا في زوجهن الرسول ويلدن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يجب لزوجات نبي من مسألة ووئام ، ويدركن أن الغيرة مهما تجمع بهن فمثل رسول الله من يعذر ويقدر ويرحم ، دون أن يرى في ضعف البشرية إثما لا يغتفر أو يجد في فطرة حواء ما يدعو إلى الازدراء .

وكتب ر . ف . بودلى في كتابه « الرسول . حياة محمد » عن زواج محمد ﷺ — من عائشة : « وشغلت مسألة زواج الرجل الذي كان في سن الخمسين من الفتاة التي كانت في العاشرة بعض مؤرخي محمد ، كما شغلهم الإسراء وحالة الصرع . وكان المؤرخون ينظرون إلى كل حالة من وجهة نظر المجتمع الذي يعيشون فيه . فلم ينظروا إلى هذا الزواج على

أنه كان ولا يزال عادة آسيوية ، ولم يفكروا في أن هذه العادة لا زالت قائمة في شرق أوربا وكانت طبيعية في أسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة ، وأنها ليست غير عادية اليوم في بعض المناطق الجبلية البعيدة في الولايات المتحدة . وبغض النظر عن العادة فإنهم لم ينظروا نظرة اعتبار إلى ظروف هذه الحالة الخاصة . فهناك أول شيء أبو بكر أبو الزوجة وكان من المفهوم أنه ينبغي أن يرتبط ارتباطا سياسيا دائما بقائده وقد أعانه وساعده في أحلك أيامه ، وقد يكون هناك دوافع أخرى مادية أقل أهمية فهو يؤمن بمحمد ويحترمه ويحبه فكان واثقا من أن ابنته ستجد الرعاية الطيبة في دار صديقه .

ويجب ألا يهمل محمد نفسه ، فحتى تلك اللحظة لم يكن في حياته شيء مسل أو بهيج بل كانت حياته كذا ونصبا فكان يستحق بعض ما يرفهه غير التعذيب والحكم عليه بالاعدام ، وما كان له حتى نصيبه العادي من النساء فقد بقى حتى السابعة والعشرين عفيفا كعائشة ، وختم ذلك العفاف بالتزوج بأرملة تكبره بخمس عشرة سنة .

والنقطة الثالثة التي تنسى عادة والتي يجب لذلك تأكيدها ثانية هي أن عائشة على الرغم من أنها طفلة بالنسبة لسنها فإنها لم تكن طفلة لا حول لها تركت تحت رحمة شيخ هرم ، فلو أن هناك شابة عرفت ما هي مقبلة عليه لكانت عائشة بنت أبي بكر ذات العينين الواسعتين والقدمين الصغيرتين والشعر الجعد . فلقد كُونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه دور النبي اللاصقة بالمسجد وراحت تديرها ، فعاملت سودة العجوز كما تعامل خادما مكلفة القيام بجميع أعمال المنزل . ولما هجر محمد نساءه لم تخفف عائشة من غلوائها فقد كانت تعلم أنه سيعود إليها

دواما .

ولمولاى محمد على رأى فى سن عائشة عندما بنى بها رسول الله ﷺ ، فهو يقول فى كتابه : « محمد رسول الله » عندما كان يتحدث عن زواج النبى ﷺ — من عائشة بنت أبى بكر : « كان لفقد خديجة وقع أليم فى نفس النبى فحزن عليها حزنا عميقا ، فلما رأت إحدى المؤمنات ذلك أشارت عليه أن يتزوج من عائشة ابنة صديقه أبى بكر وفاتحت أبأ بكر فى ذلك ، وكان لعائشة مواهب بارزة لمسها النبى كما لمسها أبوها ، وكانت هذه المواهب كفيلا بأن تجعلها سيدة المستقبل الجديرة أن تكون زوجة الهادى الأعظم الذى سيكون له أبلغ الأثر فى هداية البشر ، وكان فى طريق إتمام هذا الزواج عقبتان : أولاها أن عائشة كانت مخطوبة لجبير فما كان فى استطاعة أبيها أن يقبل تزويجها حتى يفصل فى أمر جبير ، ولكن كان جبير نفسه يرغب فى فصم رباط الخطبة لأن الهوة التى بين المسلمين والمشركين قد اتسعت ، وأما العقبة الثانية فهى عدم بلوغ عائشة السن التى تؤهلها للزواج وقد أمكن تذليل هذه العقبة بتأجيل الدخول بها ، وعلى هذا فإن حفل الزواج لم يكن فى الواقع سوى حفل خطبة وكان ذلك فى التاسع من شوال فى السنة العاشرة من نزول الوحي .

ولأنها لفرصة طيبة للدفع أكذوبة شاعت وراجت عن سن عائشة ، فمن المسلم به أنها لم تبلغ السن التى تؤهلها للزواج ، وكذلك من الواضح أنها لم تكن فى سن السادسة كما زعموا فإنها كانت فى السن التى تميز خطبتها فخطبها جبير ، وعلى ذلك فإنها كانت على أبواب السن التى تؤهلها للزواج . ومن الثابت أن فاطمة بنت النبى تكبرها بخمسة

سنوات . ومن الثابت أيضا أن فاطمة ولدت أيام إعادة بناء الكعبة أى قبل أن يرسل النبي بخمس سنوات ، فتكون عائشة قد ولدت سنة نزول الوحي فكانت سنّها لا تقل عن العاشرة عندما زوجت من النبي في السنة العاشرة للرسالة ، وإن شهادة عائشة نفسها للدليل على ذلك ، فقد قالت إنها كانت تلعب مع أترابها عند نزول سورة القمر وهى السورة الرابعة والخمسون ، وإنها كانت تحفظ بعض آيات السورة ، وهذه السورة لم تنزل إلا في السنة الخامسة للرسالة ، وعلى ذلك فما قيل من أنها كانت تبلغ السادسة في السنة العاشرة للرسالة عندما تزوجها النبي إن هذا إلا قول كاذب ، وإلا كان مولدها يوم نزول سورة القمر وهو ما تنفيه هى بقولها إنها حفظت بعض آياتها عند نزولها .

من هذا كله يفهم أن سنّها لم تكن أقل من عشرة أعوام بحال عندما خطبها النبي ، ولما كانت المدة بين الخطبة والدخول بها لا تقل عن خمس سنوات فما دخل النبي بها إلا في السنة الثانية للهجرة ، وعلى ذلك يكون سنّها يوم بنائه بها خمسة عشر عاما ، أما دعوى أنها كانت في السادسة عند عقد الزواج وأن النبي بنى بها وهى في التاسعة فهى دعوى خاطئة لأن معنى هذا أن الفترة بين العقد والزواج كانت ثلاثة أعوام ، وهذا خطأ تاريخى لاشك فيه .

ويقول المعتزلة بعدم جواز أن يتزوج الرجل زوجة ثانية ما دامت الأولى في عصمته ، وسبب ذلك أنهم نظروا نظرة سطحية إلى ما يجلبه التعدد — في نظرهم من مفسد ومضار ، ولم يرد في القرآن نص يحرم

تعدد الزوجات ، إنه اشترط العدل بين الزوجات ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾^(١) ولا ريب أن هناك ظروفًا اجتماعية أو اقتصادية تبرر تعدد الزوجات ، فقد قرر أساتذة علم الاجتماع أمثال « جينز برج ووستر مارك » أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع في الشعوب المتمدنية في حين كان نظام الزوجة الواحدة هو النظام المتبع عند الشعوب المتأخرة ، وأن الشعوب التي كانت تحرم الزواج بأكثر من واحدة إنما كانت تتبع تقاليد لا تتصل بالدين من قريب أو بعيد . كما أن الشعوب التي أجازت الزواج بأكثر من واحدة إنما أجازته طبقًا لما رأت فيه من فوائد اقتصادية أو عمرانية دون نظر كذلك إلى الدين .

وتقول « ماريون لانجر » عالمة الاجتماع المتخصصة في استشارات الزواج « إن لدى المجتمع حلين ممكنين فحسب لتغطية النقص المتزايد في الرجال ؛ إما تعدد الزوجات ، أو إيجاد طريقة ما لإطالة أعمار الرجال ، فهل يمكن إيجاد طريقة لإطالة عمر الرجال دون النساء ؟ أم ترى هل سيلجأ العالم إلى إباحة تعدد الزوجات . »

ويقول الدكتور حسين المفتي في هذا الشأن : « أصبح من المعتاد اعتبار مبدأ تعدد الزوجات منكرًا اجتماعيًا واعتاد المسلمون أن يبرروا وجود هذا المبدأ في دينهم تبريرًا هو أقرب الأشياء إلى الاعتذار وما ذلك إلا لأنهم يسمحون لأنفسهم أن يتأثروا بوجهة نظر الناقدين الذين هم قطعًا يفكرون في أمر الزواج على أساس ميول وعواطف الأفراد ، بينما الإسلام يعالجه على أساس مصلحة المجتمع ، ويضع الحلول التي إن لم

(١) النساء ٣ .

ترض ميول الأفراد فإنها لا تتنافى مع خيرهم ثم هي لا مناص منها لخير المجتمع .

وقد أسهب المستشرقون في قصص زواج النبي — ﷺ — من نسائه وخرجوا من دراساتهم المفرضة بأنه كان عليه السلام يجرى وراء لذاته ، وقد فند الأستاذ العقاد مزاعمهم في كتابه : عبقرية محمد ، قال : « ... فهو أولا رجل يطلب ما يطلبه الرجل في المرأة ، ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها ، هذا سواء في الفطرة لا عيب فيه . وهذه النفس السوية يمكننا أن نفهمها بجلاء حين نرى أن المرأة لم تشغله عما تشغل المرأة الرجل المفرط في معرفة النساء من مهام الأمور والقيام بالأعباء الجسام ، فمهما قال هؤلاء فلن يستطيعوا أن ينكروا أن محمدا قد حقق ما لم يحققه بشر قبله ولا بعده ، ولم يشغله عن هذا شيء لا امرأة ولا غير امرأة ، فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ، ويعطى المرأة حقها ، فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب ، ومحمد الذي خير نساءه بين أن يرضين بحياة الكفاف أو يسرحهن سراحا جميلا ليس بالضرورة رجلا خاضعا للذات حسه ، فلو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن في الحرير والذهب وأطايب الملذات ، وليس هذا فعل رجل يستسلم للذات حسه » .

ويقول العقاد : « قال لنا بعض المستشرقين : إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية ، قلنا إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغي أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء .. فالنبي — ﷺ — أمكنه أن يسوس

تسع زوجات ولم يؤثر عنهن خصام أو نزاع إلا مرات تعد على أصابع اليد ، فمن أتيح له أن يجمع بين عدد من الزوجات فعليه أن يقتدى به في معاملة زوجاته بالعدل ومعالجة الشؤون المنزلية بالأناة وسعة الصدر ، وعلى النساء أن يتخذن من زوجات النبي الكثيرات مثالا صالحا يحتذي به من العفة والزهد وتدبير المنزل والرضا بما قدر لهن من متاع في هذه الحياة الدنيا ، وبذلك تسعد الأسرة بتامها وتقوم بواجبها نحو الله ونحو المجتمع الإنساني .

ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا في حياة النبي مع نسائه واقتدوا به في معاملة الأزواج والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عيشة راضية مرضية .

ووجد المبشرون والمستشرقون في زواج النبي — ﷺ — من زينب بنت جحش مادة للخيال والتشهير ، فصوروا قصة غرام مشبوب كذلك القصص الملتبها التي ذاعت في العصور الوسطى والقرن التاسع عشر ، فقد كتب الراهب فيدنزو مقدمة نابضة بالحرارة إن دلت فإنما تدل على ما كان يقاسيه من كبت جنسى ثم قال : « كان هناك رجل يدعى سيدروس (زيد) له زوجة تدعى زينب وكانت أجمل نساء الأرض في زمانها ، وسمع محمد بجمالها الرائع فشغف بها حبا وشاء أن يراها فانطلق إلى دارها في غياب زوجها يسأل عنها ، ولم تخف المرأة خبر تلك الزيارة عن زوجها وقد سألها عند عودته : هل كان رسول الله هنا ؟ قال : نعم . قال : هل رأى وجهك ؟ قالت : نعم . وأطال إليها النظر ، قال : هذا فراق بيني وبينك .

واستمر الراهب في سرد قصة لعب الخيال فيها أكبر دور ، وراح

يدس بعض ما جاء في سورة الأحزاب عن زواج النبي ﷺ — من زينب ليوهم القارىء أنه يسرد واقعة حقيقية مؤيدة بالقرآن .

وحتى بودلى وهو ممن حاولوا أن ينصفوا نبي الإسلام عليه السلام قد صور قصة زواج النبي من زينب في صورة روائية وقد يكون له بعض العذر ، فالطبرى وبعض كتاب السيرة سردوا الحادثة سردا قصصيا يوحى بأن النبي عليه السلام لما رأى زينب أعجب بحسنها كأنما يراها لأول مرة وكأنها لم تكن ابنة عمته التى زوّجها من زيد بن حارثة ، يقول بودلى : « ... وإن السيدة التالية التى صادفت فى نفس محمد هوى قد أحدثت رجة فى دور النبي أكبر مما أحدثته أم سلمة .

وقد كانت فى الواقع صدمة لكل إنسان وأصبحت هدفا للنقصد وموضوعا للتندر خارج دائرة الأسرة وكان اسمها زينب ، وما كانت تصل بأى سبب بزينب الأخرى (يقصد زينب بنت خزيمة) التى كانت ترقد رقدتها الأخيرة .

كانت زينب هذه حفيدة عبد المطلب وابنة عمه محمد وقد هاجرت إلى المدينة قبل محمد بقليل . ولكنها لسبب من الأسباب لم تتزوج على الرغم من أنها قد اقتربت من الثلاثين ، وقد زوّجها محمد عقب الهجرة بقليل من صديقه وعبد المحرر زيد بن حارثة . وكان زيد هذا قبيح المنظر قصيرا أقنى الأنف غير مثقف ، ولو نحينا أمانته للإسلام وسيده وشجاعته الشخصية العظيمة لما كان له إلا القليل ليقدمه إلى سيدة جذابة شريفة كزينب . وقد قبلت زينب الزواج بسبب إصرار محمد ولكنها لم تحب زيدا أبدا ، وما كان زيد نفسه يفهم الناس فلم يكن يدرى كيف يعامل زوجه المدللة .

و ذات يوم ذهب محمد ليزور زيدا ، فلما لم يجبه أحد طرق الباب ونادى ، ثم دخل بيت زيد حيث اطلع على زينب الفاتنة وكانت نصف عارية ، فأثر هذا فى عواطفه حتى قال : « سبحان مقلب القلوب » . ثم هروا خارجا فى ارتباك .

رأت زينب نظرة محمد فى عينيها ، وقد سمعت ما قال ولاحظت كيف نطق بما قال فقدرت ما سيقود إليه ذلك القول . فلما عاد زوجها إلى البيت أنبأته بما حدث فما تركت تفصيلا وأضافت تفاصيل قليلة من عندها . وإن أول شيء فكر فيه زيد بعد أن انتهت من سرد قصتها كان سيده الحبيب ، فانطلق إليه ولم يلو على شيء وعرض عليه أن يطلق زوجته ، فأثرت تضحية زيد بنفسه فى محمد فأخبره أن يعود إلى زينب وألا يفكر فى ذلك ثانية .

و كانت لزينب أفكار آخر ، كانت تعرف ما يحسه محمد نحو النساء وكانت متيقنة من إحساسه نحوها ، وكانت قد ضاقت ذرعا بزيد وترغب فى أن تعيش كما يؤهلها كرم مولدها فابتدأت بجعل حياة زيد جحيما فطلقها ليفر من الاضطهاد المنظم .

وانتظر محمد حتى انقضت الفترة المقررة بين الطلاق والزواج ثم ضم زينب إلى زوجاته ، فابتدأت المتاعب وكانت الشابتان (عائشة وحفصة) مشيرتيها وقد نفتا أن للغيرة أى دخل فى هذا ، فراحتا تذيعان فيما حولها أن هذا الرباط رباط فسق فإن زيدا ابن محمد ، والزواج من زوجته ينافى جميع الشرائع فى العالم ، وإنها لفضيحة وإن شيئا كهذا لا يمكن أن يحدث !

وما كان زيد ابنا لمحمد فقد تبناه فصار وريثه فى نفس الوقت الذى

تحرر فيه ، وما كانت هناك رابطة دم وعلى الرغم من ذلك كانوا يدعونه بابن محمد ، وما كان كثير من المسلمين يدرون كيف صار ابنه ، فلما رفعت عائشة وحفصة صوتهما بالاحتجاج احتجاج المجتمعون في المسجد للصلاة فأصبح محمد في مأزق ، ولكن جاءه الوحي سريعا ولم يدع الوحي أى شك في التفريق بين الابن المتبنى والابن المولود ، وقد قرر زيادة على ذلك بأن أرملة الابن المتبنى أو مطلقة لا تدخل فيمن حرم الزواج بهن .

اغتاظت الشابتان وقالت عائشة لزوجها : « ما أرى ربك الا يسارع في هواك » . ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئا فقد كانت زينب فرحة وقالت لكل من قابلته إن الله تدخل لمصلحتها وقد زوجها بنفسه . وقد ضحكت عائشة وكذلك فعلت حفصة ولكن قضى تماما على كل ما أثارته .

وهذا الزواج من زينب مكن الغربيين وعلى الأخص الذين يعتقدون أن محمدا لا يصلح لشيء طيب من أن يقولوا : « لقد قلنا لكم ذلك ا فما الذى تنتظرونه غير ذلك من هذا المخاتل الكبير » .

وهؤلاء الرجال على كل حال لينظرون إلى الأمر النظرة الخاطئة ، فإنهم لا ينقلون أنفسهم إلى مجتمع ذلك الوقت أو حتى إلى المجتمع الشرقى ، فإن للعرب اليوم وللرجال العظام أمثال ابن السعود وللحكام أمثال سلطان مراكش أن يعيدوا قصة زينب عدة مرات في حياتهم التى يحيونها فى القرن العشرين هذا ، فلو أن عائشة لم تضع النقاط فوق الحروف لكان من المحتمل ألا يقول أحد شيئا عن ذلك فى المدينة عام ٦٢٦ .

كانت العلاقة الجنسية شغل العرب الشاغل في ذلك الوقت كما هي اليوم إلى حد ما ، وما كان التحدث فيها محرما كما هو حادث بين كثير من الغربيين ، وكانوا ينظرون إليها كعامل من عوامل السرور والطرب والإلهام ويعتبرونها شيئا عاديا .

ولأنه لما يذهل العرب نفاق الغربيين العجيب فيما يتعلق بالعلاقة الجنسية ، فإنهم ليرون أن رجال القارة الأوربية والقارة الأمريكية ونساءهما لا يختلفون عنهم في شيء فإن لهم نفس شعورهم ، ولكنهم ينظرون إلى جميع الأمور المتعلقة بالعواطف الجسدية المزدوجة للذكر والأنثى كنظرهم إلى رذيلة كشرب الخمر سرا ، ولذلك يبدو لكثير ممن كتبوا عن محمد أن ارتباط محمد بزینب ومحمد بعائشة ومحمد بجويرية بنت الحارث وقد أسرت في غارة ولم تدفع ديتهما وأصبحت زوجة محمد الثامنة بعد زينب شيئا غير عادي ، ولكنه ليس بشيء غير عادي إذا قورن بعادات زواج الحكام الآخرين في هذا الجزء من العالم كسليمان وداود ، فلم يكن لمحمد حريم كبير كحريم سليمان أبدا ، وإن قصة زينب أكثر بساطة ولا ريب من قصة بتشيبا أو أجنوم زوج أبيجبال التي أعجب داود بها ليلة عرسه .

وينبغي ألا ينظر إلى حياة محمد الزوجية من وجهة النظر الغربية وألا تقاس بالشرائع المسيحية ، فإن هؤلاء الرجال والنساء ما كانوا غربيين فقد كانوا يعيشون في زمن وفي قطر لا يعرف فيه إلا أقيستهم الأخلاقية فحسب . وحتى إذا كان ذلك فليس هناك من سبب لاعتبار الأحكام الأوربية والأمريكية أعظم من الأحكام العربية . إن عند رجال الغرب الشيء الكثير الذي يعطونه لأهل الشرق وإنهم في احتياج إلى أن يأخذوا

عنهم الشيء الكثير أيضا . وإلى أن يستطيعوا أن يبرهنوا على أن طريقة عيشهم أعلى خلقيا من أى شعب آخر فعليهم أن يحتفظوا بحكمهم على العقائد والطوائف والبلاد الأخرى .

ويقول الأستاذ العقاد عن شطحات الخيال التى وضعت زواج النبى ﷺ — من ابنة عمته زينب وصفا قصصيا لعب الغرام فيه دورا رئيسيا : « ليس أسهل من شيوع هذه الأكذوبة وترويجها وتنميقها وإخراجها فى قصة غرام تذايع للتشهير برسول الإسلام كما شاعت فى القرون الوسطى . وليس أسهل من إسقاطها وإسقاط المروجين لها بخبر واحد لاشك فيه من أخبارها الكثيرة ، وهو أن زوجة زيد كانت بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عممة النبى عليه السلام ، وأن النبى عليه السلام هو الذى زوجها من ربيبه وعتيقه زيد . وما كان جمالها خفيا عليه قبل تزويجها بمولاه لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولتها وتراه . ولم تفاجئه بروعة لم يعهد لها وهو لا يطمع إلى الزواج من مثلها ، ويكفى أن يعرف هذا الخبر لتسقط الأكذوبة كلها . وشيء من التفصيل القليل لهذا الخبر يعكس الفضيحة على المبطلين ليعلموا حقيقة القصة المحرفة ويعلموا أنها آية الخلق الكريم فى نبى المسلمين ، وأن زيدا الذى زوجه النبى من بنت عمته لم يكن إلا أسيرا عتيقا رباه النبى فأخلص له ولدينه .. وآثر المقام إلى جواره على الرجوع إلى أهله بعد تسريحه ، ورفع السيد الكريم عن عبده العتيق ذلة الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين كرام أهله ، وأطاعت الزوجة النبى كما ينبغى لمثلها مع مثله . ولكنها عاشت مع زوجها كسيرة الخاطر . لما كانت تتبينه من نظرات لداتها وقريناتها إليها ، ويشعر زيد بما تضرره من الحزن والأنفة فيهم بتطليقها ولكنه يستكبر أن

يقابل جميل النبي برفض الزوجة التي اختارها له وميزه بها على صحبه ،
فارتفعت بنبي الإسلام مروءته إلى حيث ينبغي أن ترتفع مروءة الأنبياء ،
وأحل زيدا من حرجه وعوض زينب عن مهانتها ويعلم الناس أنها كفاء
له وإن كان قد اختارها لفتاه الذي كان يتبناه ، ولولا ذلك لعاشت
الزوجة المطلقة معضلة بين لداتها وأترابها وهي لا تطمع في الزواج من
كفاء لها بعد تطليقها ، وليس مما يجبر خاطر الكسير أن يساق إليها
الزوج الذي يكافئها وتكافئه مأمولا بزواجها .

تلك قصة أرسلوها في غياهب القرون الوسطى لينظر الناس في ظلماتها
إلى وصمة إنسانية يعاف من أجلها خلق الإنسان ويعاف الدين الذي
يدعو إليه من أجله . ويزيد عليها خبر صغير لاشك فيه فإذا هي شهادة
بالنبوة كأحسن ما تكون الشهادة للأنبياء ، لأنها شهادة بغاية البر
والإحسان إلى الأسير الضعيف الغريب عن أهله ووطنه ، وغاية البر
والإحسان إلى المرأة المجروحة في عزتها بعد أن غلبها ضعف الأنوثة
والعرف على شعورها برغم إرادتها ، وكانت فضيلة الصدق مع فضيلة
العفة أكبر الأهداف التي تعمد بها أصحاب هذه المكيدة بالإنكار فيما
زيفوه من القصص المحرفة عن صفات النبي .

وقد دافع بعض المستشرقين عن مبدأ تعدد الزوجات ، فالمستشرق
« ألفونس أتيين دينيه » في كتابه « محمد رسول الله » يقول : « ولن
نخاطر هنا محاولين عن عادة يحمل عليها الناس بمثل هذه الشدة ، ولكننا
نقتصر على عرض بعض الملاحظات :

فالواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شيء ذائع في سائر أرجاء العالم
وسوف يظل موجودا ما وجد العالم مهما تشددت القوانين في تحريمه ،

ولكن المسألة الوحيدة هي معرفة ما إذا كان من الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويحدد أم أن يظل نوعاً من النفاق المستتر لا شيء يقف أمامه ويحد من جماحه .

وقد لاحظ جميع الرحالة الغربيين ونخص منهم بالذكر « جيرال دى نيرفال » و « الليدى موجان » أن تعدد الزواج عند المسلمين — وهم يعترفون بهذا المبدأ — أقل انتشاراً منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة ، وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية فالمسيحيون يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم في هذا .

ودافع ألفونس أتين دينيه في كتابه « أشعة خاصة بنور الإسلام » عن مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام قال : « لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التي لا تغلب وإنما هو يساير قوانينها ويزاول أزمائها بخلاف ما تفعله الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شئون الحياة ، ومثل ذلك الفرض الذى تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة فهم لا يتزوجون وإنما يعيشون غرباء » .

على أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة ولا أن يتمرد عليها وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولا وأسهل تطبيقاً في إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور ، حتى لقد سمى القرآن لذلك « بالهدى » لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير .
والأمثلة العديدة لا تعوزنا ولكننا للقصر نأخذ بأشهرها وهو التساهل في سبيل تعدد الزوجات ، وهو الموضوع الذى صادف النقد الواسع والذى جلب للإسلام في نظر أهل الغرب مثالب جمّة ومطاعن كثيرة .
(صلح الحمادية)

ومما لاشك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى ، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق ، بل هو الحال الذي يستحيل تنفيذه ؟ لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع وهو دين اليسر إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج فلا يحكم فيه حكما قاطعا ولا يأمر به أمرا باتا .

والذي فعله الإسلام أول كل شيء أنه أنقص عدد الزوجات الشرعيات وقد كان عند العرب الأقدمين مباحا دون قيد ، ثم أشار بعد ذلك بالتوحيد في الزوجة في قوله : « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . وأى رجل في الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددات ؟ ولذا كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ ، ولكن انظر كيف وضعه الإسلام وضعاً هو غاية في الرقة والدقة واللفظ مع الحكمة ، ثم انظر هل حقيقى أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبرى لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها في تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه ؟ وإلا فهؤلاء ملوك فرنسا ، دع عنك الأفراد ، الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام . وإن تعدد الزوجات قانون طبيعى سيبقى ما بقى العالم ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذى أرادته فانعكست الآية معها وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه ، وكان مثلها في ذلك مثل الشجرة الملعونة التى حرمت ثمراتها فكان التحريم إغراء . على أن نظرية التوحيد في الزوجة وهى النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهرا تنطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة

البلاء ، تلك هي الدعارة والعوانس من النساء والأبناء غير الشرعيين .
كان رجال الكنيسة يرون أن المرأة شيطان وأنها جسد بلا روح ،
ويقول « سان بوناكتور » إلى تلاميذه « إذا رأيت امرأة فلا تحسبوا أنكم
ترون كائنا بشريا بل ولا كائنا وحشيا وإنما الذى ترونه هو الشيطان بذاته
والذى تسمعون هو فحيح الأفعى » . وكان ينظر إليها فى الأزمان الغابرة
كما ينظر إلى الرقيق فهى متاع الزوج وليست ندا له ، وكان من حق
الرجل وحده أن يملك متاعا فى حين كان محظورا على المرأة أن تملك أى
متاع أو أن تقوم باسمها بمباشرة أية عملية تجارية ، وعلى ذلك لم تكن
شخصا بمعنى الكلمة ، وكان لها أحقر نصيب من الحقوق كابنة
وكزوجة أو كأم فكانت وهى ابنة ملكا للأب وهى زوجة ملكا
للزوج ، فكان نصف الجنس البشرى ، النصف الهام المسئول عن إعداد
الجنس البشرى جميعا ملقى به فى زوايا العبودية والرق ، فإذا ما كان هذا
نصيب المرأة من الماديات فكيف كانت تستطيع أن تهيا لتلقى
الروحانيات ؟ وكان ينظر للزواج على أنه حجر عثرة فى سبيل التقدم
الروحى للإنسان حتى فى المسيحية التى كان ينظر فيها إلى الزواج على أنه
شر لا بد منه .

فلما ضعف سلطان المسيحية وقوى عود المدنية المادية استطاعت
المرأة أن تناضل من أجل حقوقها فظفرت ببعض منها ، ولكنها منيت
بالخيبة بعد ذلك الفوز إذ فقدت الاستقرار والهناء المنزلية ، فقد أضعفت
المادية من قوة الدين الوازنة وأدت إلى حالة منحلة فى العلاقات بين
الزوجين ، فكان من نتيجة ذلك أن خضعت فى أوروبا خضوعا مطردا
للإباحية وطرح الزواج جانبا لا لعب طبيعى فيه ولكن لأنه يلقى ببعض

المسئوليات على كاهل الإلفين اللذين يفكران في إنشاء بيت . فالنظرة المادية جعلت من الإنسان أنانيا كبيرا ، فبينما يجري وراء كل متعة فإنه يتخلص من مسئوليات الحياة الجديدة حتى يحيا حياة خالية من المتاعب . ولكن الحياة لها نصيبها من الأتراح ، والزواج إذ يقوى من روابط الحب المتبادل بين الرجل والمرأة ويزيد في سعادتهما يتطلب منهما أن يتقاسما المتاعب والأحزان معا ، فالإباحية تجعل كلا الجنسين أنانيا إلى أقصى حد لأن الرجل والمرأة إذا ما أصبحا إلفين لمتعة فقط ترك كل منهما الآخر وحيدا لأحزانه .

وقد لعب النظام الإسلامى الاجتماعى دورا هاما في تنظيم العلاقات فبدأ بتدعيم الأسس باعتبار المرأة مخلوقا حرا له حق الاحتفاظ بما يملك أو بيعه إذا شاء ، وبهذا الحق أصبحت المرأة متساوية للرجل فقضى على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانية المشتركة كما قضى على مبدأ التفرقة بينهما أمام القانون والحقوق العامة . وقد تقرر مركز المرأة في الإسلام من ثلاثة عشر قرنا فقد أنزل الله على رسوله : ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾^(١) . وهكذا أصبح في استطاعة المرأة أن تكتسب المال وأن تحوزه كالرجل ، ولم يميز النظام بين الجنسين في هذا الحق ففى وسعها أن تبيع وأن تشتري وأن تهب مالها لمن تشاء ، ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ﴾^(٢) .

شرع الإسلام المساواة بين الرجل والمرأة فيما هو من خصائص

(١) النساء ٣٢ .

(٢) النساء ٤ .

الإنسانية في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض ﴾ (١) ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ (٢) . ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٣) .

وأباح الإسلام للمرأة التعلم بمختلف أنواعه ومراحله بل جعله فريضة عليها في الحدود الضرورية لها في شئون دينها ودنياها ، وفي هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) . وكانت أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنها تتعلم الكتابة في الجاهلية على يد امرأة كاتبة تدعى الشفاء العدوية ، فلما تزوجها عليه السلام طلب إلى الشفاء أن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة .

وجعل الإسلام الأنثى ترث كالذكر بعد أن كان العرب يخضعون لتقليد يقدسونه وهو ألا يرث إلا كل من يستطيع أن يحمى ذمار قبيلته ويدفع عنها عدوان العدو وهو ما لم تعد الطبيعة المرأة له ، ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ (٤) .

ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة

(١) آل عمران ١٩٥ . (٢) النساء ١٢٤ .

(٣) النحل ٩٧ .. (٤) النساء ٧ .

مراعاة طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له وكفالة الصالح العام وصالح الأسرة وصالح المرأة نفسها ، وترجع أهم النواحي التي قرر فيها الإسلام هذه التفرقة إلى خمسة أمور : الأعباء الاقتصادية ، والميراث ، والقوامة على الأسرة ، والشهادة ، والطلاق .

ففى الأعباء الاقتصادية كان الإسلام رحيما بالمرأة وكفل لها من أسباب الرزق ما يصونها عن التبذل ويحميها من شرور الكدح فى الحياة ، فأعفاها من كافة أعباء المعيشة وألقاها جميعا على كاهل الرجل .

فما دامت المرأة غير متزوجة ولا معتدة من زوج فنفقتها واجبة على أصولها أو فروعها أو أقربائها حسب ترتيب الفقه الإسلامى لهم فى وجوب النفقة . فإن لم يكن لها قريب قادر على الإنفاق عليها فنفقتها واجبة على بيت المال .

وكذلك شأنها فى جميع مراحل الزوجية سواء فى ذلك مرحلة الإعداد للزواج ومرحلة الزواج ومرحلة انفصامه بالطلاق ، فقد ألفت الشريعة الإسلامية على كاهل الرجل واجبات اقتصادية هى مقدم الصداق وإعداد منزل الزوجية دون أن تكلف المرأة أو أهلها أى عبء من هذا القيل . وفى أثناء الزوجية أعفت الشريعة الإسلامية المرأة من أعباء المعيشة واحتفظت لها بحقوقها المدنية كاملة غير منقوصة . فلها شخصيتها المدنية وثروتها الخاصة ولا تكلف أى عبء فى نفقات الأسرة مهما كانت موسرة .

وليس الزواج فى الإسلام حائلا فى سبيل السمو الروحى ولكنه

وسيلة تؤدي إلى زيادة هذا السمو ، فقد خلق الله الزوجين ليسكن بعضهما إلى بعض : ﴿ هُنَ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ (١) .
وينظر الإسلام إلى الزواج على أنه الوسيلة المثلى لرقى الإنسان ،
الوسيلة الوحيدة لتنمية عواطف الحب والخير ، فالزواج حسب النظام
الإسلامي الاجتماعي هو الحالة الطبيعية التي ينبغي لكل رجل وامرأة أن
يندمج فيها . قال عليه السلام : (إلى أتزوج النساء فمن رغب عن سنتي
فليس مني) .

ويعتبر الزواج في النظام الاجتماعي الإسلامي ميثاقا يعقد على أساس
الحب المتبادل بين الرجل والمرأة في حضور شهوده ، من المحتم إعلان
ميثاق الزواج فالإعلان هو الفارق الوحيد بين الزواج والسفاح ، ويجب
إعلان كل عقد زواج ولو بدق الدفوف . (أعلنوا هذا النكاح واجعلوه
في المساجد واضربوا عليه بالدفوف) .

ولا تفنى شخصية المرأة في الرجل بالزواج ، فبينا لا تفقد شيئا من
حقوقها المكتسبة كفرد في الهيئة الاجتماعية البشرية فإن حياتها الجديدة
تلقى عليها مسئوليات جديدة كما تجلب لها حقوقا جديدة : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ
الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (٢) .

وقد وضحت هذه النظرية جيدا في الحديث الشريف : (كلكم راع
ومستول عن رعيته ، فالإمام راع ، والرجل راع ومستول عن أهله ،
والمرأة راعية ومستولة عن بيت زوجها) .

والبيت هو الدولة في صورة مصغرة ويسيطر عليه الرجل والمرأة
معا ، ولكن ما لم يكن هناك تفاوت في القوة بينهما فسيضطرب نظام

(١) البقرة ١٨٧ .

(٢) البقرة ٢٢٨ .

هذه المملكة : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ (١) .

ويحض النظام الإسلامى بشدة على معاملة الزوجة معاملة طيبة ، فإما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان : ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾ (٢) . ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ (٣) ، والرحمة بالمرأة واجبة حتى فى حالة الكراهية : ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ (٤) . قال ﷺ : (خياركم خياركم لنسائهم) ، وقال ﷺ ، فى خطبة الوداع : (أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، فاستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا) .

وإذا ما انفصلت الزوجية بالطلاق يتحمل الزوج وحده فى الإسلام جميع الأعباء الاقتصادية ، فعليه مؤخر صداق زوجته وعليه نفقتها من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن ما دامت فى العدة ، وعليه نفقة أولاده وأجور حضانتهم ورضاعتهم فى دور الحضانة ، وعليه وحده نفقات تربيتهم بعد ذلك ، فوضعت الشريعة الإسلامية المرأة فى أعلى مرتبة من قبل الزواج ومن بعده وسمت بها فى الحاليتين إلى مستوى رفيع لم تصل بها إلى مثله بل لم تصل بها إلى ما يقرب منه أية شريعة أخرى من شرائع العالم قديمه ومتوسطه وحديثه .

إن الإسلام يعرف ضرورة ترك الباب مفتوحا لفصم عرى الزواج فى

(٢) البقرة ٢٣٤ .

(٤) النساء ١٩ .

(١) النساء ٣٤ .

(٣) النساء ١٩ .

ظروف استثنائية ، فقد كان الناس على طرفي نقيض قبل الإسلام فيما يختص بالطلاق . ففي الشريعة الهندوسية لا يفصم الزواج الذي يعقد بتاتا ، والطلاق في الشريعة الموسوية في يد الرجل وحده يستعمله وقتما يريد ، أما في المسيحية فإن الطلاق لا يكون إلا إذا حدثت خيانة من الطرفين ولا يسمح مطلقا للمطلقين أن يتزوجا ثانية : أما الإسلام فقد اتخذ موقفا وسطا بين هذه الآراء المتغالية ، فهو يسمح بالطلاق ولكن يعتبره أمرا مكروها ويتلمس السبل الممكنة لإصلاح ذات البين ، فإذا يقر حق الزوجة في الطلاق لسبب وجيه يحد من حق الزوج .

والزواج في الواقع اتفاق بين الرجل والمرأة على أن يعيشا زوجين ، فإذا وجد أحد الطرفين أنه لا يستطيع أن يحيا مثل هذه الحياة وجب الطلاق . والعقلية الإسلامية على العموم تبغض الطلاق : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ولا يجوز الطلاق قبل محاولة الإصلاح : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾ (١) .

قال ابن عابدين : « أما الطلاق فالأصل فيه الحظر أي الحرمة والإباحة للحاجة إلى الخلاص ، فإذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران للنعمة وإيقاع الأذى بها وبأهلها وأولادها . ولذا قالوا إن سببه الحاجة إلى الخلاص عند تباين الأخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم إقامة حدود الله تعالى ، فحيث تجرد عن الحاجة

المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ، ولذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ (١) .

ولم يفرق الإسلام بين الزوج والزوجة في حق طلب الطلاق ، فقد جاءت جميلة زوجة ثابت بن قيس إلى النبي ﷺ — تطلب الطلاق من زوجها قائلة :

— يا رسول الله إني لا أجد عيبا في ثابت في خلقه أو دينه ، إلا أني لا أطيقه .

فلما سئلت هل ترد له الحائط (البستان) الذي أمهرها إياه ؟ وأجابت بنعم ، أمر النبي ثابتا أن يسترد بستانه ويطلقها .

وقد أسهب الدكتور على عبد الواحد وافي في كتابه « حقوق الإنسان في الإسلام » عند التحدث عن تفرقة الإسلام بين الرجل والمرأة في حق الطلاق ، قال : « يأخذ كثير من علماء الفرنجة المسيحيين على الإسلام أنه أباح الطلاق وجعله حقا للرجل وحده ، ويتابعهم في ذلك بعض المتفرنجين من أبنائنا المصريين والمتفرنجات من بناتنا المصريات ؛ فيجأ هؤلاء وأولئك بالشكوى من الوضع الإسلامي ويطلبون إلى المشرع المصري أن يتدخل في هذا النظام ليقمه على القواعد التي تسير عليها أمم الغرب المسيحية ؛ فيرفع بذلك بلدنا المتخلف البائس إلى مصاف الشعوب المتحضرة الراقية !

وقبل أن نرد على الفرنجة والمتفرنجين والمتفرنجات ، ونبين لهم الوضع الصحيح لنظام الطلاق في الإسلام ، وهو الوضع الذي يجهله كثير

(١) النساء ٣٤ .

منهم ، ويتجاهله بعضهم مكابرة وعنادا واندفاعا وراء رغباتهم الآثمة في الكيد للإسلام وتشويه تعاليمه وتوهين منزلته في نفوس معتقيه ، قبل أن نرد عليهم ونبين لهم الوضع الصحيح لنظام الطلاق في الإسلام وأنه أمثل نظام عرفته الشرائع ، يجدر أن نلقى نظرة مجملة على نظام الطلاق في أمم الغرب المسيحي ، وهو النظام الذى يريدوننا على السير عليه ويطلبون إلى أولياء أمورنا أن يستوردوه إلى مصر .

ترجع جميع المذاهب المسيحية التى تعتقها أمم الغرب المسيحي إلى ثلاثة مذاهب : المذهب الكاثوليكي ، والمذهب الأرثوذكسى ، والمذهب البروتستانتي .

فالمذهب الكاثوليكي يحرم الطلاق تحريما باتا ولا يبيح فصم الزواج لأى سبب مهما عظم شأنه . وحتى الخيانة الزوجية نفسها لا تعد في نظره مبررا للطلاق ، وكل ما يبيحه في حالة الخيانة الزوجية هو التفرقة الجسمية (حسب تعبيرهم) بين شخصى الزوجين مع اعتبار الزوجية قائمة بينهما من الناحية الشرعية ، فلا يجوز لواحد منهما في أثناء هذه التفرقة أن يعقد زواجه على شخص آخر لأن ذلك يعتبر تعددا للزوجات ، والديانة المسيحية لا تبيح التعدد بحال . وتعتمد الكاثوليكية في مذهبها هذا على ما جاء في إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « لا يصح أن يفرق الإنسان ما جمعه الله » . وبعض الفرق التى انشعبت عن الكنيسة الكاثوليكية تبيح الطلاق في حالة الخيانة الزوجية من الزوج أو الزوجة ، ولكنها تحرم كذلك على كلا الزوجين أن يتزوج بعد ذلك . والمذهبان المسيحيان الآخران الأرثوذكسى والبروتستانتي يبيحان الطلاق في بعض حالات محدودة من أهمها الخيانة الزوجية ، ولكنها

كذلك يحرم ان على الرجل والمرأة كليهما أن يتزوجا بعد ذلك .
وتعتمد المذاهب المسيحية التي تبيح الطلاق في حالة الخيانة الزوجية
على ما ورد في إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « من طلق امرأته
إلا بسبب الزنا يجعلها تزنى » .

وتعتمد المذاهب المسيحية في تحريمها الزواج على المطلق والمطلقة على
ما ورد في إنجيل متى كذلك إذ يقول : « من يتزوج مطلقة يزنى » .
هذه هي مسيحياتهم وهذه هي أناجيلهم ، وأقول « مسيحياتهم » لأن
المسيحية الحاضرة التي يعتنقونها تختلف كل الاختلاف عن النصرانية التي
يحدثنا عنها القرآن ويذكر أن الله أرسل بها عيسى إلى قومه ، فالقرآن
يحدثنا عن ديانة سماوية سمحة قائمة على الاعتقاد بوحداية الله ورعاية
مصالح العباد ، أما نصرانيتهم فهي أمشاج من التثليث الهندي والوثنية
الرومانية القديمة وعناصر أخرى أخذت من هنا وهناك ومزج بعضها
ببعض في تكوين متنافر غريب . وهي فيما يتعلق بالتشريع الدنيوى لا
تقيم وزنا لطبيعة الإنسان ولا ترعى مصالح العباد كما سيظهر لنا ذلك من
تحليلنا لما تذهب إليه بصدد الطلاق . وأقول « أناجيلهم » لأن هذه
الأناجيل تختلف كل الاختلاف عن الكتاب المقدس الذي يحدثنا القرآن
أن الله أنزله على عيسى . وهي في معظم ما تحتوي عليه تحريف لكلم الله
عن مواضعه وتلفيق من صنع بابواتهم وكنائسهم ومجامعهم ، بل إن
مسيحهم نفسه ليختلف كل الاختلاف عن المسيح الذي يحدثنا عنه
القرآن ، فالمسيح في القرآن إنسان من البشر يأكل الطعام ويمشى في
الأسواق ، أما مسيحيهم فهو كائن غريب تحار في إدراكه العقول : هو
ابن الله (أرسله أبوه إلى بنى آدم ليقتلوه أو يصلبوه فيكفر بدمه الخطيئة

التي ظلت عالقة بهم جميعا منذ أن عصى أبوهم آدم وأكل من الشجرة ،
والتي كانت ستظل عالقة بهم إلى يوم يبعثون لولا أن افتداهم الله
بالتضحية بابنه العزيز) ، وهو في الوقت نفسه إله ، أو جزء من إله أو
إنسان وإله في آن واحد .

ولكن لترك هذا الموضوع فالحديث فيه طويل وذو شجون ،
ولنتأمل فيما تقررره مسيحيتهم وأناجيلهم في الموضوع الذي نحن بصددده
وهو نظام الطلاق .

فإذا بلغ الشقاق بين الزوجين إلى حد استحالة عنده الصلح
وأصبحت معه الحياة الزوجية جحيما لا يطاق ، وأصبح أفراد الأسرة
جميعا ذكورهم وإناثهم صغارهم وكبارهم مهددين من جراء ذلك بأسوأ
النتائج وشر الكوارث في مختلف فروع حياتهم المادية والمعنوية والخلقية ،
فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم على هذين الزوجين الطلاق
وتأمرهما أن يبقيا معا على هذه الحال وفي هذا الجحيم وليكن ما يكون من
معقبات ، لأن « ما جمعه الله لا يصرح أن يفرقه الإنسان » .

وإذا تنافرت طباع الزوجين كل التنافر ، أو ألقى في نفس أحدهما أو
كليهما كراهية شديدة للآخر حتى إنه ليفضل أن يرى الموت ولا يراه ،
وعجزت جميع الوسائل الإنسانية عن علاج هذه الحال لأن القلوب بيد
الله ولا سلطان لأحد على كثير من شئونها ، فإن هذه المسيحية وهذه
الأناجيل تحرم على هذين الزوجين الطلاق وتأمرهما بأن يقضيا حياتهما
على هذه الحال وفي هذا العذاب ، لأن « ما جمعه الله لا يصرح أن يفرقه
الإنسان » .

وإذا فسدت أخلاق أحد الزوجين ولم يرع لعقد الزواج عهدا ولا

حرمة ، واندفع في تيار الفسق والفجور وأصبح فضيحة الفضائح لكل من ينتمى إليه ومصدر شر وييل لكل من يتصل به ، وعجزت جميع وسائل التقويم عن إصلاحه ورده إلى الطريق المستقيم ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم الطلاق منه وتوجب على الزوج الآخر أن يبقى معه على هذه الحال . وقد تتساهل أحيانا فتسمح له بالانفصال عنه بجسمه فحسب أو بطلاق صوري بدون أن تسمح له بأن يستأنف حياة أخرى صالحة مع زوج آخر أو زوجة أخرى ، لأن « ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان » . ولأن « من يتزوج مطلقة يزنى » .

وإذا جن أحد الزوجين جنونا مطبقا وفقد جميع مميزات الحيوان الناطق ، بل أصبح في تصرفاته أضل سبيلا من الأنعام ومصدر خطر كبير لكل من يعاشره ، أو أصيب بمرض معد خطير لا يرجى برؤه ، أو فقد مقومات جنسه ، أو كان عقيما لا يلد فأصبح لا يحقق أهم غرض من أغراض الزواج ، أو غاب غيبة طويلة ولم يعرف أحى هو أم ميت أو حكم عليه بالسجن المؤبد ، أو أعسر ولم يستطع الإنفاق على الزوجة وأصبحت الزوجة بذلك معرضة إذا بقيت على ذمته لأن تموت جوعا أو تأكل بشديها ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل لا تسمح بطلاقه في حالة من هذه الحالات ، وإن سمحت به لا تسمح للمطلق أن يتزوج لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » ، ولأن « من يتزوج مطلقة أو مطلقا يزنى » ، ولا تسمح بأن يبقى الزوج على زوجة هذه حالها ويتزوج معها زوجة أخرى لأنها تحرم التعدد على أى حال .

وقد رفعت أخيرا سيدة مسيحية مصرية تدعى السيدة زاهية عازر مرقس دعوى أمام محكمة قنا الابتدائية للأحوال الشخصية ضد زوجها

تطلب فيها تطليقها منه لأنه تركها بدون الإنفاق عليها ، ولم تستطع تنفيذ أحكام النفقة التي كانت قد استصدرتها ضده بسبب إعساره ، وبعد أن استعرضت المحكمة وقائع هذه القضية قضت برفضها اعتمادا على « أن أحكام الشريعة المسيحية مدونة في الإنجيل ، وقد أشار في مواضع متعددة إلى رابطة الزوجية فوصفها بأنها رابطة مقدسة وهي سر من أسرار الكنيسة السبعة . وحرم على بنى الإنسان التعرض لها أو حل عقدها لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » . ومضت المحكمة تقول : « وإنه من العجيب أن بعض القوامين على الدين من رجال الكنيسة وأعضاء المجلس الملى العام قد سايروا التطور الزمنى فاستجابوا لرغبات ضعيفى الإيمان فأباحوا الطلاق لأسباب لا سند لها من الإنجيل ، وحكم الشريعة المسيحية فى الطلاق قاطع فى أنه غير جائز إلا لعلّة الزنا ، ورتب على زواج أحد المطلقين بأنه زواج مدنس بل هو الزنا بعينه » ، وانتهت المحكمة إلى « أنها لا تستطيع ، وقد نيط بها تطبيق أحكام الشريعة المسيحية مسابقة المدعية فيما تطلبه من طلاق تستند فيه إلى الإعسار ، وهو سبب لا يمت إلى علة الزنا بصلّة من أى نوع كانت ، ومن ثم يتعين الحكم برفض الدعوى » .

وإذا كان مسلك أحد الزوجين أو كليهما حيال الآخر أو معاملته له تنطوى على ضرر بليغ أو على ضرار متبادل وعجزت جميع طرق العلاج عن إصلاح هذه الحال ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم كذلك الطلاق « لأن ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان » .

وإذا رأى الزوجان نفسيهما أن استمرار زوجيتهما متعذر من جميع الوجوه ، وأراد كل منهما أن يفارق الآخر بالمعروف ليغنى الله كلا من

سعته ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل لا تقرهما على ما يريدان وتأمرهما بأن يبقيا رغم أنفيهما على حال يتعذر الإبقاء عليها ولا يريد أحد منهما أن يبقى عليها ، وليكن ما يكون من معقبات لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » .

وليت شعري ! ما بال إلههم هذا الذى بلغ فى جموده وعجزه أنه يجمع ولا يستطيع أن يفرق ؟ ثم لماذا ينسبون الجمع لله وينسبون التفرقة للإنسان ، حتى التفرقة التى يقتضيها الصالح العام ويتحقق بها الخير والاستقرار العائلى والاجتماعى ؟

ولما كانت الحالات التى ضربنا أمثلة لها ليست حالات خيالية بل كثيرا ما تحدث وتحدث أشباهها ونظائر فى حياة الآدميين ، ولما كان الغريون من فصيلة بنى آدم وليسوا من فصيلة الجن أو الملائكة ، فقد رأوا أنه من المتعذر عليهم ما دامت طبيعتهم من طبيعة الإنسان أن يسيروا على تعاليم هذه المسيحية وهذه الأناجيل فى شئون الطلاق ، فاستحدثوا من القوانين المدنية ما يبيع لهم حل عقدة الزواج فى هذه الحالات وما إليها ، وساروا على هذه القوانين فى حياتهم العملية وتركوا قواعد الكنيسة تنعى من أقامها .

وفى نقد هذا النظام الكنسى يقول واحد من كبار فلاسفة المسيحيين أنفسهم وهو العلامة الإنجليزى بنذام Pentham فى كتابه « أصول التشريع » :

« حقا إن الزواج الأبدى هو الأليق بالإنسان والملائم لحاجته والأوفق لأحوال الأسرة والأولى بالأخذ .. ولكن إن اشترطت المرأة على الرجل

ألا تنفصل عنه حتى لو حلت في قلوبهما الكراهة الشديدة مكان الحب
لكان ذلك أمرا منكرا لا يسيغه أحد من الناس . على أن هذا الشرط
موجود بدون أن تطلبه المرأة . إذ القانون الكتسى يحكم به فيتدخل بين
العاقدين حال التعاقد ويقول لهما : أنتما تقتربان لتكونا سعداء فلتعلما
أنكما تدخلان سجنا سيحكم إغلاق بابه .. ولن أسمح بخروجكما وإن
تقاتلتما بسلاح العداوة والبغضاء .. » . ويعلق الفيلسوف الإنجليزى على
هذا الوضع بقوله : ولو كان الموت وحده هو المخلص من زواج هذا شأنه
لتنوعت صنوف القتل واتسعت مذاهبه .

ولكن لحسن الحظ استحدث المسيحيون من القوانين المدنية ما يفتح
لهم أبوابا للطلاق ويعفيهم من أن يلجئوا إلى القتل أو الانتحار للخروج
من هذا السجن .

وهذه الظاهرة وهى السير فى الأحوال الشخصية وفق قانون مدنى
يختلف عن تعاليم الدين لا تكاد توجد فى غير شعوب الغرب المسيحى .
فجميع أهل الملل والنحل الأخرى حتى البرهمنون والبوذيون والوثنيون
والمجوس يسرون فى أحوالهم الشخصية وفق تعاليم دياناتهم . وقد نجد من
بينهم من استحدث فى الأحوال العينية قوانين مدنية تختلف عن تعاليم دينه
ولكننا لا نكاد نجد من بينهم من استحدث قوانين مدنية فى الأحوال
الشخصية أى فى شئون الزواج والطلاق .. وما إلى ذلك . وأمكن لهذه
الملل والنحل أن تسير الحياة العملية وتجارى طبيعة البشر فى هذه الشئون .
والمسيحيون وحدهم هم الذين كفروا بدينهم من الناحية العملية فى
الأحوال الشخصية على العموم وفى شئون الطلاق على الخصوص لأنهم
هم أنفسهم قد وجدوا أن تعاليمهم فى هذا الصدد تنكر الواقع وتتجاهل
(صلح الحديدية)

طبيعة الإنسان ولا تصلح للتطبيق في الحياة .

و لم يستطع رجال الدين المسيحيون سبيلا إلى صد هذا التيار ولا إلى الوقوف في وجه المنطق والعقل وضرورات الحياة ، فتركوا الأمور تجري في أعنتها واكتفوا بأن يظهرُوا من حين لآخر على مسرح الحوادث حينما يتعلق الأمر بملك أو أمير أو عظيم ، وحينما تكون الظروف السياسية مواتية لظهورهم ليثبتوا وجودهم وليبقوا على شيء من سلطانهم الديني كما حدث في موضوع ملك إنجلترا الأسبق إدوارد الثامن الذي أراد أن يتزوج بمطلقة ملكت عليه قلبه ، وكانت الظروف السياسية مواتية حينئذ لإخراج هذا الملك والوقوف في سبيل رغباته فظهرت الكنيسة مهددة بأناجيلها وبأن « من يتزوج مطلقة يزنى » . فخير بين أن يمثل لهذه الخرافات ويحتفظ بالعرش أو ينزل على حكم عقله وقلبه ويتنازل عن الملك . فآثر العقل على الخرافة والقلب على التاج ، ومن الغريب أنه كان معروفا لدى الخاص والعام ولدى الكنيسة والشعب أن هذا الملك كان يعاشر خليلته هذه وهي لا تزال في عصمة زوجها قبل أن تطلق منه وكان لها جناح خاص في قصره ولم يرتفع صوت من الشعب ولا من رجال الكنيسة بالاحتجاج على ذلك ؛ لأن هذه الأمور تعد في عرفهم من الهنات الهيئات ، ولكن حينما أبدى رغبته بعد أن تمت إجراءات طلاقها من زوجها الأول بأن يتزوجها على سنة الأب والابن وروح القدس ، وبأن يعاشرها معاشرة مشروعة ، معاشرة الزوج لزوج له لا معاشرة الخليل لخليلته ، قامت في وجهه الكنيسة وقام في وجهه رجال الدين . وقد حدث مثل ذلك أخيرا للأميرة مرجريت أخت ملكة الإنجليز الحالية . فقد أرادت أن تتزوج من ضابط أحبته وأحبها (الكابتن

تاونسند) فقامت قيامة الكنيسة في وجهها لأن هذا الضابط قد طلق زوجة من قبل ، وقاعدة الكنيسة أن من يتزوج مطلقا يزني ؛ مع أن طلاقه هذا كان قد تم وفق الأوضاع المدنية والكنيسة نفسها لأن زوجته السابقة قد ثبتت عليها الخيانة الزوجية بأدلة قاطعة ، والكنيسة البروتستانتية نفسها التي يدين بها الإنجليز تبيح الطلاق في هذه الحالة . وهكذا لا يظهر رجال الكنيسة بسخافتهم هذه إلا حينما يكون الأمر متعلقا بملك أو أمير أو عظيم وحينما تكون الظروف السياسية مواتية لظهورهم ، ولا يقصدون بذلك إلا انتهاز الفرص لإثبات وجودهم في صورة بارزة والإبقاء على شيء من سلطانهم الديني والظهور أمام الشعب بمظهر الحلال والقدسية ، وإقامة الدليل له بطريق عملي على أن مكانتهم فوق مكانة التيجان ومنزلتهم فوق منزلة الأمراء والملوك . ولا أدل على ذلك من أن آلافا من حالات الطلاق وزواج المطلقين والمطلقات تحكم بها المحاكم الأوربية والأمريكية وتنفذها الهيئات المدنية في مختلف شعوب الغرب المسيحي على مرأى من الكنيسة ومسمع منها بدون أن تحرك ساكنا أو تقوى على الاعتراض على القوانين التي تبيح ذلك أو على حالات تطبيقها . ولا أدل على ذلك أيضا من أن رئيس وزراء إنجلترا (سير أنطوني إيدن) قد طلق زوجته الأولى التي هربت مع عشيق لها إلى أمريكا وهو الآن متزوج غيرها ، ولم يرتفع صوت من الكنيسة بالاعتراض عليه ولا على توليه أكبر منصب في الدولة لأن الظروف السياسية غير مواتية لارتفاع مثل هذا الصوت .

هذا هو النظام المسيحي الذي أهمله أهله أنفسهم ، لما تبين لهم من فسادهم وعدم ملاءمته للحياة الواقعية ، ولكنهم يريدوننا نحن أن نسير عليه

وأن نترك نظامنا الإسلامى ، ويتابعهم فى هرائهم هذا المتفرنجون من أبنائنا والمتفرنجات من بناتنا وهم لا يدرون أن الفرنجة لا يقصدون بذلك إلا الكيد للإسلام وتشويه تعاليمه القديمة وتوهين منزلته فى نفوس معتنقيه وإشاعة الفوضى والانحلال فى الأمم الإسلامية .

قد يقول السفهاء من الفرنجة والمتفرنجين والمتفرنجات إنهم لا يريدون أن نسير على النظام المسيحى بل يريدون أن نسير على غرار النظم المدنية التى تسير عليها أمم الغرب فى شئون الطلاق . ولكن هل نجحت هذه النظم لديهم حتى نستوردها منهم ؟ الحقيقة أنها قد أخفقت لديهم إخفاقا مبينا كما أخفق نظامهم الدينى ، وضاعت بين هذا وذاك مقومات الأسرة عندهم وأصبحت مهددة بالانهيار ، بل إنهارت بالفعل فى كثير من شعوبهم ولم يبق منها إلا صور فاسدة قد بعدت كل البعد عن النظام العائلى السليم وأصبحت لا تحقق شيئا من أهدافه .

فقد انقسمت قوانينهم المدنية فى شئون الطلاق إلى طائفتين : فأما الطائفة الأولى فقد فرطت كل التفريط فى احترام عقد الزواج فلم ترع ما له من حرمة وقدسوة وجلال ، فأجازت الطلاق لأتفه الأسباب كما هو الشأن فى بعض ولايات أمريكا الشمالية . فلم يصبح غريبا فى هذه الولايات أن تتزوج المرأة فى الصباح وتطلق من زوجها فى المساء وهذا هو قصارى ما يصل إليه الاستهتار بنظم الاجتماع الإنسانى والانهيار فى قواعد الأسرة .

وأما الطائفة الثانية فقد توسعت بعض التوسع فى شئون الطلاق بالقياس إلى النظام المسيحى ، ولكنها لا تزال متأثرة بروح الكنيسة فلم تبح الطلاق إلا فى حالات محدودة وبطرق وإجراءات معقدة كل

التعقيد ، ولا تنتهى إلى الطلاق إلا بعد أمد طويل كما هو الحال فى فرنسا ومعظم الأمم الكاثوليكية . فالقانون المدنى الفرنسى لا يبيح الطلاق إلا لواحد من ثلاثة أسباب : أحدها الزنا من أحد الزوجين ، وثانيها تجاوز الحد والإهانة البالغة فى معاملة أحد الزوجين للآخر ، وثالثها الحكم على أحد الزوجين بعقوبة قضائية مهينة ، فالمرض والإصابة بعاهة والجنون نفسه حتى لو أدى إلى تجاوز الحد فى المعاملة والغيبة الطويلة والشقاق البالغ واتفاق الطرفين على الفرقة ... كل ذلك وما إليه لا يبيح الطلاق فى نظر القانون . وأحد الأسباب الثلاثة التى ذكرها هذا القانون وهو الحكم بعقوبة قضائية مهينة لا يتحقق إلا فى حالات المجرمين . والسبب الثانى وهو تجاوز الحد والإهانة البالغة فى معاملة أحد الزوجين للآخر يصعب إثباته ، ولذلك يعتمد معظم من يريدون الطلاق هناك على السبب الثالث وهو الزنا فيجمعون الأدلة اللازمة لإثباته وإقناع القضاء به إن كان قد حدث بالفعل من أحد الزوجين ، أو يلفقونه تلفيقا ويقدمون لإثباته أدلة مزيفة ووثائق مختلقة ويقرون باقترافه كذبا أمام القضاء لتسهيل عليهم الفرقة . فلا يكاد يستطيع الطلاق إذن بحسب هذه الطائفة من القوانين إلا إذا تهيأ لها سبب واحد وهو عار الأبد للزوج والزوجة وأولادهما ونسلهما وأسرتهما وجميع من يلوذ بهما . مع ذلك لا يتم الطلاق إلا بنفقات باهظة لا يقوى عليها إلا كبار الأغنياء ، وبعد إجراءات طويلة معقدة تستغرق فى الغالب عدة سنين ، ويحكم فيها أولا بالفرقة الجسمية فحسب *Separation de corps* ثم تستغرق مدة أخرى حتى يحكم بالطلاق .

ومن ثم كثر فى هذه الشعوب اتخاذ الزوجات للأخلاء واتخاذ الأزواج

للخيليات وهجر الأزواج والزوجات لمنزل الزوجية وفرار الزوجات مع عشاقهن والأزواج مع عشيقاتهم ، وأصبحت هذه الأمور وما إليها في كثير من بلاد أوربا وأمريكا شيئا عاديا ، وأصبحت الأسرة شيئا لا قيمة له ، وأصبحت علائق النسب الصحيح بين الآباء والأولاد موطن الشك وفريسة الارتياح .

هذه هي نظمهم المدنية : طائفة منها تجرد عقد الزواج مما له من حرمة وقدسية وجلال فتبيح الطلاق لأتفه الأسباب ، وطائفة أخرى تشدد كل التشدد فلا تكاد تبيحه إلا لفضيحة تلحق الأسرة في حاضرها ومستقبلها ، وبإجراءات معقدة طويلة ، هذه بلغت حد الإفراط وتلك بلغت حد التفريط ، وكلاهما يؤدي إلى شر مستطير ، ومن ثم اضطرب نظام الأسرة وانهارت قواعدها في معظم أمم الغرب المسيحي .
فهذه الأمم لم تخرج إذن عن نظام الكنيسة الفاسد في شئون الطلاق إلا لتسير على نظم مدنية لا تقل عنه كثرا في فسادها وما تؤدي إليه من اضطراب في شئون الأسرة وانهار في مقومات الأخلاق .

والآن وقد تبين لنا فساد نظامهم المسيحي ونظامهم المدني كليهما في الطلاق ، وظهر لنا أن استيراد أحدهما كما ينادى بذلك الجهلة من المتفرنجين من أبنائنا المصريين والمتفرنجات من بناتنا المصريات ، سيؤدي حتما إلى انهيار الأسرة والقضاء على جميع مقوماتها . الآن وقد تبين لنا كل ذلك يجدر أن نعرض نظام الطلاق في الإسلام ، وهو النظام الذي ينقده الفرنجة والمتفرنجون والمتفرنجات ويزعمون أنه قائم على عدم المساواة بين الزوج وزوجه ، ليظهر لنا إن كانوا في نقدهم إياه على هدى أو في ضلال مبین .

أجل ! لقد أباح الإسلام الطلاق لأنه دين يشرع للحياة الواقعية التي يضطرب فيها بنو الإنسان ، ولأنه كثيرا ما يحدث في هذه الحياة ما يقتضى الطلاق ، بل ما يجعله ضرورة لازمة ووسيلة متعينة للاستقرار العائلي والاجتماعي .

ولكن الإسلام لم ييحه على الإطلاق بل قيده بقيود تكفل تحقيق الصالح العام وصالح الأسرة نفسها ، وتكفل تحقيق التوازن في حقوق كل من الزوجين وواجباته والمساواة بين كفتيهما في هذه الشئون .

فالإسلام يحيط عقد الزواج بسياج من القدسية ، ويضفي عليه من الجلال ما يميزه عن سائر العقود ، ويسمو به فوق ما يرتبط به الناس في شئون حياتهم من التزامات ، وينزله في النفوس منزلة المهابة والإكبار . ولذلك وصفه القرآن بما لم يصف به أى عقد آخر فسماه بالميثاق الغليظ ، قال تعالى : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾ (١) . وغنى عن البيان أن ميثاقا ينظر إليه الإسلام هذه النظرة لا يمكن أن يكون فصمه من الهنات الهيئات .

ولذلك بغض الإسلام الناس في الطلاق وصوره في أبشع صورة وحث المسلمين على اتقائه ما استطاعوا سبيلا إلى ذلك . وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام : (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) ، ويقول : (تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتر له عرش الرحمن) .

ولم يكتف الإسلام بهذا الزجر وهذا الوعيد بل اتخذ من النظم في شئون الأسرة ما يكفل تحاشي الطلاق إلا لأسباب قوية قاهرة .

(١) النساء ٢١ .

فقرر أنه لا يصح الالتجاء إلى الطلاق لأسباب يمكن علاجها ، أو
لأمور يمكن أن تتغير في المستقبل ، أو لا تحول بطبيعتها دون استقرار الحياة
الزوجية على وجه ما ، وحتى الأمور التي تتعلق بعاطفة الزوج نحو
زوجته أو بكراهيته لبعض أحوالها لا يعدها الإسلام من مبررات
الطلاق . فالإسلام يرى أنه لا ينبغي أن يفكر الأزواج في الطلاق لمجرد
تغير عاطفتهم نحو زوجاتهم أو طروء كراهية لهن ، أو لمجرد عدم ارتياحهم
إلى بعض أحوالهن وأخلاقهن التي ليس فيها ما يمس الشرف أو الدين ؛
لأن هذه العواطف متقلبة متغيرة ولا يصح أن تبنى عليها أمور خطيرة
تتعلق بكيان الأسرة ، وبغرض الإنسان اليوم قد يصبح حبيبه يوما ما ،
والزوج إن كره من امرأته خلقا فقد يكون فيها خلق آخر يرضيه ، وفي
هذا يقول الله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى
أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ (١) . ويقول عليه الصلاة
والسلام : (لا يفرك) (٢) مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها
آخر) ، أى لا ينبغي للمؤمن أن يكره زوجته لخلق واحد لا يعجبه منها
ويتغاضى عما بها من أخلاق أخرى فاضلة تعجبه . وجاء رجل إلى عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه يستشير في طلاق امرأته ، فقال له عمر لا
تفعل ، فقال ولكنى لا أحبها ، فقال له عمر ويحك ألم تبني البيوت إلا على
الحب فأين الرعاية وأين التذم ؟ ١ . يقصد أن البيوت إذا عز عليها أن

(١) النساء ١٩ .

(٢) فرك الرجل زوجته ، من باب سمع ، كرهها وأبغضها وفركته كذلك ،

(انظر القاموس المحيط) .

تبنى على الحب فهي خليفة أن تبنى على ركنين آخرين شديدين : أحدهما الرعاية التي تبث المراحم في جوانبها ويتكافل بها أهل البيت في معرفة ما لهم وما عليهم من الحقوق والواجبات ، وثانيهما التذم والتحرج من أن يصبح الرجل مصدرا لتفريق الشمل وتقويض البيت وشقوة الأولاد وما قد يأتي من وراء هذه السيئات من نكد العيش وسوء المصير .

ومن النظم التي قررها الإسلام كذلك لتحاشي الطلاق أنه أمر الزوجين عندما يحدث بينهما شقاق أو نفور أن يعملوا على إزالته بإثارة دواعي الرحمة والوئام ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ﴾ (١) .

ومن النظم التي قررها الإسلام كذلك لتحاشي الطلاق أنه أوجب على الزوجين إذا لم يستطيعا أن يصلحا ما بينهما بنفسيهما ويحققا الوفاق بوسائلهما الخاصة ، أن يعرضا أمرهما على مجلس عائلي يتألف من حكمين : حكم من أهل المرأة وحكم من أهل الرجل ، ليعثا أسباب الشقاء ويعملا على القضاء على مثيراته ويوفقا بين رغبات الزوجين حتى يحل الصفاء والوئام محل النفور والخصام ، ولا ينتظر الإسلام حدوث الشقاق بالفعل لإجراء هذا التحكيم بل إنه ليأمر به عند مجرد الخوف من حدوث الشقاق ، أي عند وجود بوادر تنذر به ولا يمكن للزوجين القضاء عليها بوسائلهما الخاصة . وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدوا إصلاحا

يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا ﴿١﴾ .

ومن الأمور التي قررها الإسلام كذلك لتعاشي الطلاق أنه قد رتب عليه من الناحيتين المالية والاجتماعية نتائج خطيرة وألقى بسببه على كاهل الزوج أعباء ثقيلة ، وأن من شأن هذه النتائج والأعباء أن تحمل الزوج على ضبط النفس وتدبر الأمر قبل الإقدام على الطلاق . فقد قرر أنه يجب على الزوج إذا طلق زوجته أن يوفيهما مؤجلا صداقها ويقوم بنفقتها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ما دامت في العدة ، وتكون حضانة أولادها الصغار لها ولقربياتها من بعدها حتى يكبروا ، ويقوم بنفقة أولادها منه وأجور حضانتهم ورضاعتهم في دور الحضانة حتى لو كانت الأم نفسها هي التي تقوم بذلك ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْتَرْضْنَ أَجُورَهُنَّ ﴾ (٢) .

فإذا لم يستطع مجلس التحكيم أن يوفق بين الزوجين ولم تجد الوسائل السابقة جميعا ولم تثن الزوج عن عزمه على الفرقة ، كان في ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تهدد استقرار الأسرة ، وعلى أن الحياة الزوجية قد فقدت أهم مقوماتها .

فحينئذ يجوز للإسلام للزوج الطلاق لمصلحة الأسرة نفسها ولتحقيق الصالح العام .

وحتى في هذه الحالة قد احتاط الإسلام للأمر فوضع للطلاق نظاما يتيح للزوج في أثناء إجراءات الفرقة فرصة طويلة لمراجع نفسه ويعدل عما شرع فيه إن كان ثمة سبيل للإبقاء على الحياة الزوجية .

(١) النساء ٣٥ .

(٢) الطلاق ٦ .

فقد قرر أن يبدأ الرجل بعد استنفاد الوسائل السابقة جميعا بتطبيق زوجته طلقة واحدة رجعية في طهر لم يتصل بها في أثنائه . وإنما قرر ذلك لأن الطهر هو فترة كمال الرغبة في المرأة ، والرجل لا يقدم على طلاق امرأته في فترة كمال رغبته فيها إلا لشدة الحاجة إلى الفرقة ، ففي ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تستدعى الطلاق .

فإذا أوقع هذه الطلقة الرجعية الأولى كان مخيرا بين أمرين :
الأمر الأول أن يراجع زوجته في أثناء عدتها ، والعدة لغير الحامل تستغرق مدة طويلة تبلغ ثلاثة قروء أى نحو ثلاثة أشهر . فالإسلام قد أعطى المطلق حتى بعد الطلاق فرصة طويلة يراجع فيها نفسه ويرد في أثنائها زوجته إليه إن كانه ثمة سبيل للإبقاء على الحياة الزوجية ، ولتسهيل الإبقاء على الحياة الزوجية يقرر الإسلام أن هذه المراجعة لا تحتاج إلى أى إجراء وأنها تتم بمجرد اتصال الرجل بمطلقة أو تقبيله إياها .. وما إلى ذلك ، كما تتم بمجرد قوله راجعت امرأتى أو عبارة من هذا القبيل . ولكى تكثر بواعث المراجعة ودواعى الإبقاء على الزوجة أوجب الإسلام على الزوج ألا يخرج زوجته المطلقة من منزل الزوجية ما دامت في عدتها ؛ قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتِ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ... ﴾ إلى أن قال : ﴿ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ﴾ (١) . ويشير القرآن الكريم إلى تفضيل المراجعة والإبقاء على الزوجية إذ يقول : ﴿ وَبِعُولَتَيْنِ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ (٢) ، فوصف الرد بأنه إصلاح لما حدث . ويشير القرآن إلى

(٢) البقرة ٢٢٨ .

(١) الطلاق ٢ .

ذلك أيضا إذ يقول في آية الطلاق : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ . ويختم الآية بقوله : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ (١) . فالقرآن الكريم يشير إلى أن الله قد شرع الطلاق في أول العدة أى في طهر لم يمس الرجل زوجته في أثناءه ، وشرع أن تظل المرأة من بعده في منزل الزوجية طوال مدة عدتها ، وشرع كل ذلك ليعطى الزوج فرصة طويلة للتأمل ولتكثر بواعث الرجعة ودواعي الإبقاء على الزوجة ، فلعل الله يحدث أمرا بعد ذلك فيرجع الزوج عما أبرمه ويراجع زوجته .

والأمر الثاني الذى يباح للزوج أن يفعله بعد هذه الطلقة أن يترك زوجته حتى تبلغ أجلها وتنقضى عدتها فتطلق منه طليقة بائنة ، وحتى بعد ذلك يظل الإسلام حريصا على الإبقاء على الزوجية وعلاج ما حدث ، فيجيز للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته بعقد ومهر جديدين . فإذا راجعها إلى عصمته في أثناء عدتها أو تزوجها مرة ثانية بعقد ومهر جديدين بعد انقضاء عدتها ثم شجر بينهما ما يجعله يعزم الطلاق من جديد ، وجب عليه أن يسير في هذه المرة الثانية على الأوضاع نفسها التى شرعت له في المرة الأولى ، ويعطيه الإسلام في هذه المرة الثانية من فرص المراجعة وإعادة الزوجية ما أعطاه في المرة الأولى .

فإذا عاد إلى معاشره زوجته بمراجعته في أثناء عدتها أو بالعقد عليها بعد انقضائها وبعد أن طلقها مرتين فإنه لا يبقى له عليها بعد ذلك إلا

طلقة واحدة .

فإذا أوقعها عليها في الأوضاع السابق بيانها كان ذلك دليلا على أن الخرق قد اتسع على الراجع ، وأن الحياة الزوجية قد أصبحت غير محتملة بين الزوجين ، وأنهما كلما حاولا جبرها اختل عليهما نظامها ، فحينئذ يقرر الإسلام الفرقة بينهما نهائيا ولا تحل له بعد ذلك حتى تنمحي آثار العقد الأول والحياة الزوجية الأولى انمحاء تاما ؛ وذلك لا يكون إلا إذا تزوجت من شخص آخر وانتهى الأمر بطلاقها منه طلاقا عاديا ، ورأى كلاهما بعد هذه المدة الطويلة وبعد تغير الأحوال على هذا الوجه أنه من الممكن استعادة الحياة الأولى على وضع أقوم وأمثل .

وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ ، إلى أن يقول : ﴿ تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ، فإن طلقها فلا تحل له من بعد ﴾ (أى من بعد هذه الطلقة الثالثة) ﴿ حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها ﴾ (أى هذا الزوج الآخر طلاقا عاديا وانقضت عدتها منه) ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ يأياها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ (٢) أى طلقوهن في قبل عدتهن أى في أول مرحلة فيها ، وذلك لا يكون إلا إذا طلقها في طهر لم يمسه فيه ، لأن الحيض والطهر الذي يمسه الرجل المرأة في أثنائه لا يحسبان من العدة ﴿ وأحصوا العدة واتقوا

(١) البقرة ٢٣٠ .

(٢) الطلاق ١ .

الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴿١﴾ . وروى مالك في الموطأ عن نافع « أن عبد الله ابن عمر طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله — ﷺ — فسأل عمر بن الخطاب رسول الله — ﷺ — عن ذلك فقال عليه السلام : مره فليراجعها فليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسكها بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » . ويشير عليه السلام بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ ، أى يجب أن يكون الطلاق فى أول عدة أى فى طهر لم يمس الرجل امرأته فى أثناءه .

هذا هو نظام الطلاق فى الإسلام وهذه هى إجراءاته المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ، وإيقاع الطلاق على غير هذا الوجه مخالف لما شرعه الإسلام بل لا تترتب عليه الفرقة فى بعض المذاهب ، وهى مذاهب تتفق مع نصوص الكتاب والسنة السابق ذكرها ، ولا أدل على ذلك من أن الرسول عليه السلام لم يعتد بالطلقة التى أوقعها ابن عمر على زوجته فى حالة الحيض ولم يعتبرها طلقة ، فقد روى ابن جريج عن ابن الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن يسأل ابن عمر عن ذلك فقال له إن رسول الله عليه السلام « ردها على ولم يرها شيئاً » أى لم يعتد بهذه الطلقة . صحيح أن عمر بن الخطاب قد أنفذ فى أيام خلافته أنواعاً من الطلاق

(١) الطلاق ١ ، ٢ .

لا تتفق مع هذا النظام المشروع ، منها طلاق الرجل لامرأته ثلاث طلقات متتاليات في مجلس واحد أو في طهر واحد . ولكن السبب في ذلك يرجع إلى أن كثيرا من الناس في عهده كانوا قد استهانوا بحرمة الزواج وكثر إيقاعهم للطلاق في صور غير مشروعة ليخوفوا زوجاتهم بذلك ويوقعوا الرعب في قلوبهن حتى يخشين الرجال ويحاذرن إغضابهم حرصا على الزوجية . فأراد عمر أن يشدد عليهم وأن يعاقبهم من جنس عملهم حتى يرتدعوا ويرجعوا عن غيهم ويحفظوا للزواج حرمة و قدسيته ولا يتلاعبوا بألفاظ الطلاق . فأنفذ ما كانوا يوقعونه من طلاق مخالف للوجه المشروع ، وقال في ذلك قوله المشهورة التي تبين بأوضح عبارة عن مقصده : « أيها الناس ! قد كان لكم في الطلاق أناة ، وأنه من تعجل أناة الله في الطلاق ألزمناه إياه » . — فكان ذلك من عمر رضى الله عنه مجرد إلزام بحكم السياسة الشرعية في النظر إلى المصالح ومجرد إجراء مؤقت للزجر ولعلاج حالة طارئة وعادة سيئة انتشرت حينئذ ، ولتمخوف الناس من نتائج التلاعب بالطلاق . ولم يكن غرضه أن يقرر تشريعا دائما للمسلمين ولا أن يغير شريعة الله في الطلاق .

ولقد أحسن المشرع المصري صنعا إذ قرر في القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ أن الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة يقع طلاقة واحدة . وينبغي ألا يقتصر المشرع المصري على ذلك وأن يصدر قوانين أخرى تحظر جميع أنواع الطلاق المخالفة للنوع المبين في الكتاب والسنة والذي أشرنا إلى أوضاعه فيما سبق ، ولا تعتد بغيره من أنواع الطلاق وتجعل ما عداه عبارات من منكر القول ولغو الأيمان ، ففي ذلك إحقاق للحق ورجوع بنظام الطلاق إلى الأوضاع الصحيحة التي سنّها الإسلام وانحرف عنها

المسلمون . فليس المقصود من الطلاق اللعب واللهو حتى يزعم الرجل لنفسه أنه يملك الطلاق كما شاء وكيف شاء ومتى شاء ، وإنما هو تشريع منظم دقيق من لدن حكيم عليم شرعه الله لعباده منعا للحرص وعلاجاً شافياً لما يكون في الأسرة بين الزوجين من شقاق وضرار ، ورسم قواعده وحد حدوده بميزان العدالة الصحيحة التامة ، ونهى عن تجاوزها وتوعد على ذلك . ولذلك تنتهى آيات الطلاق دائماً بذكر حدود الله والنهى عن تعدّيها والتحذير من المضارة ، فيقول الله تعالى عقب آيات الطلاق : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ (١) ؛ ﴿ وتلك حدود الله نبينها لقوم يعلمون ﴾ (٢) ؛ ﴿ وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ (٣) ؛ ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴾ (٤) ؛ ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ (٥) .

وحتى لا يكون الطلاق نزوة عابرة ، وحتى يكون للزوج فرصة للتراجع وللمتصلين بالزوجين فرصة للتدخل حتى بعد استنفاد وسائل التحكيم السابق ذكرها ، ينص القرآن على أن يقع الطلاق على يدى شاهدين ، فيقول تعالى فى آية الطلاق : ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ (٦) . ولا مانع عندى من أن يؤول المخرج فى

(٢) البقرة ٢٣٠ .

(٤) البقرة ٢٣١ .

(٦) الطلاق .

(١) البقرة ٢٢٩ .

(٣) الطلاق ١ .

(٥) البقرة ٢٣٤ .

الآية بالخروج من الطلاق لتلاؤمه مع إيقاع الطلاق أمام شاهدين . وقد ذهب الشيعة الإمامية إلى وجوب الإشهاد في الطلاق وأنه ركن من أركانه ، وأن كل طلاق بدون إشهاد يقع باطلا ولا يترتب عليه شيء . وحيدا لو أخذ المشرع المصري بهذا الرأي الذي يتفق مع صريح القرآن ويتيح لمن يعزم الطلاق فرصة أخرى للتأمل والتدبر والتراجع عما اعتزمه ، كما يتيح فرصة أخرى للإصلاح بين الزوجين عن طريق الشاهدين اللذين يستدعيان للشهادة على الطلاق وهما يكونان عادة من ذوى الصلة الوثيقة بالزوجين .

هذا لم يدخر الإسلام وسعا في إحاطة المرأة المطلقة بعطف كريم ورعاية رحيمة وفي العمل على حفظ حقوقها وحمايتها من الإضرار بها ، وذلك بما سنه من نظم رشيدة في النفقة والحضانة والعدة والإرضاع وطرق إيقاع الطلاق وزمنه .. وما إلى ذلك ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا تعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم * وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (١) . ويقول : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة

(١) البقرة ٢٣١ ، ٢٣٢ .

واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ولا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً * فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴿١﴾ . ويقول : ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن واآتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴿٢﴾ . ويقول : ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيت إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أفأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴿٣﴾ .

وبجانب هذا النوع من الطلاق الذى شرعه الإسلام بعد الدخول بالزوجة وتوثق رباط الزوجية بينهما ، أجاز الإسلام طلاق الرجل لمن عقد عليها قبل أن يدخل بها إذا كان ثمة ما يدعو إلى ذلك ، حتى يتفرقا ويغنى الله كلا من سعته ، قبل أن يتم الدخول فيؤدى ذلك إلى الإضرار بكل منهما وإيذائه في مستقبله . ومع ذلك فقد أوجب الإسلام على الرجل فى هذه الحالة نصف المهر المتفق عليه ، كما أوجب عليه المتعة للزوجة وهى تعويض لجبر إيجاش الطلاق يقدره الحاكم حسب الظروف وحسب حالة الزوج المالية وحسب ما لحق المرأة من ضرر ﴿٤﴾ . وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو

(١) الطلاق ١ ، ٢ .

(٢) الطلاق ٦ .

(٣) النساء ٢٠ ، ٢١ .

(٤) يرى أبو حنيفة أن المتعة كسوة كاملة يقدمها الزوج لمطلقة .

تفرضوا لمن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين * وإن طلقتهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴿١﴾ .

وبجانب هذين النوعين من الطلاق اللذين وكل الأمر فيهما إلى الزوج وحده في الحدود السابق بيانها ، شرع الإسلام أربعة أنواع أخرى من الطلاق :

(أحدها) طلاق تستبد به المرأة ، وذلك إذا كانت قد اشترطت في عقد الزواج أن تكون عصمتها بيدها أى أن تملك حق الطلاق وقبل زوجها ذلك . ففي هذه الحالة يكون لها حق الطلاق في بعض المذاهب بشروط وأوضاع خاصة .

(وثانيها) طلاق يقع عند الإخلال بشرط اشترطته المرأة في عقد الزواج . فإذا أخل الزوج بهذا الشرط وقع الطلاق في بعض المذاهب ، على ألا يكون هذا الشرط شرطا فاسدا يتعارض مع مقومات الزوجية وحدود الله .

(وثالثها) طلاق يوقعه القاضى لإعسار الزوج وعدم قدرته على النفقة أو لاتقاء الضرر أو الضرار أو لغيبة الزوج غيبة طويلة ، وقد أخذ بذلك القانون المصرى رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ .

(١) البقرة ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(ورابعها) طلاق يقع عن تراض من الرجل والمرأة كليهما ، ويتم في الغالب عن طريق تنازل المرأة عن جميع ما لها عند زوجها أو بعضه أو عن طريق إعطائه شيئا من المال يتراضيان عليه ، ويسمى هذا بالخلع ، ويحدث عندما ترى الزوجة تعذر الحياة الزوجية وتخاف إن أقامت مع زوجها على هذه الحال ألا تتمكن من إقامة حدود الله . وإلى هذا النوع يشير القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ . البقرة ٢٢٩ (١) .

(١) انظر في الأوضاع التي شرعها الإسلام للطلاق بحثا قيما لصديقنا الفاضل العلامة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر بعنوان « نظام الطلاق في الإسلام » ، وقد كان هذا البحث من أهم مراجعنا في هذه الفقرة .

هذا وبجانب هذه الأنواع من الفرقة التي شرعها الإسلام من قبل الدخول أو من بعده ، ويوجد نوعان من الإيمان لم يقرهما الإسلام ولكن رتب عليهما بعض النتائج .

أحدهما « الإيلاء » ، وهو أن يقول الرجل لامرأته : « والله لا أقربك » أو « لا أقربك أربعة أشهر » فصاعدا . فإذا قاربها في أثناء أربعة أشهر لا يحسب ذلك طلاقا عليه ، وإنما تجب عليه الكفارة عن حنثه في يمينه إن كان قد أقسم بالله . وإن لم يقربها حتى مضت الأشهر الأربعة اعتبرت مطلقة في مذهب أبي حنيفة طليقة واحدة بائنة ، « لأنه ظلمها بمنع حقها » كما يقول فقهاء هذا المذهب « فجازاه الشرع بزوال نعمة الزواج عند مضي المدة » (البدائع جزء ثالث ، ص ١٧٠ =

هذا النظام الرشيد الذى سنه الإسلام للطلاق ، فماذا يأخذ الفرنجة والمتفرنجون على هذا النظام الإلهى الحكيم ؟
يأخذون عليه ، فيما يتعلق بالموضوع الذى نحن بصددده على الأخص ، وهو موضوع المساواة ، أنه قد جعل الطلاق حقا للرجل وحده ، وحرّم المرأة من ممارسته ؛ ويقولون إنه لما كان كل من الرجل والمرأة طرفا فى عقد الزواج وشريكا مع الآخر فى الحياة ، فإن منح حق الطلاق لأحدهما دون الآخر يتعارض مع أصول التعاقد ومع ما ينبغى أن تكون عليه المساواة بين الجنسين ، وأن الوضع السليم هو ألا يفسخ العقد إلا برضا الطرفين المتعاقدين معا ، أو إذا منح هذا الحق لأحدهما يجب أن يمنح كذلك للآخر .

= وتوابعها ، والميدانى على القدورى ، باب الإيلاء) . وعند الشافعى إذا مضت الأشهر الأربعة ولم يقربها فى أثناءها يوقف أمرها ويخير بين الفىء والتطليق . (البدائع ، جزء ثالث ص ١٧٢) . وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا ﴾ أى فإن رجعوا عما أقسموا عليه بأن قاربوا زوجاتهم ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴿ (البقرة ٢٢٦ ، ٢٢٧) . ويفضل الإسلام أن يحنث الرجل فى يمينه فى هذه الحالة ليبقى على الزوجية . بدليل قوله تعالى : ﴿ فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ﴾ وبدليل قوله عليه الصلاة والسلام (من حلف منكم يمينا ورأى غيره خيرا منه فليفعل ما هو خير وليكفر عن يمينه) (أو كما قال) .

وثانيهما : (الظهار) وهو أن يقول الرجل لزوجته : « أنت على كظهر أمى » . أو عبارة من هذا القبيل . فلا يجوز فى هذه الحالة أن يقربها حتى يكفر عن طهارة الكفارة التى نص عليها القرآن . وقد استنكر القرآن الظهار فى عبارات =

وقد فانت هؤلاء أمور كثيرة : فاتهم أن المرأة إن تبرم مع الرجل عقد الزواج على سنة الله ورسوله ووفق الشريعة الإسلامية تقبل بذلك أن يتولى الرجل وحده شئون الطلاق في الحدود التي قررها الإسلام ، وتتنازل تبعا لذلك فيما يتعلق بالطلاق عن جميع الحقوق التي يمكن أن تنشأ عن اشتراكها في عقد الزواج . فالزوج إذ يمارس الطلاق وحده إنما يمارسه بناء على رضا الزوجة ذلك الرضا الذي يتضمنه عقد الزواج نفسه . وفاتهم كذلك أن الإسلام قد راعى في هذا الموضوع أن المرأة تغلب عليها العاطفة وسرعة الانفعال ، وأنه لا يقع عليها غرم مالى من الطلاق فلا يصح مع هذه الأوضاع وهذه الحالات النفسية والقانونية للمرأة أن يوضع في يدها حق النضير كحق الطلاق ، وإلا لأصبحت الأسرة مهددة بالانهيار لأضعف نزوة عابرة وأوهى انفعال طارئ . على حين أن الرجل لا يندفع في العادة مع عواطفه ووجداناته وانفعالاته اندفاع المرأة ؛ وهو وحده من جهة أخرى الذى سيقع عليه غرم الطلاق ؛ هذا إلى أنه القوام على الأسرة البصير بشئونها المقدر لجميع

= قوية كما استنكر الإيلاء ، وإن كان قد رتب على كل منهما النتائج السابق بيانها ، وفي الظهار يقول الله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون من نسائهم ما هن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم . وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله . وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ . (المجادلة : ٢ — ٤) .

ظروفها ؛ فاقترضت الحكمة الإلهية أن يمنح هذا الحق بالقيود التى ذكرناها ، وهى قيود تكفل عدم استخدامه له إلا حيث يقتضى ذلك صالح الأسرة والصالح العام ، وتكفل عدم الإضرار بالمرأة .
هذا إلى أن الإسلام كما تقدم قد أباح الطلاق عن تراضى الطرفين فى صورة الخلع ، بل أباح أنواعا من الطلاق تستأثر بها المرأة إذا تنازل لها الزوج عن هذا الحق ويجعل العصمة بيدها ، وأباح لها أن تشترط فى عقد الزواج شروطا خاصة على أن يفسخ العقد عند عدم الوفاء بهذه الشروط كما سبق بيان ذلك .

وقد ظهر منذ عهد قريب فريق من المتفرنجين المصريين والمتفرنجات المصريات ينصحون لأولياء الأمور بأن ينزعوا هذا الحق من يد الزوج والزوجة كليهما ويضعوه فى يد القضاء . فلا تطلق المرأة إلا بدعوى تقام أمام القضاء وتقتنع فيها المحكمة بوجاهة الأسباب التى تدعو إلى ذلك . وهم بذلك يريدون أن ينقلوا إلى مصر أحكام القانون المدنى الفرنسى فى الطلاق ويستبدلوه بشريعة الله وإن كانوا لخبثهم لا يصرحون بذلك . ومن المؤسف أن إحدى اللجان الحكومية التى ألفت أخيرا قد أخذت تنقاد لهذا رأى .

وقد عرضنا فيما سبق للقوانين الأوروبية التى تذهب هذا المذهب وعلى الأخص القانون المدنى الفرنسى ، وبيننا بالدليل القاطع ما أدت إليه هذه القوانين من تقويض لنظام الأسرة وانهيار لمقومات الأخلاق . هذا إلى أن معظم أسباب الطلاق تمثل فى أمور لا يصح إعلانها حفاظا على كرامة الأسرة وسمعة أفرادها ومستقبل بناتها وبنيتها ، فلو فرض على الناس

ألا يطلقوا إلا بعد إعلان هذه الأسباب أمام المحاكم وتقديم الأدلة القاطعة عليها واقتناع القضاء بها لوقعوا بين نارين : فإما أن يؤثرُوا عدم فضيحة أنفسهم وزوجاتهم وأولادهم بإعلان أسباب الطلاق أمام المحاكم فيبقوا بذلك على أوضاع تأبأها الكرامة ويأبأها الخلق الفاضل وتأبأها مصلحة الأسرة نفسها ، وإما أن يؤثرُوا إعلانها فيسجلوا بذلك عارا أبديا على أنفسهم وجميع أفراد أسرهم .

هكذا إلا أن الإسلام قد قرر نظام التحكيم بين الزوجين فيما يشجر بينهما من خلاف ولكنه قرره في صورة كريمة نبيلة لا تنطوي على شيء من هذه المساوئ . فقد قرر أن يتألف مجلس التحكيم من حكّمين : حكم من أهل الزوج وحكم من أهل الزوجة ، أى من رجلين لا يرى كلا الزوجين غضاضة في الإفضاء إليهما بذات نفسيهما وبأسباب شقاقهما ، وهما من جهة أخرى لا يقلان عن الزوجين في حرصهما على كتمان كل ما يسيء إلى سمعة الأسرة المتخاصمة وعدم إذاعته بين الناس لأن كل ما يسيء إلى سمعة هذه الأسرة يسيء إلى سمعة الحكّمين نفسيهما لارتباط كليهما بهذه الأسرة برابطة القرابة .

وفضلا عن هذا كله فإن الإسلام قد أجاز تدخل القضاء في هذه الشؤون حينما تدعو إلى ذلك ضرورة ويتوقف على تدخله تحقيق الصالح العام وصالح الأسرة ، فأجاز للقضاء أن يطلق على الزوج في حالة إعساره وعدم قدرته على النفقة وفي حالة غيبته غيبة طويلة وحيث يدعو إلى الطلاق اتقاء الضرر والضرار كما سبق بيان ذلك .

هذا هو نظام الطلاق في الإسلام كما تدل عليه الأدلة الصحيحة الثابتة

من الكتاب والسنة ، وهو كما رأينا طريق قويم لا عوج فيه ولا أمت ، وجادة واضحة مستقيمة يسير الإنسان فيها على هدى ونور مبين . نظر فيه إلى صالح المجتمع وصالح الأسرة وصالح الزوجين ، وحفظت فيه حقوق كل منهما بما يطابق العدالة التامة لا يغبن أحدهما الآخر ولا يغني القوى منهما على الضعيف . أعطى الرجل بعض المزايا ومنح المرأة في مقابل ذلك حقوقا تستعويض بها عما يلحقها من استعمال الرجل حقوقه . وقد لخص القرآن الكريم هذا كله في عبارة موجزة بليغة إذ يقول : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾ (١) .

هذا هو نظام الطلاق في الإسلام ، وهو كما رأينا حل ينظر إليه الإسلام كما ينظر إلى جراحة لا بد من إجرائها فلا يقرها إلا إذا تعذر الشفاء بغيرها ، وسط بين الإفراط والتفريط لا تسد منافذه حتى تشقى الأسرة بتحريمه كما هو شأن النظام المسيحي ، ولا تتسع كل الاتساع حتى يفقد معه ميثاق الزواج ما له من حرمة وجلال كما هو شأن النظم المدنية في بعض أمم الغرب ، ولا تتوعر طريقه حتى يتلمسه الزوجان المتكارهان في الاتفاق على دعوى الخطيئة ووصم الأسرة بعار أبدي كما هو شأن النظم المدنية في أمم أخرى من أمم الغرب .

ومن هذا يظهر أن خير ما يقدمه القادة والمصلحون إلى أوطانهم في هذا الموضوع هو عدم الانقياد لاتجاهات المتفرنجين والمتفرنجات ، والعمل على إشاعة الفهم الصحيح لنظام الطلاق في الإسلام ، وإقامة

إصلاحاتهم وأحكامهم في هذا الصدد على قواعد من ديننا الحنيف .
ويفرق الإسلام بين الرجل والمرأة في الميراث ، فجعل الإسلام نصيب
الذكور في الميراث أكبر من نصيب نظائهم من الإناث في معظم
الأحوال ، فللذكر مثل حظ الأنثيين في الأولاد والإخوة والأخوات .
وللزوجة من زوجها المتوفى نصف نصيب الزوج من تركته زوجته ،
ونصيب الأب من تركته ولده يزيد أحيانا على نصيب الأم ولا ينقص عنه
في أى حال .

وقد بنيت هذه التفرقة على أساس التفرقة بين أعباء الرجل الاقتصادية
في الحياة وأعباء المرأة ، فمستولية الرجل في الحياة من الناحية المادية أوسع
كثيرا في الأوضاع الإسلامية من مسئولية المرأة ، فالرجل هو رب الأسرة
وهو القوام عليها والمكلف بالإنفاق على جميع أفرادها بالفعل إن كان
متزوجا أو سيصبح مكلفا بذلك بعد الزواج ، وعلى الرجل وحده تحبب
نفقة الأقرباء على حين أن المرأة لا يكلفها الإسلام حتى الإنفاق على
نفسها ، فكان من العدالة إذن أن يكون حظ الرجل من الميراث أكبر من
حظ المرأة حتى يكون في ذلك ما يعينه على القيام بهذه التكاليف الثقيلة
التي وضعها الإسلام على عاتق الرجل وأعفى منها المرأة رحمة بها وحدها
عليها وضمانا لسعادة الأسرة .

وقد قال واصف باشا بطرس غالى في كتابه فروسية العرب المتوارثة :
﴿ كان محمد يحب النساء ويفهمهن ، وقد عمل جهد طاقتيه
لتحريرهن ، وربما كان ذلك بالقدوة الحسنة التي استنها فوق ما هو
بالقواعد والتعاليم التي وضعها ، وهو يعد بحق من أكبر أنصار المرأة
العمليين إن لم يكن أولهم ، فلقد كان بهن رحيمًا وعليهن حليما ، وكان

لين الجانب كثير العطف عليهن عظيم الاحترام والتكريم لهن ، لم يكن ذلك خاصا منه بزوجاته بل كان ذلك شأنه مع جميع النساء على السواء .

هذا ما قاله واصف باشا بطرس ، ولا نملك إلا أن نستشهد بقول الله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (١) .

القاهرة في : ٧ / ٦ / ١٩٦٩ .

(١) النجم ٣ ، ٤ .

المراجع

- القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى
السيرة النبوية
إنسان العيون (السيرة الحلبية)
بلوغ الأرب
نهاية الأرب
إيران فى عهد الساسانيين
نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى
المختار
إحياء علوم الدين
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
حقوق الإنسان فى الإسلام
محمد رسول الله
الرسول . حياة محمد
الإسلام والنظام العالمى الجديد
الدين القيم
المستشرقون والإسلام
نساء النبى
عبقريّة محمد
لابن هشام
لعلى بن برهان الدين الحلبي
للألوسى
للنويرى
لكريستينس — ترجمة د . يحيى الخشاب
للشيخ الشبلنجى
للغزالي
لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى
للدكتور على عبد الواحد وافي
مولاي محمد على
ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد
فرج وعبد الحميد جوده السحار
مولاي محمد على
ترجمة أحمد جوده السحار
لأبى الأعلى المودودى
للمهندس زكريا هاشم زكريا
للدكتورة بنت الشاطى
لعباس محمود العقاد

للسهيلي

للدكتور زكريا إبراهيم
لعباس محمود العقاد
للواحدى
لابن أبى الحديد
لشهرستاني

الروض الألف

تاريخ الطبرى
مشكلة الحرية
فاطمة الزهراء والفاطميون
أسباب النزول
شرح نهج البلاغة
الملل والنحل

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

الطبعة الأولى

أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفاري		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
في الوظيفة	مجموعة القصص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبي وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة القصص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبي بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد) ترجمه مع محمد محمد فرج يناير سنة ١٩٤٧		
في قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
قميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدي السنين	مجموعة القصص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧

الطبعة الأولى		
يناير سنة ١٩٥٨		أم العروسة
مارس سنة ١٩٥٨	قصة	وكان مساء
يوليو سنة ١٩٥٨	قصة	أذرع وسيقان
سنة ١٩٥٩	مجموعة أقاصيص	أرملة من فلسطين
سبتمبر سنة ١٩٥٩	رواية	الحصاد
سنة ١٩٦١		القصة من خلال تجارب الذاتية
أكتوبر سنة ١٩٦٢	قصة	جسر الشيطان
ديسمبر سنة ١٩٦٢	مجموعة أقاصيص	ليلة عاصفة
يناير سنة ١٩٦٤	قصة	النصف الآخر
يونيو سنة ١٩٦٥	رواية	السهول البيض
يوليو سنة ١٩٦٧		وعد الله وإسرائيل
يناير سنة ١٩٧٢	قصة	عمر بن عبد العزيز
أكتوبر سنة ١٩٧٢	قصة	الحفيد

القصص الدينية

(للاطفال)

في ١٨ جزءا	قصص الأنبياء
في ٢٤ " "	قصص السيرة
في ٢٠ " "	قصص الخلفاء الراشدين
في ٢٤ جزءا	العرب في أوروبا

محمد رسول الله والذين معه

أكتوبر ١٩٦٥	١ — إبراهيم أبو الأنبياء
مارس ١٩٦٦	٢ — هاجر المصرية أم العرب
سبتمبر ١٩٦٦	٣ — بنو إسماعيل
فبراير ١٩٦٧	٤ — العدنانيون
مايو ١٩٦٧	٥ — قريش
يوليو ١٩٦٧	٦ — مولد الرسول
أكتوبر ١٩٦٧	٧ — اليتيم
يناير ١٩٦٨	٨ — خديجة بنت خويلد
مارس ١٩٦٨	٩ — دعوة إبراهيم
يونية ١٩٦٨	١٠ — عام الحزن
سبتمبر ١٩٦٨	١١ — الهجرة
نوفمبر ١٩٦٨	١٢ — غزوة بدر
يناير ١٩٦٩	١٣ — غزوة أحد
مايو ١٩٦٩	١٤ — غزوة الخندق
يونية ١٩٦٩	١٥ — صلح الحديبية
نوفمبر ١٩٦٩	١٦ — فتح مكة
فبراير ١٩٧٠	١٧ — غزوة تبوك
مايو ١٩٧٠	١٨ — عام الوفود
نوفمبر ١٩٧٠	١٩ — حجة الوداع
ديسمبر ١٩٧٠	٢٠ — وفاة الرسول

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي بعثه

فتح مكة
مر ك ٧ عيم ٧

عبد الحميد جوده النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

(قرآن كريم)

خرج مالك بن عباد — وهو رجل من بنى الحضرمي — تاجرا ، فلما
توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله ، فأصبح بين بنى بكر
وخزاعة ثأر . فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه . فعدت خزاعة
قبيل الإسلام على أشراف من بنى بكر فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم . فبينما
بنو بكر وخزاعة على ذلك حجز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به ، فلما كان
صلح الحديبية بين رسول الله — ﷺ — وبين قريش كان فيما شرطوا
لرسول الله ﷺ : أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله — ﷺ —
وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها فليدخل
فيه : فدخلت بنو بكر في عقد قريش ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله —
ﷺ .

ونامت العداوة التي كانت ناشبة بين قريش والمسلمين ، فرأت بنو بكر أن
تستعين بقريش للثأر من خزاعة : فمشى بعض أشراف بنى بكر إلى سادات
قريش يسألونهم أن يمدوهم بالرجال والسلاح على خزاعة ، فأمدوهم برجال
خرجوا معهم مستخفين ، فيهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى
وعكرمة بن أبى جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو وظنوا أنهم لم يعرفوا .
وكانت خزاعة على الوتير — ماء قريب من مكة — وكانوا آمنين لا
يخشون غدرا ، وإذا بنو قفل بن معاوية قائد بنى بكر يتقدم إليهم متسترا بالليل
ومعه القرشيون متنكرين متنقيين ، فيبتوا خزاعة ليلا وهم غافلون فقتلوا منهم

رجالا ، وارتفعت الأصوات فخف الخزاعيون إلى سيوفهم وهم في ذهول ،
واقتل الفريقان فقتل من خزاعة عشرون وتقهقر الخزاعيون إلى الحرم ، فلما
انتهوا إليه قالت بنو بكر :

— يا نوفل إنا دخلنا الحرم ، إلهك إلهك .

كان الحقد يملأ صدر نوفل ، فقائد بنى بكر يرى أعداءه في متناول
السيوف ، إنها فرصة لا تعوض ليثأر من خزاعة ، فقال دون تفكير :

— لا إله لي اليوم ، يا بنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرقون في
الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟

واستمر القتال حتى لجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء ودار مولى لهم
يقال له رافع ، فلما التقط تميم بن أسد أنفاسه وسكن روعه راح يتذكر ما
كان ، إنه خرج مع رجل من قومه يقال له منبه وكان منبه رجلا معوزا ، فلما
جن الليل باتا بالوتير ، فإذا بينى بكر ومن تطوع للقتال معهم من قريش
ينقضون عليهم ويضعون فيهم السيوف ، فقال له منبه :

— يا تميم انج بنفسك ، فأما أنا فوالله إني لميت قتلوني أو تركوني ، لقد انبت

قؤادى .

إن تميما ليرى نفسه وقد أطلق ساقيه للريح وقد ترك صديقه ليقع أسيرا في
أيدي الأعداء ، وإنه ليحس عرق الخجل يتصبب منه ، وأراد أن يفر من

تأنيب ضميره الذى كان يخزه وخزا أليما فراح يعتذر من فراره عن منبه :

لما رأيت بنى نفائسة أقبللوا يغشون كل وتيرة وحجاب^(١)

صخرا ورزنا لا عريب سواهم يزجون كل مقلص خناب^(٢)

(١) الحجاب : ما اطمأن من الأرض وخفى .

(٢) لا عريب : لا أحد . الخناب : الفرس الواسع المنخرين .

وذكرت ذحلاً^(١) عندنا متقادما
ونخشيت ريح الموت من تلقائهم
وعرفت أن من يثقفوه^(٢) يتركوا
قومت رجلا لا أخاف عثارها
ونجوت لا ينجو نجاتي أحقب^(٣)
تلحى ولو شهدت لكان نكيرها
القوم أعلم ما تركت منها
وسكتت السيوف وانطلق الشعر يروى في مبالغة ما كان بين كنانة
وخزاعة ، فراح شعراء كنانة يقولون إنهم حبسوا خزاعة في دار الذليل
وأجثوهم إلى دار العبد رافع بعد أن شفوا نفوسهم . وجعل شعراء خزاعة
يذكرون تلك الأيام التي كانت بينهم وبين كنانة وكيف أنهم لم يدعوا لهم سيدا
يجمعهم في المجالس . وبين الفريقان يتراشقان بالأشعار خرج عمرو بن سالم
الخرزاعي في أربعين راكبا من خزاعة وانطلق إلى المدينة ليخبر رسول الله —
ﷺ — بأن بنى بكر وقریش قد تظاهروا على خزاعة وأصابوا منهم ما
أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ — مما استحلوا من
خزاعة .

وذاع في مكة أن صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبي

(١) الذحل : طلب الثأر .

(٢) يثقفوه : يجذوه . المجرية : اللبوة .

(٣) أحقب : حمارة الوحش . العليج : الحمار . الأقب : الضامر البطن .

(٤) القبقاب : من أسماء الفرج .

جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو قد اشتركوا مع بنى بكر في الغدر بخزاعة ، فخشيت قريش أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ — فمظاهرتهم لبنى بكر نقض صريح للعهد الذى كان بينهم وبين رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه ، وقد يهيج ذلك الحدث المسلمين ويحركهم للمسير إلى مكة ، فندموا على ما فعلوا وجاء الحارث بن هشام إلى أبى سفيان وأخبره بما فعل سادات قريش فقال :

— هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه وإنه لشر . والله ليغزوئنا محمد . ولقد حدثتني هند بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخدمة .

فكره القوم ذلك وقالوا لأبى سفيان :

— ما لها سواك ، أخرج إلى محمد فكلمه في تجديد العهد وزيادة المدة . فخرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين . فأسرع السير وهو يحسب أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله ﷺ ، وما دار بخلده أن عمرو بن سالم والذين معه من خزاعة قد خرجوا قبله ، وأن رسول الله ﷺ — كان صبيحة الواقعة التى جرت بين بنى بكر وقريش وبين خزاعة في بيت عائشة فقال لها :

— حدث في خزاعة حدث .

ف قالت في دهش :

— يا رسول الله أترى قريشا يجترئون على نقض العهد الذى بينك وبينهم ؟
— ينقضون العهد لأمر يريد الله .

— خير ؟

— خير .

وأنه عليه السلام بات عند ميمونة ليلة بعد ذلك فقام ليتوضأ للصلاة ،
فسمعتة يقول :

— لبيك لبيك لبيك ! نصرت نصرت نصرت .

فانطلقت إليه عليه السلام وقالت :

— كأنك تكلم إنسانا ، هل كان معك أحد ؟ .

— هذا راجز بنى كعب يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل .

فأقاموا ثلاثا ثم صلى رسول الله — ﷺ — الصبح ، وقدم عمرو بن سالم
وركب بنى خزاعة على المدينة ، فوقف عمرو ورسول الله — ﷺ —
جالس في المسجد بين ظهرا إلى الناس فقال :

يا رب إني ناشد محمدا	حلف أبينا وأبيه الأتلا(١)
قد كنتم ولدا وكننا والدا	ثُمّت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا	وإدع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا	إن سيم نحسفا وجهه تربدا
في فيلق(٢) كالبحر يجري مزبدا	إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقلك المؤكدا	وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا	وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا	وقتلونا رگعا وسجدا
وبلغ صوت الراجز دور النبي فأعارته عائشة سمعها وقد أشرق وجهها	
بنور الإيمان . إن رسول الله — ﷺ — صلى الله عليه وسلم —	

(١) الاتلا : العريق النسب .

(٢) الفيلق : الجيش .

حدثها قبل أن يصل وفد خزاعة بأن قريشا قد فجرت في عهدها ، وها هو ذا شاعرهم يفزع إلى رسول الله ﷺ — يستنصر — وظلت عائشة تصغي وهي ساكنة وقد أطبقت شفيتها وإن كانت كل خلجة من خلجات نفسها تشهد أن محمدا رسول الله حقا . وراحت ميمونة تلقى السمع إلى عمرو بن سالم وقد ترقرقت في عينيها الدموع . إن رسول الله ﷺ — قال لها : « هذا راجز بني كعب يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل » . وها هو ذا شاعر بني خزاعة ينشد في مسجد الرسول شعرا يناشد فيه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الحلف الذي بينهما ويستنصره . فلما انتهى عمرو بن سالم من شعره ساد المسجد سكون ، وأرهفت الأذان وتعلقت الأعين بشفتي رسول الله عليه السلام فإذا به يقول في صوت جهورى :

— نصرت يا عمرو بن سالم .

ودمعت عينا رسول الله ﷺ ، وقام وهو يجر رداءه ويقول :

— لا ينصرني الله إن لم أنصر بني كعب مما أنصر به نفسى .

وأشرقت وجوه بني خزاعة بالفرح ، وزاد سرورهم لما قال عليه السلام :

— خزاعة منى وأنا من خزاعة .

ثم عرض له عليه السلام سحاب فقال :

— إن هذا السحاب ليستهل بنصر بني كعب .

ولم يطل مكث وفد بني خزاعة في المدينة ، فلما عزموا على الرحيل قال لهم

عليه السلام :

— ارجعوا وتفرقوا في الأودية .

ليخفى عليه السلام مجيئهم له . فرجعوا وتفرقوا فذهبت فرقة إلى الساحل

وفيهم عمرو بن سالم ، وفرقة فيهم بديل بن ورقاء لزمت الطريق .

وراح أبو سفيان وغلამه يطويان الأرض التى تفصل بين مكة والمدينة

وياطلما قطع أبو سفيان ذلك الطريق . إنه طواه تاجرا وغازيا ، وكان في كل مرة يفكر في ربح تجارته أو في الغنائم التي سيغنمها من حرب المسلمين وما كان القلق يساوره . أما في هذه المرة فإنه يستشعر مرارة ، فهو في طريقه إلى سفارة ذليلة سواء أنجح فيها أم أخفق . إنه ذاهب إلى عدوه اللدود يلتمس منه شد العقد والزيادة في المدة بعد أن كانت أضعف أمانيه أن يعود ذات يوم إلى مكة وهو يسوق محمدا وأصحابه في الأسرى .

كان يريد أن يكتم أنفاس الإسلام المترددة في المدينة . وقد أنفق الأموال وهو الرجل الصحيح في سبيل القضاء على من ينافسه في زعامة قريش . وقد حالف اليهود ليجتث الخطر الذي كان يتفاقم شأنه على طريق تجارة الشام ، ولكن كل محاولاته قد باءت بالإخفاق كأن هناك قوة في السماء ترعى هؤلاء المسلمين كما يزعم محمد .

كان الحسد ينهش فؤاده لما زعم محمد أنه رسول رب العالمين وصدقه الناس ، وزاد في حنقه أن محمدا لم يكتف بقريش والأوس والخزرج بل راح يطالب بدولة عالمية يسود فيها الإسلام . إنه بشر أصحابه بملك فارس والروم ولم يكتف بذلك القول بل أرسل الجيوش لتناوئ هرقل على حدود الشام . وأطرق أبو سفيان فلم يستطع أن يسخر في وحدته بما كان يسخر منه وهو في نادى قومه عند الحرم . وطاقت بذهنه ذكريات . إنه يرى نفسه وقد خرج وأميه بن أبي الصلت الثقفى تجارا إلى الشام . فكلما نزلوا منزلا أخذ أميه سيفراً له يقرؤه عليهم . وإنه ليرى في وضوح ليلة أن نزلوا قرية من قرى النصارى فجاءوا أميه وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم . وإنه ليراه وقد آب في وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما . ومس أذنى أبي سفيان صوت أميه بن أبي الصلت كأنما كان آتيا من وراءه حجب السنين :

— هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله ؟

— لا أرب لى فيه ، والله لئن حدثنى بما أحب لا أثق به ، ولئن حدثنى بما أكره ، لأجدن منه .

ورأى أبو سفيان فى مرآة نفسه أمية بن أبى الصلت يذهب وشيخا من النصارى يتخلف ثم يقول له :

— ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟

— لست على دينه .

— وإن ، فإنك تسمع منه عجا وتراه .. أثقفى أنت ؟

— لا ولكن قرشى .

— فما يمنعك من الشيخ ؟ والله ليحبكم ويوصى بكم .

ورأى أبو سفيان بعين الخيال أمية بن أبى الصلت وهو يعود بعد هدأة الليل فيطرح ثوبيه ثم ينجدل على فراشه فما نام ولا قام حتى أصبح كئيبا حزينا ما يكلمهم ولا يكلمونه ، ورن فى أعماق نفسه صوت أمية :

— ألا نرحل ؟

— وهل بك من رحيل ؟

— نعم .

ودار فى ضميره ذلك الحوار الذى دار بينهما قبل أن يبعث ابن عبد الله :

— ألا تحدث يا أبا سفيان ؟

— وهل بك من حديث ؟ والله ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند

صاحبك .

— أما إن ذلك لشيء لست فيه ، إنما ذلك لشيء وجلت منه من منقلبى .

— وهل لك من منقلب ؟
— أى والله لأموتن ثم لأحيين .
— هل أنت قابل أمانتى ؟
— على ماذا ؟
— على أنك لا تبعث ولا تحاسب .
— إن أمية ضحكك فى ذلك اليوم وقال :
— بلى والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن ، وليدخلن فريق الجنة وفريق النار .

سمع أبو سفيان ذلك القول فى تلك الأيام فقال لصاحبه فى هدوء : « ففى أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟ » . قالها فى سخرية هازئة بفكرة البعث بعد الموت . إلا أنه وهو فى طريقه إلى المدينة تقاصرت نفسه لما رن فى جوفه حديث أمية ابن أبى الصلت : فقرآن محمد ما انفك يردد الدار الآخرة والثواب والعقاب والجنة والنار حتى كاد إيمانه يتزعزع بالطبع المحيى والدهر المفقنى ، وطافت به موجة من رهبة لما مد عينيه إلى السماء ، ثم سرعان ما عاد إلى الإصغاء إلى ما دار بينه وبين أمية فى تلك الرحلة :

— هيا يا صخر .

— ما تشاء .

— حدثنى عن عتبة بن ربيعة أيجتنب المظالم والمحارم ؟ .

— أى والله .

— ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

— أى والله .

— وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟

— نعم .

— فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

— لا والله ما أعلم .

— أمحوج هو ؟

— لا بل هو ذو مال كثير .

— وكم أتى عليه من السن ؟

— زاد على المائة .

— فالشرف والسن والمال أزرين به .

— ولم ذاك يزرى به ؟ لا والله بل يزيد خيرا .

— هو ذاك .

كان ذلك الحديث في تلك الليلة أشبه بالألغار ، وأما وأبو سفيان ومولاه يغذان^(١) السير إلى المدينة فقد كان الأمر واضحا وضوح النهار . إنه يرى صورة محمد بن عبد الله تملأ الأفق وتسد عليه المنافذ ، فأينما يولى وجهه يراه . وإن صوت أمية بن أبي الصلت يرن في الفضاء حتى ليعلو على كل صوت : — هو رجل من العرب .. من أهل بيت يحجه العرب .. هو من إخوانكم من قریش .. رجل شاب حين دخل إلى الكهولة . بُدُوُّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط في العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة .

وامتلات جوانح أوى سفيان رهبة وربا خوفه^(٢) لما رن في أغوار نفسه صوت ضميره يرتل : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن

(١) يغذان : يسرعان .

(٢) ربا خوفه : زاد .

غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » (١) .

وسرت فى بدن أبى سفيان قشعريرة ، وراح يقلب وجهه فى الكون العريض فاستشعر لأول مرة حقارة شأنه . واثالت على رأسه ذكريات القتال الذى دار بينهم وبين محمد وصحبه : كانت كل الظروف المادية تؤكد سحق المسلمين ولكن النتائج كلها كانت على عكس كل تقدير . تقوضت القوى المتفوقة فى العدد والعتاد أمام قوة خفية ، إنها نصر الله ، إنها مدد الله من ملائكته ، جنود محمد الذين حدثه عنهم أمية بن أبى الصلت يوم أن كانوا عائدين من الشام إلى مكة قبل أن يعود إليهم محمد بن عبد الله من غار حراء يزعم أنه رسول رب العالمين .

وهمس فى وجدان أبى سفيان هامس : « لماذا لا تذهب إلى المدينة لتعلن على الملأ إسلامك كما فعل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وسادات قريش من قبلهما ١٢ . فانتفض فوق راحلته انتفاضة قوية كأنما يطرد ذلك الخاطر

الذى انسل إلى نفسه في غفلة منه ، وقال في صوت غاضب كأنما يؤنب نفسه :

— أو يذهب شرفي ؟
كان أبو سفيان يعلم أن محمداً — ﷺ — صدوق لا يكذب قد جاء أمرا لا يبقى معه شرف . فقاتله حمية كراهة أن يذهب شرفه .
وألح عليه ما دار من حديث بينه وبين أمية بن أبى الصلت بعد أن بعث الله محمداً عليه السلام :

— يا أمية ، قد خرج النبي الذي كنت تنعته .

— أما إنه حق فاتبعه .

— ما يمنعك من اتباعه ؟

— ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف ، إني كنت أحدثهن أني هو ثم يرينني تابعا لغلام من بنى عبد مناف .

وأطرق أبو سفيان وقد زوى ما بين حاجبيه وقطب جبينه ، فصوت أمية الآتي من بحر الذكريات كان كخنجر يطعن كل آماله في سفارته إلى المدينة :
« كأني بك يا أبا سفيان قد خالفته ثم قد ربطت كما يربط الجدى حتى يأتي بك إليه فيحكم فيك بما يريد » .

ولم يستطع أبو سفيان أن يلوى شفته السفلى استهزاء بأقوال أمية بن أبى الصلت التي ظلت حية في ضميره طوال تلك السنين ، فراح يحث راحلته على الإسراع ليفر من أشباح الماضي التي تحاول أن تمحو إشراقة الأمل في المستقبل المجهول .

راح أبو سفيان ومولاه يغذان السير . إنه يريد أن يصل إلى المدينة قبل أن تتصل خزاعة برسول الله — ﷺ — وأن تخبره عليه السلام بأن قريشا قد نقضت ما كان بينها وبينه من عهد . وكان أبو سفيان يطمع في أن يشد العقد ويزيد في المدة فقد أقرت قريش بعجزها عن وقف رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — إذا ما أراد أن يفتح مكة ، فلم يبق في جعبتها إلا السلم أو الاستسلام .

ورجع أولئك الركب من خزاعة ، فلما كانوا بعسفان لقوا أبا سفيان ومولى له كلا على راحلة فقال لهم :
— هل ذهبتم إلى المدينة ؟
— لا .

وقال بديل بن ورقاء :
— إنما كنا في الساحل نصلح بين الناس في قتل .
— أما أتيت محمدا .
— نعم : ما أتيت محمدا .
وصبر أبو سفيان وانتابه قلق ، حتى إذا ما انطلق بديل والذين معه إلى مكة قال أبو سفيان لمولاه :
— لئن كان جاء إلى المدينة لقد علف بها النوى .
فجاء منزلهم فقتت أبعاد أباعرهم فوجد فيها النوى ، قال أبو سفيان في

غیظ :

— أحلف بالله لقد جاء القوم محمدا .
وكان رسول الله — ﷺ — في المسجد ومن حوله المهاجرون والأنصار
يلقون إليه أسماعهم . فقال عليه السلام :
— كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة وهو راجع
بسخطه .

وانطلق أبو سفيان وهو يطوى الصحراء شاردا وقد اشتد
وجيب^(١) قلبه . إنه كان يقطع هذه الفيا في شامخا بأنفه يتيه بشرفه فهو شيخ
بنى أمية بل وسيد قريش . فكانت إيماءته أمرا وكلمته قانونا . أما اليوم فهو
ذاهب إلى مسجد عدوه يلتمس منه أن يشد العقد الذي كان غائبا عنه ويزيد
في مدته ، إنه يستشعر بالذل يملا جوائحه ولكنه يحاول أن يقهر عواطفه
المتمردة ، فليس لمكة من نجاة إلا أن تنجح سفارته وأن يقبل ابن أبي كبشة
تجديد العقد وزيادة المدة .

ولاحت لأبي سفيان أرباض المدينة فانبهرت أنفاسه وراح يصصر على
أسنانه ، فقد غاظه أن ليس له من الأمر شيء وأن مفتاح الموقف لم يعد في يده .
بل في يد نبي الإسلام إن شاء جدد العقد وأن شاء قطعه .
وتذكر ابنته أم حبيبة . إنها هناك في دور النبي وصارت أما للمؤمنين . فإن
كانت قد تركت دين الآباء ودخلت فيما يدعو إليه ابن عبد الله فإنها لن تتخلي
عنه ولن تجحد أبوته ولن يرضيها أن يعود أبوها إلى قريش وفي ركابه الخزي
والخذلان . فتألفت في نفسه بارقة أمل فعزم على أن يجيء أم حبيبة وأن
يوسطها بينه وبين زوجها وأن تضم صوتها إلى أصوات قومها في شد
العقد وزيادة المدة .

(فتح مكة)

وانساب أبو سفيان ومولاه في المدينة فلم يهرع أحد لاستقباله ولم يلتفت أحد لدخوله . فاستشعر قهرا فقد كان أشراف الأوس والخزرج يأتون إليه مهطعين^(١) والبشر يعلو الوجوه قبل أن يغزو محمد أفئدة القوم بسحره المبين . فتحرك سخطه وراودته فكرة أن يلوى أعنة راحلته وأن يرجع إلى مكة لولا بصيص من رجاء لمع في ظلمات يأسه ، فاندفع إلى مسجد الرسول ليواجه واقعه كيفما يكون .

ووقف على باب المسجد ومد عينيه فألقى محمدا — ﷺ — في أصحابه فخفق قلبه رهبة ، ولم يطل وقوفه فسرعان ما اتجه إلى دور النبي ودخل على ابنته أم حبيبة وقد افتر ثغره عن ابتسامة قلقة فلم يبد على ابنته أنها فرحت بمقدمة ، فحسب أن المفاجأة قد أذهلتها . وأراد أن يجلس على فراش النبي — ﷺ — فطوته عنه ، فأحس كأن خنجرا مسموما صرب إلى قلبه فقال في صوت فيه انين وإن حاول أن يبدو هادئا :

— يا بنية ، ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟
— بل هو فراش النبي — ﷺ — وأنت مشرك نجس .
فدار به المكان ولو طاع إحساساته للطمها لطمة تنفس عن غضبه ، ولكنه كبج جراح نفسه وقال :
— والله لقد أصابك بعدى شر .
فقالت في ثقة :

— بل هداني الله تعالى للإسلام وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر .
واعجبا منك يا أبت وأنت سيد قریش وكبيرها !
— أنا أترك ما كان يعبد آباؤى وأتبع دين محمد !

(١) مهطعين خاضعين أذلاء .

وخرج وهو حائق ، وزاد في حنقه أنه كان يعرف في أعماق ذاته أنه يعبد نفسه . إنه لا يريد أن يتبع دين محمد حتى لا يقر لابن عبد الله بالزعامة ، وقد عاش طوال حياته يحلم بزعامة قريش . وذهب إلى المسجد حتى أتى النبي — ﷺ — وهو يجاهد ليبذو هاشا باشا . وفر عينيه في الحاضرين فإذا بمحمد عليه السلام ومن حوله المهاجرون والأنصار . ومد بصره إلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن عفان وسرعان ما غض الطرف . وحيا القوم بتحية الجاهلية فردوا عليه بتحية الإسلام .

والتفت إلى رسول الله — ﷺ — وقال :

— إني كنت غائبا في صلح الحديبية فامدد العهد وزدنا في المدة .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— لذلك جئت يا أبا سفيان ؟

— نعم .

— هل فيكم من حديث ؟

— معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا لا نغير ولا نبذل .

وصوبت أعين القوم إلى أبي سفيان . إنه يحاول أن ينكر ما كان بين بني بكر وبين خزاعة ومعاونة قريش بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله عليه السلام . إنه لا يريد أن يعترف بأن قريشا قد نقضت العهد ومزقت صلح الحديبية . فلو اعترف لأعطى المسلمين الحق المشروع في غزو مكة . وهو ما تجشم السفر وقبل هذه السفارة المذلة إلا ليمنع سير المسلمين إلى أم القرى ليقبى له السلطان . وأرهف السمع ليلتقط ما يقول ابن عبد الله فقال الرسول — ﷺ :

— فنحن على مدتنا وصلحنا .

فأعاد أبو سفيان القول :

— امدد العهد وزدنا في المدة .

فلم يرد عليه شيئا . فقام أبو سفيان مطرقا يجر أذيال الخيبة ، وخرج من مسجد النبي عليه السلام لا يكاد يرى شيئا فقد أعماه سخطه ، حتى إذا ما نحلا بنفسه راح يقاوم يأسه فهده تفكيره إلى أن ينطلق إلى أبي بكر يلتمس منه أن يكلم له رسول الله — ﷺ — فخرج إلى العالية حيث كان أبو بكر ، فلما دخل عليه قال :

— يا أبا بكر جدد العقد وزدنا في المدة .

— جوارى في جوار رسول الله — ﷺ — وحاول أبو سفيان أن يشي أبا بكر عن قراره وأن يزين له أن يكلم له رسول الله عليه السلام . ولكن أبا بكر أبى أن يكلم رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — في أمر صمت عنه . فقام أبو سفيان وخرج يجر رجليه وهو يحس كأنما يحمل على ظهره أثقال الأرض . واستشعر أبو سفيان كأنما قطعت له أثواب الذل . فراحت تراوده فكرة أن يقفل راجعا إلى مكة . ولكنه أبى أن يعود بالإخفاق فعزم في إصرار على أن يأتي أصحاب رسول الله — ﷺ — وأن يلتمس منهم أن يكلموا له النبي عليه السلام لعل قلب أحدهم يلين لشيخ بني أمية ، فانطلق إلى عمر بن الخطاب ليتجرع كأس المهانة حتى الثمالة^(١) .

وفي صوت خافت لون بالأسى كلم عمر . وفي صوت حازم قوى قال

عمر :

— أنا أشفع لكم إلى رسول الله — ﷺ — فوالله لو لم أجد إلا الذر

(١) الثمالة : بقية الكأس .

لجاهدكم به .

— إن بيننا وبينكم حلفا .

— ما كان من حلفنا جديداً أخلقه الله . وما كان مقطوعاً فلا وصله الله .

فرمى أبو سفيان عمر بن الخطاب بنظرة قاسية ثم قال :

— جزيت من ذى رحم شرا .

وراح أبو سفيان يدور في طرقات يثرب وهو حاقده على نفسه تتردد أنفاسه في أذنيه كأنما كانت ناعية تنعى كرامته ، حتى إذا ما بلغ دار عثمان بن عفان انسل إليها مسرعاً خشية أن تقع عليه أعين الشامتين الداخلين إلى المسجد والخارجين منه ، حتى إذا ما أتى عثمان قال له :

— إنه ليس في القوم أقرب بي رحماً منك ، فزد في المدة وجدد العقد فإن صاحبك لا يرده عليك أبداً .

فقال عثمان معتذراً :

— جوارى في جوار رسول الله ﷺ .

وسأل أبو سفيان وألحف وتوسل وتودد ولكن عثمان أبى أن يكلم رسول الله ﷺ . فقام أبو سفيان من عنده وقد تفصد العرق من جبينه حتى ملأ عينيه وسال على لحيته ، وخرج يصرف^(١) أنيابه وراح يمسح وجهه لا يكاد يفرق بين عرقه ودموعه .

ووقف على باب دار عثمان يلتقط أنفاسه ، حتى إذا ما سكن روعه بعض الشيء رأى أن يقطع الطريق إلى دار علي بن أبي طالب ، فإن كان زوج أم كلثوم بنت محمد قد رده خائباً فلعل زوج فاطمة تتحرك فيه فروسيته فيكلم

(١) الصريف : صوت الأنياب .

له ابن عمه وحبيبه في تجديد العقد وزيادة المدة .
ودخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة وحسن غلام يدب بين
يديها فقال :

— يا علي ، إنك أمس القوم لي رحما ، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجع
كما جئت خائبا ، اشفع لي إلى محمد .
— ويحك يا أبا سفيان ! لقد عزم رسول الله — ﷺ — على أمر ما
نستطيع أن نكلمه .

فالتفت إلى فاطمة فقال :
— يا ابنة محمد . هل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد
العرب إلى آخر الدهر ؟
— والله ما يبلغ ببنى ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول
الله .

وتذكر أبو سفيان أن أختها زينب قد أجارت زوجها العاص بن الربيع
فطمع في أن تجيره ، فقال لها :
— أجيرى بين الناس .
— إنما أنا امرأة .

— قد أجارت أختك زوجها وأجاز ذلك محمد .
— إنما ذاك إلى رسول الله .
وفهم أبو سفيان أنها لا تريد أن تجير في الناس حتى لا تغضب أباه ، فإذا
بحسين يدخل عليهم ، فالتفت أبو سفيان إلى الحسن والحسين فقال :
— فأمرى صبيان ليس مثلهما يجير .
— إنما هما صبيان ليس مثلهما يجير .

وابتعد على عن المكان وهو واثق أن أحدا لا يستطيع أن يكلم رسول الله —
ﷺ — في أمر أبي سفيان ، فقد قال عليه السلام قبل قدوم شيخ بنى أمية :
« كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة وهو راجع
بسخطه » . وقد جاء أبو سفيان ليشد العقد ويزيد في المدة ولا بد أن يرجع
بسخطه كما تنبأ رسول الله — ﷺ .

وراح أبو سفيان يتلفت بأعين زائغة فقد طال مكثه بالمدينة دون أن يصل
إلى شيء ، طرق جميع الأبواب فأغلقت في وجهه ، توسل دون جدوى .
طلب من ابنة محمد أن تجيره فأبت وضنت بالحسن والحسين ، ولو أن عليا قد
أبى أن يكلم له رسول الله عليه السلام فهو آخر أمل . فقال لفاطمة الزهراء :
— فكلمى عليا

— فكلمه أنت .

فزحف إلى حيث كان علي بن أبي طالب كما يزحف الحيوان الذى سددت
إليه سهام القوم فتركته كالقنفذ فقال فى انكسار :
— يا أبا الحسن اشفع لى إلى محمد وأجرنى .
— يا أبا سفيان إنه ليس أحد من أصحاب رسول الله — ﷺ — يفتات
على رسول الله — ﷺ — بجوار .

وأحس أبو سفيان أنه يريد أن ينقض وأن الأرض قد مادت تحت قدميه .
إنه أتى أشراف قريش والأنصار وكل يقول : جوارى فى جوار رسول الله —
ﷺ — فقال لعلى فى صوت أقرب للنحيب :

— يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد أفسدت على فانصحنى .

— والله لا أعلم لك شيئا يغنى عنك ، ولكنك سيد بنى كنانة فقم وأجر
بين الناس ثم الحق بأرضك .

— أوترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟
— والله ما أظنه ولكن لا أجد لك غير ذلك .
فدخل أبو سفيان في المسجد فقام فقال :
— أيها الناس إني أجرت بين الناس .
ثم جاء إلى النبي ﷺ — فقال :
— يا محمد إني أجرت بين الناس ، لا والله ما أظن أحدا يخفركي ويرد
جوارى .

فقال رسول الله ﷺ :
— أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة .
ثم ركب أبو سفيان بعيره لينقلب إلى أهله مدحورا . وإن كان غروره يزين
له أن أحدا لن يخفركه ويرد جواره .
وكانت قريش ترصد مقدمه في قلق فقد طالت غيبته ، واتهمته قريش أنه
صبأ واتبع محمدا سرا وكتم إسلامه ، فلما طوى الأرض التي تفصل بين المدينة
ومكة دخل داره بالليل فاستقبلته زوجته هند بنت عتبة وهي متلهفة على سماع
أخباره وهو في شوق إليها . فلما دنا منها وجلس منها مجلس الرجل من امرأته
قالت له :

— إن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل . فراح يقص عليها
ما كان بينه وبين محمد وأصحابه ، فضربت برجلها في صدره وقالت :
— قبحت رسول قوم ، فما جئت بخير .

فلما أصبح أبو سفيان حلق رأسه عند أساف ونائلة وذبح عندهما البدن^(١)

(١) البدن جمع مفردة بدنة وهي الواحدة من الإبل والبقر كالأضحية تهدي إلى
مكة .

ومسح رءوسهما بالدم ليدفع عنه التهمة ، فلما رآته قريش قالوا :
— ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟
— لا والله لقد أبى على ، وقد تتبعت أصحابه فما رأيت قوما ملك أطوع
منهم له .

وساد الوجوم . ثم قال أبو سفيان ليفر من ذلك الصمت القاتل :
— جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد على شيئا ، ثم جئت إلى ابن أبي قحافة
فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت عمر بن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت
عليا فوجدته ألين القوم وقد أشار على بشيء صنعته ، فوالله لا أدرى أيغنى
عنى شيئا أم لا ؟
— وبم أمرك ؟

— أمرنى أن أجير بين الناس ، قال لى : لم تلتمس جوار الناس على محمد
ولا تجير أنت عليه وأنت سيد قريش وأكبرها وأحقها ألا يخفر جوارك ؟
ففعلت .

— فهل أجاز لك ذلك محمد ؟
— لا وإنما قال : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ، والله لم يزدنى .
وأحس القوم أن عليا قد سخر منه فقالوا :
— رضيت بغير رضا وجئت بما لا تغنى عنا ولا عنك شيئا . ولعمر الله ما
جوارك بجائز وإن إخفارك إزالة خفارتك^(١) عليهم هين . والله أراد الرجل أن
يلعب بك .

فقال أبو سفيان فى يأس :
— والله ما وجدت غير ذلك .

(١) الخفارة : الإجارة والحماية .

كان رسول الله ﷺ — إذا أراد غزوة ورى غيرها ، فلما هم عليه السلام بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة في ثمانية نفر من جملتهم محكم بن جثامة الليثي إلى بطن إضم ليظن ظان أن رسول الله ﷺ — توجه إلى تلك الناحية وتنشر بذلك الأخبار .

وانطلق أبو قتادة والذين معه فمر عليهم عامر بن الأضبط الأشجعي فسلم عليهم بتحية الإسلام فأمسك عنه القوم ، وحمل عليه محكم فقتله لشيء كان بينه وبينه وسلبه متاعه وبغيره ، ثم ساروا حتى بلغوا بطن إضم فلم يلقوا كيذا ، فقفلوا راجعين إلى المدينة ليلقوا رسول الله ﷺ — .
وقال ﷺ لعائشة :

— جهزينا وأخفى أمرك .

فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهي تعد بعض جهاز رسول الله عليه السلام ، كانت تجعل قمحا سويقا ودقيقا فقال :

— أى بنية ، أمركن رسول الله ﷺ — بتجهيزه ؟

— نعم فتجهز .

— فأين ترينه يريد ؟

— لا والله لا أدري .

ودخل عليهما رسول الله ﷺ — فقال أبو بكر :

— يا رسول الله أردت سفرا ؟

— نعم .

— أفأُتجهز ؟

— نعم .

— فأين تريد يا رسول الله ؟

— قريشا واخلف ذلك يا أبا بكر .

— يا رسول الله أو ليس بيننا وبينهم مدة ؟

— إنهم قد غدروا ونقضوا العهد . واطوما ذكرت لك .

ودخل عمر بن الخطاب فسمع أبا بكر يقول :

— هم قومك .

وعلم عمر أن رسول الله — ﷺ — قد عزم على السير إلى مكة فقال :

— نعم هم رأس الكفر ، زعموا أنك ساحر وأنت كذاب . وايم الله لا

تذل العرب حتى تذل أهل مكة .

وأمر رسول الله — ﷺ — الناس بالجهاز وطوى عنهم الوجه الذى

يريده . وأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين فى كل ناحية يقول

لهم :

— من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة .

فقدمت المدينة من قبائل العرب أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ،

حتى إذا ما اكتمل عقد المسلمين أعلم عليه السلام الناس أنه سائر إلى مكة ثم

قال :

— اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها . اللهم خذ

على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فجأة .

ووقف بكل طريق جماعة ليعرف من يمر بها ، وقال لهم عليه السلام :

— لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه إلا ردتموه .

وكان في المسلمين من يشفق على أهل مكة ، فأبو بكر الصديق قال له مشيرا بعدم السير إلى أم القرى : « هم قومك » . فلما أمر عليه السلام بالجد في السير أطاع ولم يخطر له على قلب أن يحذر أهل مكة ، أما حاطب بن أبى بلتعة فقد رأى أن يبعث إلى سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل يخبرهم فيه أن رسول الله — ﷺ — قد خرج قاصدا مكة فكتب : « إن رسول الله قد توجه إليكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل . وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لينصرنه الله تعالى عليكم فإنه منجز له ما وعده فيكم ، فإن الله تعالى ناصره ووليه ، وقد أحببت أن تكون لى يد بكتابى إليكم .

وراح يفكر فيمن يبعث معه بالكتاب فهذه فكره إلى سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب كانت مغنية بمكة وكانت قدمت على رسول الله — ﷺ — المدينة وطلبت منه الميرة وشكت الحاجة ، فقال لها رسول الله — ﷺ : « ما كان في غنائك ما يغنيك ؟ » فقالت : « إن قريشا منذ قتل منهم من قتل ببدر تركوا الغناء » . فوصلها — ﷺ .

واطمأن حاطب إلى سارة وجعل لها جعلاً على أن تبلغ كتابه قريشا ، فجعلته في رأسها ثم قتلت عليه قرونها خوفاً أن يطلع عليه أحد . وقال لها : — أخفيه ما استطعت ولا تمرى على الطريق فإن عليه حرسا .

فسلكت سارة غير الطريق وهى فرحة بالدنانير العشرة التى أخذتها وبالبردة التى كساها إياها وبما ينتظرها من خير لما تضع الكتاب فى أيدي سادات قريش . وفيما هى منطلقة إلى مكة أتى رسول الله — ﷺ — الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث عليا والزبير وطلحة والمقداد وعمارا وأبا مرثد فقال :

— انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (موضع بين مكة والمدينة) فإن بها
ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين ، فخذوه منها واخلوا
سبيلها ، فإن أبت فاضربوا عنقها .

فخرجوا حتى أدركوها فقالوا لها :

— أين الكتاب ؟

فحلفت بالله ما معها من كتاب . فاستنزلوها وفتشوها واتمسوا في رحلها
فلم يجدوا شيئا ، فقال لها على كرم الله وجهه :

— إني أحلف بالله ما كذب رسول الله — ﷺ — قط ولا كذبتنا ،
ولتخرجن هذا الكتاب أو لنكشفنك أو أضرب عنقك .

فلما رأت الجدة منه قالت :

— أعرض .

فاعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منه وهم ينظرون إليها
في ازدراء ، كانوا جميعا يمتقونها فقد كان ابن خطل يلقي عليها هجاء رسول
الله — ﷺ — فتغنى به . ولولا أن رسول الله عليه السلام قال لهم خلوا
سبيلها لسدد أحدهم إلى قلبها سهما .

وانقلبوا إلى رسول الله — ﷺ — بالكتاب ، فدعا رسول الله — ﷺ —
حاطبا وعمر بن الخطاب عنده ، فقال له :

— أتعرف هذا الكتاب ؟

— نعم .

فقال عمر في حدة :

— يا رسول الله دعني لأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق .

وقال حاطب :

— والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت .

فنظر إليه عمر في شزر وقال :

— قاتلك الله ! ترى رسول الله يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش تحذره ؟

وقال حاطب :

— ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششت منذ نصحت ، وما أجبتهم منذ فارقتهم .

واشتد غيظ عمر فقال :

— دعني لأضرب عنقه .

فقال رسول الله ﷺ — إلى عمر وهو ينظر إلى حاطب بن أبي بلتعة رسوله إلى المقوقس في إشفاق :

— إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وقال حاطب :

— يا رسول الله كنت غريبا في قريش وأمي بين أظهرهم وأردت أن يحفظوني فيها ، وما فعلت ذلك كفرا بعد إسلام وقد علمت أن الله تعالى منزل بهم بأسه لا يغني عنهم كتابي شيئا .

فقال رسول الله ﷺ — لمن كانوا عنده :

— إنه قد صدقكم ولا تقولوا له إلا خيرا .

وفاضت عينا عمر بالبكاء وأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي

وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالموودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ، إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ، (١) .

واستخلف — ﷺ — على المدينة ابن أم مكتوم وخرج لثمان عشرة ليلة خلون من رمضان سنة ثمان من الهجرة ، وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس ، وكانت مزينة ألفا وفيها مائة فرس ، وكانت أسلم أربعمائة معها ثلاثون فرسا ، وكانت جهينة ثمانمائة ومعها خمسون فرسا .

كان رسول الله — ﷺ — يعنى بتربية الخيل وقد أمر الله تعالى المسلمين بأن يعدوا لأعداء الله ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ليرهبوا عدوا الله وعدوهم ، فأنفق المسلمون مدخراتهم في إعداد الخيل والسلاح . وما هم هؤلاء ينطلقون إلى مكة على ظهور الجياد لكأنهم في حصون مشيدة .

ورجع قتادة والذين معه إلى المدينة فبلغهم أن رسول الله ﷺ — قد توجه إلى مكة ، فمالوا إليه حتى لقوه ، وقصوا عليه ما كان بينهم وبين عامر بن الأضبط الأشجعي وما كان من قتل محكم له بعد أن سلم عليهم بتحية الإسلام وقال رسول الله لمحكم :

— أقتلته بعد ما قال إني مسلم ؟ !

فقال محكم :

— يا رسول الله لو شققت عن قلبه أكنت أعلم ما في قلبه ؟

— فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما في قلبه .

— استغفر لي يا رسول الله .

— لا غفر الله لك .

فقام يتلقى دمه ببرده وأنزل الله تعالى فيه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتُ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنْ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » (١) .

كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخاه — ﷺ — من الرضاة ، وكان آلف الناس له عليه السلام قبل النبوة لا يفارقه ، وكان أبو سفيان شاعر بني هاشم بعد أن مات الزبير بن عبد المطلب وأبو طالب . فلما بعث الله محمداً — ﷺ — رحمة للعباد نفس أبو سفيان بن الحارث على ابن عمه وناصبه العدا . وكان من أشد الناس أذية له — ﷺ .

وكان أبو سفيان بن الحارث يلقي سمعه إلى القرآن فيربو حسده فيسب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وقد خرج من قريش في كل حروبها لابن عمه . فأيات الذكر الحكيم كانت تخز روحه فهو في قرارة نفسه يحس إعجاز القرآن وأن شعره لن يصل إليه ، فكان القضاء على محمد هو السبيل لإسكات ذلك السحر الذي تفشى في القبائل وعلا صوته في الأسواق على كل الأصوات .

كان رسول الله — ﷺ — خطرا على سلطان أبي سفيان بن حرب وعلى مملكة الشعر التي يريد أن يكون أبو سفيان بن الحارث فارس حلبتها وعلى نفوذ رجال الدين وأشراف قريش ، فتكتلوا جميعا لا عن اقتناع بل دفاعا عن مصالحهم المهددة بالبور .

ومرت السنون وأبو سفيان بن الحارث يرى نفوذهم يتقلص على مر الأيام وشأن ابن عمه يعلو ، فكان إذا خلا بنفسه يحاسبها يجد أنه ليس على صواب وأن ابن عمه على الحق . فكانت نفسه تراوده على الانطلاق إلى حيث يعلن (فتح مكة)

إسلامه كما فعل كثير من قريش ، ولكن حسده كان يتحرك فيلجمه ويحيده عن الصراط .

و ذات يوم استطاع أن يقهر حسده وأن ينتصر على نفسه المتمردة فأخذ بيد ابنه وانطلق ليلحق برسول الله ﷺ . وبينما هما في الطريق لقيا عبد الله بن أمية بن المغيرة ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ، أنها أم سلمة أم المؤمنين لأبيها ، فقال له أبو سفيان بن الحارث :

— إلى أين ؟

— إلى رسول الله أشهد شهادة الحق .

كان أكبر القائمين على رسول الله ﷺ — ومن أشد الناس أذية له ، لقد قال له عبد الله بن أمية بن المغيرة بمكة : « والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلما إلى السماء فتخرج فيها وأنا أنظر إليك فتأتى بصك وأربعة ملائكة يشهدون لك أن الله أرسلك » . كان من المستهزئين وكانت سخريته مريرة حتى إن رسول الله ﷺ — لم ينس قط إساءته حتى في أروع لحظات الانتصار ، وكان هجاء أبي سفيان بن الحارث قاذعا بذينا ولطالما ضاق به صدره عليه السلام .

ولقى أبو سفيان بن الحارث وابنه وعبد الله بن أمية بن المغيرة جيش المسلمين بالقرب من الأبواء فطلبوا مقابلة رسول الله ﷺ — فلم يأذن لهم ، فقال أبو سفيان :

— والله ليأذن لي أو لأخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت جوعا وعطشا .

والتقى على بن أبي طالب بابن عمه أبي سفيان بن الحارث ، وذهب عبد الله إلى أخته أم سلمة أم المؤمنين يسألها أن تكلم رسول الله ﷺ — صلوات الله

وسلامه عليه — فيهما ، فلما دخل عليه السلام على أم سلمة قالت له :
— لا يكون ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك .
— لا حاجة لي بهما . أما ابن عمي فهتك عرضي وأما ابن عمتي فهو الذي
قال لي بمكة ما قال .

وقال علي بن أبي طالب لابن عمه أبي سفيان بن الحارث :
— ائت رسول الله — ﷺ — من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف
ليوسف : « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » (١) فإنه — ﷺ —
لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولاً منه .

فدخل أبو سفيان بن الحارث على ابن عمته فقال ما علمه علي بن أبي
طالب . فقال رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه :
— لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .

وكان أبو سفيان بن الحارث شاعر قريش ، فأنشد يعتذر مما كان قد مضى
من فعله : .

لعمرك إني يوم أحمل راية	لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله	فهذا أواني حين أهدي وأهتدي
هداني هاد غير نفسي ودلني	على الحق من طردت كل مطرد

فضرب رسول الله — ﷺ — في صدره وقال :
— أنت طردتني كل مطرد .

واستمر أبو سفيان بن الحارث في إنشاده :

(١) يوسف ٩٤ .

أصـد وأناى جاهدـا عن محمد وأدعى وإن لم أنتسب من محمد
هم ما هم من لم يقل بهواهم وإن كان ذا رأى يلم ويفند^(١)
أريد لأرضيهم ولست بلائط مع القوم ما لم أمد فى كل مقعد
فقل لثقيف : لا أريد قتالها وقل لثقيف تلك : غيرى أوعدى
قبائل جاءت من بلاد بعيدة نزاع جاءت من سهام وسردد^(٢)

ودخل عبد الله بن أمية بن المغيرة على رسول الله عليه السلام وأعلن إسلامه ، وكان أبو سفيان بن الحارث لا يرفع رأسه إلى رسول الله — ﷺ — حياء منه فقد عاداه نحو عشرين سنة يهجوهُ أقذع الهجاء ولم يتخلف أبدا عن قتاله ، بينا كان رسول الله عليه السلام يحبه ويقول :
— أرجو أن يكون خلفا من حمزة .

كانوا فى رمضان فصام عليه السلام وصام الناس ، ولحقه فى الطريق من القبائل بنو أسد ومن أسلم من سليم ، حتى إذا كانوا بالكديد أفطر فقد كان الحر شديدا ، وبلغه عليه السلام أن الناس شق عليهم الصيام فاستوى — ﷺ — على راحلته بعد العصر ودعا بإناء فيه ماء فشرب ثم ناوله لرجل بجنبه فشرب ، وأبى بعض الناس أن يفطروا فقل له عليه السلام :
— إن بعض الناس صام .
— أولئك العصاة .

ثم التفت عليه السلام إلى الصحابة وقال .

(١) يفند : يبطل أو يخرف .

(٢) النزاع : الغرباء ، سهام وسردد : موضعان من أرض عك .

— إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم .
وفي قديد عقد — ﷺ — الألوية والرايات ودفعها للقبائل ثم سار حتى
نزل بمر الظهران ، وأعمى الله الأخبار عن قريش فلم يعلموا بوصوله إليهم .
وأمر — ﷺ — أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار وجعل على الحرس عمر
ابن الخطاب .

واندلعت السنة النيران فكادت تحيل الليل نهارا . وراح عمر بن الخطاب
يفكر فيما كان منه في صلح الحديبية : إنه يرى نفسه والعرق يتصبب منه وهو
يثب إلى أبي بكر بعد الصلح ويرى في أعماقه قوله : « أبا بكر ، أليس هو
رسول الله ؟ » ويمس وجدانه قول أبي بكر مسا لكأنه البلسم : « بلى » .
فيعود صوته يفح في أعماقه : « أوليسوا بالمشركين ؟ » . فيسمع قول أبي
بكر : « بلى » . فيدوى صوته في عين ذاته يكاد يعصف به : « فعلام نعطي
الدنية في ديننا ؟ ! » .

واستشعر عمر بالدموع تطفر إلى مآقيه ، وعجب في نفسه كيف بلغ به
غضبه في ذلك اليوم أن يرد على رسول الله — ﷺ — الكلام حتى إن أبا
عبدة بن الجراح يقول له :

« ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله — ﷺ — يقول ما يقول ؟ تعوذ
بالله من الشيطان الرجيم » .

إنه تعوذ بالله من الشيطان الرجيم يوم الحديبية وفي النفس شيء . أما وهو
على حرس رسول الله — ﷺ — وعشرة آلاف نار تتأجج في مر الظهران
على بعد بضعة أميال من مكة فإنه تعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهو نادم ندما
صادقا على ما فات ، وقد كاد يخسر ساجدا لما تذكر قول رسول الله عليه السلام
له : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني » .. ولكنه كان على

الحرس فقال في نفسه وقد اثابته رقة أمدت عينيه بالدموع :
« صدقت يا رسول الله » .

وتذكر عمر ما قال لما جاء في الصلح أن من جاء مسلما إلى محمد رده إلى
قريش : إنه قال في حدة : « يا رسول الله أترضى بهذا ؟ » فتبسم رسول
الله ﷺ — وقال : « من جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجا
ونخرجنا » . وقد كان . وأثبتت الأيام أنه عليه السلام كان على صواب ، وما
ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

وضايق عمر أنه لم يستطع أن يستشف ما تأتى به الأيام في ذلك اليوم
الشديد ، بينما استطاع مشركان من قریش هما مكرز وحويطب أن يريا ما
ستأتى به الأحداث يوم أن جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين ،
يرسف في الحديد ورمى بنفسه بين أظهرهم ، فجعل المسلمون يرحبون به
ويهنئون ، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه فأخذ غصنا من شجرة به شوك
وضرب به وجه أبي جندل ضربا شديدا حتى رق عليه المسلمون وبكوا ،
وأخذ بتلاييه وقال : يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلّى ، لقد
لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت .

رأى مكرز وحويطب ما رأى عمر فقال حويطب لمكرز : ما رأيت قط
قوما أشد حبا لمن دخل معهم من أصحاب محمد . أما إني أقول لا نأخذ من
محمد نصفا أبدا بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة . فقال مكرز : وأنا أرى
ذلك ، أما هو عمر بن الخطاب وزير رسول الله ﷺ — فقد أعماه
الغضب . لم ير ما رأى المشركان من فتح قريب . فقد وثب ومشى إلى جنب
أبي جندل وأبوه سهيل بجنبه يدفعه وصار يقول لأبي جندل : اصبر يا أبا جندل
فإنما هم المشركون . وإنما دم أحدهم كدم كلب ومعك السيف .

كان يحرص أبا جندل على قتل أيه سهيل بن عمرو . ولو أطاعه أبو جندل لحرم المسلمون من أكبر نصر قبل الفتح ، فقد انضم أبو جندل والذين معه إلى أبي بصير وقطعوا طريق قوافل قريش حتى أرغموا سادات قريش على أن يأتوا إلى المدينة وهم صاغرون يلتمسون تعطيل ذلك الشرط الذى ضج منه المسلمون وقالوا دون علم : « سبحان الله ! كيف نرد للمشركين من جاء مسلما ؟ » .

وتقاصرت نفس عمر لما دوى في ضميره ذلك الحديث الذى كان بينه وبين رسول الله ﷺ — بعد صلح الحديبية :

— يا رسول الله ألم تقل إنك تدخل مكة آمنا ؟

— بلى . فقلت لكم من عامى هذا ؟

— لا .

— فإنكم تأتونہ وتطوفون به .

وتمنى عمر لو أن صيام الدهر وقيامه وعتق ما يصل إليه من رقاب يكون كفارة عما بدر منه في ذلك اليوم الشديد ، ولم يكن وحده الذى اهتز فقد تكلم بعض الصحابة حتى بعد أن نزلت سورة الفتح وقال :

— ما هذا بفتح ، لقد صدونا عن البيت وصد هدينا . فقال — ﷺ —

لما بلغه الكلام :

— بل هو أعظم الفتح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالبراح عن بلادهم ، وسألوكم القضية ويريجوا إليكم فى الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم الله سالين مأجورين ، فهو أعظم الفتوح . أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟ ! أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم إذ زاغت

الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ؟
— صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتوح ، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما
فكرت ولأنت أعلم بالله وبأمره منا .
وخنقت عمر عبراته وراح يسأل نفسه : « لماذا لم ينزل الله السكينة على
قلبه كما أنزلها على قلب أبي بكر ؟ » ولكن أين إيمانه من إيمان أبي بكر ؟ لو وزن
إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم .
وهب عليه قول أبي بكر كالنسيم :
— يأيها الرجل إنه رسول الله — ﷺ ، وليس يعصى ربه وهو ناصره .
استمسك بغرزه حتى تموت فإني أشهد أنه رسول الله .
وقال عمر وقد فاضت منه أنوار اليقين حتى كادت تملأ ما بين السماء
والأرض :
— وأنا أشهد أنه رسول الله .

كان العباس بن عبد المطلب قد أسلم وأخفى إسلامه وبقي بمكة ليكون قلم
مخبرات رسول الله ﷺ — يوافيه بأنباء قريش . فلما كان يوم بدر أمر
رسول الله عليه السلام ألا يقتل العباس إذا ما وقع أسيرا في أيدي المسلمين ،
لأنه عمه فما كان صلوات الله وسلامه عليه يفرق بين أهله وعامة الناس في
أمر الدين . بل ليحقن دم مسلم أخفى إسلامه ، ولكيلا يقتل مسلم مسلما
وهو لا يدري .

وأخذ عليه السلام من عمه الفداء لكيلا يكشف أمره تزكية لماله . وما
أكثر ما أنفق أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأغنياء المسلمين من أموال
في سبيل الله ، وكانت خزاعة هي الرسل على الدوام بين رسول الله عليه السلام
وبين عمه ، فقد كان هوى خزاعة مع نبي الإسلام مؤمنهم وكافرهم ، فلما
كان صلح الحديبية لم يخفوا ميلهم ودخلوا في حلف رسول الله — صلوات الله
وسلامه عليه .

وكاد العباس أن يفضح أمره لما جاء الحجاج بن علاط إلى مكة بعد فتح
خيبر يستوفي أمواله . إنه وجد بثنية البيضاء رجالا من قريش يستمعون
الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ — وقد بلغهم أنه قد سار إلى
خيبر ، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفا ومنعة ورجالا ، فهم يتحسسون
الأخبار ويسألون الركبان ، فلما رأوه قالوا :

— الحجاج بن علاط عنده والله الخبر . أخبرنا يا أبا محمد فإنه قد بلغنا أن

القاطع قد سار إلى خير وهى بلد يهود وريف الحجاز .
— لقد بلغنى ذلك وعندى من الخبر ما يسركم ، هزم هزيمة لم تسمعوا
بمثله قط ، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط ، وأسر محمد أسرا وقالوا
لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم .
— إن العباس لما سمع الخبر لم يستطع أن ينهض ، فلم تكن فجيعته فى ابن
أخيه فحسب بل كانت فجيعته فى رسول الإسلام عليه السلام ، فيمن أخرجه
من الظلمات إلى النور ، فلما علم أن الحجاج قد ترك ابن أخيه عروسا على
صفية بنت حبيب بن أخطب وقد افتتح خير أحس كأنما ردت إليه الروح ،
فلبس حلة له وتخلق وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة وطاف بها شكرا لله
على نصرته دينه ، ثم قال لقريش فى اعتزاز المسلم :

— لقد فتح محمد خير ، وترك عروسا على ابنة ملكهم ، وأحرز أموالهم
وما فيها فأصبحت له ولأصحابه .

كلام لا يقوله إلا مسلم قوى الإيمان ، وإلا لو كان الدافع إليه رابطة الدم
لقال مثله أبو سفيان بن الحارث ابن عم محمد — ﷺ — وهو رفيق صباه .
والتقى العباس بابن أخيه قبل ذلك فى عمرة القضاء وكانت بينهما مناجاة ،
أفضى العباس إلى ابن أخيه بما كان وأنبا عليه السلام عمه بما سيكون . وخرج
رسول الله عليه السلام فى جيش من الأبرار لفتح مكة وكان عمه العباس
هناك . إنه الفتح ولن يكون بعده هجرة ؛ فإن لم يخرج عمه إليه من مكة قبل
أن يدخلها عليه السلام فلن تكون له هجرة ولن يكون له ثواب المهاجرين .
فبعث إليه عليه السلام سرا أن يخرج مهاجرا ليكون له الثواب الذى يستحقه
بعد كل ما أدى للإسلام من خدمات فى الخفاء ، فلم تعد هناك حاجة لخدماته
وقد أصبح فتح مكة على الأبواب .

وخرج العباس في غفلة من قريش بعياله مهاجرا فلقى رسول الله ﷺ — بالجحفة ، فاستقبل عليه السلام عمه وقد غمره الفرح فقال :
— هجرتك يا عم آخر هجرة .

ونال العباس الجزاء الأوفى ورجع معه عليه السلام إلى مكة ليكون له فضل
الجهاد إلى فضل الإسلام والهجرة . وأرسل أهله وثقله إلى المدينة حتى إذا
ما نزل المسلمون بمر الظهران وأوقدوا النيران رق قلب العباس لأهل مكة
وقال :

— واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله ﷺ — مكة عنوة قبل
أن يأتوه فيستأنسوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر .

فجلس العباس على بغلة رسول الله ﷺ — البيضاء فخرج عليها
والسنة النيران تتراقص وسار على ضوئها حتى جاء الأراك فقال :
— لعل أجد بعض الخطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة يخبرهم
بمكان رسول الله ﷺ — ليخرجوا إليه فيستأنسوه قبل أن يدخلها عنوة .
وكانت قريش قد علمت بمسيرة رسول الله ﷺ — ولم يعلموا إلى أى
جهة ، وكانوا يرتجفون فرقا بعد أن نقضوا العهد وأخفقت سفارة أبي سفيان
في مد المدة وتجديد العقد من أن يغزوهم ، فبعثوا أبا سفيان بن حرب
يتحسس الأخبار وقالوا له :

— إن لقيت محمدا فخذ لنا منه أمانا .

فخرج أبا سفيان وحكيم بن حزام يتحسسان الأخبار ، وبيناهما في الطريق
لقيا بديل بن ورقاء فاستصحباه وانطلقوا ينظرون هل يجدون خبرا أو يسمعون
به .

كان بديل يرجو من كل قلبه أن يكون رسول الله ﷺ — قد سار

إلى مكة ، فقد خرج بديل مع وفد خزاعة إلى المدينة بعد أن أغارت بنو بكر على خزاعة وعاونتهم في ذلك قريش وقد وعد عليه السلام عمرو بن سالم بالنصر وما أخلف — صلوات الله وسلامه عليه — وعدا قط . وكان أبو سفيان يتقدم في هجعة الليل وقد اشتد وجيب قلبه وما يدرى علة ذلك الخوف ، فما بلغ قريش مسيره ولكن أبا سفيان كان يستشعر في قرارة نفسه أن زعامته على قريش باتت في يد القدر ، فلو أن محمدا سار إلى مكة لانتهى كل شيء . وكان حكيم بن حزام شارد اللب حائقا على نفسه لا يدرى سببا لانقياده لأبي سفيان بعد أن فكر في الإسلام طويلا فأنشراح له صدره . إنه لو أنصف نفسه من نفسه لهرع إلى المدينة يعلن على الملأ إسلامه كما فعل كثير من سادات قريش . ورأوا على البعد السنة النيران فأغذوا السير ، وصك آذانهم صهيل الخيل لكأنه الرعد فراعهم ما سمعوا وراحوا يقلبون وجوههم في العسكر . فانتاب أبا سفيان قلق وأحس بديل أن رسول الله عليه السلام قد أقبل لغزو مكة وفاء لما وعد به عمرو بن سالم فغمره سرور وإن جاهد حتى يخفى عن صاحبيه ما اعتمل في صدره من فرح ، وظل حكيم بن حزام يفر المكان في دهشة . وقال أبو سفيان :

— ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا . هذه كنيران عرفة .
عشرة آلاف نار كانت تتأجج في جوف الليل ، إن أبا سفيان لم ير مثل هذه النيران إلا في موسم الحج في عرفة ، إنه لا يدرى من القوم ولماذا تجمعوا ، وكان كل ما يحس به أنه يرتجف خوفا من الرأس إلى القدم . وقال حكيم بن حزام :

— هذه والله خزاعة حمشتها الحرب .

فقال أبو سفيان ولم يفق من دهشته :

— خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وارتفع صوت في سكون الليل ينادى :

— يا أبا حنظلة .

فالتفت أبو سفيان ناحية الصوت . إنه صوت العباس وقد عرفه فالعباس

صديقه ونديمه ، فقال :

— أبو الفضل ؟

— نعم .

— مالك فداك أوى وأمى !

— والله هذا رسول الله — ﷺ — في الناس قد جاءكم بما لا قبل لكم به .

فقال أبو سفيان في يأس :

واصبح قريش والله ! فما الحيلة فداك أوى وأمى ؟

— والله لئن ظفرك بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى

أتيك رسول الله — ﷺ — فأستأمنه لك .

فركب أبو سفيان خلف العباس ورجع صاحبه ، فجاء به كلما مرا بنار

من نيران المسلمين قالوا :

— من هذا ؟

وإذا رأوا بغلة رسول الله — ﷺ — والعباس عليها قالوا :

— عم رسول الله — ﷺ — على بغلته .

حتى مرا على نيران عمر وكان على الحرس ، فقال :

— من هذا ؟

وقام إلى العباس ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال :

— أبو سفيان ! عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك من غير عقد ولا

عهد .

ثم راح يشده نحو رسول الله — ﷺ ، فركضت البغلة فسبقته وراح عمر يعدو خلفها . وكان سباق بين العباس وعمر إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، العباس يريد أن يستأمن لصديقه ونديمه رسول الله عليه السلام ، وعمر يريد أن يأخذ منه الأمر بقتل عدو الله .

ودخل العباس على رسول الله — ﷺ — ودخل عمر في أثره ، فقال وهو يلتقط أنفاسه :

— هذا أبو سفيان وقد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد ، فدعني لأضرب عنقه .

فنظر العباس إلى عمر في إنكار ، ثم التفت إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال :

— يا رسول الله إني قد أجرتك .

ثم جلس إلى رسول الله — ﷺ — فأخذ برأسه فقال في نفسه : « والله لا ينجيه الليلة رجل دوني » . فعاد عمر يقول لرسول الله عليه السلام :

— دعني لأضرب عنقه .

فقال العباس في غضب :

— مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بني عدى بن كعب ما قلت مثل هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف .

فقال عمر في نبرات صادقة :

— مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم . وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلي رسول الله — ﷺ — من إسلام الخطاب لو أسلم .

فقال رسول الله ﷺ :

— أذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فائتني به .
وذهب العباس بأبي سفيان إلى رحله . فلم يعرف أبو سفيان النوم
وراحت الأفكار تتثال على رأسه ، فتذكر فيما تذكر قول أمية بن أبي الصلت
له : « لكأني بك يا أبا سفيان إن خالفتك قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى
بك إليه فيحكم فيك بما يريد » . فاستشعر أبو سفيان أسي ، إنه نام في خيام
العباس يحس ضياعا لا يدرى أيصغى محمد إلى شفاعته عمه أم يستجيب لدعوة
عمر فيضرب عنقه .

إنه يوم أن جاء الحجاج بن علاط يشرهم بهزيمة محمد وبأسره وأن أهل
خيبر قالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن أصاب من
رجالهم تهلل بالفرح ، وعزم على أن يقتل محمدا على الملأ ليشفى غليله
وغليلهم ، وإنه لو كان في مكان محمد ما عفا أبدا عن عدوه الذي ناصبه العدا
منذ أول يوم زعم فيه أنه نبي مرسل . إنه ساق الجيوش وجمع الأحزاب
ليستأصل شأفته ، ولو كان قد قدر له أن ينتصر فما كان ليتردد لحظة في
ضرب عنق الذي فرق بين الأب وبنيه والزوج وزوجته وجاهد ليستل منه
زعامته .

وبات يقيس تصرف رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بمقاييسه
فرأى أنه هالك ، فحزن حتى الموت وتمنى بكل عواطفه لو أن الدنيا لا تشرق
لها شمس ولا يطلع عليها نهار .

وراح بلال يرعى النجوم ويرصد الشمس حتى إذا ما بدأ مولد الفجر أذن

بالصلاة فثار الناس ، ففرع أبو سفيان وقال للعباس :

— يا أبا الفضل ما للناس أمروا في بشيء ؟

— لا ولكنهم قاموا إلى الصلاة .

وأم رسول الله المسلمين ووقف أبو سفيان بباب الخيمة ينظر
يركعون إذا ركع ويسجدون إذا سجد ويهرعون إليه يلقون إليه الأسر
قضيت الصلاة وينفذون ما يأمرهم به مستبشرين . فلما عاد العباس
بعد الصلاة قال له أبو سفيان :

— ما رأيت ملكا مثل هذا ، لا ملك كسرى ولا ملك قيصر ولا
الأصفر .

وظل أبو سفيان مشدوها برهة حتى قال له العباس :

— كلمه في قومك هل عنده من عفو عنهم .

فانطلق العباس بأبي سفيان حتى أدخله على رسول الله ﷺ
له — ﷺ :

— ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

— بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! لقد ظننت
كان مع الله إله غيره لما أغنى عنى شيئا بعد .

— ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟

لو أقر له بالرسالة فقد ذهبت زعامته ودالت دولته وقد حارب الـ
سبيلها فقال :

— والله إن هذه في النفس منها شيئا .

كان أبو سفيان يطمع في أن يرجي محمد عليه السلام اعترافه بنبوته
من حلمه وعفوه ، فمن يدرى فقد تأتى الرياح ذات يوم بما يشتهى و
بالإسلام والمسلمين فتظل له السيادة على قومه ولا يذهب شرفه فيها
ورأى العباس الشر في عيني عمر فقال لصديقه ونديمه :

— ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب
عنقك..

عنقه ١؟ إنه عنده أهم من كل شرف ومن كل زعامة ، وإن ابن الخطاب
ليتحرق شوقا إلى ضربه فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .
وكان صوته خافتا ينز أسي .

ودبت الحياة في العسكر ، وراح الناس يتأهبون للانطلاق إلى مكة وقد خفقت القلوب في الصدور فعبير الأرض المقدسة يملأ النفوس ، وقد لاح الفتح للأعين فإن هي إلا بضعة أميال ثم يتحقق حلم السنين .

وطافت بالرءوس ذكريات ، والتف حول الرسول أصحابه يصغون إلى أوامره وهم يتذكرون كل ما قاله في الليل . قال فيما قال : « إن بمكة أربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك وأرغب بهم في الإسلام : عتاب بن أسيد ، وجبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو » . فشغلت العقول بمكارم هؤلاء الرجال وإن كانوا لهم أعداء .

وتجهز المسلمون للسير فانتاب أبا سفيان قلق شديد فلا قبل لقريش بهؤلاء الرجال ، فذهب إلى رسول الله ﷺ — وقال :

— يا رسول الله ادع الناس بالأمان ، أرأيت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها آمنون هم ؟

— نعم من كف يده وأغلق داره فهو آمن .

وكان العباس أعرف الناس بنديمه وصديقه فقال :

— يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً .

— نعم : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن .

فقال أبو سفيان وهو شارد :

— ما تسع دارى وما يسع المسجد ؟
كان رسول الله — ﷺ — عقد لأبى رويحة الذى آخى عليه السلام بينه
وبين بلال لواء فأمره أن ينادى :

— من دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن .
فاستشعر أبو سفيان راحة وقال :
— هذه واسعة .

وتأهبت القبائل للسير فقال — ﷺ — لعمه العباس :
— أجلسه بمضيق الوادى حتى تمر به جنود الله فيراها .
ووقف العباس وأبو سفيان بمضيق الوادى ، وأقبل خالد بن الوليد فى بنى
سليم حتى إذا ما مرت بأبى سفيان وأصبحت عند محاذاته ارتفعت الأصوات
مدوية :

— الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .
فقال :

— يا عباس من هؤلاء ؟
— هذا خالد بن الوليد .

— الغلام ؟

— نعم .

— ومن معه ؟

— بنو سليم .

— ما لى ولبنى سليم ؟

ثم مر على أثره الزبير بن العوام فى خمسمائة من المهاجرين وفتيان العرب ،
حتى إذا ما صاروا عند محاذاته انطلقت الأصوات من الخناجر :

— الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .

فقال أبو سفيان :

— من هؤلاء ؟

— الزبير .

— ابن أختك ؟

— نعم .

ثم مرت بنو غفار ثم أسلم ثم بنو كعب ثم مزينة ثم جهينة ثم كنانة ثم أشجع والتكبير يرتفع ليبلغ عنان السماء . ولما مرت أشجع قال أبو سفيان للعباس :

— هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد .

— أدخل الله الإسلام قلوبهم فهذا فضل الله .

وأقبل رسول الله ﷺ — في كتيبة الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فيها ألفا دارع وعمر بن الخطاب يقول :
— رويدا حتى يلحق أولكم آخركم .

فجعل أبو سفيان ينظر وهو مشدوه ثم قال :

— يا عباس من هؤلاء ؟

— هذا رسول الله ﷺ في الأنصار .

— ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .

وراح يقلب وجهه في الكتيبة الخضراء وقد ثارت انفعلاته ، كان يرتجف فرقا على قريش وكان يمتلىء دهشة من عظم ذلك الجيش الذي كونه رسول الله ، فالتفت إلى العباس وقال :

— والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما .

— يا أبا سفيان إنها النبوة .

— نعم إذن .

وكانت مع سعد بن عبادَةَ راية رسول الله ، ولما مر بأبي سفيان وحاذاه
قال :

— يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة ، اليوم ستحل الحرمة ، اليوم أذل الله
قريشا .

فلما مر بأبي سفيان رسول الله — ﷺ — وحاذاه ناداه أبو سفيان :
— يا رسول الله أمرت بقتل قومك ؟ فإنه زعم سعد ومن معه حين مر بنا
أنه قاتلنا فإنه قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم ستحل الحرمة ، اليوم أذل الله
قريشا ، أنشدك الله في قومك فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم .

فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف :

— يا رسول الله فإننا لا نأمن من سعد أن يكون له في قريش صولة .
فقال رسول الله — ﷺ — :

— يا أبا سفيان كذب سعد : اليوم يوم الرحمة .. اليوم أعز الله فيه
قريشا .

وأرسل رسول الله — ﷺ — علي بن أبي طالب إلى سعد بن عبادَةَ أن ينزع
اللواء منه ويدفعه لابنه قيس ، فأبى سعد أن يسلم اللواء إلا بأمرة من رسول
الله — ﷺ — ، فأرسل عليه السلام بعمامته فدفع اللواء لابنه قيس .

وساد السكون لحظة ، ثم قال العباس لأبي سفيان :

— النجاء إلى قومك .

فامتطى أبو سفيان راحلته وانطلق يعدو حتى دخل مكة ، فراح يصرخ
بأعلى صوته :

— يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار

أبى سفيان فهو آمن .

ودقت القلوب في شدة في الصدور ، وتعلقت الأعين بسيد قريش الذي جاء يعدو يحذر قومه ويدعوهم للأمان ، ورن صوت أبى سفيان في دور مكة وصك أذنى زوجه هند بنت عتبة ، فثار غضبها ، فخرجت تشتد إلى حيث كان زوجها وقد كادت تتفجر حنقا ، إنها تعيش على أمل أن تثار من محمد وصحبه لمقتل أبيها عتبة وعمها شيبة وأخيها الوليد . إنها كانت تؤجج نار الحقد في صدر زوجها كلما خبت . أو تقبل أن ينتهى كفاح السنين بالتسليم ؟ إنها لن تقبل هذا الذل أبدا .

وبلغت مكان أبى سفيان وهى حانقة أعماها الغضب ، فأخذت بلحيته ونادت :

— يا آل غالب اقتلوا الشيخ الأحمق .

ثم قالت لزوجها :

— قبحت من طليعة قوم .

وهرع الناس إليها فقالت هند :

— هلا قاتلتهم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ؟

فقال لها أبو سفيان فى حدة :

— اسكتى وادخلى بيتك .

ثم التفت إلى الناس وقال :

— ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به .

من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وفزع أناس فقد بلغهم أن النبى —

ﷺ — أمر بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة . كانوا ستة نفر وأربع

نسوة منهم : عبد الله بن أبي سرح أخو عثمان بن عفان من الرضاعة وكان فارس بنى عامر وكان من كتاب الوحي ثم زعم أنه يكتب على هواه ثم ارتد عن الإسلام ، وعبد الله بن حنظل وقبيلته وكان يهجو رسول الله عليه السلام هجاء قاذعاً وكانت قبيلته تغنيان ذلك الهجاء . وعكرمة بن أبي جهل وكان ألد الخصام ، والحويرث بن نفيل ومقيس بن حبابة ، وهبار بن الأسود ، وكان قد أفرع زينب بنت محمد عند هجرتها إلى المدينة وكانت حاملاً فأصابها نزيف كان يعاودها لم ينقطع حتى ذلك اليوم ، وكعب بن زهير وكان لا يفتأ ينظم القصائد في ذم محمد عليه السلام والمسلمين ، والحارث بن هشام وهو أخو أبي جهل وكان يتربص بالمسلمين الدوائر ليثأر لأخيه ، وزهير بن أمية ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب حاملة كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش ، إنها مولاة عمرو بن صفى بن هاشم بن عبد مناف ، وإنها أتت رسول الله — ﷺ — من مكة إلى المدينة ورسول الله — ﷺ — يتجهز لفتح مكة ، فقال لها رسول الله — ﷺ — .

— أمسلمة جئت ؟

— لا .

— أمهاجرة جئت ؟

— لا .

— فما حاجتك ؟

— كنت كثيرة العشيرة والأهل والموالى ، وقد ذهبت موالى واحتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسونى وتحملونى .

— فأين أنت من شباب مكة ؟

وكانت مغنية نائحة قالت :

— ما طلب منى شيء بعد وقعة بدر .

فحث رسول الله — ﷺ — بنى عبد المطلب وبنى المطلب فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة ، فأثاها حاطب بن أبى بلتعة حليف بنى أسد بن عبد العزى فكتب معها إلى أهل مكة كتابا ، ولم تحمد لرسول الله — ﷺ — عطفه وبره بل راحت تتغنى بهجاء النبى — صلوات الله وسلامه عليه — حتى بعد أن أطلقت لما وجد الكتاب فى قرونها ، وصفوان بن أمية وكان أكثر سادات قريش عدااء لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فهو فى كل وقت يبدى عداوته ويؤذى المسلمين بماله ويده ولسانه ، وزهير بن أبى سلمى ، وهند بنت عتبة ، ووحشى .

وجمع صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو أناسا بالخدمة وهو جبل بمكة ليقاتلوا لا دفاعا عن مكة ولا الحرم بل عن أعناقهم ، وراح حماس بن قيس بن خالد أخو بنى بكر يعد سلاحه ويبرى نبله ويصلح من شأنه ، فقالت له امرأته مستهزئة :

— لماذا تعد ما أرى ؟

— لحمد وأصحابه .

— والله ما أراه يقوم لحمد وأصحابه شيء .

فقال فى انفعال :

— لأخدمك خادما من بعض من نأسره .

— والله لكأنى بك وقد رجعت تطلب مخبأ أخبتك فيه لو رأيت خيل

محمد .

وأمر رسول الله — ﷺ — خالد بن الوليد أن يدخل مع جملة من قبائل

العرب من أسفل مكة ، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت وقال :

— لا تقتلوا إلا من قاتلكم .

وجعل — ﷺ — الزبير على إحدى المجنبتين وخالدا على الأخرى وأبا عبيدة على الرجال ، وأعطى الزبير راية وأمره أن يغرزها بالحجون لا يرح حتى يأتيه في ذلك المحل . وتقدم خالد والزبير ، وغرز خالد رايته عند أدنى البيوت ، وغرز الزبير رايته بالحجون وانتظر حتى وافاه رسول الله — ﷺ — وبني هناك مسجدا عرف فيما بعد بمسجد الراية .

ولما وقف رسول الله — ﷺ — على ذى طوى ، قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده :

— أى بنية ، إظهري لى على جبل أبى قبيس .

وكان قد كف بصره ، فأشرفت عليه فقال لها :

— أى بنية ماذا ترين ؟

— أرى سوادا مجتمعا .

— تلك الخيل .

— وأرى رجلا يسعى بين يدي ذلك السواد مقبلا ومدبرا .

— ذلك الوازع (الذى يأمر الخيل ويتقدم إليها) .

— قد والله انتشر السواد .

— قد والله إذا دفعت الخيل ، فأسرعى لى إلى بيتى .

فانحطت به ، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته وفي عنق الجارية طوق من فضة ، فتلقاها رجل فاقتطعه من عنقها ، فانطلقت بأبيها لا تلوى على شيء ، وبقيت في الدار ترصد مقدم أخيها أبى بكر الصديق :

كان رسول الله على راحلته معتجرا بشقة بُرد حمراء وإنه ليضع رأسه تواضعا لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، وراح ضرار بن الخطاب

يرنو إلى رسول الله — ﷺ — في حب بعد أن قال عليه السلام لأبي سفيان :
— يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله فيه قريش .
فهزت أريحية رسول الله — ﷺ — عدو الأمس ضرار بن الخطاب الذي
فعل بالمسلمين الأفاعيل يوم أحد ، فقال :

يا نبى الهدى إليك لجا	حى قريش ولات حين لجا
حين ضاقت عليهم سعة الأر	ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو	م ونودوا بالصيلم الصلعاء ^(١)
إن سعدا يريد قاصمة الظهر	ر بأهل الحجون والبطحاء
تخرجى لو يستطيع من الغي	ظ رمانا بالنسر والعواء ^(٢)
وغير الصدر لا يهم بشيء	غير سفك الدما وهتك النساء
قد تلظى على البطاح وجاءت	عنه هند بالسوءة السواء
إذ ينادى بذل حى قريش	وابن حرب بدا من الشهداء
فلئن أقحم اللواء ونادى	يا حماة اللواء أهل اللواء
ثم ثابت إليه من يهم الخز	رج والأوس أنجم الهيجاء
لتكونن بالبطاح قريش	فقمة ^(٣) القاع فى أكف الإماء
فانهينه فإنه أسد الأس	د لدى الغاب والغ فى الدماء
إنه مطرق يريد لنا الأم	ر سكتا كالحية الصماء
فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى سعد بن عبادة فزع اللواء من يده وجعله	

(١) التقت حلقتا البطان مثل فى بلوغ الأمر . والبطان : حزام يجعل تحت بطن
البعير . والصيلم : الداهية الشديد .

(٢) النسر والعواء : كوكبان .

(٣) الفقمة : ضرب من الكمأة وهى البيضاء الرخوة يشبه بها الرجل الذليل .

بيد قيس ابنه ، ورأى رسول الله ﷺ — أن اللواء لم يخرج عنه إذ صار إلى ابنه .

ووقف خالد بن الوليد والذين معه حيث غرز رايته وراح يدعو صفوان وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل ومن معهم من قريش إلى الإسلام ، فكان ردهم أن رموا المسلمين بالنبل . وكف خالد ما استطاع ولكن صفوان والذين معه شرعوا أسلحتهم للقتال ومشوا إلى المسلمين مشى الوعول ، فلم يجد خالد بدأ من أن يقاتل من قاتلوه فأعمل فيهم السيف فقتل منهم أناسا ، واستمر يدفعهم إلى أن وصل الجزيرة إلى باب المسجد ، وصعدت طائفة منهم الجبل فتبعهم المسلمون . فرأى — ﷺ — وهو على العقبة بارقة السيوف فقال :

— ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟

ف قيل له :

— لعل خالدًا قوتل وبدىء في القتال فلم يكن له بد من أن يقاتل من قاتله ، وما كان يا رسول الله ليخالف أمرك .

وقتل خالد من المشركين أربعة وعشرين من قريش وأربعة من هذيل ، وبعث رسول الله ﷺ — إلى خالد وقال له :

— لم قاتلت وقد نهيت عن القتال ؟

— هم يا رسول الله بدءونا بالقتال ورمونا بالنبل ووضعوا السلاح ، وقد كفت ما استطعت ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا ، حتى إذا لم أجد بدأ من أن أقاتلهم فظفرنا بهم فهربوا من كل وجه .

وفر حماس بن قيس بن خالد أخو بكر يترقب من الخوف بعد أن شهد يوم الخندمة ورأى سيوف المسلمين تحصد الرجال ، واستمر يعدو مبهور الأنفاس

حتى دخل على امرأته وقال وهو يرتجف من الرعب :
— أغلقى على بابى .

وتذكرت زوجه قوله :

إن يقبلوا اليوم فما عليه هذا سلاح كامل وآلة^(١)
وذو غرارين^(٢) سريع السلّة

فقلت فى هزء :

— فأين الذى كنت تقول ؟ أين الخادم الذى وعدتنى ؟
فقل :

إنك لو شهدت يوم الخدمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالوتمة واستقبلتنا بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ضربا فلا تسمع إلا غمغمة
لهم نهيت^(٣) خلفنا وهممة لا تنطقى فى اللوم أدنى كلمة
وهرب هبيرة بن أبى وهب زوج أم هانىء بنت أبى طالب أخت على لأبويه
إلى نجران ، وقال معتذرا عن فراره :

لعمرك ما وليت ظهري محمدا وأصحابه جبنا ولا خيفة القتل
ولكننى قلبت أمرى فلم أجند لسيفى غناء إن ضربت ولا نبلى
وقفت فلما خفت ضيعة موقفى رجعت لعود كالهزبر إلى الشبل

(١) الآله : جمع أداة الحرب .

(٢) الغرار : حد الرمح .

(٣) النهيت : زئير الأسد .

دخل — ﷺ — مكة وهو راكب على ناقته القصواء مردفا أسامة بن زيد
 بكرة يوم الجمعة ، وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه بغير
 إحرام ، ولواؤه أبيض ورايته العقاب سوداء قد شهدت خيبر والفتح . ودخل
 عليه السلام من كداء واضعا رأسه على رحله تواضعا لله ثم قال :
 — اللهم إن العيش عيش الآخرة .

وتقدم المهاجرون والأنصار : وكان شعار المهاجرين يا بنى عبد الرحمن ،
 وشعار الخزرج يا بنى عبد الله . وشعار الأوس يا بنى عبيد الله ، ولم يكن قتال
 فكان شعارهم الذى يعرف به بعضهم بعضا فى ظلمة الليل . حتى إذا ما بلغ
 الحجون موضع ما غرز الزبير رايته عند شعب أبى طالب طافت برأسه عليه
 السلام ذكريات : رأى أيام الشدة ، أيام أن حصرت قريش فى الشعب بنى
 هاشم وبنى المطلب وتعاهدت قريش على أن لا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم ولا
 يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، ووقف فحمد الله
 وأثنى عليه ونظر إلى موضع قبته والتفت إلى جابر وقال :
 — هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسم قريش علينا .

فذكر جابر حديث المقاطعة وكان سمعه منه — ﷺ — قبل ذلك
 بالمدينة ، ونزل عليه السلام فى قبة من آدم ضربت له هناك ومعه فيها أم سلمة
 وميمونة زوجته — ﷺ — وما كاد يستقر حتى تذكر حديث أسامة بن
 زيد :

— يا رسول الله أين تنزل ؟ غدا تنزل في دارك .

— وهل ترك لنا عقيل من دار ؟

ثم سار — ﷺ — وإلى جانبه أبو بكر رضى الله عنه يحادثه ويقرأ سورة الفتح حتى جاء البيت وطاف به سبعا على راحلته ، وعمر بن مسلمة أخذ بزمامها ليستلم الحجر بمحجن في يده ، وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنما لكل حي من أحياء العرب صنم قد شدت أقدامها بالرصاص ، فجاء رسول الله — ﷺ — معه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم منها فيخر لوجهه وهو يقول :

— جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

وبقى هبل في جوف الكعبة وقد أرخى الليل سدوله ، فقال — ﷺ — لعل كرم الله وجهه :

— اصعد على منكبي واهدم الصنم .

— يا رسول الله بل اصعد أنت فأني أكرمك أن أعلوك .

— فاصعد أنت .

فجلس النبي — ﷺ — فصعد على كرم الله وجهه على كاهله ثم نهض به ، فخيل لعل حين نهض به أنه لو شاء لنال أفق السماء ، فصعد فوق ظهر الكعبة وتنحى رسول الله — ﷺ — وراح على يعالج الصنم حتى تمكن من رفعه فألقاه على الأرض وأبو سفيان ينظر ورسول الله يقول :

— جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

فالتفت الزبير بن العوام إلى أبي سفيان وقال :

— قد كسر هبل ، أما إنك قد كنت في يوم أحد في غرور حين تزعم أنه

قد أنعم .

فقال أبو سفيان :

— دعنى ولا توبخنى ، لو كان مع إله محمد إله آخر لكان الأمر غير ذلك .
وانطلق المسلمون يدفون إلى الكعبة دفيف النسور ويحنون إليها حنين الطير
إلى بيضها لهم عجيج^(١) منطلق من أفئدة عامرة بأنوار اليقين ، على الشفاه
تسبيح وفي المأقى الدموع ، وعمر بن الخطاب مستبشر بالفتح يعكر صفاءه
ذكريات يوم الحديبية ، يلوم نفسه على تلك الثورة العارمة التى ثارها لما وقع
الصلح ، فما استطاع أن يرى أن ذلك الصلح هو النصر والفتح المبين .
وراح يقرأ سورة الفتح وقد سجدت كل مشاعره لله ، وراح يدعو الله أن
يغفر له ما كان منه وينذر الصوم وفك الرقاب لعل ذلك يكون كفارة عما بدر
منه فى ذلك اليوم الشديد .

وأرسل عليه الصلاة والسلام بلالاً إلى عثمان بن أبى طلحة يأتى بفتح
الكعبة ، فجاء إلى عثمان فأخبره فقال :
— إنه عند أُمى .

فرجع بلال إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره أن المفتاح عند أمه ، فبعث
إليها رسولاً فقالت :

— لا واللات والعزى لا أدفعه أبدا .

فقال عثمان :

— يا رسول الله أرسلنى أخلصه لك منها .

فأرسله فجاء إليها فطلبه منها فقالت :

(١) العجيج : الصراخ .

— لا واللات والعزى لا أوصله إليك أبدا :
— يا أمه ادفعيه إليّ فإنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه إن لم تفعل قُلت أنا
وأخى ويأخذه منك غيرى .
فأدخلته حجرها وقالت :

— أى رجل يدخل يده ههنا ؟ أنشدك الله أن يكون ذهاب بائرة قومك
على يدك .

كان رسول الله ﷺ قائما ينتظر حتى إنه ليتحدر منه كالجمان من
العرق ، فلما رأى أبو بكر وعمر ذلك انطلقا إلى دارها ، فبينا عثمان بن أبى
طلحة يحاور أمه إذ سمعت صوت أبى بكر وعمر فى الدار ، وعمر رافعا صوته
وهو يقول :

— يا عثمان اخرج .

ف قالت :

— يا بنى خذ المفتاح فأن تأخذه أحب إليّ من أن تأخذه تيم وعدى .
فأخذه عثمان وخرج يمشى حتى إذا كان قريبا من وجه رسول الله ﷺ
فاستقبله عثمان ببشر واستقبله عليه السلام ببشر فأخذ منه المفتاح ،
فلما أخذه قال :

— ادعوا إليّ عمر .

فجاء فقال له — ﷺ — ومفتاح الكعبة فى يده :

— هذا الذى قلت لكم .

ودخل — ﷺ — هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة ، وكان
خالد بن الوليد يذب الناس وهو واقف على باب الكعبة ، وأمر عليه السلام
بلال بن رباح أن يؤذن فأذن وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث

ابن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد :
— أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه .

فقال الحارث :

— أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته .

فقال أبو سفيان :

— لا أقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى .

ورأى عليه السلام فى الكعبة صور الملائكة وصور إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما
الأزلام يستقسمان . وصور الأنبياء وصور مريم فقال :

— قاتل الله قوما يصورون ما لا يخلقون .

وأمر عليه السلام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان أن يقدموا إلى البيت
ليمحوا كل صورة فيه ، ومحيت الصور وبقيت صورة إبراهيم ، فقال عليه
السلام لعمر :

— يا عمر ألم أمرك ألا تترك فيها صورة ؟ قاتلهم الله حيث جعلوه شيئا
يستقسم بالأزلام . « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا
مسلمًا وما كان من المشركين » (١) .

ودعا — ﷺ — بدلو ماء فأتاه به أسامة بن زيد فجعل — ﷺ —
يمحوها ، ووجد حمامة من عيدان فكسرها بيده وطرحها ، وكبر فى نواحي
البيت وصلى به ركعتين بين العمودين اليمنيين وبينه وبين الجدار ثلاثة أذرع .
وفتح باب الكعبة وكان أول من ولج ابن عمر فتبّع خطوات الرسول ،
فلقى بلالا فسأله :

(١) آل عمران ٦٧ .

— هل صلى فيه رسول الله ﷺ ؟

— نعم .

فذهب ابن عمر ليصلي حيث صلى رسول الله ﷺ .

ووقف — صلوات الله وسلامه عليه — على باب الكعبة فقال :

— لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم
الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا
سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه
الدية مغلظة مائة من الأبل ، أربعون منها في بطونها أولادها .

— يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء .

الناس من آدم وآدم من تراب .

ثم تلا قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا
وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ أَنْ اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » (١) .

ووضع — ﷺ — يده على عضادتي الباب ثم قال :

— ماذا تقولون وماذا تظنون أني فاعل فيكم ؟

— خيرا .

فقال أحدهم :

— نقول خيرا ونظن خيرا . أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت .

— أقول كما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو

أرحم الراحمين . اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وتهللوا بالسرور لكأنما نشروا من القبور ، ثم جاء — ﷺ — إلى مقام إبراهيم وكان لاصقا بالكعبة فصلى ركعتين ، ثم أخره حتى لا يعوق الطائفين ، ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال :

— لولا أن تغلب بنو عبد المطلب على وظيفتهم لنزعت منها دلو .

كانت السقاية في بني عبد المطلب وكان عليها العباس ، فخشى عليه السلام أن ينزع منها دلو فيقتدى الناس به ويغلبون بني عبد المطلب على وظيفتهم ، وانتزع له العباس دلو فشرب منه وتوضأ فابتدر المسلمون يصبون على وجوههم .

وجلس رسول الله — ﷺ — في المسجد والناس حوله ، فقام إليه على ابن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال :

— يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية .

فقال عليه السلام :

— أين عثمان بن أبي طلحة ؟

فدعى له فقال :

— هاك مفتاحك يا عثمان . اليوم يوم بر ووفاء .

ودفع إليه رسول الله — ﷺ — المفتاح وهو يقول :

— خذوها يا بني أبي طلحة تالده خالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم .

ودفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب .

وأقى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه رسول الله — ﷺ — قال :

— هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه ؟

قال أبو بكر :

— يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت .

فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ثم قال له :
— أسلم .

فأسلم ، وهنأ رسول الله — ﷺ — أبا بكر بإسلام أبيه ، وعند ذلك
قال أبو بكر للنبي — ﷺ :
—

والذى بعثك بالحق لإسلام أبى طالب كان أقر لعينى من إسلامه ، وذلك
لأن إسلام أبى طالب كان أقر لعينك .

ثم أتى رسول الله — ﷺ — الصفا فعلاه حيث ينظر إلى البيت ، ورفع
يديه ، فجعل يذكر الله بما يشاء أن يذكره ويدعوه والأنصار تحته ، قال
بعضهم لبعض :

— أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته .

فنزل الوحي عليه — صلوات الله وسلامه عليه — بما ذكر القوم ، فلما
قضى الوحي رفع رأسه وقال :

— يا معشر الأنصار قلتم : أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة
بعشيرته .

— قلنا ذلك يا رسول الله .

— فما أسمى إذا إن فعلت ذلك ؟ كيف أسمى وأوصف بأنى عبد الله
ورسوله ؟ لا أفعل ذلك . إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم فالحيا
محياكم والممات مماتكم .

فأقبلوا إليه ييكون ويقولون :

— والله ما قلنا الذى قلنا إلا الضن بالله ورسوله .

لجأ عبد الله بن أبي سريخ إلى عثمان بن عفان أخيه في الرضاعة فقال :
 — يا أخى استأمن لى رسول الله — ﷺ — قبل أن يضرب عنقى .
 فغيبه عثمان وأطرق عبد الله يذكر ما كان ، إنه كان قد أسلم وكان يكتب
 لرسول الله — ﷺ — الوحي ، وكان — ﷺ — إذا أُملي عليه سميعا بصيرا
 كتب عليهما حكيمًا ، وإذا أُملي عليه عليهما حكيمًا كتب غفورا رحيمًا .
 إنه لما كتب « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في
 قرار مكين ، ثم خلقنا النطفةعلقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما
 فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر » (١) . تعجب من تفصيل خلق
 الإنسان فنطق بقوله فتبارك الله أحسن الخالقين قبل إملائه ، فقال — ﷺ :
 — اكتب ذلك هكذا أنزلت .

فاستولى عليه الغرور ولعب به الشيطان فقال :
 — إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبي يوحى إلي .
 فارتد ولحق بمكة فقال لقريش :
 — إني كنت أصرف محمدا كيف شئت ، كان يملئ عني عزيز حكيم
 فأقول : أو علم حكيم فيقول نعم ، كل صواب . وكل ما أقول يقول :
 اكتب هكذا نزلت .

(١) المؤمنون ١٢ — ١٤ .

إن رسول الله ﷺ — أهدر دمه ولطالما افتري عليه ، وقال ليرضى قريشا إن محمدا لا يعلم ما يقول . إنه خان الأمانة وظهرت خيانتته فلم يستطع أن يقيم في المدينة ولم يكتف بالردة والهروب بل أطلق لسانه كذبا لينال الحظوة عند أناس باعوا آخرتهم بدنياهم ، إن ذنبه عظيم ولكنه يعلم أن عفو رسول الله ﷺ — أعظم . فلما هدأ الناس واطمأنوا خرج عثمان بن عفان ذو النورين إلى رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — فاستأمن له وكان عليه السلام يستحي من عثمان ، فعاد عثمان إلى حيث كان عبد الله بن أبي سرح فألقى به إلى النبي ﷺ — فأعرض عنه صلوات الله وسلامه عليه فصار عثمان يقول :

— يا رسول الله أمته .

والنبي ﷺ — يعرض عنه ، وعباد بن بشر عنده وكان نذرا إن رأى عبد الله قتله وقد أخذ بقائم السيف ينتظر النبي يشير إليه أن يقتله . فلما لم يفعل قال عليه السلام :

— نعم .

فبسط يده فبايعه ، فلما خرج عثمان وعبد الله قال ﷺ — لمن حوله : — أعرضت عنه مرارا ليقوم عليه بعضكم فيضرب عنقه .

وقال لعباد بن بشر :

— انتظرت أن تفي بنذرك .

— يا رسول الله خفتك ، أفلا أومضت إلي ؟

— إنه ليس لنبي أن يومض .

وصار عبد الله بن أبي سرح يستحي من مقابلته — ﷺ — فقال عليه

السلام لعثمان بن عفان :

— أما بايعته وأمته ؟

— بلى ، ولكن يذكر جرمه القديم فيستحي منك .

— الإسلام يجب ما قبله .

وأخبره عثمان بذلك فصار إذا جاء جماعة للنبي ﷺ — يجيء معهم ولا يجيء إليه منفردا .

وكان ابن خطل ينطلق مرعوبا إلى الكعبة ليلوذ بها . إنه علم أن رسول الله ﷺ — قد أهدر دمه . إنه وهو على ظهر فرسه يذكر في وضوح كل ما اقترفه من ذنوب ، فالموت أدنى إليه من شرك نعله . إنه كان قد أسلم وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله ﷺ — عبد الله ، وبعثه رسول الله ﷺ — عليه صلوات الله وسلامه — لأخذ الصدقة وأرسل معه رجلا من الأنصار يخدمه ، فنزل منزلا وأمره أن يذبح له تيسا ويصنع له طعاما ، ونام ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئا وهو نائم فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركا ، وكان شاعرا يهجو رسول الله ﷺ — في شعره وكانت له قيتان تغنيانه بهجاء رسول الله ﷺ — الذى يصنعه .

إنه ركب فرسه وقد لبس الحديد وأخذ بيده قناة وصار يقسم :

— لا يدخلها محمد عنوة .

فلما رأى خيل الله دخله الرعب فانطلق إلى الكعبة فنزل عن فرسه وألقى سلاحه ودخل تحت أstarها ، فأخذ رجل سلاحه وركب فرسه ولحق برسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — بالحجون فأخبره خبره ، فقال عليه السلام :

— اقتلوه فإن الكعبة لا تعيد عاصيا ولا تمنع من إقامة حد واجب .

فاهتبره بأسيافهم سعد بن حريث وأبو برزة والزبير وسعد بن ذؤيب .

وأمر — ﷺ — بقتل قينتيه . فقتلت إحداهما واستؤمن من رسول الله — ﷺ — للأخرى فأمنها وأسلمت .

وخرج الحويرث بن نفيد هائما على وجهه لا يلوى على شيء . إنه كان يؤذى رسول الله — ﷺ — بمكة ويعظم القول في أذيته وينشد الهجاء . وكان العباس عم النبي — ﷺ — حمل فاطمة وأم كلثوم بنتي رسول الله عليه السلام من مكة يريد بهما المدينة فنخس الحويرث البعير الجامل لهما فرمى بهما الأرض .

إنه في فزع حتى الموت . فعلى بن أبي طالب في أثره يطلبه بعد أن أهدر دمه رسول الله — صلوات الله عليه . واستمر الحويرث يعدو حتى أحس أن السماء والأرض أطبقتا عليه ، إنه يترقب في رعب مبهور الأنفاس فعلى قد لحق به ولم يعد بينهما إلا خطوات ، وضربه على ضربة كانت وترا فتركه جثة بلا حراك .

وكان مقيس بن ضبابة في جماعة من قريش يشرب خمرًا دون أن يدرى أن رسول الله — ﷺ — أمر بقتله ، إنه كان قد أتى النبي — ﷺ — مسلما طالبا لدية أخيه هشام بن ضبابة قتله رجل من الأنصار في غزوة ذي قرد خطأ يظنه من العدو . ودفع له النبي — ﷺ — دية أخيه ، ثم إنه عدا على الأنصارى قاتل أخيه فقتله بعد أخذ دية أخيه ، ثم لحق بمكة مرتدا .

وأخبر ابن عمه نميلة بن عبد الله الليثي أن مقيسا مع جماعة من كبار قريش يشربون الخمر ، فذهب إليه فقتله وهو قرير العين ، فلو أن غيره من المهاجرين أو الأنصار كان قد قتله فقد كان ذلك يوغر صدره على صحابي من أصحاب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

وأطلق هبار بن الأسود ساقيه للريح . كان عرض لزينب بنت رسول

الله — ﷺ — في سفهاء من قريش حين بعث بها زوجها أبو العاص إلى المدينة . فأهوى إليها هبار ونخس بغيرها وضربها بالرمح فسقطت من على الجمل على صخرة وكانت حاملا ، فألقت ما في بطنها وأهراقت الدماء ولم تنزل تعاني من ذلك المرض .

إن رسول الله — ﷺ — قال لجماعة فيهم أبو هريرة :
— إن لقيتم هبارا فأحرقوه .

ثم قال :

— إنما يعذب بالنار رب النار . إن ظفرتم به فاقطعوا يده ورجله ثم اقتلوه .

وخرجوا يطلبونه ولكنهم لم يجدوه فقد هرب من رسول الله — ﷺ — في البلاد .

وفر عكرمة بن أبي جهل إلى اليمن لما أمر رسول الله — ﷺ — بقتله . إنه كان أشد الناس هو وأبوه أذية للنبي — ﷺ — فلما أسلمت امرأته بنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام خرجت في أثره فوجدته في ساحل البحر يريد أن يركب السفينة ، فقالت له :

— يا بن عم جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس . لا تهلك نفسك فقد استأمنت لك .

فجاء معها حتى إذا ما رآه رسول الله — ﷺ — وثب إليه قائما فرحا به ، فقد تذكر عليه السلام أنه رأى في منامه أنه دخل الجنة ورأى فيها عذقا فأعجبه وقال : لمن هذا ؟ فقيل لأبي جهل ، فشق ذلك عليه — ﷺ — وقال : لا يدخلها إلا نفس مؤمنة . فلما جاءه عكرمة بن أبي جهل مسلما فرح به وأول ذلك العذق لعكرمة .

وتقدم عكرمة من رسول الله — ﷺ — على استحياء ، ثم التفت إلى
زوجه وقال :

— يا محمد هذه أخبرتنى أنك أمنتني .

— صدقت ، إنك آمن .

فقال عكرمة في انفعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنت عبده ورسوله .

وطأ طأ رأسه من الحياء ، فقال له — ﷺ :

— يا عكرمة ما تسألني شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتكه .

— استغفر لي كل عداوة عاديتكها .

— اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو منطلق تكلم به .

ولما نزل رسول الله — ﷺ — بأعلى مكة فر إلى أم هانئ أخت علي بن

أبي طالب الحارث بن هشام وزهير بن أمية فاستجارا بها فأجارتهما ، فدخل

عليها أخوها عليّ كرم الله وجهه وأراد قتلهما . قال :

— والله لأقتلنهما .

— قد أجرتهما .

— تحيرين المشركين !

وحالت بينه وبينهما فخرج فأغلقت عليهما بيتها فقد كانا من أقارب

زوجها هبيرة بن أبي وهب ، ثم جاءت النبي — ﷺ — بأعلى مكة فوجدت

الفاتح العظيم يغتسل من جفنة فيها أثر العجين وفاطمة ابنته تستره بثوب ،

فسلمت عليه فقال :

— من هذه ؟

— أم هانئ .

وكانت أم هانئ لم تسلم بعد فقال :

— مرحبا بأم هانئ .

فلما اغتسل أخذ ثوبه وتوشح به ثم صلى ثمان ركعات من الضحى ، ثم أقبل على أم هانئ فقال :

— ما جاء بك ؟

— فر إلى الحارث بن هشام وزهير بن أمية مستجيرين بي فأجرتهما .

فقال عليه السلام وهو بادی البشر :

— أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت فلا نقتلهما .

ولما ذكر ذلك لابن عباس قال :

— إني كنت أمر على هذه الآية : « يسبحن بالعشى والإشراق » (١)

فأقول : صلاة ، صلاة الإشراق ، فما عرفت صلاة الإشراق إلا الساعة .

وأسلمت أم هانئ وانطلق عليه السلام إلى بيتها فقال لها :

— هل عندك من طعام نأكله ؟

ف قالت في استحياء :

— ليس عندي إلا كسر يابسة وأنا أستحي أن أقدمها إليك .

— هلمى بهن .

فكسرن في ماء وجاءت بملح فقال :

— هل من آدم ؟

— ما عندي يا رسول الله إلا شيء من نخل .

— هلميه .

فصبه القائد المظفر والفاتح العظيم على الكسر وأكل منه ثم حمد الله ، ولا جرم فهو خير البشر ، أسوة الإنسانية الحسنة ، رسول رب العالمين .

— وخرج رسول الله ﷺ ، إلى المسجد ، فجاءه عمير بن وهب فقال :
— يا نبي الله صفوان سيد قومي قد هرب ليقذف نفسه في البحر فأمنه ،
فإنك أمنت الأحمر والأسود .

— دونك ابن عمك فهو آمن .

— أعطني آية يعرف بها أمانك .

فأعطى — ﷺ — لعمير عمامته التي دخل بها مكة ، فأطلق عمير على ظهر راحلته يغذ السير إلى مرفأ مكة فلحقه وهو يريد أن يركب البحر ، فلما رآه صفوان بن أمية قال له :

— اغرب عني ، لا تكلمني .

— أي صفوان فذاك أي وأمي ، جئتك من عند أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس وابن عمك ، عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك .

— إني أخاف على نفسي .

— هو أحلم من ذلك وأكرم .

فرجع معه حتى وقف على رسول الله — ﷺ — وقال :

— إن هذا يزعم أنك أمتني .

— صدق .

— يا رسول الله أمهلني بالخيار شهرين .

إن الله يقول : « لا إكراه في الدين »^(١) . وإن رسول الله — ﷺ —

لأحق الناس باتباع أوامر ربه فقال :
— أنت بالخيار أربعة أشهر .

وكانت الصحابة أحرص شيء على قتل وحشى ، فإنهم ليزكرون قول
رسول الله — ﷺ — يوم أحد لما وقف على جثة حمزة : ما وقفت موقفا
أغبط لى من هذا . فراحوا يقتفون أثر وحشى ولكنه تمكن من الفرار إلى
الطائف .

وجلس رسول الله — ﷺ — على الصفا يبائع الناس . فجاء الكبار
والصغار والرجال والنساء يبائعهم على الإسلام ، وذكرىات أيام الإسلام
الأولى تطوف بالأذهان . كان بيت الأرقم قائما على الصفا وكان الذين
يرغبون فى الإسلام ينسلون إلى ذلك البيت ليقابلوا رسول الله — ﷺ —
مستخفين من أعين الناس خشية بطش سادات قريش ، فأين الأمس من
اليوم ؟ فمن بقى حيا من أشراف قريش أعلن إسلامه أو جاء يلتمس الأمان .
وتحركت الألسن بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ودخل
الناس فى دين الله أفواجا . وجاء — ﷺ — رجل فأخذته الرعدة ، فقال
له — ﷺ :

— هون عليك فإنى لست بملك . إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل
القديد .

وتقدم معاوية بن أبى سفيان ليبيع نبي الإسلام عليه السلام ، فقد وقع
الإسلام فى قلبه لما كان عام الحديبية فذكر ذلك لأمه هند بنت عتبة ، فقالت
له :

— إياك أن تخالف أباك فيقطع عنك القوت .
لم يكن أول من تفتح قلبه للإسلام فى بيت أبى سفيان ، قام حبيبة قد سبقته

وأعلنت إسلامها وأكرمها الله فصارت أما للمؤمنين ، فأسلم وأخفى إسلامه فقال له يوما أبو سفيان وكأنه شعر بإسلامه : أخوك خير منك ، هو على ديني .

ولما كان يوم الفتح أظهر إسلامه ولقى رسول الله ﷺ — فرحب به ، وجاء عبد الله بن الزبيري وكان ممن يؤذى رسول الله ﷺ — أشد الأذية ، فأسلم واعتذر إلى رسول الله ﷺ — فقبل عذره ، وكان شاعرا مجيدا فقال يمدح رسول الله ﷺ — :

منع الرقباد بلابل وهموم	والليل معتلج الرواق بهيم (١)
مما أتاني أن أحمد لامنـي	فيه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت على أوصالها	عيرانه سرح اليدين غشوم (٢)
إني لمعتذر إليك من الذي	أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرى بأغوى خطـة	سهم وتأمـرنى بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودنى	أمر الغواة . وأمرهم مشـوم
فاليوم آمن بالنبي محمد	قلبي ومخطيء هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها	ودعت أواصر (٣) بيننا وحلوم (٤)
فاغفر فدى لك والداى كلاهما	وارحم فإنك راحم مرحوم
وعليك من سمة المليك علامة	نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه	شرفا وبرهان إله عظيم

(١) معتلج الرواق بهيم : شديد الظلام أسود .

(٢) العيرانة من الإبل : الشديدة النشطة . سرح اليدين : سويتهما . غشوم : لا يشيها عن مرادها شيء .

(٣) الأواصر : الصلات .

(٤) الحلوم : العقول .

فرغ رسول الله ﷺ — من بيعة الرجال فراح يبايع النساء ، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة خوفا من رسول الله ﷺ . فلما دнин من رسول الله ﷺ — قال هن :

— بايعننى على أن لا تشركن بالله شيئا ولا تسرقن .

فقال هند بنت عتبة :

— والله أن كنت أصيب من مال أبى سفيان الهنة^(١) بعد الهنة وما كنت أدري أكان ذلك حلالا أم لا .

فقال أبو سفيان وكان حاضرا :

— أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل ، عفا الله عنك .

فضحك النبى وعرفها فقال لها :

— وإنك لهند بنت عتبة .

— نعم فاعف عما سلف ، عفا الله عنك يا نبى الله .

ثم كشفت عن نقابها فقال عليه السلام :

— مرحبا بك .

ثم راح عليه السلام يقول :

— ولا تزنين .

(١) الهنة : الشيء اليسير .

فقلت هند :

— أوتزنى الحرة يا رسول الله ؟

— ولا تقتلن أولادكن .

قلت هند :

— ريبيهاهم صغاراً وفتنتهم كباراً !

فضحك عمر وتبسم — ﷺ — ثم قال :

— ولا تأتين بهتان^(١) تفترينه .

قلت هند :

— والله إن إتيان البهتان لقبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

— ولا تعصيننى فى معروف .

فقلت هند :

— والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى معروف .

وقالت بعض النسوة :

— ما هذا المعروف الذى لا ينبغى أن نعصيك فيه ؟

— لا تنحن ولا تخمشن وجها ولا تنشدن شعرا ولا تحلقن شعرا ولا تحرقن قرنا

ولا تشققن جيبا^(٢) ولا تدعين بالويل .

وفرغ رسول الله — ﷺ — من بيعة النساء ولم يصفحن بل غمس يده فى إناء

وأمرهن فغمسن أيديهن ، فكانت هذه البيعة .

وراح — ﷺ — ينظر إلى مكة وهو متفرح فى الله ثم قال :

— هذا ما وعدنى ربي .

(١) البهتان : الباطل .

(٢) الجيب : فتحة الصدر من القميص

ثم قرأ : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ (١) .

وعاد رسول الله ﷺ — إلى قبه وجلس بين نسائه أم سلمة وميمونة ونساء من بنى عبد المطلب ، فإذا بمولاة هند بنت عتبة تستأذن فأذن لها ، فدخلت عليه — ﷺ — بهدية هي جديان مشويان فقالت له :
— إن مولاتي تعتذر إليك وتقول إن غنمها اليوم لقليل الوالدة .
— اللهم بارك لكم في غنمكم وأكثر والدتها .

وجاءت إليه هند بنت عتبة عدوة الأمس القريب من شرحة الصدر تستفتيه ، قالت :

— يا رسول الله إن أبا سفيان رجل ممسك . فهل علي من حرج أن أطعم من الذي له عيالنا ؟

— لا عليك أن تطعمهم بالمعروف .

وسار الحارث بن هشام في مكة — بعد أن أجارته أم هانيء وأجاز رسول الله جوارها — يتلفت ، إنه يخشى بطش عمر بن الخطاب . وبلغ المسجد فجلس به وإذا به يرى عمر مقبلا فيخفق قلبه ويرتجف من الرأس إلى القدم . ولكن عمر يمر عليه وهو جالس فلا يتعرض له فيستشعر راحة . ثم ينهض ويسير بين المسلمين وهو آمن بأمان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — .

وطافت بذهنه مواقفه في كل موطن مع المشركين فإذا بخجل يغمره . إنه آذى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أشد الأذى وقد صفح عنه الصفح الكريم وأجاره لأن أم هانيء قد أجارته . إنه لعلی خلق عظيم . وأثرت

فى نفس الحارث مكارم أخلاق نبي الإسلام عليه السلام فإذا به يبرأ من أمراض قلبه ، وإذا بأنوار تشرق فى وجدانه ، وإذا به ينطلق فى الحرم كالمسحور . ولقيه وهو داخل المسجد ، فلقية صلوات الله وسلامه عليه بالبشر ، فوقف عليه السلام حتى جاءه فسلم عليه فأحس الحارث روحه تهفو إلى الرسول — ﷺ — وقلبه يمتلى بأنوار اليقين ، فينطق لسانه بشهادة الحق وفى الصدر انشراح وفى عينيه دموع ، فقال له عليه السلام :

— الحمد لله الذى هداك . ما كان مثلك يجهل الإسلام .

والتقى حسان بن ثابت بالحارث بن هشام فإذا بالذكريات تطوف برأسيهما . إن الحارث بن هشام قد فر يوم بدر عن أخيه أبى جهل فغيره حسان بفراره ، فاعتذر الحارث بن هشام عن ذلك بقوله :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا مهرى بأشقر مزبد^(١)
وعلمت أنى إن أقاتل واحدا أقتل ولا يضرر عدوى مشهدى
فصدفت عنهم والأحبة فيهم طمعا لهم بعقاب يوم مرصد
حسن الحارث الفرار يوم بدر وزعم أنه أعرض عنهم لطمعه فى أن يعقب الله
له يوما يرصد الشر لهم ويمكنه منهم ، وما دار بخلده أن الله أبقاه ليخرج ذات
يوم فى زمن عمر إلى الشام من مكة بأهله وماله مجاهدا ، وأن أهل مكة
سيتبعونه ييكون فيرق ويكى ويقول :

— أما لو كنا نستبدل دارا بدارنا أو جارا بجارنا ما رأينا بكم بدلا ، وإنها
النقلة إلى الله .

(١) يريد بالأشقر الدم والمزبد الذى علاه الزبد

وما خطر له على قلب أنه سيموت شهيدا يوم اليرموك ليحيى عند ربه في عليين .

وجاء النبي ﷺ — عبد الله بن السائب بن أبي السائب ، وكان شريكا له في الجاهلية ، فقال له :
— مرحبا بأخي وشريكي .

فأخذ عثمان وغيره يشنون عليه ، فقال لهم — صلوات الله وسلامه عليه — :

— لا تعلموني به كان صاحبي ، كان لا يدارى ولا يمارى .
والتفت إليه — صلوات الله وسلامه عليه — وقال :
— قد كنت تعمل أعمالا في الجاهلية لا تقبل منك ، وهى اليوم تقبل منك .

وكان سهيل بن عمرو قد اختبأ مع المختبئين فراسل وليده عبد الله ليأخذ أمانا منه — ﷺ — فقال :
— يا رسول الله أى تؤمنه .

— نعم ، فهو آمن بالله فليظهر .
ثم قال رسول الله — ﷺ — لمن حوله :
— من لقي سهيل بن عمرو فلا يحد إليه النظر ، فلعمري إن سهيلا له عقل وشرف وما مثل سهيل يجهل الإسلام .

فخرج ابنه عبد الله إليه فأخبره بمقالة رسول الله — ﷺ — فقال سهيل :
— كان والله برا صغيرا برا كبيرا .

فراح سهيل بن عمرو يقبل ويدبر دون أن يتعرض له أحد أن لم يدخل الإسلام ، فمقاتته — ﷺ — الحميدة حبت فيه أعداء الأمس حتى الذين

لم يؤمنوا بدينه ، وشرحت بشاشته صدور الذين في قلوبهم مرض للإسلام ،
فقد حدث فضالة بن عمير بن الملوح نفسه بقتل النبي — ﷺ — وهو
يطوف بالبيت ، فلما دنا منه رسول الله ﷺ — قال :
— يا فضالة .

— نعم يا رسول الله .

— ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

— لا شيء . كنت أذكر الله .

فضحك النبي ثم استغفر له ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فوالله
ما رفع يده عن صدره حتى ما خلق الله شيئا أحب إليه منه .
وقد هم حويطب بن عبد العزى العامري بالإسلام أكثر من مرة ، كل
ذلك يعوقه الحكم وينهاه ويقول له :

— تضع شرفك وتدع دين آبائك لدين محدث وتصير تابعا ؟

وما بقى من قريش أحد من كبرائها الذين بقوا على دين قومهم كان أكره
لما هو عليه منه ، فأقام بمكة وقريش تسلم رجلا رجلا . فلما كان يوم الحديبية
حضر وشهد الصلح ومشى فيه حتى تم وكل ذلك يريد الإسلام ويأبى الله عز
وجل إلا ما يريد .

فلما كتب الصلح كان أحد شهوده وقال :

— لا ترى قريش من محمد — ﷺ — إلا ما يسوؤها .

ودخل رسول الله — ﷺ — مكة ، فخاف حويطب على نفسه خوفا

شديدا فخرج من بيته وفرق عياله في مواضع يأمنون فيها ، ثم انتهى إلى بستان
عوف وكان فيه فإذا به يجد أبا ذر الغفاري وجها لوجه وكانت بينه وبينه
خلة ، والخلة أبدا نافعة . فلما رآه هرب منه فقال أبو ذر :

— أبا محمد .

— ليك .

— مالك ؟

— الخوف .

— لا خوف عليك . تعال أنت آمن بأمان الله جل وعز .

فرجع إليه وسلم عليه ، فقال أبو ذر :

— اذهب إلى منزلك .

— هل لي سبيل إلى منزلي ؟ والله ما أراي أصل إلى بيتي حيا حتى ألقى

فأقتل أو يدخل علي منزلي فأقتل وإن عيالي لفي مواضع شتى .

— فاجمع عيالك في موضع وأنا أبلغ معك منزلك .

فبلغ معه وجعل ينادي على بابه :

— إن حويطب آمن فلا يهيج .

وانصرف أبو ذر إلى رسول الله ﷺ — فأخبره ، فقال عليه السلام :

— أوليس قد أمانا الناس كلهم إلا من أمرت بقتله ؟

فاطمأن حويطب ورد عياله إلى مواضعهم ، وعاد إليه أبو ذر فقال :

— يا أبا محمد ، حتى متى وإلى متى ؟ قد سبقت في المواضع كلها وفاتك

خير كثير ويبقى خير كثير . فأت رسول الله فأسلم تسلم . رسول الله أبر

الناس وأحلم الناس وأوصل الناس ، شرفه شرفك وعزه عزك .

— فأنا أخرج معك فأتيه .

فخرج مع أبي ذر حتى أتى رسول الله ﷺ — بالبطحاء وعنده أبو

بكر وعمر ، فوقف على رأسه وسأل أبا ذر :

— كيف يقال إذا سلم عليه ؟

— قل : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله .

فقالها ، فقال عليه السلام :

— وعليك السلام . أحويطب ؟

— أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— الحمد لله الذي هداك .

وسر رسول الله — ﷺ — بإسلامه .

ونامت مكة أول ليلة في أحضان الإسلام ، فلما كان الغد من يوم الفتح

عدت بخزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك ، فقام رسول الله —

ﷺ — خطيباً بعد الظهر مسنداً ظهره إلى الكعبة ، فحمد الله وأثنى عليه

وقال :

— أيها الناس إن الله تعالى قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ويوم

خلق الشمس والقمر ووضع هذين الجبلين ، فهي حرام إلى يوم القيامة ، فلا

يحل لأمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر يسفك فيها دماً ولا يعصدها فيها شجرة .

ولم تحل لأحد كان قبلي ولن تحل لأحد يكون بعدي . ولم تحل لي إلا هذه

الساعة غضبا على أهلها . ألا قد رجعت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ

الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم : إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا له :

إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم .

يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل ، فمن قتل بعد

مقامي هذا فأهله بخير النظرين : إن شاءوا قدم قاتله ، وأن شاءوا فعقله .

ثم ودى رسول الله — ﷺ — ذلك الرجل الذي قتله خزاعة وهو ابن

الأقرع الهذلي من بني بكر ، فإنه دخل مكة وهو على شركه فعرفته خزاعة

فأحاطوا به فطعنوه منهم خراش بنصال في بطنه حتى قتله ، فلامه — ﷺ —
وقال :

— لو كنت قاتلا مسلما بكافر لقتلت خراشا .

ونادى منادى رسول الله — ﷺ — بمكة :

— من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنما إلا كسره .

فقام الناس إلى الأصنام التي كانت في الدور فراغوا عليها باليمين فتركوها
جثائا^(١) . وعمدت هند بنت عتبة إلى صنم كان في بيتها وجعلت تضربه

بالقدم وتقول :

— كنا منك في غرور .

(١) جثائا : الجث : القطع ، وتركوها جثائا : تركوها محطمة .

كان — ﷺ — متكئا على حصيرة في القبة التي ضربت له بالحجون بعد أن جاء نصر الله والفتح وتطهر أول بيت وضع للناس ليكون منارة التوحيد من أوثان الشرك وأصنام الضلال ، وتحمرت مكة من الخوف والقلق والفراغ ، وغمرها نور إلهي ملأ صدور الناس انشراحا وأفادتهم هدوءا وفتح أمام أعينهم آمالا ، فقد باتت سعادة الدارين حقيقة ملموسة ، ففى الأرض عزة وفى السماء خلود .

وكان — ﷺ — فى قمة انتصاراته ، فقد فتحت مكة أبوابها طوعا أو كرها لاستقباله ، وهرع إليه أعداء الأمس يعلنون شهادة الحق ، وصلوا خلفه لله وحده بعد أن حطموا آلهتهم بأيديهم . إن كفاح السنين قد توج بالنصر المبين ، فلم يغير ذلك النصر من طباع رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بل زاده تواضعا لله رب العالمين .

إنه مع الله يعيش بالله وفى الله ، يرجو رحمة الله ويتقى الله ويتبع رضوان الله ويتوكل على الله ولا يتبع أهواء الناس ، حسبه الله يتغنى فيما آتاه الله الدار الآخرة ، فوق أجره على الله ففتح له فتحا مبينا وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأتم نعمته عليه وهداه صراطا مستقيما ونصره الله نصرا عزيزا .

وراح عليه السلام يستنشق عبير مكة والذكريات تجيش فى رأسه وقد امتلأ حنينا إلى أيام رسالته الأولى- إنه ليدكر خديجة أم المؤمنين حاضنة الإسلام من صدقته لما كذبه الناس وواسته لما عزت المواساة وكانت له وزير صدق على

الدوام فهو فؤاده إليها . إنها ترقد خلفه في المعلاة وإنه ليستشعر رغبة في زيارة قبرها لتشاركه فرحة الانتصار كما شاركته آلام الاضطهاد وقسوة التعذيب . ليتها كانت في هذه اللحظة الحاسمة إلى جواره تشرف على مكة وقد رقدت هائلة قريرة العين في أحضان الإسلام .

وانتابته رقة ففرت من عينه دمعة ، فما فارقت ذهنه صورة خديجة سيدة نساء قريش في أيام الشدة وفي أيام الرخاء ، فقد كان يحن إلى مواساتها إذا ما دهمته الأحداث ، ويتمنى أن تكون معه لتقاسمه أفراحه إذا ما جاء نصر الله . إنها في ضميره على الدوام وإن غضبته لما أرادت عائشة أن تنفس عن غيرها من طول ذكره لحاضنة الإسلام بالخير لى سر قلبه الذى لم يخب حبه أبدا : « والله ما أبدلنى خيرا منها ، آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستتنى بما لها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الولد دون غيرها من النساء » . وخرج عليه السلام من القبة التى ضربت له بالحجون وسار إلى المعلاة حيث ترقد خديجة منذ ذلك اليوم الذى لا ينساه . إنه عاد إلى الدار بعد أن نخلت ممن كانت له وزير صدق على الدوام وقد نال منه الكفار ونثروا على رأسه التراب فلم يجد من يشكو إليها ، فسح الدموع على الغالية التى كانت تمسح بحنانها الآلام ، كل الآلام .

وبلغ المعلاة ووقف على قبرها يقرئها السلام ، وإذا بأحداث الأيام الأولى تطوف بذهنه فيرى نفسه وهو يعدو مفزوعا من غار حراء بعد أن انصرف عنه جبريل الأمين حتى أتاها فجلس إلى فخذه ملتصقا ، وسرى في وجدانه حديثه الذى حدثها به فإذا بصوتها الرقيق الذى كان البلسم وكان العزاء وكان التصديق والتأييد ينبعث لكأنما كان نبض الحياة : « أبشر يا بن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة » .

إنه يراها وهي تجمع عليها ثيابها ثم تنطلق إلى ورقة بن نوفل ، وإنه لسمع روايتها عن ورقة : قدوس قدوس ! والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقول له فليثبت . ورأى نفسه وهو يطوف بالكعبة وقد لقيه ورقة بن نوفل ، وسمع من وراء السنين قول ورقة : والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، ولتكذبته ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه .

ومس ذاكرته قول جبريل : « أقرىء خديجة السلام من ربها » . فأطرق أمام القبر في إجلال ، وزاد وجدده لما تذكر جوابها : « الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام » ، وانثالت على رأسه الذكريات فرأى خديجة في أيام الحصار في شعب أبي طالب ، فلولاها هلك الناس ، فحكيم بن حزام كان يبعث إلى المحصورين بقمح إكراما لعمته خديجة . إنها ظلت إلى جواره تخفى آلام الجوع حتى رفع الحصار وقد أوشكت على البوار دون أن تفلت من بين شفتيها كلمة تدمر أو استياء . أنفقت أموالها في سبيل الله ورسوله عن طيب خاطر ، وهجرت الترف راضية النفس ، ولم تسأله يوما النفقة كما فعلت نساؤه من بعدها ، إنها وحدها الحبيبة وما استطاعت أخرى أن ترحزحها عن قلبه وإن طال عهد الفراق .

وتخايلت له قلادتها فثارت في نفسه مشاعر رقيقة ، إنها أهدتها إلى ابنتهما زينب ليلة زفافها ، وقد بعثت بها زينب إلى المدينة عقب هزيمة المشركين في بدر لتفدى بها زوجها الأسير . فما إن رأى القلادة حتى امتلأ فؤاده شجوا وشجنا وحنينا وقال وقد رق لها ورقة شديدة : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها

وتردوا عليها ما لها فافعلوا .

إنها كانت تعد العاص بن الربيع بمنزلة ولدها فكان عليه السلام يكرمه إكراما لها ، وقد فرح بإسلامه وتمنى لو أن الطاهرة أم المؤمنين قد شهدت إسلام ابن أختها الحبيب . وإن نفسه لتفتتح لكل ما تفتحت له نفس خديجة ، وإنه ليعجب كل من أحببت . وإنه ليذكر ذلك اليوم الذى أقبلت فيه أختها هالة إلى المدينة ، إنه سمع صوتها فى فناء داره وكان يشبه صوت خديجة فانتفض وقال فى وجد : « اللهم هالة ! » .

وهب نسيم الشتاء باردا على وجهه — صلوات الله وسلامه عليه ، فأفاق من الذكريات لحظات ثم دار على عقيقه وانطلق إلى مكة . ومالبث أن احتلت صورة المسلمة الأولى أقطار رأسه فإذا به يسير إلى مكان مولده بسوق الليل ، وراح يرنو إلى دار أبيه عبد الله فى حب وأسى ، فابن عمه عقيل بن أبى طالب أخذ بيت عبد الله لما هاجر عليه السلام إلى المدينة ، فلم يعد له دار فى أم القرى أحب أرض الله إليه .

ومد بصره إلى دار أبى طالب فتذكر يوم مات جده عبد المطلب ويوم اختصم فيه أعمامه ، ويوم انتقل وهو كسير الفؤاد من بيت جده إلى بيت عمه . وترقرقت فى عينيه دموع لما طافت بذهنه فاطمة بنت أسد امرأة عمه وهى تحنو عليه تمسح برقتها آلام يتمه : إنه لا ينسى العطف السابغ الذى غمرته به وقد نزل معها فى قبرها وألبسها قميصه وقد أحس أنه فقد الأمومة الرعومة مرتين : مرة فى الأبواء لما ماتت أمه آمنة بنت وهب بين يديه ، ومرة أخرى لما فاضت روح فاطمة بنت أسد أم ربيبه على وحيبه .

وسار إلى زقاق العطارين ووقف ساهما إلى دار خديجة أم المؤمنين ، إنه فى هذه الدار بنى بالطاهرة سيدة نساء قريش أم المؤمنين حاضنة الإسلام وأول من

تحركت شفتها بشهادة الحق . إنه في هذه الدار شهد مولد أولاده ، وقد ظل ساكنا فيها حتى هاجر إلى المدينة فأخذها عقيل بن أبي طالب .

شهدت هذه الدار آماله وآلامه وفجر شبابه ومبدأ رسالته ، هبط عليه فيها الوحى واختبأ عند الحجر الذى كان فى دهليزها من حجارة جيرانه أبى لهب وعقبة بن أبى معيط وأبى الحكم ، إنهم كانوا لا يفتنون يلقون عليه الحجارة كلما رأوه يخرج من داره فكان يختبئ من قذائفهم ، حتى إذا ما انصرفوا خرج إلى الطريق فيلتقاه الصبيان بأناشيد الهجاء التى نظمها فى ذمه عمرو بن العاص ، إنه قاسى كثيرا وصبر كما صبر من قبل أولو العزم من الرسل ، وقد جنى ثمرة الصبر الحلوة فتحا مبينا ونصرا مؤزرا .

وعاد عليه السلام إلى الحرم فطاف به سبعا ثم راح يفكر ، إن أصحابه من أهل الضعف فى حاجة إلى مال وقد قال لأهل مكة : اذهبوا فأنتم الطلقاء . إنه أطلقهم من الأسر والاسترقاق ولم يغنم منهم شيئا . فرأى أن يقترض ما يحتاج إليه أهل الضعف من أصحابه فاستقرض — عليه السلام — من ثلاثة نفر من قريش : أخذ من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم فرّقها ، ومن عبد الله بن أبى ربيعة أربعين ألف درهم ، ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم فرّقها فى أصحابه أهل الضعف .

وجاء إليه عليه السلام — سعد بن أبى وقاص وقد أخذ بيد ابن وليدة زمعة ، ومعه عبد بن زمعة ، فقال سعد :

— يا رسول الله هذا ابن أخى عتبة بن أبى وقاص عهد إلتى أنه ابنه ، قال : إذا قدمت مكة انظر ابن وليدة ابن زمعة ولدته على فراشه .

فنظر — عليه السلام — إلى ذلك الولد فإذا هو أشبه الناس بعتبة بن أبى وقاص ، فقال لعبد بن زمعة :

— هو أخوك يا عبد بن زمعة من أجل أنه ولد على فراش أبيك زمعة ، الولد للفراش وللعاهر^(١) الحجر .

وقال لزوجته سودة بنت زمعة ، لما رأى على بن وليدة ابن زمعة من شبه عتبة :

— احتجبي منه يا سودة فليس لك بأخ .
وسرقت امرأة فأراد — ﷺ — قطعها ، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعون به ، فلما كلمه أسامة فيها تلون وجهه — ﷺ — وقال :
— أتكلمنى فى حد من حدود الله ؟

فقال أسامة وهو يضطرب رهبة :
— استغفر لى يا رسول الله .
ثم قام — ﷺ — خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :
— أما بعد ، فإن ما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

(١) للعاهر : عاهر المرأة أتاها ليلاً للفجور .

بعث رسول الله ﷺ — فيما حول مكة سرايا يدعو الله عز وجل ،
وكان ممن بعث خالد بن الوليد ، فخرج خالد ومعه من قبائل العرب سليم بن
منصور ومدلج بن مرة ، فوطئوا بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ،
فلما رآه القوم أخذوا السلاح فقال خالد :
— ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا .

فلما أمرهم خالد أن يضعوا السلاح قال رجل منهم يقال له جحدم :
— ويلكم يا بني جذيمة ! إنه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلا
الإسار ، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق . والله لا أضع سلاحى أبدا .
فأخذته رجال من قومه فقالوا :

— يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعوا
السلاح ، ووضع الحرب وأمن الناس . فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ،
 ووضع القوم السلاح لقول خالد .

وتذكر خالد ما كان في الجاهلية بين بني جذيمة وقريش ، إن عمه الفاكه
بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قد خرج وعوف بن عوف بن عبد
الحارث بن زهرة وعفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس تجارا إلى اليمن ،
ومع عفان ابنه عثمان ومع عوف ابنه عبد الرحمن ، فلما أقبلوا حملوا مال رجل
من بني جذيمة بن عامر كان هلك باليمن إلى ورثته ، فادعاه رجل منهم يقال له
خالد بن هشام ولقيهم بأرض بني جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت فأبوا

عليه ، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه وقاتلوه فقتل عوف بن عبد عوف والفاكه بن المغيرة ، ونجا عفان بن أبي العاص وابنه عثمان ، وأصابوا مال الفاكه بن المغيرة ومال عوف بن عبد عوف فانطلقوا به .

وتذكر خالد أن عبد الرحمن بن عوف قتل خالد بن هشام قاتل أبيه ، وأن قريش قد همت بغزو بني جذيمة فقالت بنو جذيمة :

— ما كان مصاب أصحابكم عن بلادنا ، إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم ، فنحن نعقل لكم ما كان لكم قبلنا من دم أو مال . فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب .

ووجد خالد أن عمه الفاكه بن المغيرة لم يثأر له وأن بني جذيمة كلها قد أصبحت في قبضة يده ، فراودته فكرة الانتقام . إنهم لم يعلنوا إسلامهم ، وبينما كانت الفكرة تداعب رأسه جاءه عبد الله بن حذافة السهمي وقال : — إن رسول الله ﷺ — قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم من الإسلام .

فأمر بهم خالد أن يكتفوا ثم عرضهم على السيف ، فقام إليه عبد الله بن عمر ينكر عليه فعله ، فعبد الله يعلم أن لا إكراه في الدين ، فأعرض عنه خالد ، فقام إليه سالم مولى أبي حذيفة ينهاه ويراجعه ، ولكن خالد أمر بضرب الرقاب ، فقتل منهم وانفلت رجل من القوم ليأتي رسول الله ﷺ .

وقال جحدم لقومه حين وضعوا السلاح ورأى ما يصنع خالد ببني جذيمة :

— يا بني جذيمة ضاع الضرب . قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه . وكان ابن أبي حدود السلمي يومئذ في خيل خالد بن الوليد . فقال له فتى

من بنى جذيمة وهو في سنه وقد جمع يده إلى عنقه برمّة (حبل بال) ونسوة
مجتمعات غير بعيد منه :

— يا فتى .

— ما تشاء ؟

— هل أنت آخذ بهذه الرمة فقائدى إلى هؤلاء النسوة حتى أفضى إليهن
حاجة ، ثم تردنى بعد فتصنع لى ما بدا لكم ؟

— والله يسير ما طلبت .

فأخذه برمته فقاد به حتى وقف عليهن . فقال لفتاة^(١) فى وجد :

— أسلمى حبيش على نقد من العيش .

وراح ينشد شعرا ييثرها فيه لواعج نفسه ، ثم انصرف به ابن أبى حدر
فضربت عنقه ، فقامت إليه حين ضربت عنقه فأكبت عليه فما زالت تقبله
حتى ماتت عنده .

وكان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — نائما فرأى كأنه لقم
لقمة حيس^(٢) فالتذ طعمها ، فاعترض فى حلقه منها شىء حين ابتلعها ،
فأدخل على يده فنزعه ، فلما استيقظ قص رؤياه على أصحابه فقال أبو بكر
الصديق :

يا رسول الله هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما نحب .
ويكون فى بعضها اعتراض فتبعث عليا فيسهله .

(١) قصة عبد الله بن علقمة وذكر خبره مع حبيشة ذكرها الأصفهاني فى الجزء ٧ :
٢٨٠ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٢) الحيس : أن يخلط السمن والتمر والأقط : شىء يعقد مع اللبن ويجفف .

وجاء الرجل الذى انفلت من القوم إلى رسول الله ﷺ — فأخبره ما فعل خالد ، فقال رسول الله ﷺ — :
— هل أنكر عليه أحد ؟

— نعم قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة فزجره خالد فسكت عنه ، وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب فراجعته فاشتدت مراجعتيها .
فقال عمر بن الخطاب :

— أما الأول يا رسول الله فابنى عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى أبى حذيفة :

ثم دعا رسول الله ﷺ — على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال :
— يا على أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك .

فخرج على حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ —
فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدى لهم ميلغة^(١) الكلب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقيه من المال ، فقال لهم على كرم الله وجهه حين فرغ منهم :
— هل بقى لكم بقية من دم أو مال لم يؤد لكم ؟
— لا .

— فأبى أعطيك هذه البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله ﷺ —
مما لا يعلم ولا تعلمون .

(١) اليلغة : شيء يحفر من الخشب ويجعل ليلغ فيه الكلب .

ففعل ثم رجع إلى رسول الله ﷺ — فأخبره الخبر ، فقال :
— أصبت وأحسن .

ثم قام رسول الله ﷺ — فاستقبل القبلة قائما شاهرا يديه ، حتى
ليرى ما تحت منكبيه يقول :

— اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد .

وأقبل عبد الله بن عمر على أبيه يقص عليه ما كان من أمر خالد ، فسأه ابن
الخطاب ما كان من ابن الوليد وبذرت في قلب عمر بن الخطاب بذرة كراهية
ما يفعل خالد من أمر الجاهلية ، وستنمو هذه البذرة على مر الأيام حتى يعزل
عمر خالد بن الوليد وهو في قمة مجده .

وكان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام في ذلك ، فقال
له عبد الرحمن بن عوف :
— عملت بأمر الجاهلية في الإسلام .

فقال له خالد :

— إنما تأرت بأبيك .

فقال عبد الرحمن .

— كذبت ، قد قتلت قاتل أبي ولكنك تأرت بعملك الفاكه بن المغيرة .

واشتد الجدل بينهما ، وانضم عمر بن الخطاب إلى عبد الرحمن بن عوف

فبلغ رسول الله ﷺ — فقال :

— مهلا يا خالد دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقته

في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته .

وحسب عمر أن رسول الله ﷺ — لن يستعمل خالدا بعدما عمل

بأمر الجاهلية في الإسلام ، ولكن رسول الله ﷺ — عليه السلام كان يعلم أن

خالدا قريب عهد بالجاهلية ولكنه سيف من سيوف الله المسلولة ، فبعثه إلى العزى وكانت بنخلة ، وكانت إلهة ترمز إلى كوكب الصباح وكان لها بيت يعظمه هذا الحى من قريش وكنانة ومضر كلها ، وكانت سدنتها وحجابتها بنى شيبان من بنى سليم حلفاء بنى هاشم ، فلما سمع صاحبها السلمى بمسير خالد إليها علق عليها السيف وارتفع فى الجبل الذى هى فيه وهو يقول :
أيا عز شدى لا شوى^(١) لها على خالد ألقى القنّاع وشمري
يا عز إن لم تقتلى المرء خالدا فبوتى بإثم عاجل أو تنصّرى
فانقص عليها خالدا والذين معه فهدموها وخالد يقول :
يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك
فانقضت بذلك عبادة إيزيس المصرية من بلاد العرب وإن بقيت بصورة
أو بأخرى فى روما المسيحية ، كما انقضت من قبل عبادة أبوللو إله الشعر لما
تخطم هبل . وتطهرت الكعبة من آلهة المصريين والسوريين واليونان والرومان
التي جلبها التجار العرب من تلك البلاد لما طال على الناس الأمد وقست
قلوبهم .

(١) لا شوى لها : لا تبقى على شيء .

كان سواع على صورة امرأة . إنه تمثال جلب من أرض ما بين النهرين وكان قوم نوح يعبدونه فعبدته هذيل وحجت إليه وجعلت له خزانة توضع فيها كل ما يهدى إلى آلهة القوم . وكانت هذيل ككل العرب يؤمنون بالله ولكنهم كانوا يعتقدون أن آلهة الأرض تقربهم إلى إله السماء زلفى ، وكانت الأصنام والأوثان ترمز إلى الكواكب والنجوم فكان العرب يقولون إنها بنات الله ! جاء نوح ليدعو إلى عبادة الله وحده ، ثم طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وعادوا إلى اتخاذ الأصنام آلهة تشفع لهم عند الله ، فأطلقوا على تمثال امرأة اسم سواع بن نوح كأنما يأبى البشر إلا أن يحيل أئمة التوحيد إلى رموز الشرك والفسوق .

ولما تم لرسول الله ﷺ فتح مكة أرسل عليه السلام عمرو بن العاص في جماعة من أصحابه إلى سواع ليكسره ويهدم محله ، فأنتهى إلى ذلك الصنم وعنده سادنه ، فلما رأى عمرو بن العاص والذين معه أوجس منهم خيفة ، وقال لعمرو :

— ما تريد ؟

فقال عمرو :

— أمرني رسول الله ﷺ — أن أهدمه .

فراح السادن يتلفت في رعب . أين عباد سواع الذين كانوا يهرعون إليه خاشعين ؟! أين الذين كانوا يأتون إليها مهطعين ملبين ؟! أين الذين كانوا

يسألونها خاشعين ؟ أين هذيل وأين صناديدها ؟
واستياأس السادن من القوم ، إنهم تخلوا عن آلهتهم فهل يتخلى عنها أبوها
الذى فى السموات ، فراح يرنو إلى الصنم فى رجاء ثم يرفع بصره إلى السماء .
وأحس عمرو بن العاص يتقدم إلى الصنم وفى يده المعول فقال السادن وهو
مرعوب : ما تريد ؟

— أن أهدمه .

— لا تقدر .

— لم ؟

— تُمنع .

فرماه عمرو بنظرة ازدراء وقال :

— حتى الآن أنت على الباطل ؟ وهل يسمع أو يبصر ؟
فدنا عمرو منه فكسره وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا شيئا ،
فنظر عمرو إلى السادن نظرة اتهام فأطرق الرجل حياء ، ثم رفع رأسه ودار
حوار بينه وبين عمرو ، عمرو يشرح مبادئ الإسلام وصدور الرجل ينشرح
للإسلام ، حتى إذا ما رأى عمرو أنوار اليقين تتلأأ فى وجه الرجل قال له :
— كيف رأيت ؟

قال السادن فى إيمان :

— أسلمت لله .

وأرسل رسول الله — ﷺ — سعد بن زيد الأشهلى فى عشرين فارسا إلى
صنم مناة ليهدم محله ، فلما وصلوا إلى الصنم قال السادن لسعد :
— ما تريد ؟

فقال سعد بن زيد فى ثبات :

— هدم مناة .

وأحس السادن كأن الأرض قد زلزلت تحت قدميه ، أيقف مكتوف اليدين وهو يرى هدم رمز الآلهة ؟ إن سادات الأوس والخزرج كانوا يحجون إلى هذا الحرم وكانوا يذبحون عنده وكانوا يمضون أياما في عبادة ونخشوع وابتهاال لمناة بعد عودتهم من الحج . وما كانت مراسم الحج تتم إلا بالطواف حول الصنم .

إنه ليذكر أول يوم سمع فيه ذكر مناة بسوء في قرآن محمد ، جاء أحد الذين اعتنقوا الإسلام ورتل أمامه : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى »^(١) . فانتفض غضبا وضاق بتلك السخرية اللاذعة بينات الله ، وانتظر أن تهوى قارعة من السماء تصيب الصابىء الذى سفه أحلام الآباء وسب الآلهة . ولكن الأيام راحت تمر وذلك الصابىء ينتقل من نصر إلى نصر حتى أرسل أتباعه ليقوضوا الصنم المعبود : أتترك السماء هؤلاء العابثين دون عقاب ؟!

ووقف أمام الصنم وحده ليصد عنه كيد المسلمين ، ولكنه كان أهون من أن يحول بينهم وبين مناة . إنه ضعيف قد حاول أن يدافع عن إلهة الحظ والموت قدر طاقته ، ولكن الرجال كانوا أقوى منه فنحوه عن طريقهم ، فقال لسعد ابن زيد وهو يتقدم لهدم مناة :

— أنت وذاك .

(١) النجم ١٩ — ٢٣ .

والتفت إلى الصنم وقال في إيمان :

— مناة دونك بعض صبيانك .

فهوى سعد بن زيد الأشهلى بالمعول على الصنم وراح أصحابه يعاونونه ،
والسادن ينظر وهو يكاد أن يموت رعبا . وتناثرت الحجارة هنا وهناك
والسادن يتمزق من الحزن ويتلوى من الألم قد ذهبت نفسه شعاعا ، ففي
لحظة اندك إيمانه وأصبح قلبه هواء .

وانصرف سعد بن زيد الأشهلى والذين معه من الفرسان مستبشرين بينا
وقف السادن يتلفت في شروود وهو يستشعر فراغا ، قد ترك وحيدا في وادى
الضياع .

وقع الرعب في قلب رجال هوازن وثقيف لما فتح الله على رسوله مكة ،
وخشوا أن يسير بجيشه إليهم ، فمشى أشراف هوازن وثقيف بعضهم إلى
بعض وقالوا :

— قد فرغ لنا فلا ناهية .

فطنوا إلى أنه لم يعد هناك مانع له — صلى الله عليه وسلم — دونهم ، فراحوا يحشدون
الجموع ويقولون :

— والله إن محمدا وصحبه لا قوا أقواما لا يحسنون القتال .

وراحت القبائل تتأهب للقتال ، وخرجت قبيلة بنى سعد بن بكر وهم
الذين كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — مسترضعا فيهم لتضع
نفسها تحت إمرة مالك بن عوف النصيري ، وكان إليه جماع أمر الناس .
وكان دريد بن الصمة فارس هوازن وسيد بنى جشم لا يزال على دين
قومه . إنه كان حليف بنى سليم وكان قد رأى الخنساء فأعجبته فذهب إلى
أبيها فخطبها إليه . فقال له أبوها :

— مرحبا بك أبا قرّة ، إنك للكريم لا يطعن في حسبه والسيد لا يرد عن
حاجته والفحل لا يقرع أنفه . ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها وأنا
ذاكرك لها وهي فاعلة .

ثم دخل إليها وقال :

— يا خنساء أتاك فارس هوازن وسيد بنى جشم دريد بن الصمة يخطبك

وهو من تعلمين .

فقلت :

— يا أبت أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح . وناكحة شيخ بنى
جشم هامة^(١) اليوم أو غد ؟

فخرج إليه أبوها فقال :

— يا أبا قرّة قد امتنعت ، ولعلها أن تجيب فيما بعد .

فقال :

— قد سمعت قولكما .

كان ذلك من سنين ، ولكن دريد بن الصمة لم يستطع أن ينسى يوما أن
الخنساء قد رفضته رغما عن علو شأنه وكثرة ماله وعلو ذكره . وقد كان بين
هوازن وبنى سليم حلف وقد دخلت بنو سليم فى الإسلام ، فخرج دريد
ليحضر حرب المسلمين لعله يثار من الإهانة التى لحقته مذر فضت الخنساء أن
تقبله زوجا ، وراحت الأبيات التى هجاها بها تطوف بذهنه :

وقال الله يا ابنة آل عمرو من الفتيان أمثالى ونفسى

فلا تلدى ولا ينكحك مثلى إذا ما ليلة طرقت بنحس

كان دريد قد عمى وصار لا ينتفع إلا برأيه ومعرفته بالحرب . فسار يقوده
مرض قلبه ليلتقى بمالك بن عوف الذى أمر الناس بأخذ أموالهم ونسائهم
وأبنائهم معهم ، فانطلق حتى نزل بأوطاس ووافاه هناك دريد بن الصمة ،
فقال دريد للناس :

(١) الهامة : طائر يزعم العرب أنه يمثل روح المقتول . ولا يزال يصيح : اسقوفى .

حتى يؤخذ بثأره .

— بأى واد أنتم ؟

— بأوطاس .

— نعم مجال الخيل ، لا حزن^(١) ضيرس ولا سهل دَهِس ، ما لى أسمع رغاء البعير ونُهاق الحمير وبكاء الصغير وبُعار الشاء ونحوار البقر ؟

— ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم .

— أين مالك ؟

كان مالك فى الثلاثين من عمره وكان دريد قد جاوز المائة . إن مالكا قد توافق معه على أن لا يخالفه فإنه قال له : إنك تقاتل رجلا كريما قد أوطأ العرب وخافته العجم وأجلى يهود الحجاز إما قتلا أو خروجا عن ذل وصغار . فقال له لا نخالفك فى أمر تراه . فلما قال : أين مالك ؟ قيل له : — هذا مالك .

— يا مالك أما إنك أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا اليوم كائن له ما بعده من الأيام . ما لى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وبُعار الشاء ونحوار البقر ؟

— سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

— ولم ؟

— أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم .

فقال دريد فى ضيق :

— راعى ضآن والله ، ماله وللحرب ! .

(١) الحزن : الغليظ من الأرض ، والضررس : الشدي . الدهس : المكان السهل ليس برمل .

ثم أشار عليه برد الذرية والأموال وقال:

— هل يرد المنهزم شيء ؟! إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ،
وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك . ويحك ! إنك لم تصنع بتقديم
البيضة بيضة هوازن إلى نحر الخيل شيئاً . ارفعهم إلى متمنّ بلادهم وعليها
فوقهم ، ثم اتق الصباء (جمع صابىء) على متون الخيل . فإن كانت لك لحق
بك من وراءك . وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك .

وساد الصمت برهة ثم قال دريد :

— ما فعلت كعب وكلب ؟

قال الناس :

— لم يشهدا منهم أحد .

فقال دريد في يأس :

— غاب الحد والجِد ، لو كان يوم علا ورفعة ما غابا .

وأشار عليه بأمور ولم يقبلها مالك منه وقال :

— والله لا أطيعك ، إنك قد كبرت وضعف رأيك .

فقال دريد لهوازن :

— قد شرط مالك ألا يخالفنى ، فقد خالفنى فأنا أرجع إلى أهلى .

فمنعوه ، وقال مالك :

— والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج

من ظهرى .

وكره أن يكون لدريد فيها رأى أو ذكر ، قالوا :

— أطعناك .

وصفت الخيل ثم الرجال المقاتلة ثم صفت النساء على الإبل ثم صفت

الغنم ثم صفت النعم ثم قال للناس :
— إذا رأيتهم في شدوا عليهم شدة رجل واحد .
وراح دريد ينظر إلى هوازن في حزن ثم قال :
— هذا يوم لم أشهده ولم يفتنى .

ثم أنشأ يقول :

يا ليتنى فيها جذع^(١) أحب فيها وأضع^(٢)
أقود وطفاء الزممع كأنها شاة صدع^(٣)
ولما سمع رسول الله — ﷺ — بخبرهم بعث إليهم عبد الله بن أبي حذر
السلمي وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه
بخبرهم . ففعل ثم أقبل على رسول الله — ﷺ — فأخبره الخبر ، فدعا
رسول الله — ﷺ — عمر بن الخطاب فأخبره الخبر فقال عمر :
— كذب ابن أبي حذر .

فقال ابن أبي حذر :

— إن كذبتني فرما كذبت بالحق يا عمر ، فقد كذبت من هو خير
منى .

فقال عمر في غضب :

— يا رسول الله ألا تسمع ما يقول ابن أبي حذر ؟
— قد كنت ضالاً فهداك الله يا عمر .

وخرج المسلمون من مكة قد قصروا الأعنة وشحذوا الأسنة وأشعروا

(١) الجذع : الشاب .

(٢) الخبب والوضع : ضربان من السير .

(٣) الوطفاء : طويلة الشعر . والزمع : الشعر الذي فوق مرتبط قيد الدابة والشاة

(هنا) : الوعل ، والصدع : من الأوعال والظباء والحمير .

قلوبهم الجرأة ولزموا الطاعة ، ولكن كان فيهم أناس من المؤلفة قلوبهم وأناس خرجوا للحرب ولم يدخل الإسلام قلوبهم منهم سهيل بن عمرو وصفوان ابن أمية وقد خرج للقتال وما خلق الله خلقاً أبغض إليه من رسول الله ﷺ . وكان قد ذكر لرسول الله ﷺ — أن عند صفوان بن أمية أدرعاً له وسلاحاً ، فأرسل إليه فقال :

— يا أمية أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا .

فقال صفوان :

— أغصبا يا محمد ؟

— بل عارية ومضمونة حتى تؤديها إليك .

— ليس بهذا بأس .

فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .

فطلب منه رسول الله ﷺ أن يكفيهم حملها ففعل .

واستعار — ﷺ — من ابن عمه نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة

آلاف رمح فقال له :

— كأني أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين وكان في جيش

المسلمين عبد الله بن أبي . ربيعة وكان له عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع

المهن وكان عددهم كثيراً ، فقبل لرسول الله ﷺ — حين خرج إلى

حنين :

— هل لك في جيش بني المغيرة تستعين بهم ؟

فقال عليه السلام :

— لا خير في الحبش . إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا ، وإن فيهم لختين

حسنتين : إطعام الطعام . والبأس يوم البأس .

وانطلق رسول الله ﷺ — ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف

من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة ، فكانوا اثني عشر ألفاً .

واستعمل رسول الله ﷺ — عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس على مكة أميرا على من تخلف من الناس .
ونظر رسول الله ﷺ — إلى الجيش فإذا بالرماح رفعت حتى كادت تسد الأفق ، فقال :

— لن نغلب اليوم عن قلة .

وسار الجيش وفيه أناس حديثو عهد بالجاهلية . وكان لكفار قريش ومن سواهم من العرب سدرية (شجرة النبق) عظيمة خضراء يقال لها « ذات أنواط » يأتونها كل سنة يعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما ، فرأوا وهم يسرون مع رسول الله ﷺ — سدرية خضراء عظيمة فتنادوا من جنابات الطريق :

— يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .
فقال :

— الله أكبر ، قلت والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى : « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون »^(١) إنها السنن ، لتركن سنن من كان قبلكم .

وانطلق الجيش في طريق الطائف ، إن رسول الله ﷺ — قد انطلق ذات يوم هو وزيد بن حارثة في نفس الطريق بعد أن ماتت خديجة وعمه أبو طالب وطرده المكيون من البلد الحرام ، إنه جاء إلى الطائف وهو يرجو أن يستجيبوا لدعوته ، ويجد عندهم المنعة والسلام ولكنهم سخروا منه ، وجلس سفهاؤهم على جانبي الطريق يضربون قدميه بالحجارة حتى سالت منهما

(١) آل عمران ١٣٨ .

الدماء . إنه ناء من الألم ولكنهم لم يتركوه ليسترخ بل أقاموه ليرضخوا قدميه بالحجارة وضحكاتهم تتصاعد من جنبات الطريق : طريق الآلام وقسوة الجاهليين .

وانتهى رسول الله ﷺ — إلى مضيق حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر نخلون من شوال ، وكان على المسلمين أن يجتازوا ذلك المضيق ليصلوا إلى الوديان الخصيبة خلف جبال أوطاس حيث صف مالك بن عوف الرجال والفرسان والنساء والإبل والأغنام والنعم .

إنه مكان موحش جوانبه شديدة الانحدار ، والمضيق ضيق لا يسمح بتقدم جيش إلا إذا تقدم في جماعات صغيرة ، وما كان هناك مكان للفرسان ليصلوا ويجولوا في المعركة فلما جاء السحر عبأ رسول الله ﷺ — أصحابه وصفهم صفوفًا ووضع الألوية والرايات في أهلها مع المهاجرين ، لواء يحمله على بن أبي طالب ، وراية يحملها سعد بن أبي وقاص ، وراية يحملها عمر بن الخطاب ، ولواء الخزرج يحمله حباب بن المنذر ، ولواء الأوس مع أسيد بن حضير ، وفي كل بطن من بطون الأوس والخزرج لواء وراية يحملها رجل منهم مسمى ، كذلك قبائل العرب فيها الألوية والرايات يحملها قوم منهم مسمون ، وكان رسول الله ﷺ — قد قدم سُلَيْمًا من يوم خرج من مكة واستعمل عليهم خالد بن الوليد ، فلم يزل على المقدمة حتى قدم الجعرانة ، وانحدر رسول الله ﷺ — في وادي حنين على تعبته وركب بغلته البيضاء « دُلْدُل » ولبس درعين والمغفر والبيضة ، واتجه المسلمون إلى مضيق حنين وهم على ثقة من أنهم لن يغلبوا اليوم عن قلة .

استقبل المسلمون وادى حنين وانحدروا فى واد من أودية تهامة متسع منحدر إنما ينحدرون فيه انحدارا ، فما راعهم وهم منحطون إلا الكتائب قد شدوا عليهم شدة رجل واحد فى عماية الصبح . فإن مالك بن عوف والذين معه كانوا قد سبقوهم إلى الوادى وكنوا لهم فى شعابه وأحنائه ومضايقه وراحوا يلقون على المسلمين الصخور من عل وأصلوهم وأبلا من نباهم كأنهم جراد منتشر لا يكاد يسقط لهم سهم ، ثم هجموا عليهم بغتة بأسيا فهم فانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد .

وقال أبو قتادة لعمر بن الخطاب فى دهش :

— ما شأن الناس ؟

— أمر الله .

كان الطلقاء أهل مكة أول من انهزم ، قال بعضهم لبعض :

— اخذلوه . هذا وقته .

فانهزموا وتبعهم الناس .

وانكشفت الخيل خيل بنى سليم مولية وتبعهم الناس منهزمين ، وانحاز

رسول الله — ﷺ — ذات اليمين وجعل يقول :

— يا أنصار الله وأنصار رسوله ، أنا عبد الله ورسوله، أين أيها الناس ؟ هلموا

إلى ، أنا رسول الله . أنا محمد بن عبد الله .

وكان العباس بن عبد المطلب آخذا بزمام بغلة رسول الله — ﷺ —

وكان امرأ جسيما شديد الصوت ، فقال عليه السلام لما رأى الناس لا يلوون على شيء :

— يا عباس اصرخ ، يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السَّمرَة (١) .

فراح صوت العباس يدوي في جنبات وادي حنين :

— يا معشر الأنصار .. يا معشر أصحاب السَّمرَة .

وصك صوت العباس أذنى أبى سفيان بن حرب ، فقال أبو سفيان معبرا

عما في قلبه من الضغن :

— لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .

وكانت الأزلام لا تزال معه في كنائه ، وصاح كُلدَة بن الحنبل وهو مع

أخيه صفوان بن أمية :

— ألا بطل السحر اليوم .

فقال له صفوان وهو لا يزال مشركا في المدة التي جعل له رسول الله —

ﷺ :

— اسكت فض الله فاك فوالله لأن يرُبَّنِي (يملكني) رجل من قريش أحب

إلَيَّ من أن يرُبَّنِي رجل من هوازن .

وثبت مع رسول الله — ﷺ — من المهاجرين أبو بكر وعمر ، ومن أهل

بيته على بن أبى طالب وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل بن العباس وربيعة

ابن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن بن عبيد .

وبلغ صوت العباس مسامع الأنصار فأجابوا :

(١) شجرة الطلح وهى الشجرة التى كانت عندها بيعة الرضوان . (فتح مكة)

— لبيك .. لبيك .

فراح الرجال يشنون أبعرتهم فلا يقدرّون على ذلك لكثرة الأعراب
المنهزمين ، فيأخذون دروعهم فيقذفونها في أعناقهم ويأخذون سيوفهم
وتروسهم ويقتحمون عن رواحلهم ويخلون سبيلها ، وانطلقوا إلى حيث كان
رسول الله — ﷺ — كأنهم الأبل قد حنت على أولادها .

وكان رجل من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح له طويل
أمام هوازن وهوازن خلفه ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاتته الناس رفع رمحه
لمن ورائه فاتبعوه .

وراحت سيوف هوازن تلعب في رقاب المسلمين دون أن يثبت لهم أحد ،
فلما اجتمع إلى رسول الله — ﷺ — مائة من الصابرين استقبلوا الناس
فاقتلوا وارتح المكان بشعار المقاتلين :
— يا للأنصار .

وتصافحت السيوف واهتزت الرماح وقطعت الرقاب وطعنت الصدور
وسقطت الأجساد ، واشتد القتال وصاح المقاتلون :
— يا للمخزرج .

وكانوا صبرا عند الحرب فأشرف رسول الله — ﷺ — في ركائبه ،
فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون فقال :
— الآن حمى الوطيس (١) .

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب .

(١) الوطيس : المعركة والتلاحم .

وراح شيبه بن عثمان بن أبي طلحة يدنو من رسول الله ﷺ — وهو يقول :

— اليوم أدرك تأري من محمد ، اليوم أقتل محمدا .
وكان أبوه قتل يوم أحد ، فاستدبر رسول الله ﷺ — وهو يريد أن يقتله بعثمان بن طلحة . فأطلع الله رسوله على ما في نفسه فالتفت عليه السلام إليه وضرب في صدره وقال :
— أعيذك بالله يا شيبه .

فأرعدت فرائصه ، فنظر إليه شيبه وهو أحب إليه من سمعه وبصره فقال :
— أشهد أنك رسول الله ، وأن الله أطلعك على ما في نفسي .
واستمر ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جملة الأحمر إذا أدرك طعن برمحه وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه ، فمال إليه على بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه ، فأتاه على من خلفه فضرب عرقوبى الجمل فوق على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة أضنَّ قدمه بنصف ساقه فسقط عن رحله صريعا ، واشتد القتل في هوازن والتفت رسول الله ﷺ — إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو آخذ بثَّفر^(١) بغلته فقال :

— من هذا ؟

— أنا ابن عمك يا رسول الله .

وانشرح صدر رسول الله ﷺ ، فالحارث كان لا يفارقه أبدا قبل الرسالة ، وقد اشتدت عداوته لابن عمه بعد الرسالة ، فلما أسلم كان رسول الله ﷺ — يرجو أن يكون عوضا عن عمه حمزة . وقد صبر الحارث

(١) الثَّفر : السِّير في مؤخر السرح .

في ذلك اليوم وصال وجمال لإعلاء كلمة الإسلام ، كما صال وجمال أسد الله وأسد رسوله من قبل .

وراح أبو سفيان بن الحارث يلعب بسيفه يحثو رءوس الكافرين ، إنه يريد الموت دون ابن عمه رسول الله ورسول الله عليه السلام ينظر إليه . فقال العباس :

— يا رسول الله أخوك وابن عمك أبو سفيان فارض عنه .

— غفر الله له كل عداوة عادانيها .

ثم التفت عليه السلام إلى أبي سفيان بن الحارث وقال في حب :

— يا أخى .

فقبل أبو سفيان بن الحارث رجله عليه السلام في الركاب .

والتفت رسول الله ﷺ — فرأى أم سليم ابنة ملحان وكانت مع زوجها أبي طلحة وهي حازمة وسطها يبرد لها وإنها لحامل بعبد الله بن أبي طلحة ومعها جمل أبي طلحة ، وقد خشيت أن يغلبها الجمل فأدنت رأسه منها فأدخلت يدها في خزامته مع الخطام ، فقال لها رسول الله ﷺ — :
— أم سليم ؟

— نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله . اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل .

— أو يكفى الله يا أم سليم .

ومع أم سليم خنجر فقال لها أبو طلحة :

— ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟

— خنجر أخذته ، إذا دنا منى أحد من المشركين بعجته به .

فقال أبو طلحة وهو يتسم :

— أسمع يا رسول الله ؟

ومشى أبو طلحة إلى الأعداء مشى الوعول يضرب بسيفه وقد أطل منه المنون ، يقتل ويسلب حتى استلب وحده عشرين رجلا ، ورأى أبو قتادة الأنصاري رجلين يقتلان مسلما ومشركا ، وإذا رجل من المشركين يريد أن يعين صاحبه المشرك على المسلم ، فأتاه أبو قتادة فضرب يده فقطعها ، واعتنقه الرجل بيده الأخرى وكاد يقتله لولا أن الدم راح ينزف من يده فسقط إعياء ، فضربه أبو قتادة فقتله وشغله عنه القتال ، ومر به رجل من أهل مكة فسلبه وأبو قتادة يجتلد بسيفه يقاتل عن دين الله .

وراح مالك بن عوف يستमित في القتال وكلمات دريد بن الصمة تدوى في نفسه : « راعى ضأن والله ما له وللحرب » ، فتثير حنقه وتدفعه إلى الإقدام ، وأقبلت خيل الله إلى حيث كان رسول الله عليه السلام ، وأفاق المسلمون من المفاجأة فراحوا يقاتلون في سبيل الله بقلوب عامرة باليقين ، فكثرت القتل في المشركين وتصدعت صفوفهم ودارت الدائرة على أهل حنين ، فجعل المسلمون يقتلون فريقا وفريقا يأسرون ، وأمكن الله رسوله — ﷺ — من أعدائه ، فقالت امرأة من المسلمين :

قد غلبت خيل الله خيل اللات وخيله أحق بالثبات

وانهزمت هوازن واشتد القتل من ثقيف في بني مالك ، فقتل منهم سبعون رجلا تحت رايتهم فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن حبيب ، وكانت رايتهم مع ذى الخمار عوف بن الربيع ، فلما قتل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل بها حتى قتل ، فلما بلغ رسول الله — ﷺ — قتله قال :

— أبعد الله ! فإنه كان يبغض قريشا !

وقتل مع عثمان بن عبد الله غلام له نصراني أغرل^(١) فصاح بأعلى صوته :
— يا معشر العرب يعلم الله أن ثقيفا غرل .
وكان المغيرة بن شعبة وهو من ثقيف في صفوف المسلمين ، فخشى أن
تذهب عنهم في العرب فأخذ بيده وقال :
— لا تقل ذلك فذاك أبى وأمى ، إنما هو غلام لنا نصراني .
ثم جعل يكشف له عن القتل ويقول له :
— ألا تراهم مختنين كما ترى !
وكانت راية الأخلاف مع قارب بن الأسود ، فلما انهزم الناس أسند رايته
إلى الشجرة وهرب هو وبنو عمه وقومه من الأخلاف ، فلم يقتل من
الأخلاف غير رجلين : رجل من بنى غبرة يقال له وهب ، وآخر من بنى كُبة
يقال له الجُلاح ، فقال رسول الله ﷺ — حين بلغه مقتل الجلاح :
— قتل اليوم سيد شباب ثقيف إلا ما كان من ابن هنيذة .
ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف وهو يكاد يموت
غما ، فقد أعرض عن نصيحة دريد بن الصمة وحبس قومه للموت وفضح
أهله . وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن
توجه نحو نخلة إلا بنو غبرة من ثقيف . وتبعت خيل رسول الله ﷺ —
من سلك في نخلة من الناس ولم تتبع من سلك الثنايا .
وكان دريد بن الصمة في هودج فأدركه ربيعة بن رفيع فأخذ بخطام جملة
وهو يظن أنه امرأة فإذا برجل ، فأناخ به فإذا شيخ كبير وإذا هو دريد بن
الصمة فارس جشم الذي لم يبق منه إلا الرأى ولا يعرفه الغلام ، فقال له

(١) الأغرل : غير المختن .

دريد :

— ماذا ترى بى ؟

— أقتلك .

— ومن أنت ؟

— أنا ربيعة بن ربيع السلمى .

إنه من بنى سليم حلفاء الأمس ، إنه من قبيلة الخنساء التى قالت لأبيها يوم جاء يخطبها : يا أبت أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح وناكحة شيخ بنى جشم هامة اليوم أو غد ؟ . وضربه الغلام بسيفه فلم يغن شيئا فقال : — بئس ما سلحتك به أمك ! خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أضرب الرجل ، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب والله يوم منعت فيه نساءك .

وذهب الغلام إلى الرجل وكان فى الهودج وأتى بسيف دريد ثم ضربه فأرداه . فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله اياه فقالت : — أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثا .

فقالت عمرة بنت دريد فى قتل ربيعة دريدا :

لعمرك ما خشيت على دريد	بيطن سميرة جيش العناق
جزى عنه الإله بنى سليم	وعقبتهم بما فعلوا عقاق
وأسقانا إذا قدنا إليهم	دماء خيارهم عند التلاق
فرب عزيمة دافعت عنهم	وقد بلغت نفوسهم التراق
ورب كريمة أعتقت منهم	وأخرى قد فككت من الوثاق
ورب منوه بك من سليم	أجبت وقد دعاك بلا رماق

فكان جزاؤنا منهم عقوقا وهما ماع منه غ ساقى
عفت آثار خيلك بعد أين بذى بقر إلى فيف النهاق^(١)
وبعث رسول الله — ﷺ — فى آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر
الأشقرى ، فأدرك من الناس بعض من انهزم فناوشوه القتال .
ولقى أبو عامر عشرة أخوة من المشركين فحمل عليه أحدهم فحمل عليه
أبو عامر وهو يدعو إلى الإسلام ويقول :
— اللهم اشهد عليه .

فقتله أبو عامر .
ثم حمل عليه آخر فحمل عليه أبو عامر وهو يدعو إلى الإسلام ويقول :
— اللهم اشهد عليه .
فقتله أبو عامر ، ثم جعلوا يحملون عليه رجلا رجلا ويحمل أبو عامر وهو
يقول ذلك ، حتى قتل تسعة وبقى العاشر ، فحمل على أبى عامر وحمل عليه
أبو عامر وهو يدعو إلى الإسلام ويقول :
— اللهم اشهد عليه .
فقال الرجل :
— اللهم اشهد عليه .
فكف عنه أبو عامر فأفلت منه .

ورمى سلمة بن دريد أبا عامر بسهم فقتله ، فأخذ الراية أبو موسى
الأشقرى وهو ابن عمه فقاتلهم ففتح الله على يديه وهزمهم .
واستحر القتل من بنى نصر فى بنى رثاب ، ورأى عبد الله ابن قيس وهو
أحد بنى وهب بن رثاب ما نزل بقومه فقال :
— يا رسول الله هلكت بنو رثاب .

(١) أين : التعب والمشقة ، وذو بقر موضعان ، والفيف : القفر ، والنهاق موضع .

فقال ﷺ :

— اللهم اجبر مصيبتهم .

وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف في فوارس من قومه على ثنية من الطريق وقال لأصحابه :

— قفوا حتى تمضى ضعفائكم وتلحق أخرائكم .

فوقف هناك حتى مضى من كان لحق بهم من منهزمة الناس ، وطلعت خيل ومالك وأصحابه على الثنية فقال لأصحابه :

— ماذا ترون ؟

— نرى قوما واضعى رماحهم بين اذان خيلهم طويلة بواد هم (بطون افخاذهم) .

— هؤلاء بنو سليم ولا بأس عليكم منهم .

فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادى ، ثم طلعت خيل أخرى تتبعها فقال لأصحابه :

— ماذا ترون ؟

— نرى قوما عارضى رماحهم أغفالا على خيولهم .

— هؤلاء الأوس والخزرج ولا بأس عليكم منهم .

ثم طلع فارس فقال لأصحابه :

— ماذا ترون ؟

— نرى فارسا طويل الباد ، واضعا رمح على عاتقه . عاصبا رأسه بملاءة حمراء .

— هذا الزبير بن العوام وأحلف باللات ليخالطنكم فاثبتوا له .

فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية أبصر القوم فانطلق إليهم وراح يطاعنهم حتى أراحهم عنها ، وفر الناس لا يلوون على شيء .

ومر رسول الله ﷺ — بامرأة والناس مزدحمون عليها فقال :
— ما هذا ؟

— امرأة قتلها خالد بن الوليد .
فقال رسول الله ﷺ — لبعض من معه :
— أدرك خالدًا فقل له : إن رسول الله ينهك أن تقتل وليداً أو امرأة أو
عسيفاً (أجيوا) .

وكان بجاد رجلاً من بني سعد بن بكر قد أحدث حدثاً ، فقال —
ﷺ — لمن عنده :
— إن قدرتم على بجاد فلا يفلتكم .

فانطلقوا في أثره حتى ظفروا به فساقوه وأهله ، وساقوا معه الشيماء بنت
الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ — من الرضاعة فعنفوا عليها
في السياق ، فقالت للمسلمين :

— تعلموا والله أني لأخت صاحبكم من الرضاعة .
فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله ﷺ — فقالت :
— يا رسول الله إني أختك من الرضاعة .
— وما علامة ذلك ؟

— عضه عضضتيها في ظهري وأنا متوركتك .
فعرف رسول الله ﷺ — العلامة فبسط لها رداءه فأجلسها عليه
وخيرها وقال :

— إن أحببت فعندي مُحبة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك وترجعى إلى
قومك فعلت .
فقالت :

— بل تمتعني وتردني إلى قومي .

فاعطاها غلاما له يقال له مكحول وجارية وردھا إلى بنی سعد مكرمة معززة ، وذكریات طفولته تطوف برأسه كالأطياف .

وهزم الله الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم فجعل النبي — ﷺ —
يمشي في المسلمين ويقول :

— من يدلني على رجل خالد بن الوليد .

كان عليه السلام قد علم أن خالدا جرح .

فنزل عليه فوجده قد أسند إلى مؤخرة رحله لأنه قد أثقل بالجراحة ، فراح عليه السلام يضمد جرحه ، والتفت عليه السلام فرأى عائذ بن عمر وقد أصابته رمية في جبهته فسال الدم على وجهه وصدره ، فسد النبي — ﷺ —
الدم بيده عن وجهه إلى ترقوته . واستمر عليه السلام يعود الجرحى ويواسيهم فيعيد البشر إلى الوجوه وييث الأمل في القلوب .

وأنزل الله عز وجل في يوم حنين : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » (١) .

علم رسول الله ﷺ — أن مالك بن عوف وقوما من أشراف قومه لحقوا بالطائف عند انهزامهم ، وأن أولئك القوم تحصنوا في حصن به وأدخلوا فيه ما يصلحهم ، فتوجه إليهم بعد أن بعث بالسبي والغنائم إلى الجعرانة مع بديل بن ورقاء الخزاعي ، وكان سبي حنين ستة آلاف رأس غير من أسر من الرجال والنساء والولدان .

وكان في جيش المسلمين الطفيل بن عمرو الدوسي وقد ملأت أقطار رأسه صورة صنم قومه فاستشعر رغبة جامحة في أن يحرقه ليخلو لدوس وجه الله ، فدنا من رسول الله ﷺ — وهو في طريقه إلى الطائف وقال في انفعال : — يا رسول الله ابعثنني إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حُمَمة حتى أحرقه . فبعثه رسول الله ﷺ — في شوال سنة ثمان ليهدم ذا الكفين وأمره أن يستمد قومه ويأتيه بالطائف . فانطلق الطفيل بن عمرو والدماء تتدفق في عروقه حارة والأفكار تنثال على رأسه . إنه يرى نفسه يوم أن قدم مكة ورسول الله ﷺ — بها ، ويرى أشراف قريش وهم يمشون إليه ويقولون له :

— يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

وارتسمت على شفتيه بسمة هازئة . إنه يسخر من نفسه ويتساءل في عجب : كيف أجمع في ذلك اليوم ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه وهو الشاعر اللبيب الذى يستطيع أن يميز سحر البيان من قبيح الحديث ، وكيف انصاع لهم حتى حشا في أذنيه حين غدا إلى المسجد قطنا فرقا من أن يبلغه شيء من قوله ؟ ترى كيف كان حاله لو لم يسمعه الله بعض قوله ؟ أكان حارب رسول الله — ﷺ — مع الذين حاربوه ؟ ولو أنه حاربه أكان يموت كافرا كما مات كثير من الذين قاتلوه وقتلوا قبل أن يفتح مكة ويسود السلام ربوعها ؟ وسرت في بدنه رعدة ، وسرعان ما أحس فضل الله عليه أن هداه إلى الإسلام فسجد لله شكرا على ظهر راحلته .

ورأى نفسه وهو يتبع رسول الله — ﷺ — في زقاق العطارين وهو يستشعر أنه يسلك سبل السلام ، إن قلبه ليخفق بين جنبيه كما خفق في ذلك اليوم ، وإنه ليرى نفسه في وضوح وهو ينزل في دار خديجة درجات ثم يستأذن في الدخول على رسول الله . وإنه لينفعل وهو على ظهر راحلته مثل ذلك الانفعال الذى اعتراه وهو يتقدم إلى حيث كان عليه السلام . إنها لحظات لا تنسى ، إنه أحس كأنما عبير طيب ضمخ روحه وأن أنوارا سماوية شاعت بين جوانحه وأن فرحا فياضاً غمر نفسه وأن أمنا انتشر في وجدانه وأن سلا ما نزل بردا على فؤاده . وسار وهو مأخوذ بسحر ما سمع من آيات بينات حتى إذا دخل عليه قال وقد تهلل بالفرح :

— يا محمد إن قومك قد قالوا لي إنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمته ولا تسمع مني شيئا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسُف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك فسمعته قولا حسنا فاعرض على أمرك .

وراح الطفيل بن عمرو ينظر إلى الأفق البعيد وهو شارد تتلون قسما
وجهه بانفعالات نفسه ، فصوت رسول الله — ﷺ — يأتي من أعماق
الماضي كأنه البشري يعرض عليه الإسلام ويتلو عليه القرآن في صوت جهورى
أخاذ يمس أوتار القلب ويحرك منابع الحنان ، فجرت دموعه تبلل لحيته وقال
في إيمان عميق :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله . إنه لا يستطيع
أن يحبس عبراته كلما تذكر ذلك اليوم فهو يوم أغر حفرت أحداثه في سويداء
فؤاده ، فهو يذكر كل ما كان فيه من انفعالات وحوار ، إنه قال لرسول الله
— ﷺ — بعد أن شهد شهادة الحق :

— يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى
الإسلام .

إنه انطلق إلى قومه في ذلك الوقت كما هو منطلق إليهم الساعة يتأجج
بالحماس يستشعر كأن راحلته لا تطوى الأرض ، وران في جوفه الحوار الذى
كان بينه وبين أبيه :

— إليك يا بنى ؟

— أسلمت وتابعت دين محمد — ﷺ — .

— أى بنى فدينى دينك .

— فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال أعلمك ما علمت .

وسرعان ما لاحت لعين خياله صورة سادن ذى الكفين تملأ الأفق ، إنه
غاضب ثائر يحاول أن يحول بينه وبين أن يحرق إلهه . ودارت في ذهنه معركة
رهية بينه وبين ذلك السادن . إنه يهجم عليه بالنار التى يحملها فى يمينه
والسادن يدفعه فى ضراوة كأنه لبوة تدافع فى استماتة عن أشبالها ، وهو يتهلل

إلى ذى الكفين فى صوت مفزوع أن يمدده بعونه . وجلجل فى ضمير الطفيل
صوته بالتكبير فخيّل إليه أن الوديان والجبال تؤذن فى إيمان : الله أكبر .. الله
أكبر .

وانثالت على رأسه الذكريات ، إنه دعا دوسا إلى الإسلام فأبطئوا عليه وما
استجاب له إلا أبو هريرة ، إنه استشعر فى ذلك الوقت غما وود لو أن عذاب
الله ينزل بقومه الذين أبوا أن يخرجوا من الظلمات إلى نور الله . إنه كان يتمزق
غيظا كلما رأى الناس ينطلقون إلى حمى ذى الشرى خاشعين يسألونه الرزق
وطالة الأعمار ، ويا طالما قال لهم : إنكم تعبدون من دون الله أو ثانا وتخلقون
إفكا . فكانوا يجعلون أصابعهم فى آذانهم ويستغشون ثيابهم ويصرون
ويستكبرون استكبارا .

وضاق بقومه فجاء رسول الله — ﷺ — بمكة فقال له :
— يا نبي الله ، إنه قد غلبنى على دوس الزنا ، فادع الله عليهم .
وتقاصرت نفس الطفيل لما مس أذنيه صدى صوت رسول الله
— صلوات الله وسلامه عليه — إنه لم يدع الله عليهم بل دعا لهم فقال :
— اللهم اهد دوسا . ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم .
وقال الطفيل فى نفسه :

— صدق الله العظيم : إنك لعلى خلق كريم يا رسول الله .
وانحدرت الشمس ثم راح قرص الذهب الأحمر يغوص فى الأفق الغربى
والطفيل بن عمرو يطوى القفار والفكر يهيم فيما كان . إنه يحس وقد خلا
بنفسه أن فاتته بعض المشاهد مع رسول الله عليه السلام : فقد مضى بدر
وأحد والخندق وهو فى قومه يدعوهم إلى الإسلام . ثم قدم على رسول الله
— ﷺ — بمن أسلم معه من قومه ورسول الله — ﷺ — بخير ، حتى

نزل المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس ، ثم لحق برسول الله ﷺ — بخير
فأسهم لهم مع المسلمين .
وراح يطيب نفسه ويقنعها بأنه إن كان قد فاته جهاد فقد كان في جهاد .
وجعل يشكر الله أن قيض له الهجرة وكان فضل الله عليه عظيما .
ولاح له جبل دوس والماء يهبط منه فاشتد وجيب قلبه . فعند محنية الوادى
صنم ذى الكفين . ترى أيستطيع سادنه أن يقف في وجه جموع المسلمين
المرجرة المتدفقة لك الإفك والشرك بعد أن فاضت أفئدتهم بأنوار اليقين ؟
ولوى الطفيل شفته السفلى استهزاء ثم اندفع على راحلته حتى إذا جاء قومه
دعاهم إلى الخروج لحرق الصنم الذى لا يملك لنفسه نفعا أو ضرا .
وانطلقت الجموع كالسيل إلى صنم عمرو بن حممة الدوسى فوقف
السادن مشدوها لا يحرك ساكنا ، وتقدم الطفيل والذين معه فهدموا ذا
الكفين وجعل الطفيل يحش النار في وجهه ويقول :
يا ذا الكفين لست من عبادك ميلادنا أقدم من ميلادك
إني حششت^(١) النار في فؤادك
وانحدر معه من قومه أربعمئة سراعا وقد حملوا معهم دبابة^(٢)
ومنجنيقا^(٣) ليوافوا رسول الله ﷺ — بالطائف .

(١) حش النار : أوقدها .

(٢) الدبابة : آلة تتخذ في الحروب يدخل في جوفها الرجال ثم تدفع في أصل الحصن
فينقبونه وهم في جوفها .

(٣) والمنجنيق : آلة ترمى بالحجارة لتهدم الحصون .

انهزم مالك بن عوف فانسحب بقلول جيشه إلى الطائف وأغلق أبواب المدينة ، ثم دخل هو والذين معه حصنا حصينا بعد أن أدخل فيه ما يصلحهم لسنة وأغلقوه عليهم وتهيئوا للقتال ، فقد كانوا واثقين أن رسول الله ﷺ — سيسير إليهم ليقاتلهم ، فما كان عليه السلام بتاركهم وقد بدعوه بالعداوة قبل أن يقضى على فتنهم أو يدخلوا في السلم كافة .

وسار رسول الله ﷺ — من حنين يريد الطائف ، وقدم خالد بن الوليد على مقدمته . ومر جيش المسلمين بقبر فقال رسول الله ﷺ — :
— هذا قبر أبي رغال .

كان أبرهة قد خرج بأمر نجاشي الحبشة في جيش عظيم ليقضى على ديانات العرب ويهدم بيوت عبادتهم ، ويتقدم حتى يتصل نصارى الحبشة بنصارى الشام فيرفع بذلك الصليب على الجزيرة العربية كلها . وانطلق أصحاب الفيل حتى إذا ما بلغوا الطائف وأرادوا هدم بيت اللات المقدس تلقى أهل الطائف القائد العظيم بالخضوع وأظهروا له الولاء والطاعة وزينوا له هدم البيت العتيق ، فهو البيت الذى تهوى إليه كل قلوب العرب وهو الرباط الوحيد بينهم وإن اختلفوا فى الملل والنحل . وقدموا إليه أبا رغال ليكون دليلا له ليوصله إلى مكة .

ونظر المسلمون إلى قبر أبي رغال فى غضب واحتقار . وتحرك الحقد فيهم على الرجل الذى قاد جيش الأعداء لهدم أول بيت وضع للناس ، ولولا أن (فتح مكة)

حمى الله بيته وأرسل على أصحاب الفيل طيرا أبابيل^(١) ترميهم بحجارة من سجيل لكان بيت أبيهم إبراهيم قد درس ولما عاد مرة أخرى ليكون منارة للتوحيد ، فهجموا ثائرين على قبر الخائن ونبشوه .

وانطلق جيش المسلمين فسلك رسول الله ﷺ — على نخلة اليمانية ، ثم على قرن ثم على المليح ، ثم على بحرة الرغاء من لية فابتنى بها مسجدا فصلى فيه . ونزل المسلمون ببخرة الرغاء فعدا رجل من بنى ليث على رجل من هذيل فقتله ، فقتله — ﷺ — به وهو أول دم أقيد به في الإسلام .

وكان حصن مالك بن عوف على مرمى البصر من عسكر المسلمين ، فأمر — ﷺ — به فهدم . ثم سار عليه السلام بطريق يقال لها الضيقة ، فلما توجه فيها رسول الله ﷺ — سأل عن اسمها فقال :

— ما اسم هذه الطريق ؟

— الضيقة .

— بل هي اليسرى .

ثم خرج منها على نخب حتى نزل سدره يقال لها الصادرة قريبا من مال رجل من ثقيف ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ : إما أن تخرج وإما أن تخرب عليك حائطك (بستانك) . فأبى أن يخرج فأمر رسول الله ﷺ — بإخراجه .

ثم مضى رسول الله ﷺ — حتى نزل قريبا من الطائف فضرب به عسكره قريبا من الحصن الذى تحصن فيه مالك بن عوف والذين معه ، فسرعان ما تراموا بالنبل ، وانهاالت القذائف على المسلمين فأصيب ناس منهم

(١) أبابيل : جماعات متتابعة .

بجراحات وكان أبو سفيان بن حرب يتقدم ليسدد سهامه فإذا بسهم يصيب عينه ، فأتى النبي ﷺ — وعينه في يده فقال :
— يا رسول الله هذه عيني أصيبت في سبيل الله .

ورمى عبد الله بن أبي بكر الصديق بسهم فحمل إلى حيث كان أبوه والدم ينزف منه غزيرا ، وأصيب سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية إصابة أردته قتيلا ، ورمى ثابت بن الجذع من الأنصار رمية قاتلة ، وحاول المسلمون أن يدخلوا الحصن فلم يقدروا عليه . فلما أصيب أولئك نفر من أصحاب رسول الله ﷺ — بالنبل وضع عسكره بعيدا عن رمى النبال .

وكان مع رسول الله ﷺ — امرأتان من نسائه إحداهما أم سلمة بنت أبي أمية فضرب لهما قبتين ، ثم صلى بين القبتين وراح يحاصر ثقيفا ويقاتلهم قتالا شديدا والنبل يتطاير من الحصن إلى الأرض ومن الأرض إلى الحصن وأنات تنبعث من الحصن وأجساد ترتطم بالأرض ، واستشهد السائب بن الحارث بن قيس وأخوه عبد الله بن الحارث .

ودخل — خيمة أم سلمة وعندها أخوها عبد الله بن أبي أمية ، وهيت الخنث وكان لعبد الله ، وكان هيت يقول :

— إن فتح الله عليكم الطائف فسل النبي ﷺ — بادية بنت غيلان بن سلمة بن معتب فإنها هيفاء شموع^(١) نجلاء^(٢) . إن تكلمت تغنت وإن قامت تثنت ، تقبل بأربع وتدبر بثمان ، مع ثغر كأنه الأقحوان^(٣) . وبين رجلها كالإناء المكفوء ، كما قال قيس بن الخطيم :

(١) شموع : مضيئة .

(٢) نجلاء : واسعة العين .

(٣) الأقحوان : نبات الربيع له نور أبيض .

تغترق الطرف وهى لاهية كأنما شف وجهها تُزف
بين شكول النساء خلقتها قصد^(١) فلاجلسة ولافضف^(٢)

فقال النبي ﷺ :

— لقد غلغت النظر يا عدو الله .

ثم جلّاه عن المدينة إلى الحمى وقال :

— لا يدخل على أحد من نسائككم .

واستؤنف القتال فأقبل خالد بن الوليد ونادى :

— من يبارز ؟

فلم يطلع إليه أحد . ثم كرر ذلك فلم يطلع إليه أحد . وناداه عبد ياليل :

— لا ينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيم في حصنتنا فإن به من الطعام ما يكفيننا

سنين ، فإن أقمت حتى يذهب هذا الطعام خرجنا إليك بأسيا فثنا جميعا نموت
عن آخرنا .

وتطأيرت السهام بين الجانبين فأصاب سهم عبد الله بن أمية بن المغيرة

فقتله قبل أن يفتح الله على المسلمين الطائف ، وقبل أن يسأل رسول الله —

ﷺ — بادية بنت غيلان . ذلك الرجل الذى وفد على كسرى فقال له

كسرى :

— أى ولدك أحب إليك ؟

فقال :

(١) قصد : وسط .

(٢) القصف : النحافة .

— الغائب حتى يقدم ، والمريض حتى يعافى ، والصغير حتى يكبر .
ولم يشهد حصار الطائف عروة بن مسعود عظيم ثقيف ولا غيلان بن
سلمة ، كانا بخرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور وهى آلات
حربية حديثة ستغير خطط القتال رأسا على عقب .

وأشرقت شمس اليوم الرابع فإذا بالطفيل بن عمرو الدوسى قد قدم ومعه
من قومه أربعمائة ودبابة ومنجنيق واستبشر المسلمون بآلات الحرب
الحديثة ، ودخل نفر من أصحاب رسول الله — ﷺ — تحت دبابة وكانت
من جلود ، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه فأرسلت عليهم ثقيف
سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم
رجالا ، فأمر رسول الله — ﷺ — بقطع أعناقهم وتحريقها فوقع الناس فيها
وقطعوا قطعاً ذريعاً ، فسألوه أن يدعها لله وللرحم فقال رسول الله —
ﷺ :

— إني أدعها لله وللرحم .

ونادى رسول الله — ﷺ — :

— أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر .

فخرج منهم ثلاثة وعشرون رجلاً ونزل منهم شخص فى بكرة فقبل له أبو
بكرة وكان عبداً للحارث بن كلدة طيب ثقيف ووالد النضر بن الحارث
الذى كان يقول : « والله ما محمد بأحسن حديثاً منى وما حديثه إلا أساطير
الأولين » ، فأعتقهم رسول الله — ﷺ — ودفع كل رجل منهم إلى رجل
من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة .

ونخشى أبو سفيان بن حرب على ابنته آمنة بنت أبي سفيان وكانت عند
عروة بن مسعود ، وخاف على نساء من قريش وبنى كنانة فتقدم والمغيرة بن

شعبة إلى الطائف فناديا ثقيفا : أن أمنونا حتى نكلمكم . فأمنوهما فدعوا نساء من نساء قريش وبنى كنانة ليخرجن إليهما فأين . فعاد أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة إلى صفوف المسلمين وقد أطرقا حزنا يخافان على نساء قريش وبنى كنانة اللاتي تزوجن في ثقيف السباء .

واستأذن رسول الله ﷺ — عيينة بن حصن الخليع المطاع الذي تتبعه ألف امرأة في أن يأتي ثقيفا في حصنهم ليدعوهم إلى الإسلام فأذن له في ذلك ، فأتاهم فدخل في حصنهم فقال لهم :

— تمسكوا في حصنكم ، فوالله لنحن أذل من العبيد ولا تعطوا بأيديكم ولا تتأثروا بقطع هذا الشجر .

فرجع إلى رسول الله ﷺ — فقال له :

— ما قلت لهم يا عيينة ؟

— أمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه وحذرتهم النار ودللتهم على الجنة .

— كذبت . إنما قلت لهم : تمسكوا في حصنكم .

— صدقت يا رسول الله . أتوب إلى الله وإليك من ذلك .

ونام القوم ، ولما استيقظ رسول الله عليه السلام قال لأبي بكر الصديق :

— يا أبا بكر إني رأيت أني أهديت لي قبة (قدح) مملوءة زبدا فنقرها ديك

فهراق ما فيها .

فقال أبو بكر الصديق :

— ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد .

فقال رسول الله ﷺ — :

— وأنا لا أرى ذلك .

واستشار رسول الله ﷺ — نوفل بن معاوية الديلي في الذهاب

أو المقام ، فقال له :

— يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت أخذته وإن تركته لم يضرك .

فأمر رسول الله — ﷺ — عمر بن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل ،

فقبح الناس ذلك وقالوا .

— نرحل ولم يفتح علينا ؟

فقال رسول الله — ﷺ — :

— فاغدوا على القتال :

فغدوا فانهاالت سهام عليهم من الحصن كوابل من المطر فأصاب الناس

جراحات ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— إنا قافلون إن شاء الله .

فسروا بذلك وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله — ﷺ — يضحك

تعجبا من سرعة تغير رأيهم ، ونادى سعيد بن عبيد بن أسيد وهو ينظر إلى أهل

الطائف وهم في حصنهم :

— ألا إن الحى مقيم .

فقال عيينه بن حصن :

— أجل والله مجدة كراما .

فقال رجل من المسلمين :

— قاتلك الله يا عيينة ، أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله —

ﷺ — وقد جئت تنصر رسول الله — ﷺ — !

— إني والله ما جئت لأقاتل ثقيفا معكم ولكنى أردت أن يفتح محمد

الطائف فأصيب من ثقيف جارية أتطعها لعلها تلد لى رجلا ، فإن ثقيفا قوم

مناكير (١) .

ورجعوا إلى رسول الله — ﷺ — وقال لهم عليه السلام :
— قولوا لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم
الأحزاب وحده .

فلما ارتحلوا واستقبلوا قال :
— قولوا آيئون تائبون عابدون ، لربنا حامدون .

وقالوا :
— يا رسول الله ادع على ثقيف أهل الطائف .
فقال :

— اللهم اهد ثقيفا وأت بهم مسلمين .
وانحدر المسلمون إلى الجعرانة ، فلقى سراقة رسول الله — ﷺ — وهو
واضع الكتاب الذي كتبه له — ﷺ — عند الهجرة بين أصبعيه وينادى :
— أنا سراقة وهذا كتابي .

وتذكر أبو بكر يوم أن هاجر مع رسول الله — ﷺ — إلى المدينة وراح
سراقة يتبعهما ليلال جائزة قريش . إن أبا بكر لذكر ذلك الكتاب الذي يضعه
سراقة بين إصبعيه فقد كتبه بخط يده . ونظر — ﷺ — إلى سراقة وقال :
— هذا يوم وفاء ومودة . أدنوه .

فأدنوه منه وساق إليه الصدقة وسأله عن الضالة من الإبل ترد حوضه
الذي ملأه لإبله هل له في ذلك من أجر ، فقال رسول الله — ﷺ — :
— نعم ، في كل ذات كبد حراء أجر .

وانصرف رسول الله عن الطائف فرجع إلى الجعرانة فأنهى إليها ليلة الخميس لثلاث نخلون من ذى القعدة . وأحصى السبي فكان ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفا ، والغنم أكثر من أربعين ألفا ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، فاستأنى رسول الله — ﷺ — بالسبي أن يقدم عليه وفدهم وبدأ بالأموال فقسمها . وأعطى المؤلفه قلوبهم أول الناس فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل ، قال :

— وابنى يزيد ؟

— أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل .

— وابنى معاوية ؟

فأعطاه أربعين أوقية ومائة من الإبل . فقال :

— بأبى أنت وأمى يا رسول الله لأنت كريم فى الحرب وفى السلم . لقد حاربك فنعم المحارب كنت ، وقد سالمك فنعم المسالم أنت . هذا غاية الكرم جزاك الله خيرا .

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه إياها ، ثم سأله مائة فأعطاه وقال له :

— يا حكيم هذا المال خضر حلو من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى .

فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها وقال :
— يا رسول الله والذي بعثك بالحق نبيا لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا .

فكان أبو بكر يدعو حكيمًا ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئا ، ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله .

وأعطى النضير بن الحارث بن علقمة بن كلدة مائة من الإبل ، وأعطى أسيد بن جارية الثقفي مائة من الإبل ، وأعطى العلاء بن جارية الثقفي خمسين بعيرا . وأعطى مخزومة بن نوفل خمسين بعيرا ، وأعطى الحارث بن هشام مائة من الإبل ، وأعطى سعيد بن يربوع خمسين من الإبل ، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ، وأعطى قيس بن عدى مائة من الإبل ، وأعطى عثمان بن وهب خمسين من الإبل وأعطى سهيل بن عمرو مائة من الإبل ، وأعطى حويطب بن عبد العزى مائة من الإبل ، وأعطى هشام بن عمرو العامري خمسين من الإبل ، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة من الإبل ، وأعطى عيينه بن حصن مائة من الإبل ، وأعطى العباس بن مرداس أربعين من الإبل ، فقال العباس بن مرداس :

كانت نهابا تلافيتها	بكرى على المهر في الأجرع ^(١)
وإيقاضى القوم أن يرقدوا	إذا هجع الناس لم أهجع
فاصبح نهبي ونهب العبيد	سد ^(٢) بين عيينه والأقرع
وقد كنت في الحرب ذا تدرأ ^(٣)	فلم أعط شيئا ولم أمنع

(١) الأجرع : السهل .

(٢) العبيد : اسم فرس عباس بن مرداس .

(٣) ذا تدرأ : ذا دفع عن قومي .

إلا أفائل^(١) أعطيتها عديد قوائمها الأربع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في المجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع
فقال رسول الله — ﷺ :
— اقطعوا عني لسانه .

فأتى به أبو بكر الصديق إلى الغنائم وقال له :
— خذ منها ما شئت .

— إنما أراد رسول الله — ﷺ — أن يقطع لسانى بالعطاء .
فكره أن يأخذ منها شيئا ، فبعث رسول الله — ﷺ — إليه بحلة ،
وقيل :

— يا رسول الله ، أعطيت عيينه بن حصن والأقرع بن حابس مائة
وتركت جعيل بن سراقه .

— أما الذى نفسى بيده لجعيل بن سراقه خير من طلاع الأرض كلهم
مثل عيينه والأقرع ، ولكنى تألفتها ووكلت جعيل بن سراقه إلى إسلامه .
وكان جعيل بن سراقه من فقراء المسلمين وكان رجلا صالحا دميما
قبيحا ، وكان رسول الله — ﷺ — يحبه وإن رسول الله عليه السلام ليعطى
الرجل وغيره أحب منه خشية أن يكب في النار على وجهه . وقد قال عليه
السلام :

— إن من الناس ناسا نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان .
أعطى رسول الله عليه السلام المؤلفة قلوبهم من الخمس فاجتمع إليه الناس

(٤) أفائل : الصغار من الإبل .

وصاروا يقولون :

— يا رسول الله أقسم علينا .

وتدفعوا نحوه حتى ألجئوه إلى شجرة فاختطفت رداءه فقال :

— ردوا رداي أيها الناس ، فوالله إن كان لي شجر تهامة نعمما لقس عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كدودا .

ثم قام — ﷺ — إلى جنب بعيره فأخذ وبرة من سنامه ثم رفعها ثم قال — أيها الناس ، والله ما لي من فيئكم ولا هذه البرة إلا الخمس والخم مردود عليكم ، فأدوا الخياط والنخيط فإن الغلول يكون على أهله عارا وش ونارا يوم القيامة .

فجاء شخص من الأنصار بكبة من خيوط شعر وقال :

— يا رسول الله أخذت هذه الكبة أعمل بها بردعة بعير لي دبر .

فقال رسول الله — ﷺ :

— أما نصيبى منها فلك .

ففهم الأنصارى أنه عليه السلام قد طابت نفسه في الخمس وأما المسلمين فليس له أن يجود به ، فقال الرجل :

— أما إذ بلغت هذا فلا حاجة لي بها .

وألقاها . وقالت امرأة عقيل بن أبي طالب لعقيل :

— إني قد علمت أنك قد قاتلت فماذا أصبت من الغنيمة ؟

وكان عقيل قد أخذ إبرة من الغنيمة قبل أن تقسم بين المسلمين ، فد

إلى امرأته وهو يقول :

— دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك .

فسمع منادى رسول الله — ﷺ — يقول :

— من أخذ شيئا فليرده حتى الخياط .

فرجع وأخذها منها وألقاها في الغنائم .

وكان أبو جهم بن حذيفة العدوي على الأنفال فجاءه خالد بن البرصاء وأخذ من الأنفال زمام شعر فمانعه أبو جهم . فلما تمانعا ضربه أبو جهم بالقوس فشججه شجرة منقلة ، فاستعدى عليه خالد بن البرصاء رسول الله ﷺ — فقال له عليه السلام :

— خذ خمسين شاة ودعه .

فقال خالد في إصرار :

— أقدني منه .

— خذ مائة ودعه .

— أقدني منه .

— خذ خمسين ومائة ودعه وليس لك إلا ذلك ، ولا أقيدك من وال

عليك .

ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ثم فرقها وقسمها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربع من الإبل وأربعون شاة ، فإن كان فارسا أخذ أربع عشرة من الإبل أو عشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم للفرس الزائد ، فلم يعط الزبير إلا لفرس واحد وكان معه أفراس وقال بعض المنافقين :

— هذه القسمة ما عدل فيها ولا أريد بها وجه الله .

فأخبر بذلك النبي فغضب — ﷺ — غضبا شديدا واحمر وجهه

وقال :

— من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحمة الله على أخى موسى عليه

السلام لقد أودى بأكثر من هذا فصبر .

فقام إليه عمر بن الخطاب فقال :

— يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟

— لا .

ثم أدبر فقام إليه خالد بن الوليد فقال :

— يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟

— لا . لعله أن يكون يصلى .

فقال خالد :

— وكم من مصل يقول لسانه ما ليس في قلبه .

— إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم .

وأعطى رسول الله ﷺ — ما أعطى من تلك العطايا في قريش بعد أن

بايعه من بنى أمية : أبو سفيان بن حرب وطلح بن سفيان بن حرب وخالد

ابن أسيد ابن أبي العيص بن أمية ، ومن بنى عبد الدار بن قصي : شيبه بن عثمان

ابن أبي طلحة وأبو السنابل بن يعكك وعكرمة بن عامر بن هاشم ، ومن بنى

مخزوم : زهير بن أمية بن المغيرة وهشام بن الوليد بن المغيرة وسفيان بن عبد

الأسد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم والسائب بن أبي السائب ، ومن بنى

عدى : مطيع بن الأسود وأبو جهم بن حذيفة ، ومن بنى جمح صفوان بن

أمية وأحيحة بن أمية بن خلف وعمير بن وهب بن خلف . ومن بنى سهم :

عدى بن قيس ، ومن بنى عامر ، حويطب بن عبد العزى وهشام بن عمر .

ومن أفناء القبائل : من بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة : نوفل بن معاوية ،

ومن بنى سليم : عباس بن مرداس . ومن بنى غطفان : عيينه بن حصن ،

ومن بنى تميم الأقرع بن حابس . فلما أعطى رسول الله ﷺ — ما أعطى

من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجدوا في أنفسهم وغضبوا حتى كثرت منهم القالة ، فقال بعضهم :

— إن هذا هو العجب . يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟

— إن سيوفنا تقطر من دماء قريش وإن غنائمنا ترد عليهم .

— إذا كانت شديدة ندعى إليها ويعطى الغنيمة غيرنا .

— سيوفنا تقطر من دمائهم وهم يذهبون بالغنم ، فإن كان من أمر الله

صبرنا وإن كان من أمر رسول الله استعينا .

وقال حسان بن ثابت يعاتبه في ذلك :

زادت هموم فماء العين منحدر سحاً إذا حفلته عبرة درر

وجدا بشماء إذ شماء بهكنة^(١) هيفاء لا دنس فيها ولا خور

دع عنك شماء إذ كانت مودتها نذرا وشر وصال الواصل النزر

وأت الرسول فقل يا خير مؤتمن للمؤمنين إذا ما عُدد البشر

علام تدعى سليم وهي نازحة قدام قوم هم آووا وهم نصروا

سماهم الله أنصارا بنصرهم دين الهدى وعوان الحرب تستعر

وسارعوا في سبيل الله واعترفوا لنائبات وماخاموا^(٢) وماضجروا

والناس إلـب علينا فيك ليس لنا

إلا السيوف وأطراف القنا وزر^(٣)

نجالد الناس لا نبقي على أحد ولا نضيّع ما توحى به السور

(١) شماء : امرأة وبهكنة : كثيرة اللحم .

(٢) خاموا : جبنوا .

(٣) الوزر : الملجأ .

ولا تهر (١) جناة الحرب نادينا ونحن حين تلظى نارها سمر
كما رددنا بيدر دون ما طلبوا أهل النفاق وفيما ينزل الظفر
ونحن جندك يوم النعف (٢) من أحد
إذا حزبت بطرا (٣) أحزابها مضر

وقال بعضهم :

— لقي والله رسول الله — ﷺ — قومه .

فدخل عليه سعد بن عبادة فقال :

— يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما
صنعت في هذا الفىء الذى أصبت ؛ قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاما
ولم يكن من الأنصار منها شيء .

— فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

— يا رسول الله ما أنا إلا من قومي .

— فاجمع لى قومك في هذه الحظيرة .

فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين
فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم . فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال :
— قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار .

فأتاهم رسول الله — ﷺ — فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

(١) تهر : تكره .

(٢) النعف : أسفل الجبل : وحزبت : جمعت .

(٣) البطر : كفران النعمة .

— يا معشر الأنصار ما قاله بلغتني عنكم وجدة^(١) وجدتموها عليّ في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلّالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

— بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

— ألا تحيوني يا معشر الأنصار ؟

— بماذا نحييك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل .

— أما والله لو شئتم لقلتم فلصدّقتهم ولصدّقتهم : أتيتنا مكذبا فصدّقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فأويناك ، وعائلا فأسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاة (بقلة خضراء) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعبا وسلكت الأنصار شِعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا :

— رضينا برسول الله قسما وحظا .

(١) وجد : غضب وحزن .

استأنى رسول الله ﷺ — بسبى هوازن فقد كان يرجو أن يأتى أهلهم مسلمين ، ولكنه مكث عليه السلام بالجعرانة ثلاثة عشر يوما دون أن يقدم وفد هوازن فراح يقسم السبى بين المسلمين بعد أن كساهم قبطية قبطية ، وهى ثياب بيض تتخذ من كتان مصر . فأعطى على بن أبى طالب جارية يقال لها ريطة بنت هلال بن حيان بن عميرة بن هلال بن ناصرة بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر ، وأعطى عثمان بن عفان جارية يقال لها زينب بنت حيان بن عمرو بن حيان ، وأعطى عمر بن الخطاب جارية فوهبها لعبد الله بن عمر ابنه فبعث بها إلى أخواله من بنى جمح ليصلحوا له منها ويهيئوها حتى يطوف بالبيت ثم يأتهم .

ونظر عينه بن حصن إلى عجوز كبيرة فقال :

— هذه أم الحى لعلهم أن يغلوا بفدائها ، وعسى أن يكون لها فى الحى

نسب .

فأخذها وهو يطمع فى أن يعظم فداؤها . وأمر رسول الله ﷺ — بحبس أهل مالك بن عوف النصرى بمكة عند عمتهم أم عبد الله بن أبى أمية ، ولم يجز أن تجرى السهمان فى مال مالك بن عوف الذى جمع القبائل لحربه ثم لما انهزم تحصن فى حصن الطائف وأرسل السهام وقتل الرجال :

وفد وفد هوازن على رسول الله ﷺ — وهم أربعة عشر رجلا ورأسهم زهير بن صرد وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ — من

الرضاعة وقد أسلموا ، فقالوا :

— يا رسول الله إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ،
فامن علينا .

وقام أبو صرد فقال :

— يا رسول الله إنا أهل وعشيرة ، فامن علينا وعلى النسوة اللاتي كن
معك يكفلنك ، ولو أنا ملحنا (أرضعنا) للحارث بن شمر أو للنعمان بن
المنذر ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به لرجونا عطفه وعائده علينا ، وأنت خير
المكفولين ، ثم أنشد :

امن علينا رسول الله في كرم	فإنك المرء نرجوه ونتنظر
امن على بيضة قد عاقها قدر	ممزق شملها في دهرها غير
يا خير طفل ومولود ومتجب	في العالمين إذا ما حصل البشر
إن لم تداركهم نعماء تنشرها	يا أرجح الناس حلما حين يختبر
فامن على نسوة قد كنت ترضعها	إذ فوك يملؤه من محضها درر
إذ كنت طفلا صغيرا كنت ترضعها	واد يزينك ما تأتى وما تذر
لا تجعلنا كمن شالت نعمته ^(١)	واستبق منا فإننا معشر زهر

يا خير من مرحت^(٢) كمت الجياد به

عند الهياج إذا ما استوقد الشرر

إنا لنشكر آلاء وإن كُفرت	وعندنا بعد هذا اليوم مدّخر
إنا نؤمل عفوا منك تلبسه	هذى البرية إذ تعفو وتنتصر

(١) شالت نعمتهم : ماتوا وتفرقوا . والنعامة : الجماعة .

(٢) مرحت الخيل : نشطت وتبخترت .

فاغفر عفا الله عما أنت واهبه يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر
فقال رسول الله — ﷺ :

— أبناؤكم ونساءكم أحب إليكم أم أموالكم ؟
— يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا . فرد إلينا أبناءنا ونساءنا فهو
أحب إلينا .

فأرشدتهم عليه السلام إلى ما يفعلون ، فلما صلى الظهر قاموا وقالوا ما
لكنهم إياه عليه السلام :
— إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا
ونسائنا .

فقال عليه السلام :
— أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم .
وقال المهاجرون :

— وما كان لنا فهو لرسول الله — ﷺ .
وقالت الأنصار :

— وما كان لنا فهو لرسول الله — ﷺ — .
وقال الأقرع بن حابس :
— أما أنا وبنو تميم فلا .

وقال عيينة بن حصن الخليلي المطاع :
— أما أنا وبنو فزارة فلا .

وقال عباس بن مرداس :
— أما أنا وبنو سليم فلا .

فقلت بنو سليم :

— بلى . ما كان لنا فهو لرسول الله — ﷺ — .

فقال عباس لبنى سليم :

— وهتتموني .

فقال رسول الله — ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض ، من أول سبي أصيبه ، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم .

أخذ رسول الله على نفسه في سبيل تحرير الرقاب أن يدفع لكل من لم تطب نفسه أن يرد ما في يده ستة أبعرة من أول ما يفىء الله عليه ، فرد الناس ما في أيديهم إلا عينة بن حصن فقد أبى أن يرد العجوز وقد طمع في أن يعظم فداؤها .

وجاء ابنها إلى عينة فقال :

— هل لك في مائة من الإبل ؟

— لا .

فرجع عنه فتركه ساعة ، وجعلت العجوز تقول لابنها :

— ما إربك في بعد مائة ناقة ؟ اتركه فما أسرع ما يتركني بغير فداء .

فلما سمعها عينة قال :

— ما رأيت كالיום خدعة . والله ما أنا من هذه إلا في غرور ، ولا جرم

والله لأبعدن أثرك مني .

ثم مر بها ابنها فقال له عينة :

— هل لك فيما دعوتني إليه ؟

— لا أزيدك على خمسين .

— لا أفعل .

ثم لبث ساعة فمر به وهو معرض عنه ، فقال له عيينة :

— هل لك في الذي بذلت لي ؟

قال له الفتى :

— لا أزيدك على خمس وعشرين فريضة .

— والله لا أفعل .

فلما تخوف عيينة أن يتفرق الناس ويرتحلوا قال :

— هل لك فيما دعوتني إليه إن شئت ؟

— هل لك إلى عشر فرائض ؟

— لا أفعل .

وتأهب الناس للرحيل فناداه عيينة :

— هل لك إلى ما دعوتني إليه إن شئت ؟

— أرسلها وأحمدك .

— لا والله ما لي حاجة بحمدك .

فأقبل عيينة على نفسه لائما لها يقول :

— ما رأيت كالיום أمرا أنكد .

— أنت صنعت هذا بنفسك . عمدت إلى عجوز كبيرة . والله ما ثديها

بناهد ولا بطنها بوالد ولا فوها ببارد ولا صاحبها بواجد ، فأخذتها من بين ما

تري .

— خذها لا بارك الله لك فيها .

— يا عيينة إن رسول الله ﷺ — قد كسا السبي فأخطأها من بينهم

الكسوة ، فهل أنت كاسيها ثوبا ؟

— لا والله ما لها ذاك عندي .

— لا تفعل .

فما فارقه حتى أخذ منه سمل ثوب . ولقى عيينة بن حصن الأقرع بن حابس فشكا إليه ما كان من أمره وأمر العجوز ، فقال له الأقرع :
— إنك والله ما أخذتها بيضاء غريرة^(١) ، ولا نصفاً وثيرة^(٢) .

وقال النبي — ﷺ — لو فد هوازن :

— ما فعل مالك بن عوف ؟

— يا رسول الله هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف .

— أخبروه أنه إن أتى مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من

الإبل .

وانطلق رجل إلى حيث كان مالك بن عوف فأسر له ما قال رسول الله — ﷺ — ، فخاف مالك ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله — ﷺ — قال له ما قال فيحبسوه ، فأمر براحلة فهيئت له وأمر بفرس له فأتى به إلى الطائف ، فخرج ليلاً فجلس على فرسه وركضه حتى أتى الدهناء فإذا براحلته حيث أمر بها أن تحبس فركبها ، فلحق برسول الله — ﷺ — فأدركه بجعرانة قبل أن ينطلق إلى مكة .

واستقبله عليه السلام بالترحاب ورد عليه أهله وماله ، ورأى مالك بن عوف جود النبي وحلمه وعفوه وزهده في الدنيا ومكارم أخلاقه ، فأنشد :
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد

(١) الغريرة : المتوسطة من النساء في السن .

(٢) الوثيرة من النساء : السميكة اللينة .

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى^(١)

ومتى تشأ يخبرك عما في غد

وإذا الكتيبة عرّدت^(٢) أنيابها بالسهمري وضرب كل مهند

فكأنه ليث على أشباله وسط الهباءة خادر في مرصد^(٣)

فاستعمله رسول الله ﷺ — على من أسلم من قومه وتلك القبائل من ثمالة وسلمة وفهم ، فخرج ليقاتل بهم ثقيفا حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وتزوج عبد الرحمن بن عوف بادية بنت غيلان بن مسلمة ، وخرج عبد الله بن عمر ليطوف بالبيت ثم يأتي أخواله من بني جمح ليصيب تلك المرأة التي وهبها له أبوه عمر بن الخطاب من سبي هوازن ، فلما انتهى من طوافه وخرج من الحرم فإذا الناس يشتدون فقال :

— ما شأنكم ؟

— رد علينا رسول الله ﷺ — نساءنا وأبناءنا .

— تلکم صاحبکم فی بنی جمح فاذهبوا وخذوها .

ورد رسول الله ﷺ — إلى صفوان بن أمية السلاح الذي كان قد أخذه عارية مضمونة . ورد الأموال التي كان قد اقترضها لينفقها على فقراء المسلمين بعد أن فتح الله عليه مكة ، فراح صفوان بن أمية يقلب النظر في الإبل والأغنام التي ملأت الوادي وقد قسمها عليه السلام بنفس راضية على أعداء

(١) اجتدى : طالبوه بالعطاء .

(٢) عرّدت أنيابها : نفذت واشتدت ، والسهمري : السيف .

(٣) الهباءة : الغبار يثور عند اشتداد الحرب ، والخادر : الأسد في عرينه ، والمرصد : المكان يرقب منه . يصفه باليقظة .

الأمس فامتلاً إعجاباً بالرجل الذى خرج من مكة ولم يكن هناك رجل أبغض إلى قلبه منه ، فإذا بخلقه العظيم يستولى على قواده وإذا بالكراهية تبختر ليحل مكانها حب عظيم للنبي الكريم الذى أسر القلوب ، كل القلوب .

وقال قاتل فى هوازن يذكر مسيرهم إلى رسول الله — ﷺ — مع مالك بن عوف بعد إسلامه :

اذكر مسيرهم للناس إذ جمعوا ومالك فوقه الرايات تختفق
ومالك مالك ما فوقه أحد يوم حنين عليه التاج يأتلق
حتى لقوا الباس حين الباس يقدمهم
عليهم البيض^(١) والأبدان والدرق^(٢)

فضاربوا الناس حتى لم يروا أحداً حول النبي وحتى جنة الفسق
ثمّت نزل جبريل بنصرهم من السماء فمهزوم ومعتق
منا ولو غير جبريل يقاتلنا لمنعنا إذن أسيافنا العتق
وفاتنا عمر الفاروق إذ هزموا بطعنة بلّ منها سرجه العلق^(٣)
وحسن إسلام مالك بن عوف فراح يقاتل بمن أسلم من قومه وبقبائل ثمالة
وسلمة وفهم ثقيفا ، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه وأخذ ، وأرسل بالخمس
مما يغنم إلى رسول الله — ﷺ . فلما ضيق على ثقيف قال أبو محجن الثقفى :
هابت الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سلمة
وأتانا مالك بهم ناقضا للعهد والحُرمة
وآتوننا فى منازلنا ولقد كنا أولى نِقمة

(١) البيض : الخوذات توضع على الرؤوس .

(٢) الدرق : الصلب من كل شيء .

(٣) العلق : الدم .

خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة معتمرا وذلك ليلة الأربعاء لثنتي عشرة ليلة مضت من ذى الحجة ، فأحرم بعمره وأمر ببقايا الفياء فحبس بمجنة بناحية مر الظهران .

وانطلق المسلمون إلى البيت الحرام وقد أثر في نفوسهم ذلك الكرم الفياض الذي غمر به رسول الله ﷺ — المؤلفة قلوبهم وأعداء الأمس ووفد هوازن الذين جاءوا مسلمين فرد إليهم نساءهم وأبناءهم بعد أن وقعت المقاسم مواقعها .

وكانت أم سلمة بنت زاد الركب بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم في هودجها تنظر في انفعال إلى الوادى الذى غص بالغنائم التى قسمها رسول الله ﷺ — بين المسلمين ، وإلى سادات المدينة وسادات قريش وسادات القبائل وقد لبسوا ملابس الإحرام وقد ارتفعت أصواتهم بالتلبية لرب العالمين ، فترقرقت في مآقيها الدموع وعادت بها ذكرياتها إلى أيام الاضطهاد والتعذيب ، فرأت نفسها وهى تهاجر إلى الحبشة مع زوجها عبد الله بن عبد الأسد بن هلال فرارا بدينها . إنها ولدت له هناك زينب وسلمة وعمر ودرة ، وقد عادت إلى مكة لما بلغ المسلمين فى الحبشة أن قريشا قد آمنت بالنور الذى أنزل مع رسول الله عليه السلام . ولكنها لما بلغت مرفأ مكة علمت أن قريشا قد حبست المسلمين وبنى هاشم وبنى المطلب فى شعب أبى طالب فعادت وزوجها أبو سلمة إلى الحبشة لتكون فى جوار ملك لا يظلم عنده أحد .

ورأت نفسها يوم أن هاجرت إلى المدينة ويوم أن خرج أبو سلمة إلى أحد فرماه أبو أسامة الجشمى في عضده بسهم فمكث شهرا يداوى جراحه ، ثم برأ الجرح وبعث رسول الله ﷺ — أبا سلمة إلى قطن في المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرا فغاب تسعا وعشرين ليلة ، ثم رجع فدخل المدينة لثمان خلون من صفر سنة أربع والجرح منتفض . إنها لتذكر ذلك التاريخ وتذكر ما كان بعده فقد مات أبو سلمة متأثرا من جراحه لثمان خلون من جمادى الآخرة من نفس السنة .

وحضره النبي وهو يجود بأنفاسه فلما فاضت روحه كبر — ﷺ — تسع تكبيرات ، ف قيل له :

— يا رسول الله أسهوت أم نسيت ؟

— لم أسه ولم أنس ، ولو كبرت على أبا سلمة ألفا كان أهلا لذلك . وطاف بذهنها يوم أن بعث إليها رسول الله ﷺ — يخطبها وقد جاوزت سن الشباب معها عيال صغار وفي بيت النبي عليه السلام عائشة وحفصة ، فأرسلت إلى النبي ﷺ — تعتذر بأنها غيرى مسنة ذات عيال .

ويا طالما تذكرت رده الكريم الذى مس أوتار قلبها وكان لها النور الذى أضاء حياتها مع الرسول عليه السلام ، « أما إنك مسنة فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فأبى الله ورسوله » .

ودخلت أيم العرب على سيد المرسلين أول العشاء عروسا ، وقامت من آخر الليل تطحن . ومنذ تلك الليلة ذقت عظمة البساطة التى يحياها كل من نزل دور النبي — صلوات الله وسلامه عليه ، واستمرت بنت زاد الركب حياة التقشف مع إمام الزاهدين .

ورفت على شفتيها بسمة رضا فقد قال رسول الله ﷺ — قبل أن يتزوجها : إن لعائشة منى شعبة ما نزلها أحد . فلما تزوجها سئل رسول الله ﷺ — فقيل :

— يا رسول الله ما فعلت الشعبة ؟

فسكت رسول الله ﷺ ، فعلم الناس أنها قد نزلت عنده .
ورأت بخيالها رسول الله عليه السلام وهو يحنو على أولادها ، إنه كان يأتيها فيقول : « أين زنايب ؟ » وقد اختار — صلوات الله وسلامه عليه — ابنها سلمة الذي شب في حجره عليه السلام زوجا لابنة عمه حمزة أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء .

وقفز إلى ذهنها حادث لم تستطع أن تنساه : إنه عليه السلام كان عندها وابنتها زينب في حجرها فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين فضمهما إليه ثم قال :

— رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد .
إنها بكت في ذلك اليوم فنظر إليها رسول الله ﷺ — وسألها :
— ما يبكيك ؟

— يا رسول الله خصصتهم وتركتني وابنتي .

— إنك وابنتك من أهل البيت .

وقالت وهي في هودجها في صوت خافت وإن كان نابضا بالتأثر والانفعال :

— صدق الله تعالى : إنك لعلی خلق عظیم يا رسول الله .
ولاحت أرباض مكة فارتفعت أصوات المسلمين بالتلبية لله وحده لا شريك له .

وقد تهللت الوجوه بالبشر وامتلات الأفئدة راحة والصدور انشراحا ،
فقد كانت أول مرة يتدفق فيها المهاجرون والأنصار وسادات قريش إلى مكة
وقد اتحدت قلوبهم وارتفعت تلييتهم وشهدوا جميعا باللسان والقلب إن لا إله
إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

ووقعت الأعين على أول بيت وضع للناس وقد طهر من الأوثان والأصنام
وعاد مرة ثانية منارة للتوحيد كما كان يوم أن رفع القواعد من البيت إبراهيم
وإسماعيل ، فخفقت القلوب وجدا في الصدور وهوت الأنفس إلى البيت
العتيق ، وارتفعت الأصوات بالابتهاال إلى رب العالمين : ربنا تقبل منا إنك
أنت السميع العليم .

وراح رسول الله ﷺ — يطوف بالبيت وجبال مكة ووديانها
تسترجع دعوة خليل الرحمن إبراهيم : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو
عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز
الحكيم » (١) .

وانتهى الطواف والدعاء فصلى عليه السلام ركعتين عند مقام إبراهيم ثم
خرج المسلمون إلى الصفا للسعي تخليدا لذكرى هاجر المصرية أم العرب يوم
كاد ابنها إسماعيل يموت عطشا عند بيت الله المحرم ، فأخذت تهوول بين الصفا
والمروة لعلها تلمح قادما من بعيد يروى ظمأ ابنها الذي أشرف على الهلاك من
شدة العطش .

وجعل الأنصار يسعون بين الصفا والمروة وقد اطمأنت قلوبهم فقد كانوا
يكرهون الطواف بين الصفا والمروة لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية

فتركوه في الإسلام . فلما أنزل الله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » (١) . راحوا يسعون بينهما وقد أشرقت أفئدتهم بأنوار اليقين .

وفرغ رسول الله ﷺ من عمرته وتأهب للرجوع إلى المدينة . فجاء أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وشيبة بن عثمان ابن أبي طلحة وسادات بني المغيرة وحويطب بن عبد العزى ليودعوه وقد تعلقت أفئدتهم به .

واستخلف عليه السلام عتّاب بن أسيد على مكة وكان عمره عشرين سنة ، وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس ، ولما استعمل النبي ﷺ — عتّاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهما ، فقام فخطب الناس فقال : — أيها الناس ، أجاج الله كبدا من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله ﷺ — درهما كل يوم فليست بي حاجة إلى أحد .

وخرج عليه السلام من مكة ووقف أهلها يودعونه وفي القلوب لوعة وفي المآقي عبرات ، وخرج معه عمه العباس بن عبد المطلب فلم يعد هناك ما يفعله في أم القرى بعد أن هدى الله أهلها إلى الإسلام . وكانت أم سلمة في هودج وميمونة أم المؤمنين في هودج وانطلق الركب قاصدا المدينة فسلك عليه السلام في وادي الجعرانة حتى خرج على سُرِف فإذا بذكريات حبيبة تتزاحم في رأس ميمونة آخر نساء رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه . إن أختها أم الفضل زوج العباس عم النبي كانت أول امرأة آمنت برسول

الله — ﷺ — بعد خديجة ، ولطالما حدثتها عن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فهفا إليه قوادها . ولم تكن أم الفضل وحدها هي التي ارتبطت بالإسلام من أهلها فأختها من أمها أسماء بنت عميس كانت زوج جعفر بن أبي طالب وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق ، وأختها سلمى بنت عميس كانت زوج حمزة بن عبد المطلب ، وكانت أمهن جميعا هند بنت عوف بن زهير : إنها أكرم عجوز في مكة ، ولو أن الأسباب قد ارتبطت بين إحدى بناتها ورسول الله عليه السلام لأصبحت أكرم عجوز في الأرض أصهارا .

كان اسمها برة وقد مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى العامري . إنها ما إن استمعت إلى حذاء عبد الله بن رواحة يوم أن جاء آخذا بخطام ناقة رسول الله عليه السلام بعد صلح الحديبية ليطوف المسلمون بالحرم ، وما إن ملأت عينها من النبي — صلوات الله وسلامه عليه — حتى استولت عليها فكرة أن تنال شرف الزواج من نبي الله وأن تصبح أما للمؤمنين . وما يمنعها أن تحقق حلمها الذي طالما راودها في يقظتها وهي أخت أم الفضل وأسماء بنت عميس وسلمى بنت عميس الأخوات المؤمنات ١٩

إنها همست بسر قلبها إلى أم الفضل وقصت أم الفضل على العباس سر برة ، فانطلق العباس إلى ابن أخيه عليه السلام يعرض عليه الزواج من برة التي وهبت نفسها للنبي . وعاد إليها العباس وقد تهلل بالبشر فخفق قلبها سرورا امتزج بخوف ، فقد قرأت في وجهه القبول ولكنها كانت متلهفة على أن تلتقط أذناها الخبر السار الذي يخرج من بين شفثيه .

وقال العباس إن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — قد استجاب للعرض ، فانتابتها نشوة وأحست أنها قد ارتفعت حتى كادت تلمس نجوم

السماء ، فإنه لشرف ما بعده شرف أن تصبح أم المؤمنين ولما تتجاوز السادسة والعشرين ، وإنه لشرف لأمرها العجوز فستصبح بعد أن يتزوج عليه السلام ابنتها برة أكرم عجوز في الأرض أصهارا .

وتذكرت ذلك اليوم الأغر الذي خرجت فيه من مكة في صحبة أبي رافع مولى رسول الله عليه السلام لتلحق بالمسلمين . إن قبعتها ضربت هنا في سرف وقد بنى بها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — في هذه البقعة المباركة وسماها هنا ميمونة ؟ فقد كان زواجه بها في المناسبة الميمونة التي دخل فيها مكة لأول مرة منذ أن خرج منها مهاجرا في سبيل الله .

وراحت ميمونة تدير عينيها في المكان وهي في قمة النشوة . إن روحها قد هفت إلى سرف وإن قدرها قد حدد هنا في سرف وإن مكانتها التي نالتها كانت بفضل ما كان بينها وبين الرسول عليه السلام في سرف . فأصبحت سرف هي مهوى الفؤاد وإنها لترجو أن تكون مثواها الأخير لما يحين الحين لتدس في التراب .

وأخذ المسلمون الطريق إلى مر الظهران وراحوا يقلبون وجوههم في ملكوت الله ، ينعمون بمشاهدة جماله وجلاله وينقطعون إليه ويتوكلون عليه ويلهجون بالثناء عليه أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين .

وسار رسول الله — ﷺ — على ناقته القصواء متواضعا لله قد سدد الله لكل جميل ، ووهب له كل خلق كريم ، وجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة مقوله ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأتاه حكمة وعلما ، وفتح به أعينا عميا ، وقلوبا غلفا ،

وآذانا صما ، وجعله رحيما بالمؤمنين ، رحمة للعالمين ، سمحا سهلا برا طلقا لطيفا ، ولو كان أمام الصادقين والصديقين فظا غليظ القلب لانفض الناس من حوله .

وانحدر المسلمون إلى مجنة فساق رسول الله ﷺ — ما بقى من الفىء ليقسمه على فقراء المدينة ، فما خطر له على قلب أن يقيه لنفسه ولأهل بيته فقد اختار جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ؛ فالدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، إنه لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ، وإنه لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خير .

شعبة وجوعتان ، كان هذا حاله وحال أهل بيته مذ حمل أمانه النبوة ، وقد أفاء الله عليه الخير العميم فكان له الخمس من الغنائم وما أكثرها ، وكان الخمس مردودا على الناس ، وكان نصيبه في فء هوازن آلاف الرعوس فقسمها على حديثي العهد بالإسلام ليؤلف قلوبهم ، وساق ما بقى من الفىء إلى المدينة ليقسمه بين المحتاجين ثم يعود سيرته الأولى : شعبة وجوعتان . فقد أثر أن يجوع يوما ويشبع يوما ، فأما اليوم الذى يجوع فيه فيتضرع إلى الله ويدعوه ، وأما اليوم الذى يشبع فيه فيحمده ويشنى عليه .

وانطلق رجل على ظهر جواده ينهب الأرض حتى دخل المدينة فقال إن رسول الله ﷺ — قد أقبل بعد أن فتح الله عليه مكة وهزم هوازن في حنين ، فانطلق الناس فرحين مستبشرين ليستقبلوا رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه ، وصعدت النسوة على أسطح الدور ليشاهدن نبي الله وقد عاد مكلا بالنصر . وتقدمت خيل الله تثير النقع ، ورأى المسلمون الرسول عليه السلام على ناقته القصواء وقد طأطأ رأسه تواضعا لله ، فخف الرجال إلى

صاحب الجمل الأحمر يسلمون عليه وفي القلوب أشواق وفي الوجوه إشراق ، وارتفعت صيحات الترحيب من على جانبي الطريق ومن فوق الأشجار ومن الدور ، وعادت الذكريات إلى ذلك اليوم الذي أقبل رسول الله ﷺ — مهاجرا مع صديقه أبي بكر . أين هذا اليوم من ذلك اليوم ؟ فقد كانا وحيدين ولم يكن الناس يعرفون أيهما رسول الله ، أما اليوم فالأعين كلها قد تعلقت بنبي الله الذي نصره الله وقد ملأت أنواره جوانح الصدور ، وأخرج أقوامه من الظلمات إلى النور .

وكان عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين بين المستقبلين قد اغتصب ابتسامة ترحيب بعد أن طوى نفسه على مرض قلبه ، إنه قد امتلأ حقدا على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وعلى المسلمين ، وقد زاد في حنقه ذلك النصر المبين الذي توج هامات المؤمنين ، فمكة قد فتحت قلوبها قبل أبوابها للرجل الذي اغتصب منه المجد التليد ، فالأوس والخزرج كادوا أن يضعوا على رأسه التاج لولا أن جاء ابن عبد الله إلى يثرب بالدين الجديد الذي بهر الناس وجعلهم عنه يعرضون .

إنه لا يستطيع أن ينسى أن محمدا هو الذي حرمه التاج مهما مضت السنون ، وإنه يعيش على أمل واحد ، أن يرى هزيمة محمد قبل أن يموت . فإن كان محمد قد فتح مكة فإن الروم قد أحسوا خطره وإنهم ليجمعون الجموع ليقتضوا على ذلك الذي وحد العرب قبل أن يصبحوا بفضل تعاليم محمد أمة تهدد مصالح الروم في المنطقة .

وعانق عبد الله بن أبي بن سلول رسول الله — ﷺ — وهنأه بالفتح وإن كان يتربص به الدوائر وبالمسلمين . وانتهى الاستقبال الحار وانصرف الرجال إلى أهلهم ، وانطلق رسول الله — ﷺ — إلى دار فاطمة ليزورها ويقبل الحسن والحسين قبل أن يدور على أزواجه ، فقد كان بيت الزهراء أول ما يبدأ به .

سار أبو العاص بن الربيع إلى داره وقد أمسك في يده ابنه على ، وراح أبو العاص يتلفت بنظرات زائغة لا تستقر عيناه على شيء ، فلما دنا من الباب انقبض صدره وخفق قلبه أسي وترقرقت الدموع في مقلتيه ، ولولا ابنه الصغير الذي أردفه خلفه جده العظيم رسول الله — ﷺ — يوم فتح مكة لأجهش بالبكاء .

ودخل الدار فإذا بها ساكنة سكون القبور ، وإذا بها مظلمة وإن فاضت فيها أشعة شمس النهار ، وإذا بها موحشة بلا حياة فقد ذهبت الحبيبة التي كانت نبض بهجته وأنفاس سروره وروح أنسه وفؤاد دنياه . واستشعر رغبة في أن يشم عبير ذكرها فانطلق إلى حيث كانت قلاذتها ، تلك القلادة التي كانت لخالته خديجة والتي أدخلتها بها عليه حين بنى عليها فأخرجها وجعل ينظر إليها في وجد ورق لها رقة شديدة ، وبلغ انفعاله منتهاه فلم يستطع أن يحبس عبراته فجرت على خديه حتى بللت لحيته . فلما رأى على بكاء أبيه استعبر ، فضمه أبو العاص إليه في حنان وارتمى به على أول مقعد صادفه وهاجمته الذكريات . إنه يرى سادات قريش يمشون إليه فيقولون :

— فارق صاحبك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت .

— لا والله إني لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لي بامرأتى امرأة من قريش .

ويرى نفسه وقد خرج صناديد قريش إلى بدر وهو فيهم ؛ إنه أصيب في الأسارى فكان في المدينة عند رسول الله — ﷺ ، وبعث أهل مكة في فداء

أسرائهم فبعثت زينب في فدائه بقلادتها . إنه يرى بخياله رسول الله — ﷺ — وقد رق رقة شديدة ، وإنه ليسمع في أغوار نفسه صوت رسول الله — ﷺ — الجمهورى العذب يقول :

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا .
وراح يمسح رأس ابنه في حنان ويشمه في حب فهو بضعة منها ، وهو الدوحة المباركة من رسول الله — ﷺ — ، فإن كانت زينب قد مضت فقد بقى له منها على وإنه ليرجو أن يشب بطلا مثل على فارس الإسلام زوج خالته الزهراء .

وعادت إلى رأسه الذكريات ؛ إنه يرى نفسه وقد قفل راجعا إلى مكة فإذا بالحبيبة تهرع إليه لتضمه إلى صدرها في حب وفي عينيها دموعان حائرتان ومن بين شفيتها تتدفق عبارات الترحيب وشكر الله على أن أعاده إليها سالما . وإذا به ينسى في غمرة اللقاء الحار ما وعد به رسول الله لحظات ، ولكن سرعان ما أفاق من نشوته وقص عليها في أسى ما كان بينه وبين رسول الله عليه السلام ، فقد أخذ عليه أبوها أن يخلى سبيل زينب إليه .

إنه كان يحبها من أعماق قلبه وقد كانت تحبه بكل حاسة من حواسها ، ولكنها ما كانت تستطيع أن تعصى رغبات أبيها — صلوات الله وسلامه عليه ، فتجهزت وخرجت يصحبها أخوه كنانة بن الربيع في رائعة النهار . إنه أحس وهي تخرج نياط قلبه تتقطع وأن الأرض قد مادت تحت قدميه وأن الدنيا قد أصبحت ظلاما في ظلام .

وخرج رجال من قريش في طلبها حتى أدركوها بذي طوى ، فروعها هبار بن الأسود بن المطلب زوج أم هانئ بنت أبي طالب عم أبيها بالرحم . فلما ريعت طرحت ذا بطنها وعاد بها أخوه وهي تهريق الدماء . إنها لم تزل تهريق

الدماء حتى ماتت هنا في هذه الدار بين ذراعيه .

وهب أبو العاص ثائرا وراح يصهر على أنيابه في غيظ ، فرسول الله ﷺ — قد أهدر دم هبار لما فتح مكة وقد انطلق هو خلفه يبحث عنه ليشفي غليل نفسه . ولكن هبارا قد فر ونجح إلى حين في أن يفلت من غضبه . فإن كان هبار قد فر مرعوبا في ذلك اليوم فلن يتركه طويلا يمشى على الأرض ، فلا بد أن يظفر به فيقتله لعل النار التي تتلظى في أحشائه تهدأ .

إنه ذهب إلى هند أم هانيء بنت أبي طالب بعد أن أسلمت يسألها عن زوجها فأخبرته أنه فر إلى نجران .

وقال حين بلغه إسلامها :

كذاك النوى أسبابها وانفتاها	أشأقتك هند أم أتاك سؤاها
بنجران يسرى بعد ليل خياها	وقد أركت في رأس حصن ممنع
وتعدلنى بالليل ضل ضلاها	وعاذلة هبت بليل تلومنى
سأردى وهل يردى إلا زياها	وتزعم أنى إن أطعت عشيرتى
على أى حال أصبح اليوم حاها	فانى لمن قوم إذا جد جدّهم
إذا كان من تحت العوالى ^(١) مجاها	والى لحام مسن وراء عشيرتى
مخاريق ^(٢) ولدان ومنها ظلاها	وصارت بأيديها السيوف كأنها
على الله رزق نفسها وعياها	والى لأقلى الحاسدين وفعلهم
لكالنبل تهوى ليس فيها نصاها	وإن كلام المرء في غير كنهه
وعطفت الأرحام منك حباها	فإن كنت قد تابعت دين محمد

(١) العوالى : الرماح .

(٢) المخاريق : المناويل تلف ليلعب بها .

فكوني على أعلى سحيق بهضبة مللمة^(١) غبراء يبس بسلامها
إنه فكر في ذلك الحين أن ينطلق خلفه إلى نجران . ولولا أنه لم يشأ أن يدع
ابنه عليا الصغير بين يدي جده رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه —
حتى لا يشغله به لخرج يطلبه ليثأر منه . وراح يذرع المكان صاعدا هابطا
كأسد حبس في قفص وقد تأججت في صدره نار حقه وثار دماؤه حارة
في عروقه وارتسمت على وجهه ضراوة لم يكن لأحد بها عهد .

وحانت منه التفاتة نحو ابنه فألفاه يمد إليه عينيه في قلق ، فذهب إليه
واحتواه بين ذراعيه وراح يمسح رأسه بيده في حنان . وسرعان ما شرد
واستسلم للذكريات فقد ملأت رأسه صورته وقد أقبل قافلا من الشام ؛ إنه
كان يحصى الأرباح فإذا بسرية لرسول الله — ﷺ — تفجأه فتصيب ما معه
فيطلق ساقيه للريح حتى يدخل المدينة . وتحت جناح الليل يدخل على زينب
بنت رسول الله — ﷺ — يستجير بها ، إنه لا ينسى كيف استقبلته الزوجة
الكريمة بعد غياب طال ست سنوات . إنها غمرته بعطفها حتى سكن روعه
وكان الفجر وسرى صوت بلال بالأذان كأنه السحر . إنه قد استشعر كأن
قلبه قد انفتح لنداء السماء ولولا خشيته من أن يقال أسلم رهبة لخرج إلى
رسول الله — ﷺ — وأعلن إسلامه .

ومس أذنيه صوت رسول الله — ﷺ — وهو يكبر والناس يكبرون
معه ، وجاء صوت زينب من أعماق الماضي وهي تصرخ من صفة النساء :
— أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

وهزته الذكرى من الرأس إلى القدم وأخذته رقة فلم يستطع أن يمسك

(١) مللمة : متحجرة .

دموعه عن الجريان ، وأرهفت حواسه وأعار الفضاء أذنيه كأنما يحاول أن يلتقط ما قال رسول الله — ﷺ :

— أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟

— نعم .

— أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أذنهم .

وملأت صورة رسول الله — ﷺ — وهو يدخل عليهما الأفق ، ورن صوته الجمهورى العذب فى أعماقه فهزه هزا :

— أى بنية ، أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له .

وسمع طرقا خفيفا على الباب فأفاق من شروده وذهب ليزى من الطارق ، فوجد ابنته أمانة قد فتحت له ذراعيها وتهلل وجهها بالفرح فاحتواها فى صدره ثم رفعها بين ذراعيه وراح يغمرها بقبلاته فرق قلبه وشفقت نفسه حتى كاد يرى الراحلة العزيزة التى نخلت منها الدار .

وانفلتت أمانة من بين ذراعيه لما رأت أخاها عليا فانطلقت إليه تروى له ما كانت تفعله فى دار خالتها فاطمة وأم كلثوم وتسمع منه ما فعله جدها العظيم لما فتح مكة وسار إلى هوازن والطائف . ولما رأى أبو العاص أنهما قد شغلا عنه انسل إلى البقيع ليزدرف على قبر زينب بنت محمد دمعة .

وعاد أبو العاص إلى الدار مضطجع النفس كسير الفؤاد لا يستطيع أن يهرب من الذكريات التى كانت تلح عليه ، إنه يرى زينب مسجاة فى فراشها وقد فارقت الحياة وفاطمة الزهراء وأم كلثوم ونساء النبى يكيين حولها . ويرى نفسه وقد أكب عليها يكي ويتحب وهو يستشعر أن قطعت الأسباب بينه وبين الدنيا فقد كانت زينب كل دنياه ، ورأى رسول الله — ﷺ —

بيكى ولا يقول إلا خيرا ، ورأى ابن خاله الزبير بن العوام وهو يرفعه عن الحبيبة التى تشبث بها ثم يواسيه وهو يخرج به إلى حيث كان صحابة رسول الله ﷺ

ووقف رسول الله ﷺ — على فراشها يستودعها الله ثم قال للنساء : — اغسلنها وترا : ثلاثا أو خمسا واجعلن فى الآخرة كافورا .

ورنت فى جنبات الدار ضحكة أمانة الصغيرة فالتفت إلى حيث كان على وأمانة وهما سعيدان بحديثهما ، فحاول أن ينتزع من نفسه ابتسامة ولكن عز عليه الابتسام وسرى فى جوفه قول أخيه كنانة :

عجبت هبار وأوباش^(١) قومه يريدون إخفارى^(٢) بينت محمد

ولست أبالى ما حييت ، عديدهم وما استجمعت قبضا يدي بالمهند؟

فأحس كأن نارا تشوى كبده ولم يطق المكث فى الدار ، فخرج كالعاصفة لا يلوى على شيء يرجو أن يسقط هبار ذات يوم فى يده ليقتله ثائرا لزيب لعل ذلك يشفى غليل نفسه .

ومرت الأيام وتأهب رسول الله ﷺ — للخروج إلى المسجد وأنس ابن مالك يخدمه ، فقال له رسول الله ﷺ — : .

— يا بنى إن قدرت أن تصبح وتمسى ليس فى قلبك غش لأحد فافعل . وصمت عليه السلام قليلا ثم قال :

— يا بنى وذلك من سنتى ، ومن آخى سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة .

(١) الأوباش : الأخلاط والسفلة .

(٢) الإخفار : نقض العهد .

وخرج عليه السلام إلى المسجد فجاء إليه الحسن والحسين فبش لهما وأجلسهما إلى جواره وقال :
— اللهم إني أحبهما فأحبهما .

وجاءت إليه أمامة بنت زينب فضمها إليه وأخذ يقبلها في حب ، إنها تذكره بزينب وبأيام يتمه أيام أن كان في كنف جده عبد المطلب ثم عمه أبي طالب . ونظر أبو العاص بن الربيع إليهما فاستشعر راحة سرعان ما غاضت لما تذكر قول رسول الله — ﷺ : « إن لقيتم هبارا فأحرقوه » . ثم قوله عليه السلام : « إنما يعذب بالنار رب النار : إن ظفرت به فاقطعوا يده ورجله ثم اقتلوه » .

ودخل هبار مسجد رسول الله — ﷺ — فإذا بأعين الناس تتعلق به ، وإذا بأبي العاص بن الربيع يهجم عليه ليقتله . فرفع هبار صوته وقال :
— يا محمد أنا جئت مقرا بالإسلام ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

وثبت الناس في أماكنهم وساد المكان صمت وقلق وتقدم هبار حتى بلغ النبي عليه السلام فقال :
— السلام عليك يا نبي الله .

إنه أعلن إسلامه وألقى السلام ، فرد عليه الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — السلام ، فاطمأن هبار على حياته فقال :

— لقد هربت منك في البلاد فأردت اللقوق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وفضلك في صفحك عمن جهل عليك . وكنا يا نبي الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا بك من الهلكة ، فاصفح عن جهلي وعما كان مني فأني مقر بسوء فعلي ، معترف بذنبي .

فالتفت — ﷺ — إليه وقال في صوت جهورى عذب :
— يا هبار عفوت عنك وقد أحسن الله إليك حيث هداك للإسلام .
الإسلام يجب ما قبله .
وصفح النبي الكريم عن قاتل زينب الغالية ولكن الناس لم يصفحوا عنه
فجعلوا يسبوناه . فذكر ذلك للنبي — ﷺ — فقال :
— سب من سبك .
فانتهوا عنه وحسن إسلامه .
وأهديت إلى رسول الله — ﷺ — هدية فيها قلادة من جزع فقال :
— لأدفعنها إلى أحب أهلى إلى .
فأطرقت النساء أسفا وقلن :
— ذهبت بها ابنة أبى قحافة .
واعتقدت عائشة أن القلادة من نصيبها فهى تعرف مكانتها فى قلبه . ولكن
رسول الله — ﷺ — دعا أمانة بنت زينب فأعلقها فى عنقها .

كان رسول الله ﷺ — يعمل عمل البيت ما يرى فارغا قط في بيته ،
وأكثر ما يعمل الخياطة إما يخصف نعلا لرجل مسكين أو يخيّط ثوبا لأرملة .
وجاءت فاطمة الزهراء بكسرة خبز إليه فقال :

— ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟

— قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة .

— أما إنه أول طعام دخل فم أهلك منذ ثلاثة أيام .

وخرج رسول الله ﷺ — إلى العالية على بعد ثلاثة أميال من المدينة
حيث كانت مارية في مشربتها . إنه أنزلها أول ما جاءت من وادى النيل بمنزل
لحارثة بن النعمان قرب المسجد ، فكان يكثر التردد عليها ويمكث لديها طويلا
مما أثار عائشة بنت الصديق . فحوّلها إلى العالية وكان يختلف إليها هناك فكان
ذلك أشد على نسائه — ﷺ .

و ذات ليلة أفضت مارية إلى سيدها الحبيب أنها قد حملت فاستقبل النبي
عليه السلام النبأ بحمد الله . وذاع الخبر في المدينة فانتشت النفوس بالبشرى
وقابلتها نساء النبي بوجوم وحزن وألم ، فقد كانت كل منهن تعيش في دور
النبي على أمل أن تأتيه بالولد وأن تكون صاحبة الحظ الأوفى . فلما ضنت
بطونهن وجادت بطن مارية الجعدة الجميلة نهشت الغيرة أفئدة أمهات المؤمنين
فتقاربت رعوس يا طالما تباعدت ، وسرى همس ولمز يتهم مارية في طهارتها ،
إن قبطيا قد جاء معها من مصر فيما أهداه المقوقس إلى رسول الله ﷺ —

وأنه يأوى إليها ويأتيها بالماء والخطب فما الذى يحول بينه وبينها ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يجزم أنه لم يخلص إليها ؟

همس مسموم راح يرتفع حتى صار صاخبا ، وحديث إفك جديد يروج له المنافقون ويقولون :

— عالج يدخل على علجة .

وبلغ الاتهام مسامع رسول الله ﷺ — فحزن ، فالقادمة من مصر كانت تقبل عليه بنفس راضية تبذل كل شيء فى سبيل مرضاته ، وما كان فى تصرفاتها معه ما يريب . إنها كانت تعرف للرسالة وللرسول مكانتهما وكانت تهلل بالفرح كلما ذكرت أنها أصبحت كنساء الأنبياء اللاتى تفيض بأخبارهن التوراة ، وأنها ستهب للرسول عليه السلام قرعة عين له . فقد كانت تلمس حذبه على أحفاده الحسن والحسين وعلى وأمامة وحبه لأطفال المسلمين ، فكانت تفعم بالسرور كلما حدثت رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — عن ذلك الذى فى بطنها الذى سيكون له عزاء وسلوى عن أولاده وبناته الذين قبرهم .

أكان حديثها كذبا وفرحها رياء ؟ إنه يحس أنها كانت صادقة فى كل كلمة خرجت من بين شفتيها . ولكن أقوال السوء كانت تؤذيه فراح يناجى على ابن أبى طالب ويثبه شكوكه ، فأخذ على سيفه وانطلق غاضبا إلى حيث كان ذلك الرجل القبطى الذى أساء إلى رسوله وقائده وحبيبه .

ووجده على نخلة فاستل سيفه وهم بأن يتسلق ليطيح برأسه ، ونظر القبطى فرأى الشر فى عيني فارس الإسلام الذى كانت ضرباته وترافارتعدت فرائصه . إن الهمس كان قد سرى إلى أذنيه وإن أصابع الاتهام قد رفعت فى وجهه فما شك لحظة فى أن ابن أبى طالب قد جاء ليقتله .

وأخذ القبطى يتلفت مرعوبا لا يدرى أين المفر ، وراح يتسلق ما بقى من النخلة فى فزع وألقى الرداء الذى كان يستره فتعرى فإذا به محبوب ، فأعاد على كرم الله وجهه سيفه إلى غمده وانقلب إلى رسول الله — ﷺ — يخبره بما رأى .

ما أبشع مرجفى السوء خاضوا فى حديث الإفك لما اتهموا عائشة بصفوان وقد نزلت براءتها من فوق سبع سموات ، واتهموا مارية بنت شمعون فى رجل محبوب ، وما أقسى ما قاسى عليه السلام من آلام نفسه الرقيقة الشفافة الحساسة التى جرحتها أقاويل مناققين ينعمون بالسرور لما تشيع الفاحشة بين الناس .

وخاف عليه السلام على المصرية التى وفدت إلى أرض الحجاز كما وفدت من قبل هاجر المصرية وليدة أبيه إبراهيم خليل الرحمن فنقلها إلى العالية على ثلاثة أميال من المدينة ، وراح عليه السلام يعنى بها حتى إذا عاد إلى دوره تركها فى رعاية أختها سيرين .

وبلغ عليه السلام وادى القف وانطلق إلى مشربة مارية ، فألقى مارية فى فراشها تتلوى من الألم وإلى جوارها سيرين ، فما إن سمعت صوته وهو يلقي عليهما السلام حتى رفت على شفيتها ابتسامة وغاض من وجهها كل جهد ، فهى تستشعر سعادة غامرة كلما أشرق عليها ، وكان الأنس به بلسم الروح وأنفاس الحياة .

وما أسرع الساعات التى مرت وهو إلى جوارها . إن المصرية البيضاء الجعدة التى جمعت سحر مصر وجمال الرومان كانت تتمنى بكل عواطفها أن يبقى معها حتى تضع ما فى بطنها ، ولكنها تعلمت مذ سعدت به أنه وإن كان يحذب على نسائه إلا أن واحدة منهن لم تستطع أن تستأثر به وأن تقعه عن

تأدية رسالته . كن جميعا يعلمن أن هواه مع ربه وأن لو وضعت الشمس في يمينه والقمر في يساره على أن يترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو يهلك فيه ما تركه .

وقام عليه السلام وهو يدعو لمارية بالخير ، وركب حماره وسار ليعود إلى المدينة وهو يفكر في الحج فقد كان الشهر ذا الحجة وكان الناس هناك في مكة يطوفون حول أول بيت وضع للناس وقد تطهر من الأصنام . إن حلم حياته قد تحقق فقد عادت منارة التوحيد كما كانت بيتا لله وحده لا شريك له ، فأطرق برأسه تواضعا لله رب الناس إله الناس .

ودخل داره ودعا سلمى مولاته امرأة أبي رافع . إنها كانت مولدة الحسن والحسين وإنه عليه السلام يريد أن تكون قابلة مارية ، وأمرها أن تخرج إلى العالية لتكون إلى جوار فتاته المصرية ، فانطلقت سلمى وأبو رافع معها وهي تدعو الله أن يمن على رسوله بسلامة تفرقه به عينه ، فهي ترى حبه الشديد لأحفاده وأبناء المسلمين .

ووضعت مارية غلاما زكيا فراح أبو رافع يشهد حتى دخل مسجد الرسول فألفاه عليه السلام يتعبد في محرابه ، فانتظر وهو يتململ من الانفعال حتى إذا ما انتهى — صلوات الله وسلامه عليه — من صلاته هرع إليه أبو رافع وقال له وهو يتהלل بالفرح إن مارية قد وضعت غلاما . فانشرح صدره عليه السلام وانبسطت أساريره ووهب لمن جاءه بالبشرى عبدا ، ثم انطلق إلى العالية وهو مفعم بالسرور ، ودخل على مارية وقد رقت على شفثيه أعذب ابتسامة . وبعد أن حمد الله على سلامتها مال على الوالدة والوليد وحمل الصغير في رفق وقد جاد الفؤاد بأرق المشاعر ، ورفع بين يديه حتى أدناه من فيه وقبله قبلة أودعها حنان قلبه الكبير .

وعاد إلى مسجده ، فلما جاء إليه أصحابه قال :
— ولد لي الليلة غلام فسميته بأسم ابى إبراهيم .
وغمر المدينة سرور ، ووجعت أمهات المسلمين وأطلقت بعضهن لسانها
في مارية من الغيرة ، فساورت رسول الله ﷺ — بعض الريب ، فجاءه
جبريل فقال :

— السلام عليك يا أبا إبراهيم .
فاطمأن رسول الله ﷺ — وفرح برحمة ربه .
وتأهب رسول الله ﷺ — للذهاب إلى أم إبراهيم . وقال قائل إن
رسول الله عليه السلام منطلق إلى مولاته ، فقال صلوات الله وسلامه عليه :
— أعتقها ولدها .

وأطال عليه السلام المكث في مشربة أم إبراهيم ، فهو يحس سعادة عارمة
كلما مد عينيه إلى ولده ، فلما كان يوم سابعه عقى^(١) عنه بكبش وحلق رأسه
وتصدق بوزن شعره فضة على المساكين ، وأخذوا شعره ودفنوه في الأرض .
وتنافست الأنصار فيمن يرضعه ، فجاءت أم بردة بنت المنذر بن زيد
الأنصارى زوجة البراء بن أوس فكلمت رسول الله ﷺ — في أن ترضعه
بلبن ابنها في بنى مازن بن النجار وترجع به إلى أمه .

وأخذته أم سيف لترضعه وكان زوجها حدادا ، وفي ذات يوم انطلق
رسول الله ﷺ — وانطلق معه أنس بن مالك فصادفا أبا سيف ينفخ في
كيره وقد امتلأ البيت دخانا ، فأسرع أنس في المشى بين يدي رسول الله ﷺ —
حتى انتهى إلى أبي سيف فقال :

(١) عقى : ذبح عقيقة وهي الشاة التي تذبح يوم أسبوع الولد ، وقال عليه الصلاة
والسلام : قولوا نسيكة ولا تقولوا عقيقة .

— يا أبا سيف أمسك ، جاء رسول الله ﷺ .
فأمسك فدعا رسول الله ﷺ — بالصبي فضمه إليه ، ثم انطلق به إلى
دوره فدخل به على ابنته الزهراء فاستقبلته بالقبلات وهرع الحسن والحسين
يشاهدان الصغير ويناجيانه . إنه قد ملأ الدار حبورا وإن آل علي بن أبي طالب
ليرون فيه قطعة حبيبة من حبيبهم النبي — صلوات الله وسلامه عليه ،
وغمرت رسول الله ﷺ — سعادة بددت إلى حين ذلك الحزن الدفين
الذي لازمه طوال حياته .

وحمل إبراهيم الغالي بين يديه وهو مسرور ودخل به على عائشة ، إنها ما
غارت على امرأة إلا دون ما غارت على مارية وذلك أنها كانت جميلة جعدة
فأعجب بها الرسول — ﷺ ، فكان عامة الليل والنهار عندها فجزعت ،
فلما حول مارية إلى العالية وكان يختلف إليها هناك كان ذلك أشد عليها ،
وزادت غيرتها ضراما لما رزق الله رسوله الولد وحرمها منه .
وقدم عليه السلام إبراهيم إلى عائشة لترى مقدار ما بينهما من شبه ،
فقالت :

— ما أرى بينك وبينه شبه !
وتوجت شفتي رسول الله عليه السلام بسمة هادئة لا يعكرها شك ، فقد
قال له أمين الوحي : « السلام عليك يا أبا إبراهيم » . فعرف فؤاده الطمأنينة
مذ ذلك اليوم . ولم يحقد على عائشة فإنه كان يغفر ضعف الإنسان فما بالك
بعائشة التي كان يوسع لها العذر ويقول كلما اشتطت بها الغيرة : « ويحها لو
استطاعت ما فعلت » .

كان رسول الله — ﷺ — يحبها وكان نساء رسول الله — ﷺ —
حزبين : فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة ، والحزب الآخر أم

سلمة وسائر نساء النبي ﷺ . وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ — عائشة ، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ — آخرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ — في بيت عائشة بعث صاحب الهدية إلى رسول الله ﷺ — في بيت عائشة ، فكلم حزب أم سلمة أم سلمة فقلن لها :

— كلمي رسول الله ﷺ — يكلم الناس فيقول : من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ — هدية فليهد إليه حيث كان من بيوت نسائه .
فكلمته أم سلمة بما قلن فلم يقل لها شيئا ، فسألنها فقالت :
— ما قال لي شيئا .

فقلن لها :

— فكلميه .

فكلمته حين دار إليها أيضا فلم يقل لها شيئا ، فسألنها فقالت :
— ما قال لي شيئا .

— كلميه حتى يكلمك .

فدار إليها فكلمته فقال لها :

— لا تؤذيني في عائشة ، فإن الوحي لم يأتني وأنا في نوب امرأة إلا عائشة .

— أتوب إلى الله من ذاك يا رسول الله .

ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ — فأرسلت إلى رسول الله ﷺ — تقول :

— إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر .

— أي بنية أتحببني ؟

— نعم يا ألى .

— فأحبها .

كان يحب عائشة وكان يعلم أن الغيرة كثيرا ما تستبد بها ، فكان يقول لها :

— أغرتِ ؟

فتقول دون مداراة :

— وما لى .. ألا يغار مثلى على مثلك ؟

كانت تميم تدين بالمجوسية وكانت تطلق على أبنائها أسماء فارسية ، وكانت على صلة طيبة بالمناذرة فكان أهلها يعتقدون أنهم أكثر حضارة من سائر قبائل العرب ، وكانوا كثيرا ما يروون أقاصيص عن مجدهم فكانت أندية تفيض بأحاديث ما وقع لرجالهم في بلاط ملوك لخم . إنهم يروون أن المنذر بن المنذر ابن ماء السماء قال ذات يوم وعنده وفود العرب ، ودعا بُيردَى أبيه محرق بن المنذر :

— ليلبس هذين أعز العرب وأكرمهم حسبا .
فأحجم الناس ، فقال أحيمر بن خلف التميمي :

— أنا لهما .

قال الملك :

— بماذا ؟

— بأن مضر أكرم العرب وأعزها وأكثرها عديدا ، وأن تميما كاهلها (أعلاها) وأكثرها ، وأن بيتها وعددها في بني بهدلة بن عوف وهو جدى .
— هذا أنت في أصلك وعشيرتك ، فكيف أنت لى في عترتك وأدانيك ؟
— أنا أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة .
فدفعها إليه .

وكانوا يفتخرون أن عتاب بن هرمى بن رياح منهم ، كانت له ردافة الملوك ملوك آل المنذر ، وردافة الملك أن يثنى به في الشرب وإذا غاب الملك خلفه في

مجلسه ، وكانوا لا يطيقون أن يفتخر حتى آخر في أنديتهم ، قال بنو كلب بن وبرة :

— نحن لباب العرب وقلبها ، ونحن الذين لا ننازع حسبا وكرما .
فقال لهم شيخ منهم :

— إن العرب غير مقرة لكم بذلك .. إن لها أحسابا وإن منها لبابا وإن لها فعالا ، ولكن ابعثوا مائة منكم في أحسن هيئة وبزة يُنْقَرُونَ من مروا به من العرب ويسألونه عشر ديات ولا ينتسبون له ، فمن قراهم وبذل لهم الديات فهو الكريم الذي لا ينازع فضلا .

فخرجوا حتى قدموا أرض تميم وأسد فنقروا الأحياء حيا فحيا وماء فماء لا يجدون أحدا على ما يريدون ، حتى مروا على أكثم بن صيفى فسأله ذلك فقال :

— من هؤلاء القتلى ؟ ومن أنتم ؟ وما قصتكم ؟ فإن لكم لشأنا باختلافكم في كلامكم !

فعدلوا عنه ثم مروا بقتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي فسأله عن ذلك فقال :

— من أنتم ؟

— من كلب بن وبرة .

— إني لأبغى كلبا بدم ، فإن انسلخ الأشهر الحرم وأنتم بهذه الأرض وأدر ككم الخيل نكلت بكم وأثكلتكم أمهاتكم .

فخرجوا من عنده مرعويين ، فمروا بعطارد بن حاجب ابن زرارة فسأله ذلك فقال :

— قولوا بيانا وخذوها .

فقالوا :

— من هذا فقد سألكم قبل أن يعطيكم .

فتركوه ومروا ببني مجاشع بن دارم فأتوا على واد قد امتلأ إبلًا فيها غالب ابن صعصعة يطل منها إبلًا بالقطران ، فسألوه القرى والديّات فقال :

— هاكم البزل قبل النزول فابتزوها من البرك وحوزوا دياتكم ثم انزلوا .

فنزّلوا وأخبروه بالحال وقالوا :

— أرشدك الله من سيد قوم ! لقد أرحتنا من طول النصب ، ولو علمنا

لقصدنا إليك .

فقال ابنه الفرزدق مفتخرًا :

قرى مائة ضيفا ولم يتكلم	فله عينا من رأى مثل غالب
أحق بتاج الماجد المتكرم	وإذا نبحت كلبا على الناس إنهم
جری بعناني كل أبلج خضرم ^(١)	فلم يجل عن أحسابها غير غالب

وكانوا يفخرون بأن نباش بن زرارة أبا هالة كان زوجا لخديجة بنت خويلد قبل أن يتزوجها محمد بن عبد الله ، وأن منهم أحكم العرب في زمانه أكثم بن صيفى أكثر العرب حكما ومثلا وموعظة سائرة .

وكانوا يقولون إنهم أوفى العرب لأن حاجب بن زرارة رهن قوسه عن العرب كلها عند كسرى وأوفى ، وإنهم أحلم العرب لأن منهم الأحنف بن قيس وكان يضرب به المثل حلما ، وأسود العرب لأن قيس بن عاصم كان سيد أهل الوبر وكان قيس هو الذى شرع وأد البنات خشية العار بعد أن كان الواد فيهم خشية الإملاق ، فقد أغار اللخميون على بنى تميم وسبوا نساء كانت

(١) الأبلج : الواضح . والخضرم : الجواد المعطاء .

فيهن ابنة قيس بن عاصم ، فانطلق قيس وبعض رجال بنى تميم إلى ملك اللخميّين يطلبون نساءهم ، فخير الملك النسوة بين آسريهم وأهليهم فاختارت ابنة قيس آسرها على زوجها ، فعاد قيس بن عاصم وقد اسود وجهه من الغيظ وراح يدس البنات في التراب خشية أن يجلبن له العار كما جلبته له ابنته من قبل ، وأصبح وأد البنات خشية العار مألوفاً في بنى تميم .

كان بنو تميم يعتقدون أنهم أعظم قبائل العرب حضارة . فلما ظهر الإسلام في المدينة وانتشر في القبائل التي حولها أعرضوا عن ذلك الدين فهم يدينون بدين فارس إحدى الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تتنافسان على سيادة العالم . فأين ذلك الدين الناشئ من دين تنتريوت ناره في المشارق والمغارب ؟

واعتنق سادات تميم الدين الجديد قبيل فتح مكة ، وخرج الأقرع بن حابس التميمي مع رسول الله ﷺ — لما انطلق إلى أم القرى وحارب معه هوازن يوم حنين وحضر حصار الطائف ، وأعطاه عليه السلام مائة من الإبل لما قسم نصيبه من الفىء على المؤلفة قلوبهم . وعلى الرغم من نزول النور إلى أفئدة بعض بنى تميم فإن القبيلة كلها ظلت تتيه بضلالها وتناصب المسلمين العداء ولم تكتم العداوة في القلوب بل بدت البغضاء من أفواههم واتسمت أفعالهم بالتحدي المكشوف .

كان رسول الله ﷺ — قد بعث بشر بن سفيان على صدقات بنى كعب بن خزاعة ، فجاء وقد حل بنواحيهم بنو عمرو بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم ، فجمعت خزاعة مواشيها للصدقة فاستنكرت ذلك بنو تميم وأبوا وابتدروا القسي وشهروا السيوف ، فقدم بشر على رسول الله ﷺ — فأخبره فقال :

— من هؤلاء القوم ؟

فانتدب لهم عيينة بن حصن فبعثه في الحرم سنة تسع من مهاجره في خمسين فارسا من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري .

وانطلق عيينة يسير الليل ويكمن النهار حتى إذا ما بلغ صحراء بين السقيا وأرض بنى تميم رأى رجالا قد حلوا ماشيتهم وسرحوها . إنهم من تميم . فهجم عليهم فلما رأى الرجال فرسان المسلمين ولوا لا يلوون على شيء ، وجد عيينة في أثرهم فأخذ أحد عشر رجلا ، ووجد في المحلة إحدى عشرة امرأة وثمانين صبيا فجلبهم إلى المدينة ، فأمر بهم رسول الله — ﷺ — فحبسوا في دار رملة بنت الحارث ، فقدم فيهم عدة من رؤسائهم : عطارد بن حاجب والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ورياح بن الحارث بن مجاشع والاقرع بن حابس وقيس بن الحارث ونعيم بن سعد وعمرو بن الاهتم ورجال من ساداتهم .

ودخلوا المسجد وقد أذن بلال بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله — ﷺ — فعجلوا واستبطئوه فنادوا رسول الله — ﷺ — من وراء حجراته :

— يا محمد ! اخرج إلينا .

فخرج رسول الله — ﷺ — وأقام بلال الصلاة فصلى رسول الله ﷺ الظهر . ثم أتوه وراحوا يحدثونه وقيس بن عاصم يرقب رسول الله في اهتمام ؛ كان عاقلا حليما وكان على دين قومه فأحس وقد ألقى إلى رسول الله عليه السلام سمعه أن نورا يتسلل إلى قلبه ، وأن الله قد شرح للإسلام صدره فقال في انفعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فقال له رسول الله — ﷺ :

— هذا سيد الوبر .

وجاء الحسن بن علي فاستقبله رسول الله — ﷺ — بالبشر وقبله ، فقال
الأقرع بن حابس :

— إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا .

فنظر إليه رسول الله — ﷺ — ثم قال :

— من لا يرحم لا يُرحم .

ورد عليهم الأسرى والسبي ، وتذكر قيس بن عاصم ما كان منه من وأد
البنات . إنه كان شريفا في قومه وكان ذا مال فما كان يثدهن خشية إملاق بل
خشية العار ، وقد سن هو هذه السنة فراح يسأل رسول الله — ﷺ — عن
حكم الإسلام فيما فعله فقال له — صلوات الله وسلامه عليه :

— الإسلام يجب ما قبله

فاستبشر قيس وأمر رسول الله — ﷺ — لهم بالجوائز كما كان يجيز
الوفد ، ثنتي عشرة أوقية ونشا^(١) وهي خمسمائة درهم . وكان عمرو بن
الأهتم قد خلفه القوم في إبلهم وكان أصغرهم سنا ، فقال قيس بن عاصم وكان
يكره عمرو بن الأهتم :

— يا رسول الله إنه قد كان رجل منا في رحالنا وهو غلام حدث وأزرى
به .

فأعطاه رسول الله — ﷺ — مثل ما أعطى القوم ، فبلغ عمرو بن الأهتم
ما قاله قيس فيه فقال :

(١) النش : نصف أوقية .

ظلمت مفترش الهلباء^(١) تشتمنى عند النبی فلم تصدق ولم تصب
إن تنقصونا فإن الروم أصلکم والروم لا تملك البغضاء للعرب
وإن سوّددنا عود وسوّددکم مؤخر عند أصل العجب^(٢) والذنب
إنه نسبه إلى الروم لأنه كان أحمر ، فنهاه النبی — ﷺ — وقال :
— إن إسماعيل كان أحمر .

وقال الزبرقان يفتخر :
— يا رسول الله . أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجباب منهم ، آخذ لهم
بحقوقهم وأمنعهم من الظلم وهذا يعلم ذلك .
وأشار إلى عمرو بن الأهتم فقال عمرو :
— إنه شديد العارضة ، مانع لجانبه ، مطاع في أدانيه .
فقال الزبرقان :

— والله لقد كذب يا رسول الله ، وما منعه من أن يتكلم إلا الحسد .
— أنا أحسبك ؟! والله إنك لئيم الخال ، حديث المال ، أحرق الولد ،
مبغض في العشيرة . والله ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الثانية .
فقال رسول الله — ﷺ — :

— إن من البيان لسحرا .
وعاد وفد تميم بالأسرى ، وانتشر الإسلام في الحى الذى كان يتيه بأن دينه
المجوسية دين كسرى . وذات يوم قعد قيس بن عاصم بفناء داره محتبيا بحمائل
سيفه يحدث قومه ، فأتى برجل مكتوف وآخر مقتول فقيل له :

(١) الهلباء : يعنى إسته .

(٢) العجب : أصل الذنب .

— هذا ابن أخيك قد قتل ابنك .
فالتفت إلى ابن أخيه فقال :
— يا بن أخى بئس ما فعلت ! أثمت بربك وقطعت رحمك وقتلت ابن
عمك ورميت نفسك بسهمك .
ثم قال لابن له آخر :
— قم يا بنى فوار أخاك وحل كتاف ابن عمك ، وسق إلى أمك مائة ناقة
دية ابنها .

مضى شهر ولم يستوقد آل محمد نارا ، إن هو إلا التمر والماء . وما أكثر الليالى المتابعة التى كان — ﷺ — يبيتها هو وأهله طاوين لا يجدون عشاء . ولم يمتلىء جوف النبى — ﷺ — شبعاً قط ولم يث شكوى إلى أحد . وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى وإن كان ليظل جائعاً يلتوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه . ولو شاء لأبقى شيئاً مما أفاء الله عليه من هوازن ولكنه لم يحفل بالدنيا وكنوزها ، وكثيراً ما كان يقول :

— ما لى وللدنيا ؟ .. حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه .
وأرخص الليل أستاره وهجعت الكائنات فاستاك — ﷺ — ثم توضأ ثم قام يصلى حتى انتفخت قدماه ، فقبل له :

— أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟
— أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

ودخل رسول الله عليه السلام داره فاستقبلته حفصة بالترحاب ، وهب لينام وكان فراشه مسحاً تشنيه حفصة ثنتين فينام عليه . فثنته له تلك الليلة بأربع فلما أصبح قال :

— ما فرشتموه لى الليلة ؟

فذكرت له حفصة أنها ثنت المسح بأربع . فقال عليه السلام :
— ردوه بحاله ، فإن وطأته منعتنى الليلة صلاتى .

وخرج — ﷺ — إلى المسجد ، وجلس مطرقاً إلى الأرض فهو متواصل

الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة ، وجاءه على بن أبي طالب ليغترف من كنوز علمه فسأله عن سنته ، فقال عليه السلام :

— المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد تُخلقى ، وقرة عيني فى الصلاة .

جزأ — صلوات الله وسلامه عليه — نهاره ثلاثة أجزاء : جزءا لله ، وجزءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول :

— أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى ، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها أمنه الله يوم الفزع الأكبر .

وكان رسول الله — ﷺ — أوقر الناس فى مجلسه ، كثير السكوت لا يتكلم فى غير حاجة ، يعرض عن تكلم بغير جميل ، وكان ضحكة تبسما ، وكلامه فصلا لا فضول ولا تقصير ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرا له واقتداء به ، وكان سكوته على أربع : على الحلم والحذر والتقدير والتفكر .

وتأهب رسول الله — ﷺ — لينطلق إلى السوق فهرع أبو هريرة إليه ، فقد انقطع لخدمة رسول الله — ﷺ — طلبا للعلم ، وقد سأله رسول الله ذات يوم :

— ألا تسألنى من هذه الغنائم التى يسألنى أصحابك ؟

فقال أبو هريرة :

— أسألك أن تعلمنى مما علمك الله .
وغادر رسول الله عليه السلام المسجد وأبو هريرة متهلل الأسارير لأنه فى
رفقة حبيبهِ رسول الله ، إنه يقول :
— ما رأيت شيئاً قط أحسن من رسول الله — ﷺ — كأن الشمس
تجربى فى وجهه .
والتفت إلى النبى — ﷺ — وقال :
— يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عيني ، فأنبئنى عن كل
شئ .
— كل شئ خلق من ماء .
— يا رسول الله أنبئنى عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة ؟
— أفش السلام ، وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس
نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام .
ومر — صلوات الله وسلامه عليه — على صبرة (كومة) طعام فأدخل
يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال :
— ما هذا يا صاحب الطعام ؟
— أصابته السماء يا رسول الله .
— أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟! من غشنا فليس منا .
وسار عليه السلام فى السوق وأبو هريرة معه ، فاشترى سراويل وقال
للوزان :
— زن وأرجح .

ورأى الوزان من رسول الله — ﷺ — كرم خلق ورحابة صدر ولين
جانب ، أصدق الناس لهجة وما أحد أحسن خلقاً منه ، فوثب الرجل إلى يد

النبي — ﷺ — يقبلها ، فجذب يده وقال :
— هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك . أنا رجل منكم .
ثم أخذ السراويل فذهب أبو هريرة ليحمله ، فقال عليه السلام :
— صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله .
وعاد رسول الله — ﷺ — إلى مسجده ، فجاءت امرأة بريدة فقالت :
— يا رسول الله إني نسجت هذه يدي أكسوكها .
فأخذها النبي — ﷺ — محتاجا إليها ، فخرج إلى الناس وإنها إزاره ،
فقال رجل بين القوم :
— يا رسول الله اكسنيها .
— نعم .
فجلس النبي — ﷺ — في المجلس ، ثم رجع فطواها ثم أرسل بها إليه ،
فقال له القوم :
— ما أحسنت . سألتها إياه لقد علمت أنه لا يرد سائلا .
— والله ما سألته إلا لتكون كفى يوم أموت .
وكان ثعلبة بن حاطب الأنصاري قد أتى رسول الله — ﷺ — فقال :
— يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا .
— ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه .
ثم قال مرة أخرى :
— أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ؟ فوالذي نفسي بيده لو شئت أن
تسيل معي الجبال فضة وذهباً لسالت .
— والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالا لأوتين كل ذي حق
حقه .

فقال رسول الله ﷺ :

— اللهم ارزق ثعلبة مالا .

فاتخذ غنما فتمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة ففتحى عنها .

ومرت الأيام وسأل رسول الله ﷺ :

— ما فعل ثعلبة ؟

— اتخذ غنما وضاقت عليه المدينة ففتحى عنها فترل واديا من أوديتها حتى

جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت حتى

ترك الصلاة إلى الجمعة وهى تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة .

— يا ويح ثعلبة . يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة .

وأنزل الله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل

عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » (١) . فبعث رسول الله —

ﷺ — رجلين على الصدقة : رجلا من جهينة ورجلا من بنى سليم وكتب

لهما كيف يأخذان الصدقة وقال لهما :

— مرا بثعلبة وبفلان رجل من بنى سليم ، فخذوا صدقتهما .

فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله عليه

الصلاة والسلام ، فقال :

— ما هذه إلا جزية . ما هذه إلا أخت الجزية . ما أدرى ما هذا ؟! انطلقا

حتى تفرغا ثم تعودا إلى .

فانطلقا وأخبرا السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزها للصدقة ثم

استقبلهم بها ، فلما رأوها قالوا :

— ما يجب هذا عليك . وما نريد أن نأخذه منك .

— بلى نأخذه فإن نفسى بذلك طيبة ، وإنما هى إبلى .

فأخذوها منه ، فلما فرغا من صدقتهما رجعا حتى مرا بثعلبة ، فقال :
— أروني كتابكما أنظر فيه .

فنظر فقال :

— ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى أرى رأيي .

فانطلقا حتى أتيا النبي عليه الصلاة والسلام ، فلما رآهما قال :
— يا ويح ثعلبة .

قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمي بالبركة ، وأخبروه بالذي صنع ثعلبة
والذي صنع السلمي ، فأنزل الله عز وجل في ثعلبة قرآنا وعند رسول الله ﷺ —
رجل من أقاربه فسمع ذلك ، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال :

— ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من
فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا
وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما
وعدوه وبما كانوا يكذبون » (١) .

فخرج ثعلبة حتى أتى النبي عليه الصلاة والسلام فسأله أن يقبل منه
صدقته ، فقال :

— إن الله قد منعني أن أقبل صدقتك .

فجعل يحشو التراب على رأسه ، فقال رسول الله ﷺ :

— هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني .

فلما أبى أن يقبل منه شيئا رجع إلى منزله والدنيا في عينيه ظلمات بعضها
فوق بعض ، يلوم نفسه لأنه لم يطع الرسول لما قال له : « ويحك يا ثعلبة ،
قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه » .

ارتفع صوت بلال يؤذن في عماية الصبح ففتحت الدور في العالية
والسافلة وخرج الرجال والنساء والولدان في ثياب جديدة ، فقد كان اليوم
يوم عيد . وخرج رسول الله ﷺ إلى المصلى وخرج أهل بيته إلى
المسجد ، فلما قضيت الصلاة وانتهى عليه السلام من خطبة العيد وقد وعظ
الناس وأمرهم بالصدقة فقال :

— أيها الناس تصدقوا .

فمر على النساء فقال :

— تصدقن ولو من حليكن .

وكانت زينب امرأة عبد الله بن مسعود في المسجد ، وكانت زينب تنفق
على عبد الله وأيتام في حجرها ، فقالت لعبد الله :

— سل رسول الله ﷺ — أيجزى عني أن أنفق عليك وعلى أيتام في

حجرى من الصدقة ؟

— سلى أنت رسول الله ﷺ .

فانطلقت إلى النبي ﷺ — فوجدت امرأة من الأنصار على الباب

حاجتها مثل حاجتها ، فمر عليهما بلال فقالت كل منهما :

— سل النبي ﷺ — أيجزى عني أن أنفق على زوجي وأيتام في

حجرى ؟

وقالتا لبلال :

— لا تخبر بنا .

كانتا تطلبان منه إلا يعين أسماءهما ولا يقل السائلة فلانه ، فدخل فسأله
فقال عليه السلام :
— من هما ؟

— زينب .

— أى الزيانب ؟

— امرأة عبد الله .

— نعم ولها أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة .

وراح الناس يتصدقون فجاء هذا بتمره إلى رسول الله — ﷺ — وهذا
من تمره حتى صار عنده كوما من تمر ، فجعل الحسن والحسين يلعبان بذلك
التمر ، فأخذ الحسن تمره جعلها في فيه ، فقال النبي — ﷺ :
— كخ كخ .

ليطرحها من فيه . ثم قال :

— أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة ؟

وجاء ناس من الأنصار يسألون رسول الله — ﷺ — فأعطاهم ، ثم
سألوه فأعطاهم حتى نفذ ما عنده فقال :

— ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ،
ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحدا عطاء خيرا
وأوسع من الصبر .

وجاء إليه عليه السلام أناس يشكون قالوا :

— منع ابن جميل وخالد بن الوليد وعباس بن عبد المطلب .

فقال النبي — ﷺ :
—

— ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيراً فأغناه الله ورسوله ، وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً قد احتبس أذراعه وأعتدّه في سبيل الله . وأما العباس بن عبد المطلب فعم رسول الله — ﷺ — فهي عليه صدقة ومثلها معها .
كان أناس يسألون وأناس يسألون الخافا وأناس يستعففون حتى عن العطاء ، فقد كان رسول الله — ﷺ — يعطي عمر العطاء فيقول :
— أعطه من هو أفقر إليه مني .

فيقول له رسول الله — ﷺ :
— خذه ، إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ
وما لا تُبْعِه نفسك .

وراح الناس يمضون العيد في بيرحاء وكانت بستاناً لأبي طلحة وكانت أحب أمواله إليه ، وكانت بيرحاء مستقلة بالمسجد وكان رسول الله — ﷺ — يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما أنزلت آية : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »^(١) . قام أبو طلحة إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إن الله تبارك يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله .
فقال رسول الله — ﷺ :

— بخ ذلك مال رابع ، ذلك مال رابع ، وقد سمعت ما قلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين .

(١) آل عمران ٩٢ .

فقال أبو طلحة :

— أفعل يا رسول الله .

فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبنى عمه .

وجاء الفقراء إلى النبي — ﷺ — فقالوا :

— ذهب أهل الدثور (الكثير) من الأموال بالدرجات العلا والنعيم

المقيم ، يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ولهم فضل من أموال يحجون بها

ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون .

— ألا أحدثكم بما إن أخذتم به أدركتم من سبقكم ولم يدرككم أحد بعدكم

وكنتم خير من أنتم بين ظهرائه . إلا من عمل مثله ؟ تسبحون وتحمدون

وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين .

فاختلفوا بينهم فقال بعضهم :

— نسبح ثلاثا وثلاثين ونحمد ثلاثا وثلاثين ونكبر أربعاً وثلاثين .

فرجع إليه أبو هريرة فقال عليه السلام :

— تقول : سبحان الله والحمد لله والله أكبر حتى يكون منهن ثلاثا

وثلاثين .

وكان رسول الله — ﷺ — قد استعمل عاملاً ، فجاءه العامل حين فرغ

من عمله فقال :

— يا رسول الله هذا لكم وهذا أهدي لى .

فقال له :

— أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك فنظرت أهدى لك أم لا ؟

ثم قام رسول الله — ﷺ — عشية بعد الصلاة فتشهد وأثنى على الله بما

هو أهله ثم قال :

— أما بعد فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول : هذا من عملكم وهذا أهدي لي ؟ أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر هل يهدي له أم لا ؟ فوالذي نفس محمد بيده لا يغفل أحدكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه إن كان بعيراً جاء به له رغاء ، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار وإن كانت شاة جاء بها لها تيعر ، فقد بلغت .

وجاءت امرأة معها ابنتان عائشة تسألها فلم تجد عندها غير تمر واحدة فأعطتها . فقسمتها الأم بين ابنتيها ثم قامت فخرجت . فدخل النبي ﷺ — فحدثته فقال :

— من يلي من هذه البنات شيئاً فأحسن إليهن كن له ستراً من النار .
وتلقى عليه السلام هدية وهو في بيت عائشة ، فأرسل إلى كل زوجة نصيباً منها ، فردت زينب بنت جحش ما جاءها فقالت عائشة في شماتة ، فلم تكن واحدة من نساء النبي ﷺ — تناصبها غير زينب :
— لقد أقمأت^(١) وجهك حين ترد عليك الهدية .

فقام عنها مغضباً وهو يقول :
— أنتن أهون على الله من أن تقمثنني .
كان عليه السلام يحبها وكان يغضب ويرضى وكانت تغضب وترضى ، وقد قال لها ذات يوم :

— إني لأعرف غضبك ورضاك .
— وكيف تعرف ذاك يا رسول الله ؟
— إنك إذا كنت راضية قلت : بلى ورب محمد . وإذا كنت ساخطة

(١) أقمأت : صغرت وأذلت .

قلت : لا ورب إبراهيم .

— أجل . لست أهاجر إلا اسمك .

وكان عليه السلام يزور كل يوم ابنته فاطمة الزهراء ويسعد بمداعبة الحسن والحسين ومحسن وزينب وأم كلثوم ، وما كان يصرفه عنهم شاغل من شواغله الجسام . إنه كان سعيدا بابنه إبراهيم وكان يضمه إلى صدره ويقبله ، ولكن حبه إبراهيم لم يطغ على حبه الحسن والحسين ولم يؤثر في حبه لأمانة بنت زينب ، فقد كان يخرج على الناس وأمانة بنت أبي العاص على عاتقه فيصلي ، فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها .

وجاءه أغراي وهو يقبل أحفاده فقال :

— أتقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم .

فقال النبي — ﷺ :

— أوأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟

وراح — ﷺ — يحدث أصحابه في المسجد ويقول :

— مثلي ومثل ما بعثنى الله كمثلي رجل أتى قوما فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصباحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم . فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق .

ورأى عمر على رجل حلة من إستبرق فأتى بها النبي — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله اشتر هذه فالبسها لوفد الناس إذا قدموا عليك .

— إنما يلبس الحرير من لا خلاق له .

فمضى من ذلك ما مضى . ثم إن النبي — ﷺ — بعث إلى عمر بحلة .

فأتى بها النبي — ﷺ — فقال :

— بعثت إلى بهذه وقد قلت في مثلها ما قلت .

— إنما بعثت بها إليك لتصيب بها مالا .

ومرت الأيام وجلس رسول الله — ﷺ — في المسجد ومعه أسامة بن

زيد وسعد بن أبي وقاص وأبى ، فأرسلت إليه ابنة له :

— إن ابني قد احتضر فاشهدنا .

فأرسل يقرأ السلام ويقول :

— إن لله ما أخذ وما أعطى ، وكل شيء عنده مسمى فلتصبر وتحسب .

فأرسلت إليه تقسم عليه فقام وقام معه أسامة وسعد وأبى ، فلما رفع إليه

فأقعده في حجرة ونفس الصبي تققعق ، فاضت عينا رسول الله — ﷺ —

فقال سعد :

— ما هذا يا رسول الله ؟

— هذا رحمة يضعها الله في قلوب من يشاء من عباده .

وإنما يرحم الله من عباده الرحماء .

كان زهير بن أبي سلمى يجالس أهل الكتاب ويسمع منهم أنه قد آن بعث خاتم الأنبياء ، ودخل زهير ذات ليلة ونام فرأى أنه قد مد بسبب من السماء وأنه مد يده ليتناوله ففاته ، فأول رؤياه بالنبي عليه السلام الذي يبعث في آخر الزمان وأنه لا يدركه .

وأحس زهير أن خيرا كثيرا قد فاته ، فرأى أن لا يفوت بنيه فجمعهم وأخبرهم بحلمه وأوصاهم إن أدركوا النبي — ﷺ — أن يسلموا وأن يتبعوا النور الذي يأتي به ، فقد كان يريد لبنيه هناءة الدنيا وسعادة الأبد .

وذهب زهير بن أبي سلمى وقام رسول الله — ﷺ — يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له فآمن له من شرح الله قلوبهم للإسلام وناصبه العداء من عميت قلوبهم التي في الصدور . وخرج يوما بحير بن زهير وكعب بن زهير في غنم لهما ، وبلغهما أن رسول الله — ﷺ — يدعو الناس إلى دينه الجديد ، فقال بحير لأخيه كعب وقد تذكر وصية أبيه ::

— اثبت في الغنم حتى آتى هذا الرجل فأسمع كلامه وأعرف ما عنده . فأقام كعب ومضى بحير ، فأتى رسول الله — ﷺ — وسمع كلامه فأحس نشوة عارمة وكأن غشاوة قد رفعت عن عينيه وأنه ارتفع حتى كاد يعاين ملكوت الله ، وانسكبت أنوار اليقين في قواده فإذا به يرى الوجود كله قد تألق بضياء رباني يده بصيرته ، فقال وهو متفرح في الله :
— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله :

وعاد إلى حيث كان أخوه كعب وهو يستشعر كأنما ولد من جديد . إنه ذهب ليلقى سمعه إلى النبي — ﷺ — وهو لا يدري سر وجوده ، فعاد من عنده وهو يحس أن حياته أصبح لها معنى وأن له رسالة وسعت أمامه آفاق دنياه ، فقد صار خليفة الله في الأرض .

وأخذ بجير يروى لأخيه كعب ما بهر من أمر رسول الله — ﷺ — وهو يطمع في إسلام أخيه ، ولكن كعباً أصم أذنيه عن النصيح وأعرض في استكبار وسار في طريق الضلال .

وانتقل الإسلام من نصر إلى نصر وفتح رسول الله — ﷺ — مكة ودانت له قريش وانطلق لحرب هوازن وضرب الحصار على الطائف ، واستمر كعب ينظم الهجاء في نبي الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه — وأخوه بجير في صفوت المسلمين يتألم لتردى كعب في الظلمات . فلما كان منصرفه عليه السلام من الطائف كتب بجير إلى أخيه كعب بن زهير يخبره بفتح مكة وأنه — ﷺ — قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوهم ويؤذيه ، وأن من بقى من شعراء قريش ابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه ، « فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله — ﷺ — فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً ، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض . » فلما بلغ كعب الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه ، واهتبل أعداؤه هذه الفرصة فخاضوا في أمره بما أفرعه فقالوا :

— هو مقتول .

فلما لم يجد من شيء بدا خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة ، فغدا به إلى رسول الله — ﷺ — حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله — ﷺ — ثم أشار له إلى رسول الله —

صلوات الله وسلامه عليه — فقال :
— هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه .
فقام إلى رسول الله — ﷺ — حتى جلس إليه فوضع يده في يده ، وكان
رسول الله — ﷺ — لا يعرفه فقال :
— يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ،
فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟

— نعم .
— أنا يا رسول الله كعب بن زهير .
فوثب عليه رجل من الأنصار فقال :
— يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه .
— دعه عنك فإنه قد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه .
فغضب كعب على هذا الحى من الأنصار لما صنع به صاحبهم ، وذلك أنه
لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير ، فراح ينشد :
بانت سعاد^(١) فقلبي اليوم متبول
متم إثرها لم يُفد مكبول
وما سعادُ غداةً البين إذ رحلوا
إلا أغن^(٢) غضيض الطرف مكحول

(١) بانت : فارقت فراقاً بعيداً . وسعاد اسم امرأة ، وقبل هي امرأته وبنت عمه ،
خصها بالذكر لطول غيبته عنها ، لهروبه من النبي ﷺ .
(٢) الأغن : الظبي الصغير الذى فى صوته غنة . غضيض الطرف : فاتره ،
مكحول : من الكحل (بتحريك الحاء المهملة) وهو سواد يعلو جفون العين من غير
اكتحال .

هيفاء^(١) مقبلة عجزاء مدبرة
لا يُشَتَكى قصر منها ولا طول
تجلو^(٢) عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت
كأنه مُنْهَل بالراح معلول
شُجَّت^(٣) بذى شيم من ماء مخنية
صاف بأبطح أضحي وهو مشمول
تنفى الرياح القذى^(٤) عنه وأفرطه
من صوب غادية بيض يعاليل
فيا لها خلة^(٥) لو أنها صدقت
بوعدها أو لو ان النصح مقبول
لكنها خُلة قد سيط^(٦) من دمها
فجّع وولّع وإخلاف وتبديل

(١) هيفاء : دقيقة الخاصرة مقبلة : حال . عجزاء : كبيرة العجز .
(٢) تجلو : تكشف . العوارض : الأسنان . الظلم : ماء الأسنان وبريقها . المنهل :
المسقى . الراح : الخمر . معلول : من العلل (بالفتح) ، وهو الشرب الثاني .
(٣) شجّت : مزجت حتى انكسرت سورتها . وشيم : ماء شديد البرد . المخنية :
منعطف الوادى . الأبطح : المسيل الواسع الذى فيه دقائق الحصى ، المشمول : الذى
ضربته شمال حتى برد .
(٤) القذى : ما يقع فى الماء من تبن أو عود أو غيره . أفرطه : سبق إليه وملاه .
الصوب : المطر . الغادية : السحابة تمطر غدوة . يعاليل : الحباب الذى يعلو وجه
الماء .

(٥) الخلة (بالضم) : الصديقة .

(٦) سيط : أى خلط بلحمها ودمها هذه الصفات المذكورة فى البيت . الفجع :
الإصابة بالذكور . الولع : الكذب . الإخلاف : خلف الوعد .

فما تدوم على حال تكون بها
كما تلوّن في أثوابها الغول (١)
وما تمسك بالعهد الذى زعمت
إلا كما يمسك الماء الغرايبيل
فلا يغرّنك ما منّت وما وعدت
إن الأمانى والأحلام تضليل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً
وما مواعيدها إلا الأباطيل
أرجو وآمل أن تدنو موذتها
وما إخال لدينا منك تنويل (٢)
أمت سعاد بأرض لا يُلغها
إلا العتاق (٣) النجيات المراسيل
ولن يبلغها إلا عذافرة (٤)
لها على الأين إرقال وتبغيل
من كل نضّاحة (٥) الذفرى إذا عرقت
عرضتها طامس الأعلام مجهول

(١) الغول : ساحرة الجن . (٢) التنويل : الوصل .
(٣) العتاق : الكرام النجيات : جمع نجية ، وهى القوية الخفيفة . المراسيل : الإبل
الكرام الأصول ، القوية السريعة .
(٤) العذافرة : الناقة الصلبة العظيمة . الأين : الإعياء والتعب . الإرقال والتبغيل :
ضربان من السير السريع .
(٥) النضّاحة : الكثيرة رشح العرق . الذفرى : النقرة التى خلف أذن الناقة .
عرضتها : همتها . طامس الأعلام : الدارس المتغير من العلامات التى تكون فى الطريق ليهتدى بها .

ترمى الغيوب^(١) بعينى مفرد لهُق
إذا تَوَقَّضت الحزَّان والمِيسل
ضخم مُقلِّدها^(٢) فعم مقيِّدها
في تخلفها عن بنات الفحل تفضيل
غلباء^(٣) وجناء علكوم مُذكِّرة
في دفعها سعة قُدَّامها ميل
وجلدها من أطوم^(٤) ما يؤيسه
طلح بضاحية المتنين مهزول
حرف^(٥) أخوها أبوها من مُهَجَّنة
وعمها خالها قَوْداء شِمْليل

-
- (١) الغيوب : آثار الطريق التي غابت معالمها عن العيون . المفرد : الثور الوحشى الذى تفرد فى مكان . اللهُق : الأبيض . الحزَّان : الأمكنة الغليظة الصلبة تكثر فيها الحصباء . الميل : العقد الضخمة من الرمل .
- (٢) المقلد : موضع القلادة فى العنق . فعم : ممتلئ . القيد : بنات الفحل : الإناث من الإبل المنسوبة للفحل المعد للضراب .
- (٣) غلباء : غليظة العنق . وجناء : عظيمة الوجنتين . علكوم : شديدة . مذكرة : عظيمة الخلقة تشبه الذكران من الأباعر . فى دفعها سعة : أى هى واسعة الجنين . قدامها ميل : كناية عن طول عنقها . أو سعة خطوها .
- (٤) الأطوم : سلحفاة بحرية غليظة الجلد . يؤيسه : يذلل ولا يؤثر فيه . الطلح (بالكسر) : القراد . الضاحية من كل شئ : ناحيته البارزة للشمس . المتنان : ما يكتنف صلبها عن يمين وشمال ، من عصب ولحم . مهزول : صفة لطلح ، أى قراد مهزول .
- (٥) الحرف : الناقة الضامرة . أخوها أبوها .. ألخ : لم يدخل فى نسبها غير أقاربها . المهجنة : الكريمة الأبوين من الإبل . القوداء : الطويلة الظهر والعنق . الشميل الخفيفة السريعة .

يمشى القُرادُ عليها ثم يُزلقه^(١)
منها لسان وأقرب زهاليل
عيرانه^(٢) قذفت بالنحض عن عُرض
مرفقها عن بنات الزور مفتول
كأنما فات عينيها ومذبَحُها
من خطمها^(٣) ومن اللّحيين برطيل
تمر مثل عسيب^(٤) النحل ذا نُحصل
في غارز لم تخونّه الأحاليل
قنواء^(٥) في حُرَّتِها للبصير بها
عِتق مبین وفي الخدين تسهيل
تخدی^(٦) على يسرات وهى لاحقة
ذوابل مسهُن الأرض تحليل

-
- (١) يزلقه : يسقطه . اللبان : الصدر . الأقرب : الخواصر . الزهاليل : الملس .
(٢) العيرانة : الناقة المشبهة غير الوحش في سرعته ونشاطه وصلابته . النحض : اللحم . عرض : جانب . الزور : الصدر . بنات الزور : ما يتصل به مما حوله من الأضلاع وغيرها .
(٣) الخطم : الأنف . اللحيان : العظامان اللذان تثبت عليهما الأسنان السفلى من الإنسان وغيره . البرطيل : حجر مستطيل .
(٤) عسيب النخل : جريده الذى لم ينبت عليه الخوص ، ذا خصل : يريد ذيل له لفائف من الشعر . في غارز . أى على ضرع . لم تخونه : لم تنقصه . الأحاليل : مخارج اللبن .
(٥) القنواء : المحدودة الأنف . الحرتان : الأذنان . العتق : الكرم . المبين : الظاهر . تسهيل : سهولة ولين .
(٦) تخدى : تسرع . اليسرات : القوائم الخفاف . الذوابل : جمع ذابل وهو الرمح الصلب اليابس . تحليل : قليل لم يبالغ فيه ..

سُمر العُجايات^(١) يتركن الحصى زِيما
لم يقهـن رعوسَ الأكم تنعيل
كأن أوب^(٢) ذراعها وقد عرِقت
وقد تُلْفَع بالقُور العساquil
يوما يظل به الحرباء^(٣) مصطخدا
كأن صاحبةً بالشمس مملول
وقال للقوم حاديهـم^(٤) وقد جعلت
وُرق الجنادب يركضن الحصى قيلوا
شد النهار^(٥) ذراعا عيطل نصف
قامت فجاءتُها نُكد مثاكيل

-
- (١) العجايات : الأعصاب المتصلة بالحافر . زيمًا : متفرقا . الأكم : الأراضي المرتفعة . التنعيل : شد النعل على ظفر الدابة ليقبها الحجارة .
(٢) الأوب : سرعة القلب والرجوع . تلفع : اشتمل والتحف . القور : جمع قارة ، وهى الجبل الصغير . العساquil : السراب .
(٣) الحرباء : ضرب من العطاء ، يستقبل الشمس حيثما دارت ، ويتلون بألوان الأمكنة التى يحل فيها . مصطخدا : محترقا بحر الشمس . صاحبه : ما برز للشمس منه . مملول : موضوع فى الملة ، وهى الرماد الحار .
(٤) الحادى : السائق للإبل . الورق : الأخضر الذى يضرب إلى السواد . الجنادب : ضرب من الجراد . يركضن الحصى : يحركنه بأرجلهن لقصد النزول ، بسبب الإعياء عن الطيران من شدة الحر . قيلوا : استريحوا .
(٥) شد النهار : وقت ارتفاعه . العيطل : الطويلة . النصف : المتوسطة فى السن ، النكد : التى لا يعيش لها ولد . المثاكيل : الكثيرة الشكل .

نواحة رخوة الضَّبعين^(١) ليس لها
لما نَعَى بِكرها الناعون معقول
تفرى^(٢) اللِّبان بكفِّها ومدرعها
مشقق عن تراقبها رعايل
تسعى الغواة^(٣) جنايها وقولهم
إنك يا بن أبى سُلمى لمقتول
وقال كل صديق كنت آمله^(٤)
لا ألَهِينُك إني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي^(٥) لا أبأ لكم
فكل ما قَدَّر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
يوما على آلة حدباء^(٦) محمول
بُعث أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول

-
- (١) رخوة الضبعين : مسترخية العضدين . البكر : أول الأولاد . الناعون :
الخبرون بالموت ، النادبون له . المعقول هنا : العقل .
(٢) تفرى : تقطع . اللبان : الصدر . المدرع : القميص . رعايل : قطع متفرقة .
(٣) الغواة : المفسدون ، جنايها : حوالها . مقتول : أى متوعد بالقتل . لأن النبى
ﷺ كان قد أهدر دمه .
(٤) آمله : أوْمل خيره وأترجى إعانته فى الملهمات .
(٥) خلوا سبيلي : اتركوه . لا أبأ لكم : مدح لهم على سبيل التهكم والاستهزاء .
(٦) الآلة الحدباء : النعش الذى يحمل عليه الميت .

مهلا هداك الذى أعطاك نافـ
لة القرآن فيها مواعيط وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم
أذنب ولو كثرت فى الأقاويل^(١)
لقد أقوم^(٢) مقاما لو يقوم به
أرى وأسمع ما لو يسمع الفيـل
لظـل يـرعد إلا أن يكون له
من الرسول بإذن الله تنوـيل
حتى وضعت يمينى ما أنازعه
فى كف ذى نـقـمات قـيله القـيل
فلهو أخوف عندى إذ أكلمه
وقيل إنك منسوب^(٣) ومسئول
من ضيغم^(٤) بضراء الأرض مخدره
فى بطن عثر غيل دونه غـيل

(١) هذا البيت من تنمة الاستعطاف والتلطف فى القول . فلا وإن كانت ناهية بحسب وضعها . لكن المراد منها التضرع والتذلل ، والمعنى : لا تستبح دمي بسبب أقوال الوشاة الساعين بينى وبينك بالإفساد والكذب والبهتان .
(٢) لقد أقوم : معناه : والله لقد أقوم مقاما ، فهو جواب مقسم محذوف . ويروى : « أنى أقوم مقاما ، والأولى أبلغ للقسم . والمقام هنا مجلس النبى . والمراد بالقيام فيه حضوره والمعنى على المضى أى لقد حضرت مجلسا .
(٣) منسوب : أى إلى أمور صدرت منك . مسئول : أى عن سببها .
(٤) ضيغم : أسد . ضراء الأرض : الأرض التى فيها شجر . المخدر : غابة الأسد . عثر : اسم مكان مشهور بكثرة السباع . الغيل : الشجر الكثير الملتف .
(فتح مكة)

يغدو^(١) فيلحم ضرغامين عيشهما
لحم من الناس قعفور خراديل
إذا يساور^(٢) قرننا لا يحل له
أن يترك القرن إلا وهو مفلول
منه تظل سباع الجو^(٣) نافرة
ولا تمشي بوادييه الأراجيل
ولا يزال بوادييه أخو ثقة^(٤)
مُضرج البز والدرسان مأكول
إن الرسول لنور يُستضاء به
مُهَنَّد من سيوف الله مسلول
في عصابة^(٥) من قريش قال قائلهم
بيطن مكة لمَّا أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس^(٦) ولا كُشف
عند اللقاء ولا ميل معازيل

-
- (١) يلحم : يطعمها اللحم . الضرغام : الأسد ويريد بالضرغامين شبليه .
قعفور : ملقى في العفر ، وهو التراب . خراديل : قطع صغار .
(٢) يساور : يواثق . القرن : المقاوم في الشجاعة . المغلول : المكسور المهزوم .
(٣) نافرة : بعيدة . الأراجيل : الجماعات من الرجال .
(٤) مضرج : مخضب بالدماء . البز : السلاح . الدرسان : أخلاق الثياب .
(٥) زولوا : تحولوا وانتقلوا من مكة إلى المدينة .
(٦) الأنكاس : جمع نكس وهو الرجل الضعيف . الكشف : جمع أكشف ، وهو
الذي لا ترس معه . الميل : جمع أميل . وهو الذي لا سيف له . المعازيل : الذين لا
سلاح معهم .

شُم^(١) العرّانين أبطال لبوسُهم
من نَسج داود في الهيجا سراييل
بيض^(٢) سوابغ قد شُكّت لها خَلق
كأنها خَلق القعفاء مجدول
ليسوا مفاريح^(٣) إن نالت رماحهم
قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
يمشون مشى الجمال الزهر^(٤) يعصمهم
ضرب إذا عرّد السود التناييل
لا يقع الطعن^(٥) إلا في نحورهم
وما لهم عن حياض الموت تهليل
ولما أنشده :

إن الرسول لنور يُستضاء به
مُهَنَّد من سيوف الله مسلول

-
- (١) شُم : جمع أشم . وهو الذى فى قصبة أنفه علو ، مع استواء أعلاه . العرّانين : جمع عرنين ، وهو الأنف . اللبوس : ما يلبس من السلاح . نسج داود : أى منسوجه وهو الدروع . الهيجا : الحرب . السراييل : جمع سربال . وهو القميص أو الدرع .
(٢) السوابغ : الطوال السوابل . شكت : أدخل بعضها فى بعض . القعفاء : ضرب من الحسك . مجدول : محكم الصنعة .
(٣) مفاريح : كثيرو الفرح . نالوا : أصابوا . مجازيع : كثيرو الجزع .
(٤) الزهر : البيض . يعصمهم : يمنعهم . عرّد : فر . التناييل : جمع تنبال ، وهو القصير .
(٥) وقوع الطعن فى نحورهم : دليل على أنهم لا يتهزمون حتى يقع الطعن فى ظهورهم . حياض الموت : موارد الحتف . تهليل : تأخر .

ألقى عليه بردة كانت عليه . ولما قال كعب ، « إذا عرّدت السود التنايل »
قال الأنصار :

— إنما يريدنا معشر الأنصار لما كان صاحبنا صنع به ما صنع .

وأحسن رسول الله — ﷺ — أن كعبا خص المهاجرين من قريش من
أصحابه بمدحته ، وأن الأنصار غضبت عليه فقال له :
— لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل .

فقال يمدح الأنصار :

من سره كرم الحياة فلا يزل
في مقنب من صالحى الأنصار^(١)
ورثوا المكارم كابرا عن كابر
إن الخيار هم بنو الأخيار
المكرهين السّمهرى بأذرع
كسوالف الهندى غير قصار^(٢)
والناظرين بأعين محمرة
كالجمر غير كليل^(٣)ة الأبصار
والبائعين نفوسهم لنبيهم
للموت يوم تعانق وكرار

(١) المقنب : الجماعة من الخيل .

(٢) السّمهرى : الرمح . سوالف الهندى : حواشى السيوف .

(٣) كليل : ضعيف .

والقائدين الناس عن أديانهم
بالمشرفي^(١) وبالقنا الخطار
يتطهرون يرونه نسكا لهم
بدماء من علقوا من الكفار
دربوا كما دربت ببطن خفية
غلب الرقاب من الأسود ضواري
وإذا حللت لينعوك إليهم
أصبحت عند معاقل الأعفار
ضربوا عليا^(٢) يوم بدر ضربة
دانت لوقعتها جميع نزار
لا يعلم الأقسام علمي كله
فيهم لصدقني الذين أماري^(٣)
قوم إذا خوت^(٤) النجوم فإنهم
للطارقين النازلين مقاري^(٥)
في الغر من غسان من جرثومة^(٦)
أعيت محافرها على المنقار

(١) الأعفار : جمع عفر وهو ولد الوعل . ويضرب المثل بامتناع أولاد الوعول في قتل الجبال .

(٢) عليا : يريد علي بن مسعود بن مازن الغساني .

(٣) أماري : أجادل .

(٤) خوت : خفيت وأظلمت .

(٥) مقاري : مكرمين . (٦) الجرثومة : الأصل .

استقبل رسول الله ﷺ — الصباح فأخذ يدعو :
 — أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والجلال والخلق والأمر
 والليل والنهار وما يسكن فيها لله عز وجل وحده لا شريك له .
 اللهم اجعل أول يومى هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا . اللهم
 إني أسألك خير الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين . اللهم اقسم لنا من خشيتك
 ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتنا ما تبلغنا به رحمتك ، ومن اليقين
 ما تهون به علينا مصيبات الدنيا . اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا واجعله
 الوارث منا ، وانصرنا على من ظلمنا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل
 الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا .
 وخرج رسول الله ﷺ — إلى أصحابه منشرح الصدر فرأى صهيبا
 يأكل رطبا وكان بإحدى عينيه رمد ، فقال له الرسول عليه السلام مداعبا :
 — أتاكل الرطب وفي عينيك رمد .

فقال صهيب :

— وأى بأس ! إني آكله بعيني الأخرى .
 ولقى — صلوات الله وسلامه عليه — معاذ بن جبل . فقال له :
 — كيف أصبحت ؟
 — أصبحت مؤمنا حقا يا رسول الله .
 — إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟

— ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت أنى لا أمسى ، ولا أمسيت مساءً إلا ظننت أنى لا أصبح ، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها غيرها ، وكأنى أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها ، وكأنى أرى أهل الجنة ينعمون وأهل النار فى النار يعذبون .

— عرفت فالزم .

كان معاذ شديد الأدمة^(١) ، حلو المنطق وضىء ، ينهل العلم من رسول الله — ﷺ . إذا تكلم كأنما يخرج من فمه نور ولؤلؤ ، تعمق فى الفقه حتى إن رسول الله — ﷺ — قال عنه :

— أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل .

ودنا أبو ذر من رسول الله — ﷺ — ينهل من علمه ، فقال عليه السلام :

— يا أبا ذر كيف أنت إذا أدركت أمراء يستأثرون بالفىء ؟

— إذاً والذى بعثك بالحق لأضربن بسيفى .

— أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ اصبر حتى تلقانى .

واستأثر معاوية بالفىء وراح أبو ذر يقود ثورة تنادى بتوزيع المال على المسلمين كافة ، ثورة عارمة لم يمتشق فيها سلاح امثالاً لوصية نبيه بأن يصبر حتى يلقاه .

وأتى إلى رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — رجل من الأنصار يسأله ، فقال :

— أما فى بيتك شىء ؟

(١) الأدمة : لون مشرب سوادا .

— بلى ، جلس^(١) نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء .
— اتتنى بهما .

فأتاه بهما فأخذهما — ﷺ — بيده وقال :

— من يشتري هذين ؟

قال رجل :

— أنا آخذهما بدرهم .

قال رسول الله — ﷺ :

— من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا ؟

قال رجل :

— أنا آخذهما بدرهمين .

فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى وقال :

— اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما فأتني به .

فأتاه به فشده فيه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — عودا بيده

وقال :

— اذهب فاحتطب وبع . هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة^(١) في

وجهك يوم القيامة .

وجاء أبو الدرداء إلى حبيبه الرسول وراح يروى له ما كان بينه وبين سلمان

الفارسي في أمسه ، وكانا من أخى بينهما — صلوات الله وسلامه عليه . قال

أبو الدرداء :

(١) المجلس : فراش يسط في البيت أو يوضع على الرحل ، وكان العرب يلتحفون به

أحيانا .

(٢) نكتة : وصمة .

— دخل سلمان بيتي فوجد امرأتى أهملت نفسها فقار لها : « ما شأنك ؟ » قالت : « أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا » ، فجاءني فصنع لي طعاما : فقال : « كل » . فقلت : « إني صائم » . قال : « ما أنا بأكل حتى تأكل » . فأكلت . فلما كان الليل ذهبت أقوم قال : « نم » ، فمت . ثم ذهبت أقوم قال : « نم » ، فلما كان آخر الليل قال : « قم الآن » . فصلينا فقال : « إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه » .
فقال رسول الله — ﷺ :

— صدق سلمان .

وراح حسان بن ثابت ينشد رسول الله — ﷺ — شعره والرسول عليه السلام يحسن استماعه ولا يشتغل عنه بشيء ، وعمرو بن العاص وأبو سفيان ابن الحارث ومن كانوا ينازلونه بالسنتهم من شعراء قريش قبل أن يشرح الله قلوبهم للإسلام يصغون إليه ويتمنون في قرارة أنفسهم لو أنهم كانوا المنافحين عن دين الله مذ أول يوم وقف فيه محمد عليه السلام على الصفا يدعو قومه إلى الإسلام .

كان عمرو بن العاص مطرقا لا يرفع عينيه إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — هية وخجلا مما كان في سالف الزمان ، وكان ابن عمه أبو سفيان بن الحارث يكثر من إنشاد الشعر في مدح رسول الله عليه السلام لعله يكفر عما كان من هجوه ويرجو من كل قلبه لو أن ما قاله من قدح تمحوه يد النسيان » .

وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف في مكان الصفق ، إنهم من تجار قريش وإنهم ليعرفون كيف يكتسبون الأموال . ولم يكن الذهب

والفضة غرضهم بل كانوا على يقين أن دعوة الله في حاجة إلى إنفاق وأن إخوانهم الفقراء في حاجة إلى ما يمسك الرmq^(١) ، فكانوا ينفقون ما يربحون في سبيل الله ويتصدقون على المساكين ثم ينامون على الطوى ، يعيشون على خبز الشعير أو التمر فقد كان لهم في رسول الله أسوة حسنة ، وإن الرسول عليه السلام قد علمهم حقيقة الزهد لما قال :

— ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك ، لأن الله تعالى يقول :

« لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »^(٢) .

وقام رسول الله عليه السلام ليذهب لزيارة إبراهيم الحبيب فركب حماره ، وقبل أن ينطلق رأى عبد الله بن عباس فأردفه خلفه وسار إلى العالية ، وأخذ يزجي نصائحه إلى ابن العباس قال :

— يا غلام احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة . إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . جفت الأقلام وطويت الصحف ! فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا . واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا . ولن يغلب عسر يسرين » .

(٢) الحديد ٢٣ .

(١) الرmq : بقية الروح .

ودخل رسول الله ﷺ — مشربة أم إبراهيم فألقى إبراهيم عندها وهي تناجيه في فرح ، فقد جاءت به مرضعته أم سيف ليمضي سحابة نهاره عند مارية ، فأجس الرسول عليه السلام رقة وحنانا فذهب إلى إبراهيم وحمله في حب وأخذ يقبله والرحمة تتدفق من كنوز قلبه الكبير . وداعب عبد الله بن عباس إبراهيم ، وراح الوقت يمر ورسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يستشعر سعادة تبدد ما ألفه من حزن .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى مسجده ، إنه لا ينفك يذكر الله ويدعوه ويستغفره .

— رب اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله وما أنت أعلم به مني .

اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وهزلي وكل ذلك عندي .
اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير .

وقضيت صلاة العشاء وذهب الناس إلى دورهم . ودخل رسول الله — ﷺ — خبائه وراح يصلي في خشوع حتى إذا ما تعبت قدماه أخذ يناجي ربه ويتضرع إليه :

— اللهم لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد . أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد . أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد . أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق وقولك الحق . والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق . اللهم لك أسلمت ولك آمنت ، وعليك توكلت وإليك أنبت ، وبك خاصمت وإليك حاكمت . فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كان الحارث بن أبي الحارث بن أبي ضرار سيد بنى المصطلق ، وكان يرى بزوغ نجم الإسلام فيحس كمدا فاشتداد ساعد الدين الجديد يهدد آلهة القوم ويسفه معتقدات الآباء وينذر بانضواء القبائل الحرة التي تعيش بلا قيود تحت لواء يثرب ، وخاف الحارث على زعامته فجمع بنى المصطلق لحرب رسول الله ﷺ — فلما سمع رسول الله ﷺ — بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل .

وتزاحف الناس : المسلمون يقاتلون لإعلاء كلمة الله ، وبنو المصطلق يدافعون عن مجد الأرض وعصبة القبيلة وإن كانوا يخدعون أنفسهم ويوهمونها أنهم إنما يقاتلون لتكون كلمة مناة هي العليا وليستمر سلطان بنات الله على الأرض .

وهزم الله بنى المصطلق وقتل من قتل منهم ، ونفل الله رسول الله ﷺ — أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفأهم عليه ، فلما قسم رسول الله ﷺ — سباياهم وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحية لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله ﷺ — تستعينه في كتابتها ، فوالله ما هو إلا أن رأتها عائشة على باب حجرتها فكرهتها وعرفت أنه سري منها — ما رأت ، فدخلت عليه فقالت :

— يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه ، وقد

أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس فكاتبته على نفسي ، فجئتك أستعينك على كتابتي .

إنها كانت بنت سيد بني المصطلق وقد أصاب منهم سببا كثيرا ، وكان عليه السلام يبذل كل جهد لفك الرقاب وتحرير العبيد . إنه لو تزوج جويرية فسيطلق المسلمون ما في أيديهم من سببا إكراما لها ، فقال لجويرية :

— فهل لك في خير من ذلك ؟

— وما هو يا رسول الله ؟

— أقضى عنك كتابتك وأتزوجك .

— نعم يا رسول الله .

— قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله — ﷺ — تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار فقال الناس :

— أصهار رسول الله — ﷺ — .

وأرسلوا ما بأيديهم فأعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق ، وانشرح صدر رسول الله — ﷺ — فقد تحررت رقاب رجال ونساء وولدان ، وإن أحب شيء إليه كان عتق الأرقاء فما بالك بأحرار عادت إليهم حریتهم بعد أن كادوا في ذل الرق يرسفون ؟ وتهللت جويرية بالفرح فما كانت امرأة أعظم على قومها بركة منها .

ولما انصرف رسول الله — ﷺ — من غزوة بني المصطلق ومعه جويرية بنت الحارث وكان بذات جيش ، دفع جويرية إلى رجل من الأنصار وديعة وأمره بالاحتفاظ بها .

وقدم رسول الله — ﷺ — المدينة فأقبل الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته ،

فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التي جاء بها للفداء فرغب في بيعين منها فغيبهما في شعب من شعاب العقيق . ثم أتى إلى النبي — ﷺ — وقال :
— يا محمد أصبتم ابنتي وهذا فداؤها .
فقال رسول الله — ﷺ :
— فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق ؟

فرنا الحارث إلى رسول الله — ﷺ — رنوة كلها دهش ، وأحس كأن أنوارا تغمر قلبه وانشرح صدره للإسلام فقال :
— أشهد أن لا إله إلا الله وأنت محمد رسول الله ، فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله .

فأسلم الحارث وأسلم معه ابنان له وناس من قومه ، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما فدفع الإبل إلى النبي . وما كان النبي — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — في حاجة إلى الإبل وهو الذي يرد على الفقراء كل ما يفىء الله عليه ، إنه يضع تسعين ألف درهم على حصير أمامه فينفقها كلها ثم يمر هلال ثم هلال ولا يوقد في بيت من بيوته نار . إنه يعيش على الأسودين الماء والتمر .

وأصبحت جويرية بنت الحارث أما للمؤمنين وهو شرف تتيه به بنو المصطلق على القبائل ، ودخل الحارث بن أبي ضرار في الإسلام وأصبح متفرحا في الله معجبا بفصاحة رسول الله — ﷺ ، إنه يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من يجلس إليه ، وإنه يحدث حديثا لو عدّه العاد لأحصاه .

وكان إعجاب الحارث بفصاحة رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — لا يقل عن إعجاب أبي بكر الصديق رفيق صباه وأول من آمن به من الرجال وثاني اثنين إذ هما في الغار ، فقد قال له أبو بكر ذات يوم :
— لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن

أدبك ؟

— أدبنى ربي فأحسن تأديبي .

وظل الحارث يلقي سمعه إلى نصائح الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فلا يزيده ذلك إلا إيمانا وتسليما :

— اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق

حسن .

شر ما في الرجل شح هالع ، وجبن خالع . اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم وأستحلوا محارمهم .

كان الحارث سعيدا بقربه من النبي عليه السلام ، إنه ليروى ظمأه إلى المعرفة من نبع الرسول الصافي الرقراق . وقد سمعه يوما يخطب :

— إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . ألا لا يمتنع رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه . ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدره أعظم من غدره إمام عاق . ألا وإن الغضب جمره في قلب ابن آدم ، أما رأيتم حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض .

كان حديثه حكمة وكان الحارث يتمنى أن يبقى ما بقي من دهره إلى جواره . ولكنه كان سيد قومه وإنه ليريد لهم الهداية والرشد . إن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — دعاه إلى الإسلام فدخل في الإسلام وأقر ، ودعاه إلى الزكاة فأقر بها فقال :

— يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن

استجابني جمعت زكاته .

واتفق مع رسول الله — ﷺ — على ميعاد يبعث فيه رسوله ليقبض زكاة بنى المصطلق . ومرت الأيام وجمع الحارث بن أبي ضرار الزكاة من قومه . ووافى الموعد الذي حدده مع رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — ليبعث رسوله ليأخذ صدقات قومه ولكن الرسول احتبس عليه فلم يأت . فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله ، فدعا سراوات قومه فقال لهم :

— إن رسول الله — ﷺ — قد كان وقت لي وقتا ليرسل إلى ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله — ﷺ — خلف . ولا أرى حبس رسوله إلا سخطة فانطلقوا فنأتى رسول الله — ﷺ :

وبعث رسول الله — ﷺ — الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق تذكر أن بينه وبين بنى المصطلق عداوة في الجاهلية ، وراح الشيطان يوسوس له أنهم قاتلوه فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي .

فغضب رسول الله — ﷺ — وبعث رجالا من المسلمين لقتال بنى المصطلق . وأقبل الحارث بأصحابه فاستقبل البعث وقد فصل من المدينة فلقاهم الحارث فقالوا :

— هذا الحارث .

فلما لقيهم قال لهم :

— إلى من بعثتم ؟

— إليك .

فظهر الدهش في وجهه وقال :

— ولم ؟

— إن رسول الله ﷺ — كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فرجع إليه
فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله .

— والذي بعث محمدا بالحق ما رأيته ولا أتانى .

فلما أن دخل الحارث على رسول الله ﷺ — قال في غضب :

— منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟

فقال الحارث في صدق :

— لا والذي بعثك ما رأيت رسولك ولا أتانى ولا أقبلت إلا حين احتبس

على رسولك خشية أن يكون سخط من الله ورسوله .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا
قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ
يَطِيعَكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزِينَةٌ فِي قُلُوبِكُمْ
وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ . فَضَلَا مِنَ اللَّهِ
وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠٠ ﴾ (١) .

كان عروة بن مسعود سيد ثقيف ، وكان أمية بن أبي الصلت شاعرهم . وقد تنصر أمية قبل أن يوحى إلى رسول الله ﷺ — وقرأ التوراة والإنجيل وألقى سمعه إلى الرهبان الذين كان يمر بهم كلما خرج إلى الشام في تجارة قريش . فقد كانت ثقيف حليفة قريش ، ولا غرو فأم عروة بن مسعود سبيعة بنت عبد شمس ، وأم أمية بن أبي الصلت رقية بنت عبد شمس . وسمع أمية من الأحبار والرهبان أن نبيا قد أظل زمانه فكان يحدث عروة ونساء ثقيف أنه ذلك النبي الذي بشرت به الأنبياء .

واصطفى الله محمدا ليكون رسوله الأمين ، فلما دعا قومه إلى الإسلام نهشت الغيرة أفئدة سادات قريش وقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »^(١) . كانوا يرون وقد ملئوا حسدا أن عتبة بن ربيعة أو عروة بن مسعود أحق بالرسالة من فقير قريش وإن كان أمينا وإن كان على خلق عظيم .

ودخل أمية بن أبي الصلت ما يدخل الناس من النفاسة وبقي عروة بن مسعود على دين قومه ، واضطهدت قريش المسلمين وعذبوهم ليفتنوهم عن دينهم ولكن المسلمين صمدوا للاضطهاد ، وأراد الله أن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ففتح بالقرآن قلوب الأنصار فهاجر المسلمون إلى

(١) الزخرف ٣١ .

إخوان لهم في الدين ، وكانت غزوة بدر وقتل رجل من القريتين عظيم ، وبقي عروة بن مسعود يرصد بزوغ نجم محمد — صلوات الله وسلامه عليه — وهو يتأرجح بين الشك واليقين ، ومال إلى التكذيب لما رأى أن زعامته لثقيف ستزعزع لو أنه اتبع النور الذي أشرق في يثرب .

وكان أمية بن أبي الصلت قد خرج إلى الشام وعكف على قراءة الأسفار ، فإذا بصوت ضميره يقول في إصرار كلما فكر في محمد بن عبد الله : « إن صفته هي » . فشد الرحال إلى المدينة ليشهد شهادة الحق فعلم أن رسول الله هناك في بدر . فامتطى راحلته حتى نزل بدرا ثم ترجل يريد رسول الله — ﷺ — فقال قائل :

— يا أبا الصلت ما تريد ؟

— أريد محمدا .

— وما تصنع ؟

— أومن به وألقى إليه مقاليد هذا الأمر .

— أتدرى من في القلب ؟

— لا .

— فيه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة .

وكانا ابني خاله ، فجدع أذني ناقتة وقطع ذنبها ثم وقف على القلب يرثى من فيه ، ثم رجع إلى مكة والطائف ومالبت أن مات . فلم يشأ الله له الهداية ولحق بابني خاله عتبة بن ربيعة وبقي على قيد الحياة عروة بن مسعود لتكون مشيئة الله فيه .

ومرت الأحداث وخرج رسول الله — ﷺ — والذين معه إلى الحديبية معتمرا لا يريد حربا ، وبعثت قريش الرسل إلى نبي الإسلام عليه السلام .

فلما عاد الرسل بما لا يحبون أغلظوا لهم القول ، ثم أرادوا أن يعيشوا إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — عروة بن مسعود فقال :

— يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقي منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والدوا نبي ولد . وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي . — صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

فخرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — فجلس بين يديه ثم حدثه وهو مبهور بما يرى ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال :

— يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا .

وحفر ما رآه عروة من أصحاب رسول الله من تبجيل للرسول العظيم في ذاكرته ؛ إنه ليذكر ما كان من أصحابه عند الحديبية فيفكر في ذلك الأمر الذي جاءهم به فآلف بين قلوبهم وبث فيهم روحا جديدة لكأنما قد خلقوا من جديد !

ولم يشهد عروة بن مسعود حنيناً ولا حصار الطائف ، كان بمدينة جُرش يتعلم صنعة الدبابات والمجانيق فقد كانت أحدث وسائل القتال ، وكان سيد ثقيف يريد ألا يفوته فن من فنون الحصار ودك الحصون .

وانصرف رسول الله — ﷺ — عن ثقيف وقد قتل بعض أصحابه عند حصونها . فلما عاد عروة بن مسعود وسمع بما كان من قتال بين المسلمين وبين ثقيف أحس ندما . فلو كان بالطائف لأعلن إسلامه ولكفى الله المؤمنين القتال

فقد انشرح صدره للإسلام ونزل فؤاده أنوار اليقين .
ولم يشأ عروة بن مسعود أن يستريح بل راح يغذ السير ليدرك رسول
الله ﷺ — قبل أن يصل إلى المدينة ، فراح يسرى في معبد الله يرى في
شروق الشمس وغروبها وبزوغ القمر وتألق النجوم آيات قد عميت عنها
بصيرته من قبل ، وكان القرآن المجيد قد فتح قلبه فإذا بصوت رقيق يرتل في
أعماق نفسه : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف
رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت . فذكر إنما
أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر . إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب
الأكبر . إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم »^(١) فأحس بدموع تطفرف إلى
مآقيه ثم تسيل لتبلل لحيته .

وأدرك عروة بن مسعود رسول الله ﷺ — قبل أن يصل إلى المدينة
فأعلن إسلامه وهو متفرح في الله . كل ما حوله يتنفس بذكر الله ، فحفيف
الشجر تسبيح ، وهبوب النسيم ابتهالات . وشروق الشمس صلاة . إنه
أصبح يستشعر أن الله يسرى فيه مسرى الدم ، وأنه ليمتلئ بفرح فياض وهو
إلى جوار رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه .

وشارك عروة بن مسعود المسلمين غبطة الصلاة خلف رسول الله ﷺ —
والإصغاء إليه والنهل من نبع علمه وصحبته التي ملأت فؤاده
بالأنوار . ووجد عروة أن عليه أن يدعو قومه إلى الإسلام فسأل رسول
الله ﷺ — أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ —
وقد عرف فيهم نخوة الامتناع :

— إنهم قاتلوك .

— يا رسول الله . أنا أحب إليهم من أبصارهم .

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف على عليّة له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه . رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم ، فحمل وهو يجود بأنفاسه الطاهرة فقيل له :

— ما ترى في دمك ؟

— كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إليّ ، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله — ﷺ — قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنوني معهم .

واستشهد رجل من القريتين عظيم .

كان الهدوء يرفرف على المدينة ومكة بعد أن ساد الإسلام والسلام ، وعرفت تجارة قريش طريقها إلى الشام في اطمئنان ، وكان بين الوقت والآخر تخرج من المدينة سرية لتأديب من يكيدون للإسلام من القبائل المجاورة أو لهدم صنم من الأصنام ليعبد الله وحده في أرض العرب .

لما قُتل وقاص بن مجزّر المدلجى يوم ذى قرد سأل علقمة بن مجزّر رسول الله - ﷺ - أن يبعثه في آثار القوم ليدرك ثاره فيهم ، فبعث رسول الله - ﷺ - علقمة وبعض المسلمين ليثأروا لوقاص ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش واستعمل عليهم عبد الله بن حذافة السهمي ، وكان من أصحاب رسول الله - ﷺ - وكانت فيه دعاية ، فلما كان ببعض الطريق أوقد ناراً ثم قال للقوم :

— أليس لي عليكم السمع والطاعة ؟

— بلى .

— أفما أنا آمركم بشيء إلا فعلتموه ؟

— نعم .

— فإني أعزم عليكم بحقى وطاعتي إلا توابتم في هذه النار .

فقام بعض القوم يحتجز حتى ظن أنهم واثبون فيها ، فقال لهم :

— اجلسوا فإنما كنت أضحك معكم .

فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - بعد أن قدموا عليه ، فقال - ﷺ - :

— من أمركم بمعصية منهم فلا تطيعوه .
وبعث رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب فى خمسين ومائة من
الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسا لهدم صنم طىء ، فخرج على كرم الله
وجهه ومعه راية سوداء ولواء أبيض . وفى عماية الصبح شن المسلمون الغارة
على طىء فهدموا الفلس وأحرقوه واستاقوا النعم والشاة والسبى . وكان فى
السبى سفانة بنت حاتم الطائى وأخت عدى بن حاتم ، ووجدوا فى خزانة
الصنم ثلاثة أسياف معروفة عند العرب وهى رسوب والمخزم واليمانى ، وثلاثة
أدرع . وجعل على بن أبى طالب الرسوب والمخزم صفيا لرسول الله —
ﷺ — ثم صار إليه الثالث الذى هو اليمانى . وعاد على بالنعم والشاة والسبى
المدينة ، وجاء النبى — ﷺ — ينظر فمر بسفانة بنت حاتم فقامت إليه
وكانت امرأة ذات وقار وعقل فقالت له — ﷺ :
— يا محمد أرأيت أن تخلى عنا ولا تشمت بنا أحياء العرب فإنى ابنة سيد
قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ويفك العانى ويشبع الجائع ويكسو العارى
ويقرى الضيف ويطعم ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم
طىء .

فقال لها النبى — ﷺ :

— يا جارية هذه صفات المؤمنين حقا . لو كان أبوك مسلما لترحنا عليه .
خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق .
وأسلمت سفانة وأرادت أن تعود إلى بلادها ، فقال لها رسول الله —
ﷺ :

— لا تعجل حتى يجيئ من قومك من يكون لك ثقة يبلغك إلى بلادك
فأذنينى .

فصبرت حتى قدم عليها من تثق به ، فجاءت رسول الله ﷺ —
فقلت :

— قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة .
فكساها رسول الله ﷺ — وحملها وأعطاهها نفقة ، فخرجت وهي
مغتبطة لأن الله قد هداها إلى الإسلام . ولم تعد إلى طييء بل انطلقت إلى الشام
لتلقى أنحاه عدي بن حاتم الذي فر إلى هناك لما رأى جيش المسلمين . إنها
تحب عدي وإنها تحب له الهداية والرشاد .
كان عدي بن حاتم رجلا شريفا في قومه يأخذ ربع الغنيمة كما هو عادة
العرب في الجاهلية . فلما سمع برسول الله ﷺ — كرهه . ما من رجل
من العرب كان أشد كراهة لرسول الله ﷺ — حين سمع به منه ، فقال
لغلام كان راعيا لإبله :

— لا أبا لك اعزل من إبلي أجمالا ذللا سمانا فاحتبسها قريبا مني ، فإذا
سمعت بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فأذني .
ففعل ، ثم إنه أتاه ذات يوم فقال :

— يا عدي ما كنت صانعا إذا غشيك محمد فاصنعه الآن ، فإني قد رأيت
رايات سألت عنها قالوا : هذه جيوش محمد .
قال له :

— قرب لي جمالي .
فقربها فاحتمل أهله وولده والتحق بأهل دينه من النصاري في الشام وترك
سفانة أخته لتقع أسيرة في أيدي المسلمين . وإنه لقاعد في أهله إذ نظر إلى امرأة
تؤمهم فقال :

— ابنة حاتم !؟

فإذا هي ، فلما وقعت عيناها عليه قالت :
— القاطع الظالم . احتملت بأهلك وولدك ونركت بقية والديك
وعورتك .

— أى أخية لا تقولى إلا خيرا ، فوالله ما لى من عذر .
ونزلت سفانة عليه وأقامت عنده ، فقال لها وكانت امرأة حازمة :
— ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ؟
— أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن نبيا فللسابق إليه فضله ، وإن
يكن ملكا فأنت أنت .

و لم تظهر له إسلامها لئلا ينفر من قولها ، كان كل ما تبغيه أن ينطلق عدى
إلى رسول الله — ﷺ — وكانت على ثقة من أنه ما أن يجلس بين يديه حتى
يصدقه .

فخرج عدى حتى جاءه — ﷺ — بالمدينة . فدخل عليه فقال عليه
السلام :

— من الرجل ؟
— عدى بن حاتم .
فقام رسول الله — ﷺ — وانطلق به إلى بيته ، فوالله إنه لقائده إليه إذ
لقيته امرأة كبيرة ضعيفة فاستوقفته — ﷺ — فوقف لها طويلا تكلمه فى
حاجتها ، فقال عدى فى نفسه :

— ما هو بملك .
ثم مضى رسول الله — ﷺ — حتى إذا دخل بيته تناول وسادة بيده من
أدم محشوة ليفا ، فقدمها إليه وقال :
— اجلس على هذه .

— بل أنت فاجلس عليها .

— بل أنت .

فجلس عدى عليها وجلس رسول الله عليه السلام بالأرض ، فقال عدى
في نفسه :

— والله ما هذا بأمر ملك .

— يا عدى بن حاتم أسلم تسلم . أسلم تسلم . أسلم تسلم .

— إني على دين .

— أنا أعلم بدينك منك .

— أنت أعلم بديني ؟!

— نعم ، أأست من الركوسية ؟ أأست من القوم الذين لهم دين ؟

— بلى .

— ألم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟ (أخذ الربع من الغنيمة) ؟

— بلى .

— فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك .

— أجل والله .

وعرف أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل . ثم قال — ﷺ :

— لعلك يا عدى إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى . تقول إنما

اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، فوالله

ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، وإنما يمنعك من

الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم . أتعرف الحيرة ؟

— لم أرها وقد سمعت بها .

— فوالذى نفسى بيده ليتمن هذا الأمر حتى تخرج الظعينة (المرأة) من
الحيزة تطوف بالبيت من غير جوار أحد .
وألقى عدى بن حاتم سمعه إلى رسول الله — ﷺ — فإذا بأنوار اليقين
تنزل قلبه وقد شرح الله صدره للإسلام . فلم يقم من عنده حتى شهد أن لا
إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

كانت المعارك طاحنة بين الفرس والروم ، وقد انتهت تلك المعارك بانتصار
الروم وعودة هرقل إلى بيت المقدس وإعادة الصليب المقدس إلى كنيسة
القيامة . وقد جاءت أنباء انتصارات الروم إلى المسلمين يوم انتصارهم في بدر
فتهللوا بالفرح ، فقد تنبأ القرآن المجيد بذلك النصر في وقت كانت فيه هزيمة
الروم ساحقة وقد وقف الفرس يقرعون أبواب القسطنطينية وهم بنصرهم
مزهوون .

ومرت الأيام وبعث رسول الله ﷺ — دحية الكلبي برسالة إلى هرقل
عظيم الروم يدعوه فيها إلى الإسلام ، فاستقبل هرقل دحية استقبالا حسنا
وقال قولا سديدا ، وأرسل معه هدايا للنبي الأمي الذي يجده مكتوبا عنده في
التوراة والإنجيل .

وفتح رسول الله ﷺ — مكة ففازت بلاد العرب بالوحدة السياسية
لأول مرة في تاريخها منذ أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وسرى
الإلهام الديني في سرائر المسلمين فإذا برعاة الإبل الخاملين أصبحت لهم رسالة
يتطلعون إلى نشرها في العالمين .

إن رسول الله ﷺ — ليعد أتباعه بمداين كسرى وقصور الحيرة
والشام ، وإن هذه الأنباء لتصل إلى هرقل من أعداء محمد عليه السلام
فيستخف بها في أول الأمر ثم يتتابه قلق كلما اشتد ساعد الإسلام . حتى إذا
ما فتح الله على المسلمين مكة ودانت قبائل العرب المحيطة بالمدينة بالولاء للدين

الجديد تذكر هرقل النبوءة التي أحزنته عقب أن وضع على رأسه تاج الإمبراطورية الرومانية ، فقد تنبأ المنجمون أن ملكه سيزول على يد شعب مختون ، فما خطر له العرب على قلب في ذلك الوقت فقد كانوا أهون من أن يفكر فيهم ، وحسب أن اليهود هم ذلك الشعب فصب عليهم سوط عذاب . وانبلجت لعينيه حقيقة النبوءة ، فكل الدلائل تشير إلى أن ذلك الشعب الذى يهدد ملكه هم هؤلاء المؤمنون الذين انضوا تحت لواء محمد ، وإنه ليعرف خطورة الانتفاضة الروحية التى خفقت فى قلب جزيرة العرب . إنها لو تركت حتى تستقر فى سويداء قلوب أتباع الدين الجديد فلن تستطيع دولة أت تقف زحف المؤمنين ، فوطد النفس على أن يسحق هذه النهضة قبل أن يشتد عودها .

وبلغ رسول الله — ﷺ — أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة فى الشام وأنهم قدموا مقدماتهم إلى اللقاء . فلم ينتظر حتى يفاجئه الروم فى المدينة بل أمر الناس بالجهاز على الرغم من شدة الحر وعسرة فى الناس وجذب فى البلاد ، فلو تقاعس — صلوات الله وسلامه عليه — عن الخروج لطوت جحافل^(١) الرومان الصحراء ولدهمت المسلمين فى المدينة وقضت على الإسلام .

وكان رسول الله — ﷺ — قلما يخرج فى غزوة إلا كئى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يقصد له ، إلا ما كان من هذه الغزوة فإنه بينا للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو ليتأهب الناس لذلك أهبتة وأخبرهم أنه يريد الروم .

(١) الجحافل : الجيوش الضخمة .

وبعث إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم وحض أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله ، فجهز عثمان بن عفان عشرة آلاف أنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والخيول وهي تسعمائة بعير ومائة فرس والزاد وما يتعلق بذلك حتى ما تربط به الأسقية . وسر رسول الله ﷺ — ما فعل عثمان فوقف من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه يدعو لعثمان بن عفان يقول :
— اللهم عثمان رضيت عنه فارض عنه .

وكان أول من جاء بالنفقة أبو بكر الصديق ، جاء بجميع ماله أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله ﷺ :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— أبقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، فقال له رسول الله ﷺ :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— النصف الثاني .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية فقال الناس :

— عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف خزانة من خزائن الأرض

ينفقان في طاعة الله .

وجاء العباس بمال كثير وكذا طلحة . وبعثت النساء بكل ما يقدرن عليه

من حليهن ، وتصدق عاصم بن عدي بسبعين وسقا من تمر .

وذاث يوم ورسول الله ﷺ — في جهازه لغزو الروم قال للجعد بن

قيس أحد بني سلمة :

— يا جد هل لك في جلاد بني الأصفر ؟

إنه عليه السلام يدعو للغزو حين طابت الثمار والناس يحبون المقام و

ثمّارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه .
فقال الجد :

— يا رسول الله أوتأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشدّ عُجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر .

فأعرض عنه رسول الله — ﷺ — وراح يدعو الناس للتأهب للخروج فإذا بهم لا ينفرون خفافا فأنزل الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ * إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضرّوه شيئا والله على كل شيء قدير * * إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانی اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم * انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * * لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون * عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين * لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يغنونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم

والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق
وظهر أمر الله وهم كارهون * ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة
سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * إن تصيبك حسنة تسؤهم وإن تصيبك
مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون * قل لن يصيبنا إلا
ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون * قل هل تربصون بنا إلا
إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا
فتربصوا إنا معكم متربصون * قل أنفقوا طوعاً أو كرها لن يتقبل منكم إنكم
كنتم قوماً فاسقين * وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله
وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون * فلا
تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهد
أنفسهم وهم كافرون * ويخلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم
يفرقون * لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مَدْخِلاً لولوا إليه وهم
يجمعون ﴿١﴾ .

التذيل

يعتقد اليهود أن التوراة هي الكتاب المقدس الوحيد . وأنه لم ينزل لهداية البشرية جمعاء بل لشعب الله المختار . فقد قسموا بنى آدم إلى بنى إسرائيل وأمم . فبنو إسرائيل هم وحدهم الناس ومن عداهم أُمم ، كلاب البشرية ، ولم يعترف اليهود برسالة المسيح عليه السلام ولا برسالة محمد ﷺ ، فالمسيح وإن كان يهوديا إلا أنه جاء ليسفه أحلام المتجرين بالدين والمحتكرين للبركة وتقويض الهيكل ، لأن اليهود انقلبوا من عبادة الله وحده إلى عبادة الذهب الذى كان فى الهيكل . ولم يعترفوا برسالة محمد — صلوات الله عليه وسلامه — لأنه كان من الأمم وكانوا يعتقدون أن الله لا يبعث رسولا إلا من بنى إسرائيل . وقد كذبهم الله فى هذه الدعوى بقوله سبحانه وتعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم »^(١) ووجدوا أنهم لو اعترفوا برسالة محمد — ﷺ — فإنهم يسيئون إلى آبائهم الذين لم يعترفوا برسالة السيد المسيح وقاوموها أشد المقاومة ؛ لأن نبي الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه — اعترف بالحمل الطاهر للسيدة مريم العذراء وبرسالة عيسى بن مريم عليه السلام .

أما أن الرسالة والنبوة كانت فى بنى إسرائيل وحدهم فإن القرآن الكريم بدحض هذا الزعم ، ولكل أمة

رسول» (١). وهذا الزعم يخرج إبراهيم الخليل من عداد الأنبياء المرسلين فقد كان خليل الرحمن من العراق وقد أرسله الله قبل أن يولد يعقوب (إسرائيل). والقرآن الكريم يسخر من ذلك القول الباطل ويسفهه: «يأهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون. ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين» (٢).

ونزلت التوراة على موسى عليه السلام، «ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون» (٣). وبناء على هذه الحقيقة التي تقرها اليهودية والمسيحية والإسلام فإن إبراهيم خليل الرحمن لم يقرأ حرفا من التوراة فقد أنزل الله عليه صحفا كما أنزل على موسى: «إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى» (٤). ولم ير إسحاق ويعقوب (إسرائيل) التوراة، فقد نزلت على موسى عليه السلام من بعدهما، وإن فاضت صحف التوراة التي كتبت في المنفى بأخبارهما، وقد جادل اليهود محمدا — ﷺ — في المدينة فيما أحل لبنى إسرائيل من الطعام وفيما حرم عليهم، فجاء القرآن ليقرر مرة أخرى أن التوراة قد نزلت بعد إسرائيل وإن حاول اليهود أن ينكروا هذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس: «كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» (٥).

(١) يونس ٤٧ (٢) آل عمران ٦٥ — ٦٨ (٣) القصص ٤٣ (٤) الأعلى ١٨ — ١٩ (٥) آل عمران ٩٣

نزلت التوراة على موسى عليه السلام ، فلما طال على بنى إسرائيل الأمد اعتبروا التوراة كتاب تاريخ يسجل أيامهم وحروبهم وقصص أنبيائهم ، فأضافوا إليه أسفاراً وقالوا هذا من عند الله . ولما حارب بنوخذ نصر (بختنصر) بنى إسرائيل وهزمهم شر هزيمة حرق التوراة وحمل اليهود إلى بابل ، وهناك أعيدت كتابة التوراة وأضيفت إليها أسفار جديدة . وقد ظهرت بوضوح أساطير بابل وآداب مصر الفرعونية في التوراة الجديدة التي كتبها أحرار اليهود بأيديهم : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » (٢) .

« وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (٣) .

كتبت التوراة في المنفى وكان اليهود في بابل مضطهدين ، رجالهم عبيد ونسأؤهم إماء ومحظيات ، نفوسهم مليئة بالأحقاد على البشرية جمعاء فلم ينج من حقدهم الأسود الرسل والأنبياء ، فبركة الآباء للأبناء تسرق ، وأنبياء بنى إسرائيل يتردون في حمأة الرذائل يعاقرون الخمر ويرتكبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم شعب الله المختار وأنهم وحدهم الناس ومن عداهم أم ليس لهم عليهم حقوق ، سرقتهم حلال . « ومنهم من إن تأمنه بدینار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في

(١) البقرة ٧٩

(٢) آل عمران ٧٨

الأمين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»^(١) . بل وقتلهم حلال فهو قربي إلى إله إسرائيل المتعطش إلى الدماء على الدوام .
وقد سخر القرآن الكريم من زعمهم أنهم وحدهم الناس وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين »^(٢) .

والدار الآخرة في التوراة التي كتبت في المنفى غامضة كل الغموض ، فالجنة بالنسبة لليهودى هي النوم في حضن إبراهيم . وقد استبدلت النار بالفكرة البابلية التي تعبر عن العالم الآخر بالأرض التي لا رجعة منها . ولا غرو فقد ترك اليهود التوراة التي نزلت على موسى وسلبوا أساطير الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها ونسبوها إلى أنبياء بنى إسرائيل .

إن العالم بريستد راح يقارن في كتابه « فجر التاريخ » بين أقوال موسى الواردة في التوراة التي كتبت في المنفى وأقوال إخناتون وبين أقوال إخناتون ومزامير داود ، وخلص بنتيجة مؤداها أن أقوال أنبياء بنى إسرائيل قد اقتبست من أنبياء قدماء المصريين وهذا حق ، فبعد أن حرق بختنصر توراة الله كتبت أحبار اليهود في المنفى التوراة الجديدة على متون ديانات قدماء المصريين والآشوريين والبابليين وأساطير الشعوب .

وقد انقسم اليهود أنفسهم حول التوراة التي كتبت في أرض السبي ، فقال السامريون إذا كانت التوراة قد نزلت على موسى فممن أين جاءت الأسفار التي تروى أحداث بنى إسرائيل بعد موسى ؟ ولم يؤمن السامريون إلا بالأسفار

(١) آل عمران ٧٥

(٢) البقرة ٩٤ — ٩٥

الخمسة الأولى وهى : التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية ، وهى الأسفار التى تروى خلق الله السموات والأرض ، وخلق آدم وحواء ، وقصة قابيل وهايل ، وقصة نوح وأبنائه ، وقصة إبراهيم الخليل ولوط ، ثم قصة موسى وخروجه من مصر ، ثم قصة اللاويين وهم موسى وهارون وبنو هارون ، فموسى وهارون لم يكونا يهوديين فهما من نسل لاوى أخى يهوذا الذى ينسب إليه اليهود ، وإصحاحات العدد وفيها ذكر عشائر بنى إسرائيل ، وإصحاحات التثنية وفيها شريعة بنى إسرائيل على لسان موسى .

ولو أن السامريين لم يعترفوا إلا بهذه الأسفار الخمسة إلا أنهم لم يحاولوا أن يفصلوا بين الزيف والصحيح من الأخبار التى وردت فى تلك الأسفار . فالله سبحانه وتعالى فى الإصحاح الثانى من سفر التكوين يستريح فى اليوم السابع بعد أن خلق السموات والأرض : « فأكملت السموات والأرض وكل جندها ، وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمله . فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدس له لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقا » . ولم يفتن السامريون إلى أن التعب لا يجوز على الله ، وظل ذلك الوهم يسيطر على عقول كل الذين يقرءون التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى المنفى إلى أن جاء محمد — ﷺ — وتلا ما أنزل عليه من ربه : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » (١) .

وتذكر التوراة خلق آدم : « وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حيا . وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقا

ووضع هناك آدم الذى جبله . أما القرآن الكريم فيذكر خلق آدم فى آيات أكثر وضوحا وتفصيلا : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون » (١).

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا » (٢). « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » (٣). « الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » (٤).

وتذكر التوراة فى تعليم آدم : « وجعل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية » . أما القرآن المجيد فيقول بعد أن قال الملائكة لرب العزة : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » (٥).

(١) البقرة ٣٠

(٢) الاسراء ٦١

(٣) المؤمنون ١٢

(٤) السجدة ٧ — ٩

(٥) البقرة ٣٠ — ٢٣

وتذكر التوراة كيف خلقت حواء : « فأدّقع الرب الإله سباتا على آدم فنام ، فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم ، فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي . هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت ، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً ، وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا ينجلان » .

وإن دارس هذا النص يقف عند ملاحظتين : الأولى أن آدم على علم بكل شيء دون أن توضح التوراة من أين جاءه ذلك العلم ، والثانية أن هناك جملة اعتراضية لا ندري من أين جاءت ومن قائلها ، الله هو القائل ؟ : لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً . أم أن قائل ذلك الأحرار الذين أعادوا كتابة التوراة في المنفى ؟!

ولم يرد اسم حواء في القرآن الكريم فكان الخطاب بعد خلق حواء لآدم وزوجه : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما »^(١) . « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظما فيها ولا تضحى »^(٢) .

وتصور التوراة خطيئة آدم تصويراً بشرياً صرفاً ، فالله سبحانه وتعالى عما يصفون يمشى في الجنة ويجهل ما يجري خلف ظهره : « وكانت الحية أحيى جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله . فقالت للمرأة : أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ فقالت المرأة للحية : من ثمر شجر الجنة نأكل ،

(١) البقرة ٣٥

(٢) طه ١١٦ — ١١٩

وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا .
فقال الحية للمرأة : لن تموتا . بل الله عالم أنه يوم تأكلون منه تتفتح أعينكما
وتكونان كالله عارفين الخير والشر . فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها
بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت
رجلها أيضا معها فأكل ، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق
تين وصنعا لأنفسهما مآزر .

وسمعا صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ آدم
وامراته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة . فنادى الرب الإله آدم وقال
له ، أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان
فاختبأت . فقال من أعلمك أنك عريان ؟! هل أكلت من الشجرة التى
أوصيتك ألا تأكل منها ؟ فقال آدم : المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من
الشجرة فأكلت . فقال الرب الإله للمرأة : ما هذا الذى فعلت ؟ فقالت
المرأة : الحية غرتنى فأكلت . فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلت هذا
ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية . على بطنك تسعين
وترابا تأكلين كل أيام حياتك . وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك
ونسلاها ، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه ، وقال للمرأة : تكثيرا
أكثر أتعاب حبلك . بالوجع تلدين أولادا وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو
يسود عليك . وقال لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة
التي أوصيتك قائلا لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها
كل أيام حياتك ، وشوكا وحسكا^(١) تنبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق

(١) الحسك : نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم .

وجهلك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها ، لأنك تراب وإلى تراب تعود » . « وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر ، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد . فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها » . من هذه النصوص يتضح أن الله سبحانه وتعالى عما يصفون لم يكن يعرف أين آدم ، فقال له : أين أنت ؟ ولم يكن يدري أن آدم قد أكل من الشجرة قبل أن يقول له آدم إنه عريان ، وأن حواء هي المسئولة عن هذه الخطيئة ، وأن الله قد طرد الإنسان من الجنة لأنه خاف أن يتناول من شجرة الحياة فيصبح هو الآخر إلهاً يحيا إلى الأبد .

والفكرة عن الإله في هذا الإصحاح لا تختلف في كثير ولا قليل عن فكرة البابليين عن الآلهة الذين يمشون على الأرض ويخشون منافسة البشر في سلطانهم ، وخوفهم من أن يصل الإنسان إلى الخلود فيصبح إلهاً مثلهم ، وقد خلط أحرار اليهود حقائق بأساطير فجاءت قصة طرد آدم وزوجه من الجنة في أسلوب مشوق إلا أنها جسدت الإله الذي ليس دونه منتهى ، ولا وراءه مرمى .

إن القرآن الكريم يقرر منذ بدأ الله في خلق آدم أنه جاعل في الأرض خليفة ، فمنذ البدء خلق الله آدم ليكون خليفته في الأرض . ولم يرد للحيية ذكر في القرآن ولم يذكر أن حواء هي التي أغرت آدم على الأكل من شجرة الخلد ، بل إن الشيطان هو الذي وسوس إليه : « فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه

فغوى» (١) . « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » (٢) .

ويلاحظ أن عبارة التوراة اكتفت بالعودة إلى الأرض التي أخذ منها الإنسان لأنه تراب وإلى التراب يعود ، أما عبارة القرآن فلم تكتف بالحياة في الأرض والموت فيها بل أضافت الخروج منها . لأن القرآن الكريم يذكر البعث دائما ، أما اليهود الذين عاشوا في أرض السبي فقد نسوا البعث ولم يذكروا عنه شيئا عندما أعادوا كتابة التوراة في أرض بابل .

ومرت خطيئة آدم في التوراة دون أن تلقى عليها أضواء تجسم من بشاعتها ، ولم يتحمل أحد من البشر وزرها . فالمبدأ الإلهي العادل يقرر ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن الأبناء لا يسألون عن خطيئة الآباء ، وأن الآباء لا يسألون عن خطيئة الأبناء . كل عن خطيئته يسأل . ولكن لما قام السيد المسيح بدعوته لإصلاح فساد اليهودية ، ولما صلب في الظلام رجل زعم بعض الزاعمين أنه السيد المسيح ، ولما استولى بولص على مكان السيد المسيح أراد

(١) طه ١٢٠ — ١٢١

(٢) الأعراف ١٩ — ٢٥

أن يفلسف الصليب فزعم أن البشرية قد ورثت خطيئة آدم ، وأن المسيح قد جاد بروحه على الصليب ليخلص البشرية من خطيئة آدم . وبناء على هذا الزعم يكون البشر جميعا قد جاءوا من الخطيئة قبل عملية التطهير التي تمت بالصليب ، ويكون الرسل والأنبياء جميعا الذين جاءوا قبل الصليب ملوثين بخطيئة آدم .

ولم يترك القرآن الكريم هذه الدعوى الجائرة دون نقاش ، فقال إن الأمر كان أهون من أن تحمل البشرية جمعاء خطيئة آدم : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم »^(١) ، « وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »^(٢) .

وجاء في أول الإصحاح الخامس من سفر التكوين : « هذا كتاب مواليد آدم . يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله » . وقد انتشرت هذه الفرية حتى في بعض كتب المسلمين بعد أن ترجمت التوراة إلى العربية في القرن الثاني لهجرة النبي ﷺ — سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

وجاء في الإصحاح السادس من نفس السفر : « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه . فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقتة . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ، لأنني حزنت أني عملتهم . وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب » . وهذا القول يصور أن الله لم يكن يعلم يوم جعل في الأرض خليفة أن البشر سيرتكبون المعاصي . ويصور أن البشر قد تمردوا على الله . وقد أثر هذا القول

(١) البقرة ٣٧

(٢) طه ١٢١ ، ١٢٢

الخاطيء في أعمال كثير من المفكرين اليهود والمسيحيين فجاءت أعمالهم الأدبية تصويرا لذلك العصيان ، وكان لمثل هذه الأقوال التي تفيض بها توراة المنفى أكبر الأثر في كفران كثير من مفكريهم بالدين ، وإن لهم كل العذر لو كفروا بأساطير الوثنيين . أما القرآن الكريم فلم يقل إن الله قد حزن لما رأى سوء أعمال الناس . فالله يوم خلق آدم كان على علم بما خلق وبسلوك ما خلق وبما ركب فيه من غرائز : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهذى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون »^(١) . « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون »^(٢) .

ولننظر الآن كيف يصورون نوحا الذي وجد نعمة في عيني الرب : « وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما وشرب من الخمر فسكر وتعري داخل خبائه . فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر بأخويه خارجا . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال : ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته ، وقال : مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدا لهم ، ليفتح الله لياث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبدا لهم » .

(١) النحل ٩٣

(٢) المائدة ٤٨

ولو تمننا في هذا الكلام لوجدنا أن كُتَّاب التوراة في المنفى لم يكونوا حريصين على تدوين حقيقة قد وقعت ، فمن الاستخفاف بالعقول أن يكون نوح الذى وجد نعمة في عيني الرب شريب خمر وأن يصل به السكر إلى أن يتعري . ولكن الدافع الحقيقى لسرد هذه الفرية في كتاب من المفروض أنه مقدس هو دافع سياسى . فالكنعانيون كانوا طوال تاريخ اليهودية أعدى أعداء اليهود ، كانوا أصحاب فلسطين وقد قاوموا بكل السبل استقرار اليهود في أرض كنعان ، لذلك لعنوه على لسان نوح وجعلوهم ثلاث مرات عبيدا لإخوتهم .

إن الذى رأى عورة أبيه في ذلك الزعم هو حام أبو كنعان ، فما ذنب كنعان ما دام المبدأ في التوراة هو أن الابن لا يسأل عن جريمة الأب . إن غلطة كنعان الحقيقية ليس أنه ابن حام ولكنه أبو الكنعانيين الذين حاربوا بنى إسرائيل واليهود على مر السنين .

وجاء في الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين : « وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة ، وحدث في ارتحالهم (قبائل بنى نوح) شرقا أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك ، وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبنا ونشويه شيا ، فكان لهم اللبن مكان الحجر وكان لهم الحُمر مكان الطين ، وقالوا هلم نبين لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسما ونضع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض . فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم بينونهما ، وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداءؤهم للعمل . والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض . فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض فكفوا عن بنيان المدينة ، لذلك دعى اسمها بابل لأن

الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ، ومن هناك بددهم الرب عل وجه الأرض .

في هذا الإصحاح نجد إلها يرتجف فرقا من عمل عباده . ولا غرو فإن قلبه امتلأ حزنا لأنه خلق الإنسان كما جاء في الإصحاح السادس من هذا السفر . إنه ينزل من عليائه كما ينزل الملك عن عرشه ليفرق جماعة من العصاة لكيلا تتحد كلمتهم فيشقوا عصا الطاعة ويخلعوه عن عرشه . وإن دارس أساطير البابليين يجد مثل ذلك الصراع بين الآلهة والبشر واضحا كل الوضوح ، وقد تأثر كتاب التوراة في المنفى بكل الآراء التي جاءت في تلك الأساطير .

وجاء في هذا الإصحاح أن بابل إنما سميت بهذا الاسم لأن الرب قد نزل هناك وبلبل ألسنة البشر أعدائه حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض ، والحقيقة أن الله كان يعرف بالإيل وأن اسم المدينة كان باب إيل أى باب الرب : وأن برج بابل إنما بنى كجميع الأبراج التي بنيت لعبادة القمر ، وكان في مدينة أور التي ولد فيها خليل الرحمن إبراهيم يعرف بنانا ويعرف في جميع بلاد ما بين النهرين بسين ، وقد انتشرت هذه العبادة في بلاد الشرق الأوسط وكانت سينا من أهم مراكزها وهي تنسب إلى الإله سين .

ويقول القرآن الكريم : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »^(١) . « يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم

خبير» (١) .

ثم تروى الإصحاحات الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر قصة إبراهيم الخليل ولوط وكيف أن الأرض لم تحملهما أن يسكنا معا إذ كانت أملاكهما كثيرة ، فسكن إبراهيم أرض كنعان وسكن لوط أرض الأردن ونقل خيامه إلى سدوم ، وكيف قامت الحرب في هذه المنطقة بين أربعة ملوك وخمسة ملوك ، وكيف وقع لوط أسيرا وكيف أتى من نجا من الأسر إلى إبراهيم وأخبره بأسر لوط ، فخرج إبراهيم في غلمانه حتى خلص لوطا من الأسر . ويروى الإصحاح التاسع عشر قصة الملكين اللذين جاءا إلى لوط وكيف أن رجال المدينة أرادوا أن يأتوا بهما الفاحشة ، وكيف أمر الملكان لوطا بالخروج بأهله ، وكيف نظرت امرأته خلفها عندما كان الله ينزل بالمدينة غدا به ، وكيف تحولت إلى عمود ملح . وفي الإصحاح التاسع عشر نقراً : « وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابتناه معه ، لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابتناه . وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض . هل نسقى أبانا خمرا ونضطجع معه فنحیی من أيننا نسلا . فسقتا أباهما خمرا في تلك ، الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلي اضطجعي معه فنحیی من أيننا نسلا . فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة أيضا وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . فحبلت ابتا لوط من أبيهما ، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه مؤاب وهو أبو المؤابین إلى اليوم ، والصغيرة أيضا ولدت ابنا

ودعت اسمه بن عمى وهو أبو بنى عمون إلى اليوم .

هذه هي صورة لوط في التوراة التي كتبت في أرض المنفى لما كانت اليهود أذلاء وكانت نساؤهم محظيات فعكسوا صورة الانحطاط الذى كانوا منغمسين فيه على الأنبياء لعل يكون فى ذلك تعزية عما هم فيه من انحلال . ومن الغريب أن لوطا لما وقع فى الأسر وجد من يطير إلى إبراهيم فى أرض كنعان فأتى فيخلصه من أسره ، أما بنتا لوط فلم يجدا من يرسلانه إلى إبراهيم ليعث لهما رجلين يتزوجانهما عوضا عن الاضطجاع مع أبيهما السكران ! إنها صورة بشعة تهبط بالبشرية إلى الحضيض لو أنها صدرت عن رجل عادى وبنتيه اللتين عز عليهما الزواج ، فما بالك وقد جعلتها التوراة تصدر عن نبى وبنتيه وعلى بعد أميال منهم رجال مؤمنون يتהלلون بالفرح لمصاهرة نبى من أنبياء الله !

وشتان بين لوط فى التوراة ولوط فى القرآن : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناها وأهلها إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ (١) .

﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناها وأهلها إلا امرأته قدرناها من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾ (٢) .

(١) الأعراف ٨٠ — ٨٤

(٢) التمليل ٥٤ — ٥٨

« ولما جاءت رسلنا لوطا سيىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم
عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم
هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل
رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما تريد . قال لو
أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد . قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا
إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها
ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا
عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك
وما هى من الظالمين ببعيد » (١) .

« ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من
العالمين . أننكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى نادىكم المنكر فما
كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . قال رب
انصرنى على القوم المفسدين . ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا
مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا . قالوا نحن
أعلم بمن فيها لتنجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . ولما جاءت رسلنا
لوطا سيىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك
إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من
السماء بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون » (٢) .

« كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون . إني لكم
رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا

(١) هود ٧٧ — ٨٣

(٢) العنكبوت ٢٨ — ٣٥

على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون . قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين . قال إني لعملكم من القالين . رب نجني وأهلي مما يعملون . فنجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا في الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم » (١) .

« وإن لوطا لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا في الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون » (٢) .

« ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين » (٣) .

وذكر في الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين مولد إسماعيل :
« وأما ساراي امرأة إبراهيم فلم تلد له . وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراي لإبراهيم : هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة . ادخل على جاريته لعل أرزق منها بنين ، فسمع إبراهيم لقول ساراي ، فأخذت ساراي امرأة إبراهيم هاجر المصرية جاريته بعد عشر سنين لإقامة إبراهيم في أرض كنعان وأعطتها لإبراهيم رجلها زوجة له . فدخل على هاجر فحبلت ، ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها فقالت ساراي لإبراهيم : ظلمي عليك ، أنا دفعت جاريته إلى حضنك . يقضى الرب بيني وبينك . فقال إبراهيم

(١) الشعراء ١٦٠ — ١٧٥

(٢) الصافات ١٣٢ — ١٣٨

(٣) الأنبياء ٧٤ ، ٧٥

لساراي : هو ذا جاريتك في يدك . افعل بها ما يحسن في عينيك ، فأذلتها ساراي فهربت من وجهها .

فوجدوها ملاك الرب على عين الماء في البرية ، على العين التي في طريق شور ، وقال يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت وإلى أين تذهين ؟ فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي . فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك وانخفضي تحت يديها . وقال لها ملاك الرب تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة . وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك ، وإنه يكون إنسانا وحشيا ، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن . فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رئي . لأنها قالت أهنا أيضا رأيت بعد رؤية ، لذلك دعيت البئر لحي رئي . ها هي بين قادش وبارد .

فولدت هاجر لإبرام ابنا ودعا إبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل . وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لإبرام .

وتسكت التوراة التي كتبت في المنفى عن هاجر وإسماعيل ولا تروى لنا كيف تحقق وعد الله بأن يكثر نسلها كثيرا ، ولا كيف حقق الله وعده لهاجر الذي جاء في الإصحاح الحادي والعشرين من نفس السفر : « .. ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها : مالك يا هاجر ؟ . لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومي احمل الغلام وشدي يدك به لأنني سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن البرية . وكان ينمو رامي قوس وسكن في بركة فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » .

سكتت توراة المنفى متعمدة عن إسماعيل وعن نبوءة إسماعيل وعن ذهاب

إبراهيم إلى مكة وعن تعاون إبراهيم وإسماعيل في إقامة القواعد من البيت ، لأن
بنى إسماعيل كانوا يحمون بنى إسرائيل حتى وقعت العداوة بينهم فنفس بنو
إسرائيل على بنى إسماعيل فأرادوا أن يسلبوهم كل مجد .

ولما كان كتاب التوراة في المنفى أرادوا أن يحضروا الرسالة والنبوة في بنى
إسرائيل فإنهم رأوا أن الحديث عن نبوة إسماعيل سيقوض دعواهم لأن إسماعيل
لم يكن من بنى إسرائيل . فسكتوا عن كل نبوة ظهرت في العرب فلم يذكروا
صالحا الذى بعث إلى قوم ثمود ، ولم يذكروا هودا الذى بعث إلى قوم عاد ،
ولم يذكروا شعيبا الذى بعث إلى مدين ؛ لأن هؤلاء الرسل كانوا من العرب
ولم يكونوا من بنى إسرائيل .

وليس من المعقول أن بنى إسرائيل لم يسمعوا بشمود وبعاد وبمدين وقد ذكر
بطليموس هذه المدن في أطلسه واليهود كانوا أقرب من بطليموس إلى هذه
البلاد ، ولكنها الأغراض أسكتهم عن حقائق تضر بدعوتهم بل تقوضها من
أساسها .

إنهم لو ذكروا أن إبراهيم أقام القواعد من أول بيت وضع للناس وإسماعيل
لذهب ذلك بجلال هيكل سليمان فحاولوا أن يطمسوا تلك الحقائق ؛ ولكن
القرآن الكريم جاء يكذبهم في دعواهم أنهم وحدهم الناس وأن الرسالة والنبوة
فيهم وحدهم دون العالمين ، قال الله تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا
نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ ^(١) . وهذه
الحقيقة تؤكد أن الرسالة كانت قبل بنى إسرائيل : ﴿ يا أهل الكتاب لم
تجاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا

(١) آل عمران ٦٧

تعقلون ﴿١﴾ .

﴿١﴾ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين * وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود * وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير * وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا منا سكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم * ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين * إذا قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴿٢﴾

﴿٢﴾ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴿٣﴾
﴿٣﴾ وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴿٤﴾

وقص القرآن الكريم قصة هود وقد أغفلتها توراة المنفى : ﴿١﴾ وإلى عاد أنحاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم

(١) آل عمران ٦٥ .

(٢) البقرة ١٢٤ — ١٣١ .

(٣) آل عمران ٩٦ .

(٤) الحج ٣٦ .

ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين * أوعجبتكم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون * قالوا أجبتنا لعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين * فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴿١﴾ *

وقص القرآن الكريم قصة صالح لأن القرآن المجيد لا يفرق بين رسل من الأمم ورسول من بنى إسرائيل : ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ (٢) .

لم يكن إدريس من بنى إسرائيل ، ولم يكن نوح من بنى إسرائيل ، ولم يكن إبراهيم من بنى إسرائيل ، ولم يكن إسماعيل من بنى إسرائيل ، ولم يكن هود من بنى إسرائيل ، ولم يكن صالح من بنى إسرائيل ، فإن كان الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد ذكروا نوحا وإبراهيم فقد كانوا إلى ذلك مضطرين لتستقيم قصة البشرية التى وضعوها منذ خلق الله آدم إلى أن اصطفى يعقوب (إسرائيل) * ولم تكن هناك ضرورة لسرد قصة صالح وهود وشعيب بل كان هناك ضرورة لعدم ذكر قصص هؤلاء الأنبياء حتى لا تتقوض نظريتهم القائلة بأن الرسالة والنبوة كانت فيهم وحدهم وحتى يرضوا غرورهم الذى

(١) الأعراف ٦٥ — ٧٢

(٢) المائدة ١٨.

صور لهم أنهم وحدهم الناس وأن من سواهم أعمى ، كلاب البشرية .
﴿ وإلى ثمود أنحاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد
جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا
تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد
وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا
آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ قال الملأ الذين استكبروا من قومه
للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما
أرسل به مؤمنون ﴾ قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ فعقروا
الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾
فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد
أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴿ (١) ﴾
﴿ وإلى مدين أنحاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا
تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم مخطط .
ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في
الأرض مفسدين ﴾ بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم
بحفيز ﴾ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في
أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد ﴾ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة
من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد
إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ ويا
قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم

صالح وما قوم لوط منكم يبيعد* واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود* قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزیز* قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط* ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا إني معكم رقيب* ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين* كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴿١﴾ .

وجاء فى الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين : « ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له : أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملا فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثر كثيرا جدا . فسقط إبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدى وتكون أبا لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك إبرام بل يكون اسمك إبراهيم . لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم . وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك أمما . وملوك منك يخرجون ، وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم .

وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدى أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم . هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك .

يختن منكم كل ذكر فتختنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بينى وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم . وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك . يختن ختانا وليد بيتك والمبتاع بفضتك . فيكون عهدى في لحمكم عهدا أبديا . وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها . إنه قد نكث عهدى .
وقال الله لإبراهيم : ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا . فأباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون . فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال فى قلبه هل يولد لابن مائة وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة ؟

وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك . فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنا تدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدى معه عهدا أبديا لنسله من بعده . وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا : اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة ، ولكن عهدى أقيمه مع إسحاق الذى تلد لك سارة فى هذا الوقت فى السنة الآتية . فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم .

فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لهم غرلتهم فى ذلك اليوم عينه كما كلمه الله ، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن فى لحم غرلته ، وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته . فى ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم وإسماعيل ابنه وكل رجال بيته ولدان البيت والمبتاعين بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه .

وهذا الإصحاح يحتاج إلى وقفة طويلة ، فقد ذكر فيه عهد الله بأن يعطى لإبراهيم ولنسله من بعده أرض غربته كل أرض كنعان ملكا أبديا ، وجعل الله الختان علامة عهد بينه وبين نسل إبراهيم خليل الرحمن .

إن الذين كتبوا التوراة بأيديهم في المنفى كانوا مشردين وكانوا يتوقون للعودة إلى أرض كنعان أرض فلسطين ، وما كان لهم حق في تلك الأرض فأرادوا أن يسندوا ذلك الحق بوعد إلهي ، فكتبوا بأيديهم أن الله سيكون إلهها لإبراهيم ولنسله من بعده ، أما باقي البشر — إن كان اليهود يسمحون بأن يكون غيرهم بشرا — فقد تركوا بلا إله ، فأصبح رب الناس إله الناس رب العالمين إلهها لنسل إبراهيم وحده . وإسماعيل ما نصيبه من هذا الوعد ؟ إنه من نسل إبراهيم فهو يشارك هو وبنوه في هذا الوعد . ولما كان ذلك لا يرضى اليهود الذين أعادوا كتابة التوراة في بابل على هواهم فقد أخرجوا إسماعيل وبنيه من ذلك الوعد ، فجعلوا خليل الرحمن يقول ليت إسماعيل يعيش أمامك ، فلا يعجب ذلك القول رب إسرائيل الذي لم يكن قد ولد بعد فيقول متلهفا : « بل سارة امرأتك لتلد لك ابنا وتدعو اسمه إسحاق ، وأقيم عهدي معه عهدا أبديا لنسله من بعده . وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا . اثني عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة . ولكن عهدي أقيم مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية » .

وهكذا وضع أول حكماء صهيون أول بذرة في مشكلة فلسطين . جعلوا الله بلا سبب معقول يختار إسحاق الذي لم يكن قد ولد بعد ليقم له عهدا أبديا لنسله من بعده ويخرج إسماعيل من ذلك العهد .

ولم ترو التوراة كيف تحقق وعد الله بأن برك إسماعيل وجعله أمة كبيرة ، وقد يكون لكتاب التوراة عذر فقد تحقق ذلك بعد عهدهم . المهم أنهم

وضعوا على لسان الله كلاما يخدم قضيتهم ويجعل لهم حقا إلهيا في أرض فلسطين .

وقد ذكر أنبياء بنى إسرائيل الذين كتبوا التوراة في المنفى أن الختان هو علامة العهد بين الله وبين إبراهيم ونسله . وقد يكون ذلك الكلام صحيحا لو أن الختان لم يكن معروفا قبل ذلك العصر ولكن قدماء المصريين كانوا يختنون ، فهل كان الختان علامة عهد بينهم وبين الله ؟ وكان البابليون يختنون وقد يكون إبراهيم قد اختن قبل ذلك على عادة أهله ، ولكن كتاب التوراة في المنفى لم يحفلوا بشيء من ذلك فجعلوا خليل الرحمن يختن في ذلك اليوم عينه وجعلوا إسماعيل يختن وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، أما إسحاق الموعود فقد اختن ابن ثمانية أيام فهو أول من نفذ فيه أمر الله امتثالا لأمره : ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم ، وهي نعمة كبرى لإسحاق أبى إسرائيل . ولما كانت التوراة قد أصبحت الكتاب الأول والعهد القديم للذين اعتنقوا الديانة المسيحية ، فإن المسيحيين الذين يقرءون التوراة يؤمنون بهذه الأفكار التى دسها الذين كتبوا التوراة في أرض السبى ، ومن أسف أن كتاب المسلمين بعد صدر الإسلام قد نهلوا من هذه التوراة بعد أن ترجمت إلى العربية ففاضت كتبهم بتلك الأفكار الزائفة . وقد وضعت أحاديث كثيرة عن النبى — ﷺ — لتطابق ما جاء في التوراة . فحديث يقرر أن إبراهيم قد كذب على ربه ثلاث كذبات ، وآخر يروى كيف اختن إبراهيم بالقدوم ، وثالث يؤكد أن ختان ذكور المسلمين ينبغى أن يجرى عندما يبلغ الغلام ثلاث عشرة سنة أسوة بأبيهم إسماعيل . وماجت كتب المؤرخين الإسلاميين بوعده الله لبنى إسرائيل بأرض المعاد ، وانتشرت الإسرائيليات بين دفتى كتب الكتاب المسلمين الذين حسبوا أنهم ينهلون من كتاب مقدس .

كانت العداوة مشبوبة بين الكنعانيين أصحاب الأرض الحقيقيين وبين بنى إسرائيل واليهود الذين أرادوا اغتصاب الأرض منهم ، ولم ينس الذين أعادوا كتابة التوراة في المنفى تلك العداوة أبداً ، وأرادوا أن يؤكدوا وعد الله بإعطاء أرض فلسطين إلى نسل إسحاق فجعلوا إبراهيم وهو يجود بأنفاسه يقول لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له : « ضع يدك تحت فخذي . فأستحلفك بالرب إله السماء والأرض أن لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم . بل إلى أرضى وإلى عشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لبنى إسحاق . فقال له العبد : ربما لاتشاء المرأة أن تتبعنى إلى هذه الأرض . هل أرجع بابنك إلى الأرض التى خرجت منها (أور بالعراق) ؟ فقال له إبراهيم : احترز من أن ترجع بابنى إلى هناك . الرب إله السماء الذى أخذنى من بيت أبى ومن أرض ميلادى والذى كلمنى والذى أقسم لى قائلاً : لنسلك أعطى هذه الأرض ، هو يرسل ملاكه أمامك فتأخذ زوجة لابنى من هناك . وإن لم تشأ المرأة أن تتبعك تبرات من حلفى هذا ، أما ابنى فلا ترجع به إلى هناك . فوضع العبد يده تحت فخذي إبراهيم مولاه وحلف له على هذا الأمر . »

ويثور فى الفكر سؤال : إذا كان وعد الله بإعطاء أرض فلسطين لإسحاق ولنسله معروفا فكيف خطر على قلب كبير بيت إبراهيم أن يعود بإسحاق إلى أور ؟ إلى الأرض التى خرج منها إبراهيم ؟ لقد كان وعدا وكان ختانا وكانت ابتهاجات بختان إبراهيم وإسماعيل والعبيد ثم إسحاق بعد كل ذلك فكيف غابت كل تلك الابتهاجات عن كبير بيت إبراهيم ؟ لعل الذين كتبوا التوراة في المنفى خشوا أن يكون قارئ قد نسى الوعد فأرادوا أن يؤكدوه كما يفعل معظم القصاصين الذين يتتابهم القلق على قرائهم فيعيدوا سرد بعض الأحداث للتذكرة والتأكيد .

وتزوج إسحاق رفقة : « فلما كملت أيامها لتلد إذا في بطنها توأمان ، فخرج الأول كله كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو (العيص) ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب . وكان إسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما » .

كان الذين كتبوا التوراة في المنفى في ذل الأسر ينظرون نظرة إكبار إلى كل عمل يقومون به غير مشروع ، حتى السرقة كانوا يزينونها في أعينهم ، وقد انعكس ذلك السلوك على ما يكتبون فلم يروا في سرقة البركة — إن كانت البركات تسرق — أى عيب ، بل وجدوا في الخداع مادة يفخرون بها ويدونونها فرحين دون خجل وما دامت تلك السرقة تعود بالبركة على يعقوب (إسرائيل) . والآن نروى ما كتبه كتاب التوراة في المنفى دون تدخل منا ولندع للقارئ قياس ذلك الفعل على مقاييس الأخلاق في أى عصر من العصور : « فكبر الغلامان » . وكان عيسو إنسانا يعرف الصيد ، إنسان البرية ، ويعقوب إنسانا كاملا يسكن الخيام . فأحب إسحاق عيسو لأن في فمه صيدا ، وأما رفقة فكانت تحب يعقوب ...

وحدث لما شاخ إسحاق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له يا بني ، فقال له هأنذا . فقال إننى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى . فالآن خذ عدتك وجعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيدا . واصنع لى أطعمة كما أحب أوأثنى بها لآكل حتى تبارك نفسى قبل أن أموت .

وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحاق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيدا ليأتى به ، وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة إنى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلا ائتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل

أمام الرب قبل وفاتي ، فالآن يا بني اسمع لقولي في ما أنا آمرك به . اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين جديدين من المعزى ، فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته . فقال يعقوب لرفقة أمه : هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا رجل أملس . ربما يحسنى أبى فأكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة . فقالت له أمه لعتك على يا بني . اسمع لقولي فقط واذهب خذ لي . فذهب وأخذ وأحضر لأمه . فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب . وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها في البيت وألبست يعقوب ابنها الصغير وألبست يديه وملاسه عنقه جلود المعزة . وأعطت الأطعمة والخبز التى صنعت في يد يعقوب ابنها .

فدخل إلى أبيه وقال يا أبى . فقال له : هاأنذا من أنت يا بني ؟ فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك قد فعلت كما كلمتنى . قم اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك ، فقال إسحاق لابنه ما هذا الذى أسرعت لتجد يا بني . فقال إن الرب إلهك قد يسر لى . فقال إسحاق ليعقوب تقدم لأحسبك يا بني . أنت هو ابنى عيسو أم لا ؟ فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه فتحسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه . فباركه وقال : هل أنت هو ابنى عيسو ؟ فقال : أنا هو . فقال : قدم لى أكل من صيد ابنى حتى تباركك نفسى . فقدم له فأكل وأحضر له خمرافشرب ، فقال له إسحاق أبوه : تقدم وقبلنى يا بني . فتقدم وقبله ، فشم رائحة ثيابه وباركه وقال : انظر ، رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب . فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر . ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل . كن

سيداً لإخوتك وليسجد لك بنو أمك . ليكن لاعونك ملعونين ، ومباركوك مباركين .

وحدث عندما فرغ إسحاق من بركة يعقوب ، ويعقوب قد خرج من لدن إسحاق أبيه أن عيسو أخاه أتى من صيده . فصنع هو أيضاً أطعمة ودخل بها إلى أبيه وقال لأبيه : ليقيم أبى ويأكل من صيد ابنه حتى تباركنى نفسك . فقال له إسحاق أبوه : من أنت ؟ فقال : أنا ابنك بكر عيسو . فارتعد إسحاق ارتعاداً عظيماً جداً وقال : فمن هو الذى اصطاد صيداً وأتى به إليّ فأكلت من الكل قبل أن تجيء وباركته ، نعم ويكون مباركاً . فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً وقال لأبيه : باركنى أنا أيضاً يا أبى . فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك . فقال : ألا إن اسمه دعى يعقوب فقد تعقبني الآن مرتين . أخذ بكوريتى وها هو ذا قد أخذ بركتى . ثم قال : أما أبقيت لى بركة ؟ فأجاب إسحاق وقال لعيسو : إني قد جعلته سيداً لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً وعضدته بخنطة وخمر . فماذا أصنع إليك يا بنى ؟ فقال عيسو لأبيه : ألك بركة واحدة فقط يا أبى . ؟ باركنى أيضاً يا أبى . ورفع عيسو صوته وبكى . فأجاب إسحاق أبوه وقال له : هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك وبلا ندى السماء من فوق وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد ، ولكن يكون حيناً تجنح أنك تكسر نيره عن عنقك » . وهكذا ضاقت رحمة الله عن أن تتسع ليعقوب (إسرائيل) وأخيه عيسو ، وهكذا سرقت البركة . فإن كان إسحاق كلى عيناه فأين كان الله ؟ إنهم جعلوه ينطق بوعد منح أرض كنعان لنسل إسحاق ثم سرقوا البركة من عيسو فى غفلة من الله سبحانه وتعالى عما يصفون . إنهم جعلوا إسرائيل سارق بركة ومخادعاً وكذاباً دون خجل ، فما كانوا فى أرض المنفى ينجحون

من السرقة والكذب والخداع ، ولنتظر الآن كيف يتحدث القرآن عن إسحاق الذى لم يذكر الآخرة مرة واحدة فى التوراة ، والذى كان حبه لابنه عيسو لأنه يجلب له ما لذ وطاب من الطعام ، فلم يكن حبه لمكارم أخلاقه وتقواه بل لأن فى فمه صيدا . مادية طاغية صبغ بها اليهود بدورهم المعجبين بهم من الناس .

﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبتنا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا * فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ (١) .

﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون ﴾ (٢) .

﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كنتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ (٣) .

ولم يكن الغش والخداع فى سرقة البركة فحسب . بل كان سمة أفعال كل الناس كما تصورهم الذين كتبوا التوراة فى المنفى . فيعقوب قد ذهب إلى حاران ليتزوج فى بيت خاله لابان بن ناحور ، فماذا كان من الخال ؟ :

(١) مريم ٥٨ — ٥٩ .

(٢) البقرة ١٣٢ — ١٣٣ .

(٣) البقرة ١٤٠ .

« فكان حين سمع لابان خبر يعقوب ابن أخته أنه ركض للقاءه وعانقه وقبله وأتى به إلى بيته . فحدث لابان بجميع هذه الأمور : (حلم يعقوب . رؤية سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء . ملائكة الله صاعدة نازلة عليها والرب واقف عليها يقول : أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق . الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك . من هنا اسمي إسرائيل) .

فقال له لابان : إنما أنت عظمى ولحمى . فأقام عنده شهرين من الزمان . ثم قال لابان ليعقوب : لأنك أخى تخدمنى مجاناً ! أخبرنى ما أجرتك ؟ وكان للابان ابنتان اسم الكبرى لىة واسم الصغرى راحيل . وكانت عينا لىة ضعيفتين . وأما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المنظر . وأحب يعقوب راحيل فقال : أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى . فقال لابان : أن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر . أقم عندى . فخدم يعقوب براحيل سبع سنين وكانت فى عينه كأيام قليلة بسبب محبته لها . ثم قال يعقوب للابان : أعطنى امرأتى لأن أيامى قد كملت فأدخل عليها . فجمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة ، وكان له فى المساء أنه أخذ لىة وأتى بها إليه فدخل عليها . وأعطى لابان نلفة جاريتيه للىة ابنته جارية . وفى الصباح إذا هى لىة . فقال للابان : ما هذا الذى صنعت لى ؟ أليس براحيل خدمت عندك . فلماذا خدعتنى ؟ فقال لابان : لا يفعل هكذا فى مكاننا أن نعطي الصغيرة قبل البكر . أكمل أسبوع هذه فنعطيك تلك بالخدمة التى تخدمنى أيضا سبع سنين آخر .

ف فعل يعقوب هكذا . فأكمل أسبوع هذه . فأعطاه راحيل ابنته زوجة له ، وأعطى لابان راحيل ابنته بلهة جاريتيه جارية لها . فدخل على راحيل أيضا

وأحب أيضا راحيل أكثر من لئة ، وعاد فخدم عنده سبع سنين آخر .
وهكذا جمع نبي الله يعقوب بين الأختين في توراة المنفى ، وخدعه خاله
كما خدع هو أباه . فالحياة في توراة المنفى كلها غش وكذب وخداع وأنبياء
لا يطلبون من الله إلا أن يطعمهم ويكسوهم . ولنسمع إلى نذر يعقوب وهو
في طريقه من بئر سبع إلى حاران : « ونذر يعقوب نذرا قائلا : إن كان الله
معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه وأعطاني خبزا لآكل وثيابا
لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبي ، يكون الرب لي إلها ! » أيعقوب لا يزال
في شك من أن الله معه حتى بعد وعد الله بأن يباركه وأن يجعل أرض فلسطين
لذريته ؟ فقيم كان الختان إذن ؟ وهل هذا النذر يليق بنبي موعود بركة الله ؟
إنه لن يعترف بربه إلا إذا أطعمه وكساه وحفظه وأعادته سالما إلى بيت أبيه .
اعتراف مقابل نفع ، إن انعدم النفع فلا اعتراف ، وحاشا لله أن يكون ذلك
نذر يعقوب . إنه نذر الذين يقاسون الذل في الأسر ، نذر الذين كانوا
يلتمسون العودة إلى فلسطين من العراق ، فإذا كانت العودة كان الاعتراف
بالله وإلا فلا اعتراف ، ولن يكون الرب لهم إلها !
ولم يكتف الذين كتبوا التوراة في المنفى بأن جعلوا أنبياء الله يكذبون
ويخدعون ويسرقون البركة ، بل نسبوا السلب إلى الله — سبحانه وتعالى عما
يصفون علوا كبيرا : « وحدث لما ولدت راحيل يوسف أن يعقوب قال
لللابان : اصرفني لأذهب إلى مكاني وإلى أرضي . أعطني نسائي وأولادي
الذين خدمتك بهم فأذهب لأنك أنت تعلم خدمتي التي خدمتك . فقال
لابان : ليتني أجد نعمة في عينيك . قد تفاعلت فباركني الرب بسببك وقال :
عين لي أجرتك فأعطيك .

فقال له : أنت تعلم ماذا خدمتك وماذا صارت مواشيك معي ، لأن ما

كان لك قبل قليل فقد اتسع إلى كثير وباركك الرب في أثرى ، والآن متى
أعمل أنا أيضا لبيتى ١٩ فقال : ماذا أعطيك ؟ فقال يعقوب : لا تعطينى
شيئا . إن صنعت لى هذا الأمر أعود أرعى غنمك وأحفظها . أجتاز بين
غنمك كلها اليوم واعزل أنت منها كل شاة رقطاع وبلقاء وكل شاة سوداء
بين الخرفان وبلقاء ورقطاء بين المعزى . فيكون مثل ذلك أجرى ويشهد فى
يرى يوم غد إذا جئتك من أجل أجرى قدامك . كل مالىس أرقط أو أبلق بين
المعزى وأسود بين الخرفان فهو مسروق عندى . فقال لابان : هو ذا ليكن
بحسب كلامك . فعزل فى ذلك التيوس المخططة والبلقاء وكل العناز الرقطاع
والبلقاء كل ما فيه بياض وكل أسود بين الخرفان ودفعتها إلى أيدي بنيه وجعل
مسيرة ثلاثة أيام بينه وبين يعقوب ، وكان يعقوب يرعى غنم لابان الباقية .
فأخذ يعقوب لنفسه قضباناً من لبنى ولوز ودلب وقشر فيها خطوطاً بيضا
كاشطاً عن البياض الذى على القضبان ، وأوقف القضبان التى قشرها فى
الأجران فى مساقى الماء حيث كانت الغنم تجىء لتشرب تجاه الغنم لتتوحم عند
مجئها لتشرب ، فتوهمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطا
وبلقا . وأفرز يعقوب الخرفان وجعل وجوه الغنم إلى المخطط وكل أسود بين
غنم لابان . وجعل له قطعاناً وحده ولم يجعلها مع غنم لابان . وحدث كلما
توهمت الغنم القوية أن يعقوب وضع القضبان أمام عيون الغنم فى الأجران
لتتوحم بين القضبان . وحين استضعفت الغنم لم يضعها فصارت الضعيفة
لللابان والقوية ليعقوب ، فاتسع الرجل كثيراً جداً وكان له غنم كثير وجوار
وعبيد وجمال وحمير .

فسمع كلام بنى لابان قائلين : أخذ يعقوب كل ما كان لأبينا . ومما لأبينا
صنع كل هذا المجد . ونظر يعقوب وجه لابان وإذا هو ليس معه كأس وأول

من أمس . وقال الرب ليعقوب : ارجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك فأكون معك .

فأرسل يعقوب ودعا راحيل وليئة إلى الحقل إلى غنمه وقال لهما : أنا أرى وجه أبيكما أنه ليس نحوى كأمس وأول من أمس ، ولكن إله أبى كان معى وأنتم تعلمان أنى بكل قوتى خدمت أباكما ، وأما أبوكما فغدر بى وغير أجرى عشر مرات ، ولكن الله لم يسمح له أن يصنع بى شرا . إن قال هكذا : الرقط تكون أجرتك ولدت كل الغنم رقطا ، وإن قال هكذا : المخططة تكون أجرتك ولدت كل الغنم مخططة ، فقد سلب الله مواشى أبيكما وأعطانى . وحدث فى وقت توحم الغنم أنى رفعت عينى ونظرت فى حلم وإذا الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة . وقال لى ملاك الله فى الحلم : يا يعقوب . قلت هاأنذا . فقال : ارفع عينيك وانظر . جميع الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة ، لأنى قد رأيت كل ما يصنع بك لابان . أنا إله بيت إيل حيث مسحت عمودا . حيث نذرت لى نذرا . الآن قم اخرج من هذه الأرض وارجع إلى أرض ميلادك .

لقد صور يعقوب فى هذه الإصحاحات رجل دنيا كل همه الإكثار مما يملك من شاء وماعز ، وهو رجل خداع يأخذ لنفسه الغنم القوية ويترك للابان الغنم الضعيفة ثم ينسب السلب إلى الله . وحاشا لله أن يكون يعقوب قد فعل ذلك أو أن يكون قد مكث عند خاله لابان عشرين سنة وخاله يعبد الأصنام دون أن يدعو خاله مرة واحدة إلى عبادة الله وحده ، ودون أن يقول له ولقومه كما قال جده خليل الرحمن لأبيه وقومه : « إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرني فإنه سيهدين »^(١) . .. أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك فى

(١) الزخرف ٢٦ ، ٢٧ .

ضلال مبين» (٢) .

نسى الذين كتبوا التوراة في المنفى أن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، وأن صفات جميع الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم حسن الخلق ، وأن الله قد عصمهم من إتيان الشرور والآثام ، وما كان هم أحدهم الدنيا . إنهم كانوا يجودون بكل شيء في سبيل الله فما عمل أحدهم على أن يغش ليكثر غنمه ويكون بذلك مجده ، بل كانوا ينفقون كل ما يرزقهم الله على الفقراء والمحتاجين فهم أوثق بما في يدي الله مما في أيديهم ، وإننا لا نجد مثل هذه الصور الكريمة في التوراة لذلك نسوق بعض ما رواه نبي الإسلام وكتاب المسلمين عن أنبياء بنى إسرائيل بما يتسق مع النبوة والاصطفاء .

« قيل ليوسف : ما لك تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ قال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » .

وقال ﷺ : « إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبي ابن نبي ابن نبي » .

إن عبارات توراة المنفى مظلمة لا تتلأأ فيها أنوار وحى الله ، إن هي إلا أقاصيص تعبر عن الحالة النفسية التي كان يعيش فيها اليهود في المنفى ، أقاصيص نسجت حول حقائق طال عليها الأمد فامتزجت بأساطير الشعوب وأساليب الكذب والغش والخداع التي كانت طابع هؤلاء الأسرى . كانوا مستضعفين في الأرض قد لوّثهم الأسر بالعار فلطخوا كل الرسل والأنبياء بالعار لكيلا يكون هناك ما يخجلهم ما دام أنبياء الله قد مارسوا الكذب والخداع وأكل الدنيا في بطونهم ، بل وقد مارسوا الزنا كما سنرى بعد حين في التوراة .

ولندع شكيم يعتدى على دينة ابنة يعقوب ، ولندع الخدعة التى قام بها ابنا يعقوب ليقضوا على شكيم وأبيه وكل رجال المدينة ، وكيف نهبا المدينة . فالتوراة مليئة بالخدع والسلب والنهب ، ولنقرأ الإصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين لنرى كيف أن يعقوب وأبناءه الموعودين بالبركة وأرض فلسطين ، كانت الأصنام فى حوزتهم ، وأنهم كانوا يشركون مع الله الذى وعدهم واصطفاهم آلهة أخرى : « ثم قال الله ليعقوب : قم اصعد بيت إيل وأقم هناك واصنع هناك مذبحا لله الذى ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك ، فقال يعقوب لبنيه ولكل من كان معه : اعزلوا الآلهة الغريبة التى بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم ، ولنقم ولنصعد إلى بيت إيل فأصنع هناك مذبحا لله الذى استجاب لى فى يوم ضيقتى وكان معى فى الطريق الذى ذهبت فيه ، فأعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التى فى أيديهم والأقراط التى فى آذانهم فطمرها يعقوب تحت البطملة التى عند شكيم » .

يا أنبياء بنى إسرائيل الذين كتبتم التوراة فى المنفى أين عقولكم ؟ أيعقل أن يحتفظ يعقوب الموعود بالبركة والذى تجلى له الرب مرات بالأصنام فى بيته ؟ فقيم كان إذن حب الله إياه ؟ ولماذا اصطفاه ربه قبل أن يولد وخصه بالبركة دون أبناء إسماعيل ؟ لأنه استمر يشرك به حتى بعد أن جاءه ملاك الرب فى الحلم ليخبره أن جميع الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة ؟! أو لأنه استمر يشرك بالله حتى بعد أن صارع الله (الإصحاح ٣٢) وقال له : « لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » .

وكان أبناء يعقوب : رأوبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبلون من لية ، ودانا ونفتالى من بلهة جارية لية ، وجادا وأشير من زلفة جارية راحيل ،

ويوسف وبنيامين من راحيل . وجاء موسى عليه السلام من نسل لاوى ، وجاء اليهود من نسل يهوذا ، وبذلك لا يكون موسى صلوات الله وسلامه عليه يهوديا ، ولا يوسف ، فهما من بنى إسرائيل وأخوا يهوذا الذى ينسب إليه اليهود . وإن دارس التوراة يلحظ تعصب أنبياء اليهود لفرع يهوذا . فنبى مثل أشعيا لا يذكر موسى أبدا فى إصحاحاته ، فموسى عليه السلام من اللاويين ، أما أشعيا فمن نسل يهوذا .

وسترى الآن كيف صورت التوراة حياة يهوذا أبى اليهود جميعا : « وأخذ يهوذا زوجة لغير بكره اسمها ثامار ، وكان غير بكر يهوذا شريرا فى عينى الرب ، فأماته الرب ..

ولما طال الزمان ماتت ابنة سوع امرأة يهوذا ، ثم تعزى يهوذا فصعد إلى جُزار غنمه إلى تمنة هو وحيرة صاحبه العدلامى فأخبرت ثامار وقيل لها : هو ذا حموك صاعد إلى تمنة ليجزر غنمه . فخلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلفتت وجلست فى مدخل عينايم التى على طريق تمنة ، فنظرها يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد غطت وجهها . فمال إليها على الطريق وقال : هاتى أدخل عليك . لأنه لم يعلم أنها كنته . فقالت : ماذا تعطينى لكى تدخل على . فقال : إنى أرسل جدى معزى من الغنم . فقالت : هل تعطينى رهنا حتى ترسله ؟ فقال : ما الرهن الذى أعطيك ؟ فقالت : خاتمك وعصابتك . عصاك التى فى يدك ، فأعطاهما ودخل عليها فحبلت منه . ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها .

فأرسل يهوذا جدى المعزة بيد صاحبه العدلامى ليأخذ الرهن من يد المرأة فلم يجدها ، فسأل أهل مكانها قائلا : أين الزانية التى كانت فى عينايم على الطريق ؟ فقالوا : لم تكن ههنا زانية . فرجع إلى يهوذا وقال : لم أجدها وأهل

المكان أيضا قالوا لم تكن ههنا زانية ، فقال يهوذا : لتأخذ لنفسها لثلا نصير إهانة . إني قد أرسلت هذا الجدى وأنت لم تجدها .

ولما كان نحو ثلاثة أشهر أخبر يهوذا وقيل له : قد زنت ثمار كنتك وها هي حبلى أيضا من الزنا ، فقال يهوذا أخرجوها فتحرق . أما هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميها قائلة : من الرجل الذى هذه له أنا حبلى ؟ وقالت : حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه ؟ فتحققها يهوذا وقال : هي أبرأ منى .. » .
ماذا كان جزاء يهوذا الزانى الذى أنجبت له زوج ابنه توأمين ؟ إن يعقوب (إسرائيل) يقول له وهو يجود بأنفاسه : « يهوذا إياك يحمد إخوتك . يدك على قفا أعدائك . يسجد لك بنو أبيك » .

أهذا وحى من الله ؟ أيكون جزاء الزانى بركة وحمدا ؟ فلمن الحجر إذن ؟ إنها أهواء الذين كتبوا التوراة فى المنفى وإنهم جميعا من نسل يهوذا ، من اليهود فلا غرو إن تحيزوا لليهوذا وغفروا له جريمة الزنا ، وقد التمسوا له عذرا بأن قالوا إنه لما زنى بالمرأة لم يكن يعرف أنها زوج ابنه . وأرادوا أن يبرزوا شهادته فجعلوه يبعث صديقه ليدفع ثمن فعلته كأنما فعل فعلة لا يندى لها جبين الشرفاء من الناس فما بالك بسبط من الأسباط الذين يقول القرآن فيهم : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً » (١) .

وإن تصور الذين كتبوا التوراة فى المنفى لله جل شأنه قاصر عجيب ، إنه فى زعمهم لا يستطيع أن يميز بين بيوت المؤمنين وبيوت الكافرين إلا بعلامة

توضع على بيوت المؤمنين : « .. فأني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس بالبهايم . وأصنع أحكاما لكل آلهة المصريين : أنا الرب ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها . فأرى الدم فأعبر عنكم ، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر . ويكون لكم هذا اليوم تذكارا فتعبدونه عيدا للرب في أجيالكم تعبدونه فريضة أبدا » .

وهكذا كلم الرب موسى وهارون في أرض مصر في سفر الخروج في توراة المنفى ، وهكذا جعلوا الله لا يميز بين دور بني إسرائيل ودور المصريين إلا بعلامة من دماء الشاء التي أمرهم بذبحها وأكلها بعجلة فصحا للرب ! إنه إله يجتاز أرض مصر في تلك الليلة كأنه مسافر عابر . ولا جرم فقد تصوروا أن الله خلق آدم على صورته ، وما دام آدم يمشى في الأرض فلا غرابة أن يمشى الله في أرض مصر تلك الليلة ويجتازها وهو يبحث عن علامات الدم على دور بني إسرائيل ، حتى لا يخطئ ويصيب عباده بنقمته .

والآن نلقى السمع إلى بعض آيات الله لبري موسى وهارون في القرآن العظيم وكيف عرفان الله تعالى وأنه يسمع ويرى بلا علامات على دور بني إسرائيل ، وأنه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وأنه مالك يوم الدين ، وإن كانت توراة المنفى لم تعرف إلا الأرض التي لا رجعة منها ولم تتحدث عن البعث أبدا : ﴿ وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجدر على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى * إني أنا ربك فاخلع نعليك إنيك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من

لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى * وما تلك يمينك يا موسى * قال هي عصاى
أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى
* فآلقاها فإذا هي حية تسعى * قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى
* واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لنريك من
آياتنا الكبرى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لى صدرى ويسر
لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى
* هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشر كه فى أمرى * كى نسبحك كثيرا *
ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا * قال قد أوتيت سؤلک يا موسى *
ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴿١﴾ .

﴿٢﴾ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يسا
لا تخاف دركا ولا تخشى ﴿٢﴾ .

إن الله سبحانه وتعالى يقص علينا فى محكم آياته قصة موسى تشع نورا ،
قصة إله قادر ورسول كريم . أما الذين كتبوا التوراة فى أرض السبى فما
قدروا الله حق قدره ، جعلوه — سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا —
لا يميز بين بيوت بنى إسرائيل وبيوت المصريين إلا بعلامة من دم الأضحية ،
وجعلوه يأمر بنى إسرائيل بأن يأكلوا الفطير سبعة أيام احتفالا بتخليصهم من
ذل فرعون : « سبعة أيام تأكلون فطيرا . اليوم الأول تعزلون الخمير من
بيوتكم ، فإن كل من أكل خميرا من اليوم الأول إلى اليوم السابع تقطع تلك
النفس من إسرائيل ، ويكون لكم فى اليوم الأول محفل مقدس ، وفى اليوم

(١) طه ١١ — ٣٧ .

(٢) طه ٧٧ .

السابع محفل مقدس ، لا يعمل فيها عمل إلا ما تأكله كل نفس فذلك وحده يعمل منكم . وتحفظون الفطير لأنى فى هذا اليوم عينه أخرجت أجدادكم من أرض مصر . فتحفظون هذا اليوم فى أجيالكم فريضة أبدية . فى الشهر الأول فى اليوم الرابع عشر من الشهر مساء تأكلون فطيرا إلى اليوم الحادى والعشرين من الشهر مساء . سبعة أيام لا يوجد خمير فى بيوتكم ، فإن كل من أكل مُختمرا تقطع كل النفس من جماعة إسرائيل الغريب مع مولود الأرض . لا تأكلوا شيئا مختمرا . فى جميع مساكنكم تأكلون فطيرا » .

إنه إله يهتم بالخمير وبالفطير أكثر من اهتمامه بتربية النفوس المؤمنة . إنه لم يذكر كلمة واحدة عن دار السلام ولم ينل دار الغرور بكلمة تخذش التعلق بها . فالعلاقة بين الرب وعباده صارت على أيدى كتاب التوراة فى المنفى علاقة منفعة مباشرة يعود نفعها كله على العباد . فعلى الرب أن يحمى عبده وأن يطعمه وأن يكسوه فإن فعل ذلك أقر العبد بربوبيته وإلا فلا عبادة ولا حمد . وقد صوروا بنى إسرائيل فى صورة تثير الدهشة ، فبعد المعجزات التى قام بها موسى وبعد أن أنقذ الله بنى إسرائيل من ذل العبودية فى مصر وبعد أن « كان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود من سحاب ليهدىهم فى الطريق وليلا فى عمود نار ليضىء لهم لئلا يحوشوا نهارا وليلا لم يصدقوا موسى ولم يؤمنوا بإله موسى . وقد آمنوا به وصدقوا رسوله لما رأوا أعداءهم أمواتا على الشاطئ : » فخلص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين ، ونظر إسرائيل المصريين أمواتا على شاطئ البحر ، ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذى صنعه الرب بالمصريين ، فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبدته موسى .

إنهم يصلون لله بعد ذلك النصر ولكن صلاتهم لم تكن خالصة لله وحده فقد كانت قلوبهم مشوبة بالشرك ، فهم يقولون فى ابتهالاتهم : « من مثلك بين

الآلهة يا رب ؟ من مثلك معتزا في القداسة .. » كأنما هناك آلهة معه وليس بينهم مثل إلههم . أكان موسى كلم الله يسمح بمثل ذلك الشرك دون أن يشور ؟ أو كان موسى يسمح لأخته مريم النبية أخت هارون بأن تأخذ الدف بيدها وأن تخرج وراءها جميع النساء بالدفوف فيأخذون في الرقص ؟ إنها أفكار وتصورات الذين وضعوا التوراة في أرض العراق . أيام أن كان الشراب والرقص والشرك منتشرا في بلاط البابليين .

وقال كتبة التوراة إن موسى عليه السلام أطلق على إلهه اسم يهوه بعد أن بنى مذبحا للرب شكرا على انتصار إسرائيل على عماليق ، ولم يعطوا مبررا لهذه التسمية ، ويلاحظ أنهم قد بدأوا إطلاق اسم إسرائيل على بني إسرائيل ، ومن الغريب أنهم جعلوا « يثرون » كاهن مديان حما موسى يقول هو الآخر لما سمع ما فعل إله موسى لبني إسرائيل : « الآن علمت أن الرب أعظم الآلهة » . فهو على حد قول كتاب التوراة يعتقد أن هناك آلهة مع الرب وأن الرب أعظمهم . وهذا القول لا يختلف في كثير ولا قليل عما كان يقال في بابل من أن مردوخ هو رب الأرباب . إنها عبارات لم تكن من وحى الله ولكنها من وحى البيئة التي عاش فيها كتاب التوراة .

وعندما يتجلى الله لموسى فوق جبل سيناء يقول : « أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . لا يكن لك آلهة أخرى أمامي . لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهم ولا تعبدهم لأنني أنا الرب إلهك إله غيور أفقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضى وأصنع إحسانا إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي . لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا ، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا . اذكر يوم السبت

لتقدس . ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك ، وأما اليوم السابع ففيه سبت
لرب إلهك . لا تصنع عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمنتك
ونزيلك الذى داخل أبوابك . لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض
والبحر وكل ما فيها واستراح فى اليوم السابع . لذلك بارك الرب يوم السبت
وقدسه . أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب
إلهك . لا تقتل . لا تزنى . لا تسرق . لا تشهد على قريبك شهادة زور ، لا
تشته بيت قريبك . لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمتة ولا ثوره ولا حماره
ولا شيئاً مما لقريبك . . .

إله غيور ، يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء . أهذا عدل إلهى أم تصور من
تصورات الذين كتبوا التوراة فى المنفى ؟ « وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم
بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله
وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (١) .

« ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك
لقضى بينهم ولأنهم لفى شك منه مريب » (٢) .

ليس من العدل فى شيء أن يفتقد إله ذنوب الآباء فى الأبناء : « ولكل
درجات مما عملوا وليوفى بهم أعمالهم وهم لا يظلمون » (٣) . « قل أمر ربي
بالقسط ... » (٤) .

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما
اكتسبت » (٥) . « ولا تزر وازرة وزر أخرى » (٦) . « من عمل صالحاً

(١) آل عمران ٧٨ (٢) هود ١١٠

(٣) الأحقاف ١٩ (٤) الأعراف ٩

(٥) البقرة ٢٨٦ (٦) الأنعام ١٦٤

فلنفسه ومن أساء فعلها وما ربك بظلام للعبيد» (١) .

ولم يذكر رب موسى في هذه الوصايا جزاء الصالحين والطالحين في الدار الآخرة ، فقد نسى الذين كتبوا التوراة في المنفى البعث والحساب . إنهم اعتقدوا معتقدات البابليين وقد كانوا يتقربون إلى آلهتهم ليطلبوا أعمارهم على الأرض ولا يسعادهم في دار الغرور . وإن نفس الشيء يقوله رب الذين كتبوا التوراة : « أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك » . فالجزاء ينبغي أن يكون في الدنيا . وقد أثر ذلك في الماديين الذين يريدون المثوبة في الأرض وينكرون كل حياة بعد الموت : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » (٢) : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » (٣) .

ولنستمر في قراءة الإصحاح العشرين من سفر الخروج : « وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن (من أجل أن الله نزل على جبل سيناء) . ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد وقالوا لموسى : تكلم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت . فقال موسى للشعب لا تخافوا ، لأن الله إنما جاء ليمتحنكم ولكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا . فوقف الشعب من بعيد وأما موسى فاقترب من الضباب حيث كان الله .

(١) فصلت ٤٦

(٢) محمد ١٢

(٣) سبأ ٣٧ .

فقال الرب لموسى : هكذا تقول لبنى إسرائيل . أنتم رأيتم أننى من السماء تكلمت معكم ، لا تصنعوا معى آلهة فضة ولا تصنعوا معى آلهة ذهب . مذبحا من تراب تصنع لى تذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك غنمتك وبقرك . فى كل الأماكن التى فيها أصنع لاسمى ذكرأتى إليك وأباركك . وإن صنعت لى مذبحا من حجارة فلا تبته منها منحوتة . إذا رفعت عليها إزميلك تدنسها ولا تصعد بدرج إلى مذبحى لكيلا تنكشف عورتك عليه .

جعلوا لله مكانا . إنه فى الضباب . وجعلوه إلها يتعطش إلى دماء الغنم والبقر : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » (١) . إنه ينهاهم عن صنع آلهة من فضة أو ذهب ولكنهم سرعان ما صنعوا عجلا من ذهب وعبدوه لأنهم ما دامت كل تعاليمهم أرضية لا يطيقون البعد عن عبادة الذهب ، فبالذهب يطعمون وبالذهب يكسون وبالذهب يكون لهم سلطان فى الأرض وهذه كل الغايات التى يعبدون الله من أجلها ، ومادام الذهب يحققها لهم فهو الإله المعبود .

ويسرد الإصحاح الحادى والعشرون من نفس السفر الأحكام التى أمر الله موسى أن تطبق على بنى إسرائيل : « وهذه هى الأحكام التى تضع أمامهم : إذا اشتريت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم وفى السابعة يخرج حرا مجانا . إن دخل وحده فوحده يخرج . إن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه ، وإن أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها يكون لسيده وهو يخرج وحده . ولكن إن قال العبد : أحب سيدى وامراتى وأولادى لا أخرج حرا . يقدمه سيده إلى الله ويقدمه إلى الباب أو القائمة ويثقب سيده أذنه بالثقب

فيخدمه إلى الأبد . وإذا باع رجل ابنته أمة لا تخرج كما يخرج العبيد . إن قبحت في عيني سيدها الذى خطبها لنفسه يدعها تفك . وليس له سلطان أن يبيعها لقوم أجنب لغدره بها . وإن خطبها لابنه فبحسب حق البنات يفعل لها . إن اتخذ لنفسه أخرى لا ينقص طعامها وكسوتها ومعاشرتها . وإن لم يفعل لها هذه الثلاث تخرج مجانا بلا ثمن .

من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا . ولكن الذى لم يتعمد بل أوقع الله في يده فأنا أجعل له مكانا يهرب إليه . وإذا بغى إنسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن مذبحى نأخذه للموت . ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا . ومن سرق إنسانا وباعه أو وجد في يده يقتل قتلا . ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلا . وإذا تخاصم رجلان فضرب أحدهما الآخر بحجر أو بلكمة ولم يقتل بل سقط في الفراش . فإن قام وتمشى خارجا على عكازه يكون الضارب بريئا
والذى يهمننا من هذه الأحكام أن الشريعة الموسوية قد أقرت الرق وأباح بيع العبراني وأن يبيع الرجل ابنته ، بل إننا نجد في مستهل الإصحاح الثانى والعشرين من هذا السفر أن السارق يباع بسرقة ، فما بال الكتاب اليهود والمسيحيين الحاقدين على الإسلام يهاجمونه في ضراوة لأنه لم يبلغ الرق طفرة ؟ .

لم يشأ الإسلام أن يلغى الرق بأمر يجرمه لأنه وجد في ذلك زعزعة للحياة الاقتصادية السائدة وخاف أن يلقي بمسنين وعجزة لم يعرفوا غير بيوت ساداتهم في الطرقات دون شفقة ، فسن من القواعد ما يجفف جميع روافد الرق ولم يستحدث رافدا واحدا يزيد مشكلة الرق تعقيدا . ولو طبق الإسلام بعيدا عن هوى الحكام لقضى على الرق قضاء مبرما في ثلاثة أجيال على الأكثر ، ولم يسمح الإسلام ببيع الآباء للأبناء كما سمحت أحكام الرب التى (فتح مكة)

كتبها أحبار اليهود في المنفى ، ولم يقرر أن السارق يمكن في بعض الحالات أن يباع بسرقة ، بل حكم بقطع يد السارق ليكون عبرة لغيره ، أما حرية الفرد فلم يصادرها الإسلام مهما كانت الأسباب .

ونلاحظ أن جميع الأحكام الواردة في الإصحاح الحادى والعشرين والإصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج لا تختلف في كثير ولا قليل عن القوانين التى كانت سائدة في بابل في عصر تدوين التوراة ، حتى الذى يغتصب عذراء يطبق عليه ما كان يطبق على فاعل ذلك في العراق : « وإذا راود رجل عذراء لم تخطب فاضطجع معها بمهرها لنفسه زوجة . إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذراءى ... كل من اضطجع مع بهيمة يقتل قتلا . من ذبح لآلهة غير الرب وحده يهلك » .

من يضطجع مع بهيمة يقتل قتلا أما من يضطجع مع عذراء فيعطى لأبيها من الفضة مهر عذراء ! إنه لا يجلد إذا كان غير محصن ولا يرجم إذا كان محصنا ، ولم الجلد والرجم ما دام سيدفع الثمن بالفضة ؟ وبماذا يصرح له يا ترى لو كان الدفع بالذهب ؟

إن الذين كتبوا التوراة في المنفى لا يستطيعون أن يغمضوا أعينهم عن الذهب والفضة وإن إلههم يهره الذهب والفضة . انظر إليه وهو يحدث موسى عليه السلام لما ذهب لميقات ربه :

« وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا لى مقدمة . من كل من يحته قلبه تأخذون تقدمتى . وهذه هى المقدمة التى تأخذونها منهم : ذهب وفضة ونحاس وأسماجنونى وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة وجلود ثخس وخشب شنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن المسحة وللبخور العطر وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة ،

فيصنعون لى مقدسا لأسكن فى وسطهم .

ذهب وفضة ونحاس وأرجوان وقرمز وشعر وجلود . لماذا كل هذا ؟
ليصنعوا للرب مسكنا مقدسا ليسكن وسطهم وحدهم ، أما باقى العالم فما
ضره لو عاش بلا إله . إنه إله بنى إسرائيل وحدهم . لهم تشرق الشمس
ويتألق القمر وتنبت الأرض حبا وتمطر السماء ، أما باقى البشرية فهم عبيد
لهم ، ليس لهم أن يسألوا الله أو يتوكلوا عليه ، فغرور الذين كتبوا التوراة فى
المنفى أعماهم عن معرفة كنه الله سبحانه وتعالى وما قدروا الله حق قدره ،
فبنوا له مسكنا ماديا ليعيش فى وسطهم سبحانه وتعالى عما يصفون . والآن
لنر ذلك المسكن الذى بنوه الله : « بحسب جميع ما أنا أريك من مثال المسكن
ومثال جميع آتيته هكذا تصنعون . فيصنعون تابوتا من خشب السنط طوله
ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف وتغشيه
بذهب نقى . من داخل ومن خارج تُغشيه . وتصنع عليه إكليلا من ذهب
حواليه . وتُسبك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائمه الأربع . على
جانبه الواحد حلقتان وعلى جانبه الثانى حلقتان . وتصنع عصوين من خشب
السنط وتغشيهما بذهب وتدخل العصوين فى الحلقات على جانبى التابوت
ليحمل التابوت بهما . تبقى العصوان فى حلقات التابوت . لا تنزعان منها .
وتضع فى التابوت الشهادة التى أعطيك .

وتصنع غطاء من ذهب نقى طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع
ونصف ، وتصنع كُرويين من ذهب صنعة خراطة تضعهما على طرفى
الغطاء . فاصنع كروبا واحدا على الطرف من هنا وكروبا آخر على الطرف
من هناك . من الغطاء تضعون الكرويين على طرفيه ويكون الكروبان باسطين
أجنحتهما إلى فوق مظللين بأجنحتهما على الغطاء ووجهاهما كل واحد إلى

الآخر . نحو الغطاء يكون وجهها الكرويين ..

وأراه الله كيف يصنع مائدة من خشب السنط ، وكيف يصنع منارة من ذهب نقى ، وذكر له تفصيلات مهندس في مصنع ، وإن المرء يتساءل أكان ذهاب موسى لميقات ربه ليسمع منه كيف يصنع تابوتا صنع آلافا مثله قدماء المصريين والآشوريين والبابليين ؟ وفيه كان حرص الإله على أن يكون كل شيء من الذهب ؟ إنه حرص الأذلاء الذين كانوا أسرى في بابل يحلمون بالذهب ، وحاشا لله أن يكون هكذا ماديا كملوك الأرض يحتفل بالذهب وبالنقوش .

واستمر الله الذى تصوره كعبة التوراة يصف لموسى وهو يناجيه خلال الأربعين يوما كيف يصنع سرج المنارة السبعة من ذهب نقى ، وكيف الأواني من وزنة ذهب نقى ، وكيف يصنع خيمة الاجتماع . ووصاه بأن يقرب أخاه إليه وبنيه معه من بين بنى إسرائيل ، وأن يصنع ثيابا مقدسة لهارون . وراح يصف فى إسهاب صفة الثياب المقدسة فهو إله مادم يهيم المظهر والذهب النقى ولا علاقة له بالقلوب ، ثم نصب ذاك الإله هارون ليكون كاهنا للرب وجعل هذه الكرامة وراثة فى بنيه ، ثم راح يصف ما يفعل بهم ليستحقوا الكهانة المقدسة : « وهذا ما تصنعه لهم لتقديسهم ليكونوا لى : خذ ثورا واحدا ابن بقر ، وكبشين صحيحين ، وخبز فطير ، وأقراص فطير ملتوتة بزيت ، ورقاق فطير مدهونة بزيت ، من دقيق حنطة تصنعها وتجعلها فى سلة واحدة وتقدمها فى السلة مع الثور والكبشين .

وتقدم هارون وبنيه إلى باب خيمة الاجتماع وتغسلهم بماء ، وتأخذ الثياب وتلبس هارون القميص وجبة الرداء والرداء والصدرة ، وتشده بزئار الرداء وتضع العمامة على رأسه وتجعل الإكليل المقدس على العمامة (الإكليل المقدس

من الذهب النقى) ، وتأخذ دهن المسحة وتسكبه على رأسه وتمسحه وتقدم
بنيه وتلبسهم أقمصه ومنطقهم بمناطق هارون وبنيه ، وتشد لهم قلانس .
فيكون لهم كهنوت فريضة أبدية ، وتملأ يد هارون وأيدي بنيه .

وتقدم الثور إلى قدام خيمة الاجتماع فيضع هارون وبنوه أيديهم على رأس
الثور ، فتذبح الثور أمام الرب عند باب خيمة الاجتماع ، وتأخذ من دم الثور
وتجعله على قرون المذبح بأصبعك ، وسائر الدم تصبه إلى أسفل المذبح ،
وتأخذ كل الشحم الذى يغشى الجوف وزيادة الكبد والكليتين والشحم
الذى عليهما وتوقدها على المذبح . وأما لحم الثور وجلده وفرثه فتحرقها بنار
خارج المحلة هو ذبيحة خطية .

وأكتفى بهذا القدر ومن يشأ معرفة ما يجرى للكباش الأول والكباش الثانى
وباقى المراسيم فليرجع إلى الإصحاح التاسع والعشرين من سفر الخروج .
ألا يذكر ذلك بالزار ؟ أكان ذهاب موسى لميقات ربه ليسمع منه مثل
هذا الكلام ؟ وهارون الذى نصبه الله كاهنا فى ذلك الوقت ماذا كان يصنع ؟
لنقرأ ما كتبه عنه الذين كتبوا التوراة فى المنفى : « ولما رأى الشعب أن موسى
أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا
آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى الذى أضعنا من أرض مصر لا نعلم
ماذا أصابه . فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم
وبنيكم وبناتكم وأتوني بها . فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم
وأتوا بها إلى هارون . فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا
مسبوكا . فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أضعدتك من أرض مصر . فلما
نظر هارون بنى مذبحاً أمامه . ونادى هارون وقال : غدا عيد الرب . فبكروا
فى الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة . وجلس الشعب للأكل

والشرب ثم قاموا للعب .

يقول الذين كتبوا التوراة في المنفى إن هارون هو الذى صنع العجل ، فهل يا ترى نصبه الله كاهنا وجعل الكهانة فى بنيه إلى الأبد مكافأة له على أنه كان أول المشركين ؟ ! إنها صورة مهزوزة لا تقبل من قصاص فما بالك بأنبياء أحبهم اليهود حتى قالوا إن أحدهم ابن الله !

وقال الله فى محكم كتابه يروى ما كان من موسى وهارون ومن قوم موسى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين . ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين . سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الفى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون . واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرجعنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلقتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم

وَألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني
وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين . قال
رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين « (١) .
وبرأ القرآن الكريم هارون من صنع العجل ، فما كان لنبي أن يكون أول
الكافرين : « فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم
وعدا حسنا أفتطال عليكم العهد أم أردتم أن يمل عليكم غضب من ربكم
فأخلفتم موعدى : قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكننا حُملنا أوزارا من
زينة القوم فقدفناها فكذلك ألقى السامرى . فأخرج لهم عجلا جسدا له
خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا
يملك لهم ضرا ولا نفعا . ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن
ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع
إلينا موسى . قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن أفعصيت
أمرى ، قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إني خشيت أن تقول فرقت
بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى . قال فما خطبك يا سامرى . قال بصرت
بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى
نفسى . قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن
نُخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم
نسفا ، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما « (٢) .
وهكذا صور القرآن ما جرى بين موسى عليه السلام وربه سبحانه
وتعالى ، أدب فى الخطاب وإله غفور ونبي يلتمس المغفرة لنفسه ولأخيه ،
وشعب يطلب رحمة ربه ، أما كنية التوراة فقد جعلوا رب إسرائيل

(١) الأعراف ١٤٢ — ١٥١ . (٢) طه ٨٦ — ٨٩ .

يثور فيؤنبه موسى على ثورته : « فقال الرب لموسى اذهب أنزل . لأنه قد فسد شعبك الذى أضعده من أرض مصر . زاغوا سريعا عن الطريق الذى أوصيتهم به . صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أضعدهت من أرض مصر . وقال الرب لموسى : رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة ، فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم . وأفنيهم فأصيرك شعبا عظيما . فتضرع موسى أمام الرب إلهه وقال : لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة ؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بخبث (حاشا لله) ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض . ارجع عن حمو غضبك واندم (حاشا لله) على الشر بشعبك . اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم : أكثر لكم نسلكم كنجوم السماء ، وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التى تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد . فندم الرب (حاشا لله) على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه . »

ولا بد أن نبرىء موسى عليه السلام من مثل هذا القول ، إنها أقوال أنبياء المنفى وأحلامهم فهم لا يفتنون يذكرون الوعد الذى اخترعوه ولا يكتفون بذلك بل يذكرون فى قحة رب العزة بذلك الوعد حتى يستقر ذلك الوهم فى وجدان كل من يقرأ التوراة . وقد صدق المسيحيون الذين يقرءون التوراة التى وضعت فى المنفى ذلك الزعم فما أجهدوا أنفسهم فى تمحيص تلك المزاعم ، وإن الذين أجهدوا أنفسهم قد كفروا بالدين وأنكروا وجود خالق لهذا الكون ، فالإله الذى وصفه الذين كتبوا التوراة فى المنفى أهون من أن يخلق ، ما دام بشر مهما كانت منزلته يؤنبه ثم يهديه إلى سبيل الرشاد .

وكان حوار بين الرب وموسى عليه السلام ، الرب يأمر موسى أن

ينطلق إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لذريتهم ، ولكن الرب قرر أن لا ينطلق معهم ، فلما عرف القوم أن الله لن يكون معهم بكوا وكان حوار آخر بين الرب وموسى . وقبل الرب إكراما لموسى أن يسير مع بنى إسرائيل .

إن قارئ هذه الإصحاحات لا يمكن أن يتصور إلا أن الله سبحانه وتعالى رجل ، ففيها « ويكلم الرب موسى وجهها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » . وفيها يقول الرب لموسى : « عرفتك باسمك » . « لأن الرب اسمه غيور . إله غيور هو » . وإن المرء ليتساءل : أفعال بنى إسرائيل وعبادتهم العجل ونبي الله موسى لا يزال بينهم تستحق أن يعدهم الله أن يمنحهم أرض فلسطين إلى الأبد ؟ وماذا كان يعطيهم لو أنهم كانوا سامعين مطيعين ؟ إن ذلك الوعد لم يرد له ذكر في القرآن المجيد ، فقد كان حلم اليهود الذين كانوا في المنفى فدهسهم الذين كتبوا التوراة في أرض السبي في الإصحاحات والأسفار بمناسبة وبلا مناسبة لإيها قارئ التوراة أنه وعد من الله ، وإن كثرة تكراره ليحمل في طياته عوامل الشك فيه .

وقد ألبسوا موسى برقعا : « وكان لما نزل موسى من جبل سيناء ولوحا الشهادة في يد موسى عند نزوله من الجبل أن موسى لم يعلم أن جلد وجهه صار يلمع في كلامه معه . فنظر هارون وجميع بنى إسرائيل موسى وإذا جلد وجهه يلمع فخافوا أن يقتربوا إليه . فدعاهم موسى فرجع إليه هارون وجميع الرؤساء في الجماعة . فكلّمهم موسى وبعد ذلك اقترب جميع بنى إسرائيل فأوصاهم بكل ما تكلم به الرب معه في جبل سيناء . ولما فرغ موسى من الكلام معهم جعل على وجهه برقعا وكان موسى عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع حتى يخرج ، ثم يخرج ويكلم بنى إسرائيل بما يوصى . فإذا رأى بنو

إسرائيل وجه موسى أن جلده يلمع كان موسى يرد البرقع على وجهه حتى يدخل ليتكلم معه .

صورة حسية للتعبير عن أنوار اليقين ، ولما كانت جميع تعبيرات الذين كتبوا التوراة بأيديهم مادية فلم يخطر لهم على قلب أن يتغلغلوا في الأفعدة للتعبير عن أنوار الإيمان التي تنعكس على الوجوه . وهل أنوار اليقين التي تشع من الوجوه تحتاج إلى برقع ؟ إنها أفكار رجال أفسدتهم أساطير الشعوب وما هي بوحى يوحى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم » (١) .

ويعود رب الذين كتبوا التوراة بأيديهم يتحدث عن الفطير كأنما مشاكل الدنيا والآخرة فطير وخمير ، ثم يتحدث عن أيام العمل الستة ويوم السبت المقدس وأن جزاء من يعمل فيه يقتل ، وينهاهم عن إشعال النار في يوم السبت دون أن يبين حكمة ذلك كما لم يبين ما يعود على البشرية جمعاء من شرور من وجود الخمير في الدور !

وينتهى سفر الخروج ويذكر سفر اللاويين طريقة تقديم القرابين إلى الرب ، ومنها يتضح أنه إله دموى يسره رائحة الشواء : « ويذبح العجل أمام الرب ويقرب بنو هارون الكهنة الدم ويرشون الدم مستديرا على المذبح الذى لدى باب خيمة الاجتماع » .

ولا أدري ماذا يحدث لو أن الدم لم يرش مستديرا ، وما حكمة رشه ؟ ثم يذكر الرب طريقة شواء كل قربان : « ويسلخ المحرقة ويقطعها إلى قطعها ، ويجعل بنو هارون الكاهن نارا على المذبح ويرتبون حطبها على النار ، ويرتب بنو هارون الكهنة القطع مع الرأس والشحم فوق الحطب الذى على النار التي على المذبح ، وأما أحشاؤه وأكارعه فيغسلها بماء ويوقد الكاهن الجميع على

المذبح مُحَرَّقة وقود رائحة سرور للرب .

وراح رب الذين كتبوا التوراة بأيديهم يذكر في تفصيل عجيب ما يُفعل بقربان الغنم والضأن وما يُفعل بقربان الدقيق . وماذا يفعل إذا كان القربان مقدمة من طاحن . والمهم أن الباقي من كل قربان هو لهارون وبنيه قدس أقداس من وقائد الرب وليس لفقراء بنى إسرائيل . فما خطر فقراء بنى إسرائيل للذين كتبوا توراة المنفى على قلب .

ويسرد سفر اللاويين ما يفعله الذى يخطئ سهوا وما يفعله الذى يخطئ وكان رئيس عمل ، وما يفعله الخائن إذا خان للتكفير عن خطيئته . إنه يأتي بشور ويضع يده على رأسه . وفي حالة خطيئة الكاهن فإن عليه أن يقرب ثورا صحيحا للرب ويذبح الثور أمام الرب ، ويأخذ الكاهن الممسوح من دم الثور ويدخل به خيمة الاجتماع ويغمس الكاهن إصبعه في الدم وينضح من الدم سبع مرات أمام الرب لدى حجاب القدس . ويجعل الكاهن من الدم على قرون مذبح البخور العطر الذى فى خيمة الاجتماع أمام الرب ، وسائر دم الثور يصبه إلى أسفل مذبح المحرقة الذى لدى باب خيمة الاجتماع وجميع شحم ثور الخطيئة ينزعه عنه .. » .

الدم لله واللحم لبنى هارون . نفس ما كان يفعله كهنة مردوخ فى أرض بابل ، لم تكن الصدقات للفقراء والمساكين بل كانت للكهنة الأغنياء . ولا شك أن بنى هارون كانوا أغنى طوائف بنى إسرائيل ، وإن الغنى لدليل رضا الله على عبده عند الذين كتبوا بأيديهم توراة المنفى .

ومن عجب أن جعلت الكفارة من اختصاص الكاهن ، فهو يكفر عن الخطيئة إذا ما قدم الخاطئ الذبيحة . فمن ذا الذى لا يقدم ذبيحة إذا ما كانت كفارة عن آثامه ، « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم

ظالمون ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء
والله غفور رحيم» (١) .

وأخذ الذين كتبوا التوراة بأيديهم فكرة النار الدائمة على المذبح من
المجوس ، فقد احتل الإيرانيون العراق أيام أن كان اليهود فى أرض السبى .
فالمجوس كانوا يبنون بيوتا للنار المقدسة وكان الهربذ وهو يقابل الكاهن فى
الديانة اليهودية يقف وقد أخفى فمه برباط لكيلا تلوث أنفاسه النار
ليغذى النار بقطع من الخشب طهرت تطهيرا دينيا ، مادا يده بحزمة الخشب
المسوى والمهيا طبقا لمراسم الدين ، مرتلا الأدعية الدينية . ووصايا رب
الذين كتبوا التوراة بأيديهم لا تختلف عن تلك المراسم المتعلقة بشريعة
المحرقة : « وكلم الرب موسى قائلا : أوص هارون وبنيه قائلا : هذه شريعة
المحرقة ، هى المحرقة تكون على الموقدة فوق المذبح كل الليل حتى الصباح ،
ونار المذبح تتقد عليه . ثم يلبس الكاهن ثوبه من كتان ويلبس سراويل من
كتان على جسده ويرفع الرماد الذى صيرت النار المحرقة إياه على المذبح ويضعه
بجانب المذبح ، ثم يخلع ثيابه ويلبس ثيابا أخرى ويخرج الرماد إلى خارج المحلة
إلى مكان ظاهر والنار على المذبح تتقد عليه ولا تطفأ . ويشعل عليها الكاهن
حطبيا كل صباح ويرتب عليها المحرقة ويوقد عليها شحم ذبائح السلامة . نار
دائمة تتقد على المذبح لا تطفأ » .

النار المقدسة عند المجوس تتأجج على اللوام ونار المحرقة تشتعل طوال الليل
وطوال النهار . « نار دائمة تتقد على المذبح لا تطفأ » . ومن المؤكد أن الذين
كتبوا التوراة فى المنفى أخذوا عن المجوس المراسم الطويلة المعقدة ، فالأوستا

(١) آل عمران ١٢٨ ، ١٢٩ .

الساسانية تفيض بتفاصيل دقيقة عن المراسم المقدسة تكاد تكتم الأنفاس ضيقا بها ، وكذلك الحال مع توراة المنفى . وللفريسيين الذين ضاق السيد المسيح بتزمتهم كل العذر ما دام كتابهم المقدس قد نص على تفصيلات دقيقة عند عمل أى شئ ولم يترك فرصة للاجتهاد أو الاختيار : « ونيسرك لليسرى ، فذكر إن نفعت الذكرى »^(١) . « قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى »^(٢) .

ويستمر سفر اللاويين يفصل ما يفعله الكاهن هارون وبنوه فى ضحايا التكفير عن الخطايا ، ثم يكلم الرب هارون : « وكلم الرب هارون قائلا : خمرا ومسكرا لا تشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع » . فحرم عليهم الخمر أثناء القيام بوظائفهم الدينية . أما بعيدا عن بيت الرب فلهم مطلق الحرية فى أن يسكروا .

وراح رب الذين كتبوا التوراة فى المنفى يعلم بنى إسرائيل شريعة الولادة : « وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى إسرائيل قائلا : إذا حبلى امرأة وولدت ذكرا تكون نجسة سبعة أيام . كما فى أيام طمئ علتها تكون نجسة ، وفى اليوم الثامن يخنن لحم غرلته ، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوما فى دم تطهيرها . كل شئ مقدس لا تمس ، وإلى المقدس لا تجئ حتى تكمل أيام تطهيرها . وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما فى طمئها ، ثم تقيم ستة وستين يوما فى دم تطهيرها » . لماذا هذا التفريق ؟ أولادة الذكر تختلف عن ولادة الأنثى ؟ أم أنها تجازى لأنها لم تنجب لبنى إسرائيل ذكرا محاربا مقاتلا يكون عوننا لتنفيذ أحلام الذين كانوا فى المنفى ؟ « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا

(١) الأعلى ٨ ، ٩

(٢) طه ٢٥ ، ٢٩

وهو كظيم» (١) . « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » (٢) ولم يفرق الإسلام بين الذكر والأنثى في العمل والأجر : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة » (٣) . وما بال كتاب توراة المنفى بالجنة ؟ إن جنتهم أرضية : العودة إلى الأرض التي زعموا أن الله قد وهبها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وذريته ، وحرّم منها إسماعيل وذريته إكراما للذين جعلهم كتاب توراة المنفى يكفرون ورسول الله موسى عليه السلام فيهم !

ويستمر سفر اللاويين يحدد وظيفة الكاهن في معاملة الأبرص ، ولا ينسى نصيب الكهنة من الأضاحي سواء أكانت ثيرانا أو كباشا أو معزا أو حتى عصافير في كل عملية تطهير سواء أكانت تطهيرا من دنس أو نفاسة أو برص أو قرع .

ويتحدث سفر اللاويين عن الجماع : « وإذا حدث من رجل اضطجاع زرع يرحض كل جسده بماء ويكون نجسا إلى المساء » . ولماذا يكون نجسا ما دام قد تطهر ، ومتى يقوم بعبادته لله إذا كان سيستمر نجسا طوال النهار ؟ وإن حديثه عن المرأة في الحيض يتسم بالقسوة ويدلل على شدة اهتمامه بالطهارة الخارجية ، الطهارة المادية ، أما طهارة النفس فلم يشغل رب الذين كتبوا التوراة نفسه بها ، فما أهميتها ما دامت السعادة كل السعادة في حياتهم الأرضية : « وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دما في لحمها فسبعة أيام تكون في طمثها وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء . وكل ما تضطجع عليه

(١) النحل ٥٨

(٢) الشورى ٤٩

(٣) النساء ١٢٤ .

في طمئتها يكون نجسا . وكل ما تجلس عليه يكون نجسا . وكل من مس
نراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا حتى المساء ، وكل من مس
متاعا تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء . وإن كان
على الفراش أو على المتاع الذي هي جالسة عليه عندما يمسه يكون نجسا إلى
المساء . وإن اضطجع معها رجل فكان طمئتها عليه يكون نجسا سبعة أيام ،
وكل فراش يضطجع عليه يكون نجسا » .

أحكام قاسية دفعت بنى إسرائيل إلى طرد المرأة خارج الدار ما دامت في
حيضها لكيلا يقعوا في كل هذه المحظورات أو في بعضها . وقد سمع المسلمون
من بنى إسرائيل في المدينة وهم يزعمون أنهم من نسل الكاهن هارون هذه
الأحكام فسألوا رسول الله — ﷺ — عن الحيض فأنزل الله تعالى :
﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن
حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين
ويحب المتطهرين ﴾ (١) . وقالت اليهود للمسلمين : « إن الرجل إذا أتى
امرأته بركة كان الولد أحول . فأنزل الله تعالى : ﴿ نسأؤكم حرث لكم فأتوا
حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر
المؤمنين ﴾ (٢) .

وكان الذين كتبوا التوراة في المنفى حريصين على أن تكون الذبائح كلها
بيد الكهنة حتى يضمنوا نصيبهم ، فجعلوا رب موسى يقول : « وكلم
الرب موسى قائلا : كلم هارون وبنيه وجميع بنى إسرائيل وقل لهم هذا هو
الأمر الذي يوصى به الرب قائلا كل إنسان من بيت إسرائيل يذبح بقرا أو غنما

(١) البقرة ٢٢٢

(٢) البقرة ٢٢٣

أو معزى في المحلة أو يذبح خارج المحلة . وإلى باب خيمة الاجتماع لا يأتي به
ليقرب قربانا للرب أمام مسكن الرب يحسب على ذلك الإنسان دم . قد
سفك دما فيقطع ذلك الإنسان من شعبه . لكى يأتي بنو إسرائيل بذبائحهم
التي يذبحونها على وجه الصحراء ويقدموها للرب إلى باب خيمة الاجتماع إلى
الكاهن ويذبحوها ذبائح سلامة للرب ، ويرش الكاهن الدم على مذبح الرب
لدى باب خيمة الاجتماع ويوقد الشحم لرائحة سرور للرب .. » . وجعلوا
الدم كفارة عن النفس » .. لأن نفس الجسد هي في الدم ، فأنا أعطيتكم إياه
على المذبح للتكفير عن نفوسكم ، لأن الدم يكفر عن النفس » . وإن القرآن
الكريم يقرر حقيقة تستريح إليها النفوس : « لن ينال الله لحومها ولأدمائها
ولكن يناله التقوى منكم » (١) .

وأخيرا تذكر رب الذين كتبوا التوراة في المنفى المساكين والغرباء :
« وعندما تحصدون حصيد أرضكم لا تكمل زوايا حقلك في الحصاد .
ولقاط حصيدك لا تلتقط وكرمك لا تعلله ونثار كرمك لا تلتقط . للمسكين
والغريب تتركه ، أنا الرب إلهكم » .

ويستمر سفر اللاويين في ذكر محارم الرجل والأحكام التي تطبق على
الزاني والزانية وعلى الذين يأتون الذكران شهوة ثم يقول رب الكهان : « وإذا
جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميمونها ، وإذا اقتربت امرأة
إلى البهيمة لنزائها نमित المرأة والبهيمة . إنهما يقتلان . دمهما عليهما » .

وكان كهنة مردوخ في بابل يحتمون أن تقدم القرابين لرب الأرباب كل
صباح ومساء ، وكانت من لحوم البقر والخراف والبط والوز وكل ما لذ

وطاب . وقد أخذ عنهم الذين كتبوا التوراة في المنفى فأسهبوا في ذكر ما يقدم
لرب إسرائيل من قرايين : « وكلم الرب موسى قائلا : أوصى بنى إسرائيل أن
يقدموا إليك زيت زيتون مرضوض نقيا لإيقاد السرج دائما . خارج حجاب
الشهادة في خيمة الاجتماع يرتبها هارون من المساء إلى الصباح أمام الرب دائما
فريضة دهرية في أجيالكم . على المنارة الطاهرة يرتب السرج أمام الرب
دائما .

وتأخذ دقيقا وتخبزه اثني عشر قرصا . عُشرَيْن يكون القرص الواحد
وتجعلها صفين كل صف ستة على المائدة الطاهرة أمام الرب ، وتجعل على كل
صف لبانا نقيا فيكون للخبز تذكارا وقودا للرب . في كل يوم سبت يرتبه أمام
الرب دائما من عند بنى إسرائيل ميثاقا دهريا . فيكون لهارون وبنيه فيأكلونه
في مكان مقدس ، لأنه قدس أقداً له من وقائد الرب فريضة دهرية » .
وللأسف عندما ترجمت التوراة إلى العربية ظن المسلمون بحسن قصد أن
التوراة التي كتبت في المنفى هي الكتاب الأول فأخذوا عنها دون تمحيص أو
مقارنة بينها وبين أحكام القرآن ، فأخذوا عادة إنارة الشموع في الأضرحة
أسوة بزيت الزيتون المقدس الذي كان يضاء للرب ، كأن الرب نور
السموات والأرض في حاجة إلى ضياء زيت الزيتون النقي ، إنها عادة مجوسية
انتقلت إلى بنى إسرائيل في المنفى ثم انتقلت إلى المسلمين البسطاء الذين نذروا
الشموع لأولياء الله الصالحين دون أن يخطر لهم على بال أن ما يفعلونه إن هو
إلا ضرب من الوثنية .

وقد مزج الذين كتبوا التوراة في المنفى بين قرايين البابليين وقرايين قدماء
المصريين ، وقد عاش بنو إسرائيل في مصر والعراق وتأثروا بديانة كل من
القطريين . ففي مصر القديمة كان يوضع على موائد القربان في كل يوم من أيام
(فتح مكة)

السنة وبانتظام ٣٢٢٠ رغيفا من الخبز و ٢٤ قطعة من الكعك و ١٤٤ قدرا من الجعة و ٣٢ إوزة وبضعة قدور من النبيذ . وكانت هذه القرايين هدايا من أناس خيرين ثم أصبحت واجبا تقوم به الدولة ، وكانت هذه القرايين لإعانة الكهنة وخدمة المعبد ، وهى فى الشريعة اليهودية لإعانة الكهنة وخدمة خيمة الاجتماع . ولم تقل الشريعة ذلك صراحة بل جعلت القرايين فى بنى إسرائيل واجبا مقدسا أبدا .

ولم يلجأ رب الذين كتبوا التوراة فى المنفى إلى وعيد الذين لا ينفذون وصاياه بنار جهنم فقد نسوا الآخرة من طول معاشرتهم لأهل بابل ، بل جعل عذابه فى الدنيا » .. لكن إن لم تسمعوا لى ولم تعملوا كل هذه الوصايا . وإن رفضتم فرائضى وكرهت أنفسكم أحكامى فما عملتم كل وصاياى بل نكثتم ميثاقى ، فإنى أعمل هذه بكم : أسلط عليكم رعبا وسيلا وحمى تفنى العينين وتلف النفس وتزرعون باطلا زرعكم فىأكله أعداؤكم . وأجعل وجهى ضدكم فتتهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم .

وإن كنتم مع ذلك لا تسمعون لى أزيد على تأديبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فأحطم فخار عزكم وأصير سماءكم كالحديد وأرضكم كالنحاس ، فتفرغ باطلا قوتكم وأرضكم لا تعطى غلتها وأشجار الأرض لا تعطى أثمارها .

وإن سلكتم معى بالخلاف ولم تشاءوا أن تسمعوا لى أزيد عليكم ضربات سبعة أضعاف حسب خطاياكم . أطلق عليكم وحوش البرية فتعدمكم الأولاد وتقرض بهائمكم وتقللكم فتوحش طرقكم .

وإن لم تتأدبوا منى بذلك بل سلكتم منى بالخلاف ، فإنى أنا أسلك معكم

بالخلاف وأضربكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم أجلب عليكم سيفاً ينتقم
نقمة الميثاق فيجتمعون إلى مدنهم وأرسل في وسطكم الرباً فتدفعون بيد
العدو . بكسرى لكم عصا الخبز تخبز عشر نساء خبزكم في تنور واحد ويرددن
خبزكم بالوزن فتأكلون ولا تشبعون .

وإن كنتم بذلك لا تسمعون لى ، بل سلكتم معى بالخلاف ، فأنا أسلك
معكم بالخلاف ساخطاً وأؤدبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فتأكلون
لحم بنيكم ولحم بناتكم تأكلون . وأخرب مرتفعاتكم وأقطع شمساتكم
وألقى جثثكم على جثث أصنامكم وترذلكم نفسى . وأصير مدنكم خربة
ومقادسكم موحشة ولا أشتم رائحة سروركم وأوحش الأرض فتوحش منها
أعداؤكم الساكنون فيها وأذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف فتصير
أرضكم موحشة ومدنكم تصير خرابة . حينئذ تستوفى الأرض سبوعها كل
أيام وحشتها وأنتم فى أرض أعدائكم . حينئذ تسبت الأرض وتستوفى
سبوعها . كل أيام وحشتها تسبت ما لم تسبته من سبوتكم فى سكنكم عليها .
وبالباقية منكم ألقى الجبانة فى قلوبهم فى أراضى أعدائهم فيهمهم صوت ورقة
مندفعة فيهربون كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد . ويعثر بعضكم
ببعض كما من أمام السيف وليس طارد . ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم .
فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم والباقون منكم يفسنون
بذنوبهم فى أراضى أعدائكم . وأيضاً بذنوب آبائهم يفسنون . ولكن إن أقروا
بذنوبهم وذنوب آبائهم فى خيانتهم التى خانونى بها وسلوكهم معى الذى
سلكوا بالخلاف وإنى أيضاً سلكت معهم بالخلاف وأتيت بهم إلى أرض
أعدائهم إلا أن تخضع حينئذ قلوبهم الغلف ويستوفوا حينئذ عن ذنوبهم . أذكر
ميثاقى مع يعقوب أذكر أيضاً ميثاقى مع إسحاق وميثاقى مع إبراهيم وأذكر

الأرض والأرض ترك منهم وتستوفى سبوعها في وحشتها منهم وهم يستوفون عن ذنوبهم لأنهم قد أبوا أحكامي وكرهت أنفسهم فرائضي ولكن مع ذلك أيضا متى كانوا في أرض أعدائهم ما أبيتهم ولا كرهتهم حتى أيدهم وأنكث ميثاق معهم ، لأنني أنا الرب إلههم ، بل أذكر لهم الميثاق مع الأولين الذين أخرجتهم من أرض مصر أمام أعين الشعوب لأكون لهم إلهًا . أنا الرب .
هذه هي الفرائض والأحكام والشرائع التي وضعها الرب بينه وبين بني إسرائيل في جبل سيناء بيد موسى .

هكذا يقول الذين كتبوا التوراة في المنفى ، والحقيقة أنهم كانوا يصورون حالتهم وهم أذلة في أرض السبي . إنهم كانوا يعتقدون أن ما نزل بهم من عار إنما سببه أنهم عصوا أوامر الله ، ولما كانوا يؤمنون بالجزاء الأرضي فقد جعلوا وعيد الله كله في الدنيا وليس من المقبول ولا المعقول أن رب موسى لا يذكر الآخرة ويوم الحساب ، ورب عيسى عليه السلام يذكر يوم الدين وجنات النعيم : « وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار »^(١) . « ... من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار . تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما

مكروا وحق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشيا
ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب »^(١) . « ولقد آتينا موسى
الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفي شك
منه مريب »^(٢) . « ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها
هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، واختار موسى قومه سبعين رجلاً
لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا
بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت
وليننا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة
وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل
شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون »^(٣) .
ما من رسول إلا ودعا قومه إلى عبادة الله وحده والإيمان بالبعث والنشور
واليوم الآخر ، فعيسى عليه السلام دعا في الإنجيل بنى إسرائيل إلى الإيمان بالله
ويوم الدين ، والقرآن يؤكد أن موسى عليه السلام دعا بنى إسرائيل إلى الإيمان
بالله وخوفهم نار جهنم وبشرهم بالجنة التي أعدت للمتقين . فهل يعقل أن
رب بنى إسرائيل لم يذكر الثواب والعقاب في الآخرة لما ذهب موسى عليه
السلام لميقات ربه ؟ « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار
يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم
الظالمين »^(٤) .

ويأتى بعد ذلك سفر العدد وفيه يأمر الله موسى بأن يحصى كل جماعة بنى

(١) غافر ٤٠ — ٤٦

(٢) الشورى ١٤ . (٣) الأعراف ١٥٤ — ١٥٦

(٤) الجمعة ٥ .

إسرائيل بعشائرتهم وبيوت آبائهم ، والإحصاء مقصور على الرجال الذين بلغوا العشرين فصاعدا للخروج للحرب ، وحتى لا يغفل موسى عليه السلام عن بيت من بيوت أسباط بني إسرائيل يحدد الله رأس كل بيت . وعدّ موسى عليه السلام وهارون ورؤساء إسرائيل الاثنا عشر رجلا الرجال الذين بلغوا العشرين فكانوا ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين . وقد جامل رب الذين كتبوا التوراة سبط لاوى لأن موسى وهارون منهم ، قال : « أما سبط لاوى فلا تحسبه ولا تعدّه بين بني إسرائيل ، بل وَكُلّ اللاويين على مسكن الشهادة وعلى جميع أمتعه وعلى كل ماله . هم يحملون المسكن وكل أمتعه وهم يخدمونه وحول المسكن ينزلون ، فعند ارتحال المسكن يُنزله اللاويون ، وعند نزول المسكن يقيمهم اللاويون . والأجنبي الذي يقترب يقتل وينزل بنو إسرائيل كلّ في محله وكل عند رايته بأجنادهم . وأما اللاويون فينزلون حول مسكن الشهادة لكي لا يكون سخط على جماعة بني إسرائيل فيحفظ اللاويون شعائر مسكن الشهادة . ففعل بنو إسرائيل حسب كل ما أمر الرب موسى . كذلك فعلوا » .

وهذا الإصحاح قد أعفى اللاويين من الحرب وخصصهم خيمة الاجتماع ، ولم يشرع القرآن مثل هذا الشرع فلم يعف قريشا ولا الهاشميين من الحرب لأنهم خدمة بيت الله . بل إن قريشا والهاشميين كانوا على الدوام في صفوف المقاتلين لإعلاء كلمة الدين ، فالحرب المقدسة جهاد والشهداء في عليين ، وما خطر ذلك على قلب الذين كتبوا توراة فقد أسقطوا جزاء الآخرة من حسابهم .

وراحت إصحاحات العدد تسرد مواليد هارون وموسى يوم كلم الرب موسى في برية سيناء : « عد بني لاوى حسب بيوت آبائهم وعشائرتهم . كل

ذكر من ابن شهر فصاعدا تعدهم ، فعدهم موسى حسب قول الرب كما أمر «
وأخذ الرب اللاويين له ولم يفرق بين صالح وطالح ، وما كانت العدالة الإلهية
لتصطفى طبقة بالميراث : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال : إني
جاءتك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدى الظالمين « (١) .
وكلم الرب موسى قائلا : « كلم بنى إسرائيل وقل لهم إذا زاغت امرأة
رجل وخانته خيانة واضطجع معها رجل اضطجاع زرع ، وأخفى ذلك عن
عيني رجلها واستترت وهي نجسة وليس شاهد عليها وهي لم تؤخذ ، فاعتراه
روح الغيرة وغار على امرأته وهي نجسة أو اعتراه روح الغيرة وغار على امرأته
وهي ليست نجسة ، يأتي الرجل وامرأته إلى الكاهن ويأتي بقربانها معها عشر
الإيفة من طحين شعير لا يصب عليه زيتا ولا يجعل عليه لبانا لأنه مقدمة غيرة
وتقدمة تذكار تذكر ذنبا . فيقدمها الكاهن ويوقفها أمام الرب . ويأخذ
الكاهن ماء مقدسا في إناء خزف ويأخذ الكاهن من الغبار الذي في أرض
المسكن ويجعل في الماء . ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب ويكشف رأس المرأة
ويجعل في يديها مقدمة التذكار التي هي مقدمة الغيرة وفي يد الكاهن يكون ماء
اللعنة المر . ويستحلف الكاهن المرأة ويقول لها : إن كان لم يضطجع معك
رجل وإن كنت لم تزيغي إلى نجاسة من تحت رجلك فكوني بريئة من ماء اللعنة
هذا المر ، ولكن إن كنت قد زغت من تحت رجلك ونجست وجعل معك
رجل غير رجلك مضجعة . يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللعنة ويقول
الكاهن للمرأة : يجعلك الرب لعنة وحلقا بين شعبك بأن يجعل الرب فخذك
ساقطة وبطنك وارما . ويدخل ماء اللعنة هذا في أحشائك لورم البطن

ولإسقاط الفخذ . فتقول المرأة : آمين .. آمين . ويكتب الكاهن هذه اللعنات في كتاب ثم يمحوها في الماء المر . ويسقى المرأة ماء اللعنة المر فيدخل فيها ماء اللعنة للمرارة . ويأخذ الكاهن من يد المرأة مقدمة الغيرة ويردد المقدمة أمام الرب ويقدمها إلى المذبح . ويقبض الكاهن من المقدمة تذكارها ويوقده على المذبح وبعد ذلك يسقى المرأة الماء . ومتى سقاها الماء فإن كانت قد تنجست وخانت رجلها يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة فيرم بطنها ويسقط فخذها فتصير المرأة لعنة في وسط شعبها . وإن لم تكن المرأة قد تنجست بل كانت طاهرة تتبرأ أو تحبل بزرع .

هذه شريعة الغيرة : « إذا زاغت امرأة من تحت رجلها وتنجست أو إذا اعترى رجلا روح غيرة فغار على امرأته يوقف المرأة أمام الرب ويعمل لها الكاهن كل هذه الشريعة فيتبرأ الرجل من الذنب وتلك المرأة تحمل ذنبها » .
كان البابليون إذا ما شكوا في أن المرأة قد زنت يلقونها في النهر ، فإذا كانت قد ارتكبت جريمة الزنا فالنهر يتلعتها ، وإذا كانت بريئة فإن النهر يلفظها ، وقد أخذ كتاب التوراة في المنفى الفكرة وطورها بما فيه مصلحة الكاهن ، وحاشا لله أن يكون ذلك كلامه . إن الله سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم . والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ ^(١) . ولا يعرف الإسلام مؤاخظة الناس على الظن . بل إنه يعتبر

أن بعض الظن إثم ولن يفر أحد من قصاص الله إن أخطأ ولم ينل العذاب في الدنيا ، فعذاب الآخرة يتربص به . أما في شرائع الغيرة التي وضعها حكماء صهيون في أرض المنفى فإن من يهرب من عذاب الدنيا فلا خوف عليه من عذاب الآخرة ، فإنه بعد أن يموت لن يبعث وسيذهب إلى « شول » الأرض التي لا رجعة منها .

وراح رب الذين كتبوا التوراة في المنفى يشرح لموسى شريعة النذير : « وهذه شريعة النذير يوم تكمل أيام انتذاره يؤتى به إلى باب خيمة الاجتماع فيقرب قربانه للرب خروفا واحدا حوليا صحيحا مُحرقا ، ونعجة واحدة حولية صحيحة ذبيحة خطية ، وكبشا وادا صحيحا ذبيحة سلامة ، وسل فطير من دقيق أقراصا ملتوتة بزيت رقاق فطير مدهونة بزيت مع تقدمتها وسكائبها ، فيقدمها الكاهن أمام الرب ويعمل ذبيحة خطيته ومُحرقته . والكبش يعمل ذبيحة سلامة للرب مع سل الفطير ، ويعمل الكاهن تقدمته وسكيبته ، ويخلق النذير لدى باب خيمة الاجتماع رأس انتذاره ويأخذ شعر رأس انتذاره ويجعله على النار التي تحت ذبيحة السلامة . ويأخذ الكاهن الساعد مسلوقا من الكبش وقرص فطير واحدا من السل ورقاقة فطير واحدة ويجعلها في يدي النذير بعد حلقه شعر انتذاره ويردها الكاهن ترديدا أمام الرب . إنه قدس للكاهن مع صدر التريد وساق الرفيعة ، وبعد ذلك يشرب النذير خمرا » .

هذه شريعة النذير الذي ينذر قربانه للرب عن انتذاره فضلا عما تنال يده حسب نذره الذي نذر كذلك يعمل حسب شريعة انتذاره .

وكلم الرب موسى قائلا : « كلم هارون وبنيه قائلا : هكذا تباركون بني إسرائيل قائلين لهم : يباركك الرب ويحرسك ، يضئ الرب بوجهه عليك

ويرحمك . يرفع الله وجهه عليك ويمنحه سلاما ، فيجعلون اسمى على بنى إسرائيل وأنا أباركهم . »

أيسمح الرب بشرب الخمر على باب خيمة الاجتماع . على باب بيته ولماذا حرم شرب الخمر داخل خيمة الاجتماع ؟ إذا كانت الخمر رجسا من عمل الشيطان فكيف يفرق إله بين شربها في بيته وشربها على باب بيته ؟ ! والذبائح والفظائر ماذا يفعل بها الإله ؟ إن الأصل في الذبيحة أن تكون وسيلة للتوسعة على الفقراء فإذا بها تنقلب في شرع الذين كتبوا التوراة في المنفى إلى توسعة على الكهنة وقد كان فيهم كهنة من نسل هارون ، وقد جعلوه الكاهن الأول ليكون لهم حق ممارسة الكهانة بالوراثة لينالوا خير الدنيا ، وقد تأثر كثير من كتاب المسلمين عقب ترجمة التوراة إلى العربية بتلك المزاعم فقالوا دون دراسة أو تمحيص إن اليهود الذين كانوا في يثرب وخيبر وتيماء من نسل هارون الكاهن ، ولم يرجعوا إلى القرآن الكريم ليروا مكانة هارون الحقيقية في أيام موسى كليم الله ، وهل اعترف كتاب الله بهذه الكهانة التي افترها بعض أحبار اليهود ؟ لقد كان الإسلام هو الدين الذي يدعو إليه جميع الأنبياء ولم يجعل الله لطبقة دون طبقة من البشر حق ممارسة شعائر الدين باسمه ، فليس من الدين في شيء أن يكتسب أناس رزقهم باسم الدين . ولو كان ذلك مما شرع الله لكان أولى الناس بالاكْتِسَاب من ممارسة الشعائر الدينية أبو بكر الصديق خليفة رسول الله — ﷺ — والخلفاء الراشدون من بعده ، ولكنهم أبوا أن يأخذوا من بيت مال المسلمين شيئا إلا كسوة للشتاء وكسوة للصيف وما يطعم منه أوساط المسلمين . ولم يكن ذلك لقاء قيامهم بشعائر الدين بل لأنهم انقطعوا عن العمل ليسوسوا أمور المسلمين وليحكموا بينهم بما أنزل الله .

ويستمر سفر العدد يروى ألوان القرايين التي تقدم على مذبح الرب ،

أطباقا من فضة وزن الواحد منها ١٣٠ شاقلا من فضة ، وصحونا من ذهب وزن الواحد منها عشرة شواقل من ذهب ، وثيران وأبقار وكباش لعل ذلك يغري المؤمنين على تقديم مثلها للكهنة من بنى هارون ، وكما هي عادة البشر جاء موسى عليه السلام بالرسالة وتاجر بالرسالة بنو هارون أو الذين زعموا أنهم من نسل هارون .

« وكلم الرب موسى قائلا : اصنع لك بوقين من فضة مسحولين تعملهما فيكونان لك للمناداة الجماعة ولارتحال المحلات ، فإذا ضربوا بها يجتمع إليك كل الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع ، وإذا ضربوا بواحد يجتمع إليك رءوس ألوف إسرائيل ، وإذا ضربتم هتافا ترتحل المحلات النازلة إلى الشرق وإذا ضربتم هتافا ثانية ترتحل المحلات النازلة إلى الجنوب . هتافا يضربون لرحلاتهم . وأما عندما تجمعون الجماعة فتضربون ولا تهتفون . وبنو هارون الكهنة يضربون بالأبواق ، فتكون لكم فريضة أبدية في أجيالكم . وإذا ذهبتم إلى حرب في أرضكم على عدو يضربكم تهتفون بالأبواق فتذكرون أمام الرب إلهكم وتخلصون من أعدائكم ، وفي يوم فرحكم وفي أعيادكم ورءوس شهوركم تضربون بالأبواق على محركاتكم وذبائح سلامتكم فتكون لكم تذكارا أمام إلهكم . أنا الرب إلهكم » .

ما من شيء رآه بنو إسرائيل في مصر الفرعونية أو في بابل أو في أرض كنعان إلا وقد جعله الذين كتبوا التوراة في المنفى وصية من الله إلى شعبه المختار . إن النفخ في البوق لجمع الجيوش أو لتحريكها كان أمرا معروفا في الأسرات الفرعونية التي سبقت ورود يوسف الصديق إلى مصر ، ولكن الذين سلبوا ثقافة الشعوب الذين نزلوا بين ظهرانيتها أبوا إلا أن يجعلوا حتى النفخ في البوق . منحة إلهية لبنى إسرائيل ، وجعلوا الله — سبحانه وتعالى علوا كبيرا عما

يصفون — يهتم بصغائر الأمور . إنه سبحانه وتعالى يأمر موسى عليه السلام ليصنع لنفسه بوقين من فضة — وماذا كان يحدث لو أن البوقين كانا من أى معدن آخر ؟ — لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات . أكان هذا شيئا جديدا حتى يستحق أن يوصى به رب بنى إسرائيل شعبه ؟ إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى عز عليهم أن يدعوا فضلا لأحد من كلاب البشرية ممن كانوا أكثر حضارة منهم ، فزعموا أن الله شرع لهم كل شيء حتى التافه من الأمور ليدخلوا فى روع أنفسهم قبل أن يدخلوا فى روع الناس أن الله فضلهم على العالمين ، وقد كانوا فى حاجة إلى ذلك الوهم فقد كانوا أسرى أذلاء يتطلعون إلى العودة إلى فلسطين .

جاء فى القرآن الكريم : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين »^(١) . وقد كان ذلك التفضيل يوم أن كانوا سامعين ومطيعين وفضلهم على العالمين بأن بعثهم من بعد موتهم لعلهم يشكرون ، أما وقد طال عليهم العهد ونسوا ما شرع الله لهم ثم أخذوا شرائع الشعوب وقالوا إن ذلك من عند الله ، فلا فضل ولا تفضيل . « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون »^(٢) .

وجاء فى القرآن الكريم فى شأن المسلمين : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون »^(٣) . أما وأن المسلمين لا

(١) البقر ٤٧ (٢) البقرة ٥٩

(٣) آل عمران ١١٠

يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ولا يؤمنون بالله أو يؤمنون وهم على ضلالتهم يحافظون فلا فضل ولا تفضيل : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين » (١) .

وجعل الذين كتبوا التوراة في المنفى الرب يتزل في عمود من سحاب ويصعد في عمود من سحاب ، فحدّدوا للرب مكانا ، ومن قبل جعلوه يمشى في الجنة ، بل جعلوه في بعض الأحيان لا يسمع نجواهم : « وكان الشعب كأنهم يشتكون شرا في أذني الرب » . بل إنهم جعلوا يعقوب (إسرائيل) يصارع الرب كما صار ع مردوخ الأرباب قبل أن ينصبّ عليهم ربا للأرباب ، وكأنما كان الرب خطيبا يخاطب كل شعب إسرائيل .

وما أكثر ما حمى غضب الرب ونزل في سحابة ليوبخ الذين حل عليهم غضبه : « وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها ، لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية ، فقالا : هل كلم الرب موسى وحده ؟ ألم يكلمنا نحن أيضا ؟ فسمع الرب ، وأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض .

فقال الرب حالا لموسى وهارون ومريم : اخرجوا أنتم الثلاثة إلى خيمة الاجتماع . فخرجوا هم الثلاثة . فنزل الرب في عمود سحاب ووقف في باب الخيمة ودعا هارون ومريم فخرجا كلاهما . فقال اسمعا كلامي . إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم أكلمه . أما عبدى موسى فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي . فما إلى فم وعيانا أتكلم معه لا بالألغاز . وشبهه الرب يعاين ، فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدى موسى .

(١) آل عمران ١٠٨

فحمى غضب الرب عليهما ومضى . فلما ارتفعت السحابة عن الخيمة
إذا مريم برضاء كالثلج... » .
والقرآن الكريم لا يؤيد دعوى أن الله كان يكلم موسى كما يكلم الصديق
وأنه كان يراه سبحانه وهو يكلمه . والقرآن يقول : « وما كان لبشر أن
يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء
إنه على حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما
الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك
لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض
ألا إلى الله تصير الأمور » (١) .

وقد يحتج بآية : « وكلم الله موسى تكليما » (٢) . فإن ذلك الكلام من
وراء حجاب والدليل على ذلك الآيات التى طلب فيها موسى أن يرى الله
جهرة : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن
تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل
جعلله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول
المؤمنين . قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما
آتيتك وكن من الشاكرين » (٣) . فما دامت الرؤية قد تعذرت فكيف كان
يكلم الله فما إلى فم وكيف رأى الله عيانا ؟ إن الله كلم موسى تكليما من وراء
حجاب . أما نزول الله فى السحاب وصعوده سبحانه وتعالى فى السحاب فهو
تصور قاصر لله ، فالله فى كل مكان ، فإذا تصورنا أنه يصعد ويهبط فقد جعلنا

(١) الشورى ٥١ — ٥٣

(٢) النساء ١٦٤ (٣) الأعراف ١٤٣ — ١٤٤

له مكانا وما قدرنا الله حق قدره .

وقد سخر القرآن الكريم من فكرة مجيء الله في ظلل من الغمام : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور » (١) .

وعاد الذين كتبوا التوراة في المنفى يؤكدون وعد الله بأن يعطى بنى إسرائيل أرض فلسطين وإن كان ما فعلوه مع الله حسب ما يقول كتاب التوراة الجديدة يستحق أن ينزل بهم أشد أنواع العذاب لا أن يعطيهم أرضا لا حق لهم فيها . ولكنها أهواء أبناء الذين حملهم بختنصر إلى أرض العراق بعد أن حرق التوراة التى أنزلها الله على موسى نورا وهدى لبنى إسرائيل . « ثم كلم الرب موسى قائلا : أرسل رجالا ليتجسسوا أرض كنعان التى أنا معطيها لبنى إسرائيل . رجلا واحدا لكل سبط من آبائه ترسلون . كل واحد رئيس فيهم . فأرسلهم موسى من بركة فاران حسب قول الرب . كلهم رجال هم رؤساء بنى إسرائيل .

فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم : اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا إلى الجبل وانظروا الأرض ما هى ، والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف ؟ قليل أم كثير ؟ وكيف هى الأرض التى هو ساكن فيها أجيدة أم رديئة . وما هى المدن التى هو ساكن فيها أسيجة أم حصون ؟ . وكيف هى الأرض أسيمة أم هزيلة ؟ أفيا شجر أم لا ؟ وتشددوا فخذوا من ثمر الأرض وأما الأيام فكانت أيام العنب .

أليس غريبا أن يأمر الرب موسى أن يرسل رجلا ليتجسسوا أرض كنعان

ليعرفوا إذا كانت أرضا طيبة مثمرة أو كانت أرضا بورا ؟ إن إبراهيم وذريته كانوا في حبرون وكانوا في أرض فلسطين قبل أن يهبط يعقوب وذريته مصر في عهد يوسف الصديق ، فإن كان الله لا يعلم — وحاشا لله أن لا يعلم — طبيعة أرض فلسطين ، فإن الآباء لا بد أن يكونوا قد أخبروا الأبناء بطبيعة الأرض التي مروا بها ، وإلا فيم كان وعد الله ولماذا يتהלل بنو إسرائيل بالفرح بذلك الوعد إن كانوا لا يعرفون إن كانت أرض المعاد جيدة أو رديئة ؟! إن هذه التوراة قد كتبت بعد موسى عليه السلام بخمسمائة سنة تقريبا بعد أن كون داود وسليمان ملك بنى إسرائيل ودمر بختنصر ذلك الملك وحمل اليهود أسرى إلى أرض السبي ، فراح أبناء الذين كانوا أسرى في العراق يعيدون كتابة التوراة ، فخرجوا ما قر في أذهانهم من ديانة موسى ومزجوها بأحلامهم وأساطير الشعوب .

وعاد الذين ذهبوا ليتجسسوا أرض كنعان إلى موسى وهارون وشيوخ بنى إسرائيل وهم يرتعبون فرقا من قوة خصومهم وأشاعوا روح الهزيمة في الشعب : « فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة ، وتذمر على موسى وهارون جميع بنى إسرائيل وقال لهما كل الجماعة : ليتنا متنا في أرض مصر أو ليتنا متنا في هذا القفر . ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف . تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة . أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر ؟ فقال بعضهم لبعض : نقيم رئيسا ونرجع إلى مصر .

فسقط موسى وهارون على وجهيهما أمام كل معشر جماعة بنى إسرائيل . ويشوع بن نون وكالب بن يَفْتَّة من الذين تجسسوا الأرض فعزقا ثيابهما . وكَلِّما كل جماعة بنى إسرائيل قائلين : الأرض التي مررنا فيها لتجسسها الأرض جيدة جدا جدا . إن سُرُّ بنا الرب يدخلنا إلى هذه الأرض ويعطينا إياها

أرضاً تفيض لبناً وعسلاً .. إنما لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا . قد زال عنهم ظلهم والرب معنا . لا تخافوهم . ولكن قال كل الجماعة أن يُرْجَمَا بالحجارة (موسى وهارون) ثم ظهر مجد الرب في خيمة الاجتماع لكل بني إسرائيل . وقال الرب لموسى : حتى متى يهيننى هذا الشعب ، وحتى متى لا يصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم ؟ إني أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعباً أكبر وأعظم منهم . فقال موسى للرب : فيسمع المصريون الذين أصعدت بقوتكم هذا الشعب من وسطهم ، ويقولون لسكان هذه الأرض الذين قد سمعوا أنك يا رب فى وسط هذا الشعب الذى أنت يا رب قد ظهرت لهم عينا لعين وسحابتك واقفة عليهم وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهاراً وعمود نار ليلاً . فإن قتلت هذا الشعب كرجل واحد يتكلم الشعوب الذين سمعوا بخبرك قائلين : لأن الرب لم يقدر أن يدخل هذا الشعب إلى الأرض التى حلف لهم قتلهم فى القفر . فالآن لتعظم قدرة سيدى كما تكلمت قائلًا : الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة ، ولكنه لا يرى بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع . اصفح عن ذنب هذا الشعب كعظمة نعمتك وكما غفرت لهذا الشعب من مصر إلى ههنا . فقال الرب : قد صفحت حسب قولك . ولكن حى أنا فتملاً كل الأرض من مجد الرب . إن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولى لن يروا الأرض التى خلفت لآبائهم . وجميع الذين أهانونى لا يرونها .

إن كان هذا القول صحيحاً ، أيستحق هذا الشعب وعد الله ؟! إنهم يرتجفون فرقا من لقاء عدوهم وما حبذ الحرب أحد منهم إلا يوشع بن نون (فتح مكة)

وكالب بن يفتة . أما الآخرون فقد اختاروا عبودية المصريين على القتال في سبيل دخولهم الأرض المقدسة ، ولو طأوعهم موسى عليه السلام لعادوا إلى فرعون يزرعون أراضيه صاغرين : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلا عليهما الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين »^(١) .

ثم يكلم الرب موسى عن الذبائح والنذور لعمل رائحة سرور للرب من البقر أو من الغنم . « ولما كان بنو إسرائيل في البرية وجدوا رجلا يحتطب حطباً يوم السبت فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطباً إلى موسى وهارون وكل الجماعة ، فوضعوه في المحرس لأنه لم يعلن ماذا يفعل به . فقال الرب لموسى : قتلا يقتل الرجل يرميه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة ، فأخرج كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات كما أمر الرب موسى » .

وعمل السيد المسيح في السبت وسخر من شريعة السبت ، فليس من العدل أن يقتل إنسان لأنه احتطب يوم السبت أو قام بعمل في ذلك اليوم .

وجاء في القرآن الكريم : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »^(١) . « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبثون لا تأتيتهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون »^(٢) .

« ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، فما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا »^(٣) .

وعلى الرغم من كل ما فعله موسى عليه السلام لبنى إسرائيل فإنهم ثاروا عليه وعلى هارون في البرية وقد غضب الله على الثائرين فأنزل عليهم عذابه ، فانشقت الأرض وبلعت الثائرين ولم يرض ذلك بنى إسرائيل : « فتذمر كل جماعة بنى إسرائيل في الغد على موسى وهارون قائلين : أنتما قد قتلتما شعب الرب . ولما اجتمعت الجماعة على موسى وهارون انصرفا إلى خيمة الاجتماع وإذا هي قد غطتها السحابة وتراءى مجد الرب . فجاء موسى وهارون إلى قدام خيمة الاجتماع ، فكلّم الرب موسى قائلا : اطلعا من وسط هذه الجماعة فأني أفنيهم بلحظة ، فخرا على وجهيهما ، ثم قال موسى لهارون : خذ المذبة واجعل فيها نارا من على المذبح وضع بخورا واذهب بها مسرعا إلى الجماعة وكفر عنهم لأن السخط قد خرج من قبل الرب قد ابتداء الوباء . فأخذ هارون كما قال موسى وركض إلى وسط الجماعة وإذا الوباء قد ابتداء في الشعب ،

(١) النحل ١٢٤

(٢) الأعراف ١٦٣

(٣) النساء ١٥٤ — ١٥٥

فوضع البخور وكفر عن الشعب ووقف بين الموتى والأحياء فامتنع الوباء .
فكان الذين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفا وسبع مائة عدا الذين ماتوا بسبب
قذرح (الذى قاد الثورة على موسى وهارون وخسفت به وبمن معه
الأرض) ثم رجع هارون إلى موسى إلى باب خيمة الاجتماع والوباء قد امتنع .
إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى جعلوا الرب سريع الغضب سريع الحساب
يهم فى كل مرة بالبطش ببنى إسرائيل . وجعلوا موسى هو الرحيم الذى ينجى
الرب ليرفع مقتته وغضبه عن شعبه ، وإن موسى عليه السلام ينجح فى كل مرة
فى أن يرضى الرب ويجلب رضاه على الشعب الفاسق الذى صد عن سبيل الله
كثيرا .

« سبحان رب السموات والأرض ورب العرش عما يصفون » (١) .
« يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل
شئ قدير » (٢) . « إن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، هو
الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » (٣) .
« يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته
مشفقون » (٤) . « سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز
الحكيم » (٥) . « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن
الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز
الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له

(١) الزخرف ٨٢ — ٨٣

(٢) التغابن ١

(٣) آل عمران ٥ — ٦

(٤) الأنبياء ٢٨ (٥) الحشر ١

الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» (١) .
 « إن الله بالناس لرءوف رحيم » (٢) . « وهو الغفور الودود » (٣) . و « وما
 الله يريد ظلما للعالمين » (٤) . « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس
 لا يشكرون » (٥) . « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ
 ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا
 رحيمًا » (٦) . « هو أهل التقوى وأهل المغفرة » (٧) . واستغفروا الله إن الله
 غفور رحيم » (٨) . « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله
 غفورا رحيما » (٩) .

إن فكرة ندم إلالة وبطشه بعباده قد أخذت عن أساطير المصريين
 والبابليين ، فرع قد أمر حتحور بأن تنزل إلى الأرض وأن تنكل بالذين كفروا
 برع ، فنزلت حتحور وأعملت فى الكفرة القتل ولكن أعمال التقتيل التى
 قامت بها حتحور بين الناس كانت من الفظاعة بحيث ندم الإله على ما أصدره
 من أمر ، واعتزم أن ينقذ على الأقل جانبا من الناس ..
 ونزول الآلهة إلى الأرض تفيض بها الأساطير البابلية ، وإن عشتار لم
 تكتف بالنزول إلى الأرض بل اضطجعت مع بستانى . فأساطير الفراعنة
 وأساطير البابليين لعبت دورا كبيرا فى توراة المنفى فلم يستطع الذين كتبوا
 التوراة بعد أن طال عليهم الأمد أن يتخلصوا من الثقافة البابلية والفرعونية .

-
- | | |
|----------------------|------------------|
| (١) الممتحنة ٢٢ — ٢٤ | (٢) الحج ٦٥ |
| (٣) البروج ١٤ | (٤) آل عمران ١٠٨ |
| (٥) البقرة ٢٤٣ | (٦) النساء ٦٤ |
| (٧) المدثر ٥٦ | (٨) المزمل ٢٠ |
| (٩) النساء ١١٠ . | |

فامتزجت أساطير الشعوب بالتوراة التي نزلت على موسى نورا وهدى لبني إسرائيل . فرأينا الله سبحانه وتعالى عما يصفون نزل في سحابة وهو ثائر غاضب ثم نشر الوباء ليفنى المكذبين ، ولولا وقوف هارون بين الأحياء والأموات لقضى الرب على بني إسرائيل ، أكان انحسار الوباء بإرادة الرب أم كان بفعل البخور ؟!

ويعود الذين كتبوا التوراة في المنفى يؤكّدون أن الله أعطى القرايين لهارون وبنيه فريضة دهرية ولم يذكر الفقراء والمساكين : « وقال الرب لهارون : وهأنذا قد أعطيتك حراسة رفائعي مع جميع أقداس بني إسرائيل لك أعطيتها حق المسحة ولبنيك فريضة دهرية . هذا يكون لك من قدس الأقداس من النار كل قرايينهم مع كل تقدماتهم وكل ذبائح خطاياهم وكل ذبائح آثامهم التي يرذنها لي . قدس أقداس هي لك ولبنيك .. » .

ستكون الذبائح كثيرة جدا ، أكثر من حاجة الكهنة من نسل هارون . لذلك جعلوا الرب يقبل استعاضة بعض هذه القرايين بالفضة : « ... كل فاتح رحم من كل جسد يقدمونه للرب من الناس ومن البهائم يكون لك . غير أنك تقبل فداء بكر الإنسان وبكرة البهيمة النجسة تقبل فداءه . وفداؤه من ابن شهر قبله حسب تقديمك فضة خمسة شواقل على شاكل القدس .. » . وليس هناك عمل يقصد به وجه الله بل لكل عمل أجر في الدنيا ، فما ذكرت الآخرة مرة واحدة في توراة المنفى : « وأما بنو لاوى فإنني قد أعطيتهم كل عشر في إسرائيل ميراثا عوض خدمتهم التي يخدمونها خدمة خيمة الاجتماع » . فالعشور كانت لبني لاوى لقاء خدمة بيت الله وما كانت تدفع إلى بيت المال لينفق منها على مصالح بني إسرائيل ، بل صرح الرب بأن تكون لقمة سائغة لبيت هارون .

ويرتجف الذين كتبوا التوراة من الموت ويشرعون للميت شرائع قاسية ما أنزل الله بها من سلطان : « من مس ميتا ميتة إنسان ما يكون نجسا سبعة أيام ، يتطهر به في اليوم الثالث وفي اليوم السابع يكون طاهرا ، وإن لم يتطهر في اليوم الثالث ففي اليوم السابع لا يكون طاهرا . كل من مس ميتا ميتة إنسان قد مات ولم يتطهر بنجس مسكن الرب ، فتقطع تلك النفس من إسرائيل . لأن ماء النجاسة لم يرش عليها تكون نجسة ، نجاستها لم تزل فيها .

هذه هي الشريعة ، إذا مات إنسان في خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان في الخيمة يكون نجسا سبعة أيام . وكل إناء مفتوح ليس عليه سواد بعصاة فإنه نجس ، وكل من مس على وجه الصحراء قتيلًا بالسيف أو ميتا أو عظم إنسان أو قبرا يكون نجسا سبعة أيام . فيأخذون للنجس من غبار حريق ذبيحة الخطيئة ويجعل عليه ماء حيا في إناء . ويأخذ رجل طاهر زوفا ويغمسها في الماء وينضح على الخيمة وعلى جميع الأمتعة وعلى الأنفس الذين كانوا هناك وعلى الذى مس العظم أو القتيل أو الميت أو القبر ينضح الطاهر على النجس في اليوم الثالث واليوم السابع . ويطهره في اليوم السابع فيغسل ثيابه ويرحض بماء فيكون طاهرا في المساء . وأما الإنسان الذى يتنجس ولا يتطهر فتباد تلك النفس من بين الجماعة لأنه نجس مقدس الرب . ماء النجاسة لم يرش عليه . إنه نجس . فتكون لهم فريضة دهرية . والذى رش ماء النجاسة يغسل ثيابه والذى مس ماء النجاسة يكون نجسا إلى المساء ، وكل ما مسه النجس يتنجس والنفس التى تمس تكون نجسة إلى المساء .

ويستمر بنو إسرائيل في تدميرهم ويموت هارون بعد أن ماتت أخته مريم . « وتكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين : لماذا أصعدتانا من مصر لنموت في البرية لأنه لا خبز ولا ماء وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف ، فأرسل

الرب على الشعب الحيات المحرقة فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل . فأتى الشعب إلى موسى وقالوا : قد أخطأنا إذ تكلمنا على الرب وعليك فصل إلى الرب ليرفع عنا الحيات . فصلى موسى لأجل الشعب ، فقال الرب لموسى اصنع لك حية محرقة وضعها على راية ، فكل من لدغ ونظر إليها يمينا ، فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية فكان متى لدغت حية إنسانا ونظر إلى الحية النحاس يمينا .

وتسرد إصحاحات العدد خروج بلعام لمباركة إسرائيل ، وسرعان ما يزنى الشعب المختار مع بنات مؤاب ثم لا يلبثون أن يعبدوا آلهة مؤاب فعبدوا بعلا وتركوا عبادة الله ، ويقول الذين كتبوا التوراة في المنفى إن ذلك قد حدث وموسى كلّم الله بينهم ، فقال الرب لموسى : خذ جميع رءوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل . فقال موسى لقضاة إسرائيل اقتلوا كل واحد قدم المتعلقين ببعل فغور .

وإذا رجع من بنى إسرائيل جاء وقدم إلى إخوته المديانية أمام عيني موسى ، وأعين كل جماعة بنى إسرائيل وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع ، فلما رأى ذلك فينحاس بن العازار هارون الكاهن ، قام من وسط الجماعة وأخذ رمحا بيده ودخل وراء الرجل الإسرائيلي إلى القبة وطعن كليهما الرجل الإسرائيلي والمرأة في بطنها ، فامتنع الوباء عن بنى إسرائيل ، وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفا .

فكلّم الرب موسى قائلا : فينحاس بن العازار بن هارون الكاهن قد رد سخطى عن بنى إسرائيل بكونه غار غيرتى في وسطهم حتى لم أفن بنى إسرائيل بغيرتى ، لذلك قل : هاأنذا أعطيه ميثاقى ، ميثاق السلام ، فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوت أبدي ، لأجل أنه غار لله وكفر عن بنى إسرائيل ، وكان اسم

الرجل الإسرائيلي المقتول الذي قتل مع المديانية زمرى بن سالوئيس بيت أب من الشمعونيين ، واسم المرأة المديانية المقتولة كزى بنت صور ، هو رئيس قبائل بيت أب في مديان .

ألم يعط هارون من قبل ميثاق كهنوت أبدى له ولنسله ؟ أوليس فينحاس ابن إلعازار من نسل هارون ؟ فما الجديد ؟ لعل الذين كتبوا التوراة في المنفى خشوا أن يكون الناس قد نسوا وعد الله الأول قرأوا أن يجددوه .

ويعود الذين كتبوا التوراة في المنفى إلى القرابين والنذور فهى لب القصيد ، ثم ينتقل بنو إسرائيل من حرب إلى حرب يقتلون كل الذكور ويسبون النساء والأطفال وينهبون البهائم ويحرقون المدن . ويقول الذين كتبوا التوراة إن موسى عليه السلام قد غضب على وكلاء الجيش ورؤساء الألوفا لأنهم أبقوا على النساء : « وقال لهم موسى : هل أبقيتم كل أنثى حية ؟ إن هؤلاء كن لبنى إسرائيل حسب كلام بلعام سبب خيانة للرب فى أمر نفور ، فكان الوباء فى جماعة الرب ، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقلوها . ولكن جميع الأطفال من النساء اللواتى لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات . وأما أنتم فانزلوا خارج المحلة سبعة أيام . وتطهروا كل من قتل نفسا وكل من مس قتيلا فى اليوم الثالث . وفى السابع أنتم وسبيكم . وكل ثوب وكل متاع من جلد وكل مصنوع من شعر معز وكل متاع من خشب تطهرونه » .

وتكلم الإصحاح الحادى والثلاثون من سفر العدد عن الأنفال وتقسيم الغنائم ، وينتهى سفر العدد بأن يجعل الذين كتبوا التوراة الرب يحدد حدود الأرض التى وعدهم بها تحديدا كأنه مهندس مساحة .

ويبدأ سفر التثنية بإعادة تحديد الأرض التى يتطلع إليها يهود فى المنفى

فيجعلون الرب يحددها لموسى تحديدا : « الرب إلهنا كلمنا في حوريب قائلا : كفاكم قعود في هذا الجبل . تحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من العربة والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض الكنعاني ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات . انظر قد جعلت أمامكم الأرض . ادخلوا وتملكوا الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم . وكلمتكم في ذلك الوقت قائلا : لا أقدر وحدي أن أحملكم . الرب إلهكم قد كثرتهم . وهو ذا أنتم اليوم كنجوم السماء في الكثرة . الرب إله آبائكم يريد عليكم مثلكم ألف مرة ، ويارككم كما كلمكم . كيف أحمل وحدي ثقلكم وحملكم وخصومتكم ؟ هاتوا من أسباطكم رجالا حكماء وعقلاء ومعروفين فأجعلهم رؤوسكم . فأجبتوني وقلتم حسن الأمر الذي تكلمت به أن يعمل . فأخذت رؤوس أسباطكم رجالا حكماء ومعروفين وجعلتهم رؤوسا عليكم ، رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين .

جعلوا الرب عاجزا وحده عن أن يحمل أثقال بني إسرائيل وخصوماتهم ، إنه يسألهم أن يعينوه ، ويذهب الرب في هذا الإصحاح إلى التوسل إليهم أن يصعدوا لمحاربة أهل الأرض التي وعدهم بها ، ولكنهم يحجمون ويقولون : « الرب بسبب بغضه لنا قد أخرجنا من أرض ليدفعنا إلى أيدي الأموريين لكي يهلكنا . إلى أين نحن صاعدون ؟ قد أذاب إخوتنا قلوبنا قائلين : شعب أعظم وأطول منا ، مدن عظيمة محصنة إلى السماء . وأيضا قد رأينا بني عناق هناك ، فقلت لكم لا ترهبوا ولا تخافوا الرب إلهكم السائر أمامكم هو يحارب عنكم ، حسب كل ما فعل معكم في مصر أمام أعينكم ، وفي البرية حيث رأيت كيف حملك الرب إلهك كما يحمل الإنسان ابنه في الطريق التي

سلكتموها حتى جئتم إلى هذا المكان ، ولكن هذا الأمر لستم واثقين بالرب إلهكم . السائر أمامكم في الطريق ليلتمس لكم مكانا لنزولكم في نار ليلا ليرىكم الطريق تسرون فيها وفي سحاب نهارا . وسمع الرب صوت كلامكم فسخط وأقسم قائلاً : لن يرى إنسان من هؤلاء الناس من هذا الجيل الشرير الأرض الجيدة التي أقسمت أن أعطيها لأبائكم .. » .

كلام يليق بالذين كانوا في الأسر في بابل ، إنهم مزعزعو العقيدة ثقتهم بالرب مخللة . أما أن يكون ذلك الكلام وحياً أنزل على موسى فأمر لا يمكن لعقل يعرف الله حق معرفته أن يصدق . وهل الشعب الذي يرى الله يسير بينهم في الليل وفي النهار في حاجة إلى من يحضهم على إطاعة الله والامثال إلى أوامره ما دام الله فيهم ؟ إنها أقوال تسيء إلى الشعب الذي يدعى أن الله اصطفاه . فمن يستطيع أن يصدق أن هذه الأقوال والأفعال قد صدرت من شعب يزعم أنه شعب الله المختار ؟ وإن كانت هذه الأقوال والأفعال قد صدرت حقاً عن الذين فضلهم الله على العالمين فماذا تنتظر من شعوب لم يكن لهم شرف الاصطفاء ؟

إن هذه المزاعم من وحي قلوب طبع عليها الأسر وذهب بنورها ، فجاءت وعوداً متضاربة قد خلت من ذكر ما أعد للمتقين في الدار الآخرة . ويا ليتها سكنت عن اتهام الله جل وعز بالعجز عن حمل متاعب بنى إسرائيل وخصوماتهم إن الذين كتبوا التوراة في المنفى لم يكتفوا بالإساءة إلى الرسل والأنبياء بل أساءوا إلى الرب فجعلوه غيورا مرة ، ونادوا على ما فعل في حق بنى إسرائيل مرة أخرى ، وعاجزا عن حمل بنى إسرائيل وخصوماتهم مرة ثالثة ، وإن كان على الدوام متعطشا إلى الدماء والأضحية والفطير .

إن تقديم الفطير للإله عادة مصرية قديمة فما يخلو قربان لإله من آلهة قدماء

المصريين من خبز وكعك وفطير ، وقد أخذ بنو إسرائيل الذين أعادوا كتابة التوراة في المنفى تلك العادة بل ومراسم تقديم القرابين وجعل الكهانة في هارون وبنيه من اللاهوت المصرى القديم . فالكاهن المصرى القديم كان يتيه فخرا بأنه كاهن ابن كاهن ويذكر ذلك لإلهه ، كأن هذه الحقيقة تغيب عن الإله : « ... أنا كاهن وابن كاهن هذا المعبد .. أنا كاهن قد حضرت لأعمل ما يجب على المرء عمله ، ولم أحضر لأعمل ما لا ينبغي عمله » .

وأخذ بنو إسرائيل عادة حرق البخور للإله من قدماء المصريين ، فقد كانت البعثات في عهد حتشبسوت تنطلق إلى بلاد بونت للعودة بالبخور للمعابد المصرية القديمة ، وكان الكاهن يقوم بحرق البخور للإله ، وقد انتقلت هذه العادة إلى بني هارون الكاهن فقد كانوا يحرقون البخور للإله يهوه ، ومن عجب أن اسم الإله يهوه لا يزال يستعمل في مصر العليا والسفلى : « يا ناس يا هوه » .

إن موسى أطلق اسم « يهوه » على إلهه في أرض سيناء . ولم يقل الذين كتبوا التوراة في المنفى من أين جاءت هذه التسمية ، أهى كلمة مصرية قديمة أخذها بنو إسرائيل من مصر قبل الخروج أم هى كلمة عبرية ١٩

ويقول الذين كتبوا التوراة إن موسى عليه السلام مر بأرض العيص (عيسو) ولم يعلن عليهم الحرب لأن الله قد أعطى جبل سعيير ميراثا لبني العيص . وكذلك مر بأرض مؤاب دون حرب لأن الرب قد أورث تلك الأرض لبني لوط . إنهم بذلك يودون أن يقرروا مبدأ الميراث ليكون لهم حق في أرض فلسطين . والقرآن الكريم يناهض ذلك المبدأ ، فالله يقول في كتابه العزيز : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » (١) . ثم يخصص الميراث

والوارثين : « إن الأرض يرثها عبادى الصالحون » (١) . والله يطبع على قلوب الذين يرثون الأرض إذا ما تنكبوا سبل الرشاد وساروا فى طريق الفساد : « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » (٢) . فميراث قوم لأرض ليس ميراثا أبديا : « كذلك وأورثناها قوما آخرين » (٣) . ثم إن الأرض لله وسيرث الله الأرض ومن عليها : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون » (٤) . « ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير » (٥) .

ويقول الذين كتبوا التوراة إن الله قال لموسى : « أنت مار اليوم بتخم مؤاب بعار . فمتى قربت إلى تجاه بنى عمون لا تعادهم ولا تهجم عليهم ، لأنى لا أعطيك من أرض بنى عمون ميراثا ، لأنى لبنى لوط قد أعطيتها ميراثا ... » . أكان بنو لوط من نسل بنتيه أم من زوجات آخر ؟ إنهم كانوا من نسل بنتيه اللتين أسكرتاه واضطجعتا معه . فلماذا لم يغضب الرب من الفعلة البشعة ؟ وإذا كان قد سكت وأغمض عينيه عن تلك البشاعة أيكافىء النسل النجس بأن يورثه أرض عمان ؟ إن دل ذلك القول على شىء فإنما يدل على مدى الانهيار الخلقى الذى كان فيه الذين كتبوا التوراة بأيديهم فى أرض المنفى ، وقالوا هذا من عند الله وما هو من عند الله ، بل من عند أناس كانوا غارقين فى

(١) الأنبياء ١٠٥

(٢) الأعراف ١٠٠

(٣) الدخان ٢٨

(٤) مريم ٤٠

(٥) آل عمران ١٨٠

الدنس حتى الآذان !

ويحارب موسى عليه السلام وبنو إسرائيل الملوك الذين يمرون بأرضهم في طريقهم إلى أرض فلسطين ، وقد انقضت أربعون سنة وهى المدة التى قضى ربهم أن يمضوها فى التيه . فقام موسى عليه السلام يتهل إلى ربه وقد كان ابتهاً لا يخدم قضية اليهود الذين كانوا فى المنفى : « وتضرعت إلى الرب فى ذلك الوقت قائلاً : يا سيد الرب أنت قد ابتدأت ترى عبدك عظمتك ويدك الشديدة ، فإنه أى إله فى السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وكجبروتك . دعنى أعبر وأرى الأرض الجيدة التى فى عبر الأردن هذا الجبل الجيد ولبنان . لكن الرب غضب على بسبيكم ولم يسمع لى . بل قال لى الرب كفاك . لا تعد كلمتى أيضاً فى هذا الأمر . اصعد إلى رأس الفسجة وارفع عينيك إلى الغرب والشمال والجنوب والشرق وانظر بعينيك ، لكن لا تعبر هذه الأرض . وأما يشوع فأوصه وشدده وشجعه لأنه هو يعبر أمام هذا الشعب وهو يقسم لهم الأرض التى تراها .. » .

هل يمكن أن يصدق إنسان يعرف حقيقة الرسالة أن موسى عليه السلام يقوم بعد أربعين سنة فى التيه وبعد ما كان من آيات الله فى أرض مصر : أنت قد ابتدأت ترى عبدك عظمتك . ابتدأ ؟! يا لضيعة آيات الله البينات فى أرض الفراعنة وفى التيه وفى سيناء .. أبعد أن يزعم الذين كتبوا التوراة أن الله كان يسير كشعلة من نيران أمام بنى إسرائيل لينير لهم ظلمات الليل قبل أن ينير لهم ظلمات القلوب ، وأنه كان ينزل فى السحاب ليحدثهم فى خيمة الاجتماع ، وبعد إنزال المن والسلوى من السماء ، يقولون إن موسى عليه السلام قال للرب : أنت قد ابتدأت ترى عبدك عظمتك ؟! وهل يُعقل أن موسى عليه السلام الذى جاء ليدعو قومه لعبادة الله وحده بعد أن زاغوا عن التوحيد

وعبدوا العجل كما عبده المصريون يشرك بالله ويعترف بأن في السماء آلهة أخرى غير الله : « فإنه أى إله في السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وجبروتك ؟ » .

إن الذين كتبوا التوراة في المنفى كانوا يروون تاريخاً قد انقضى فوضعوا على لسان موسى عليه السلام ما يخدم قضيتهم وجعلوه لا يهتم إلا بالأرض التي يطعمون فيها ، وكانوا قد تأثروا بمعتقدات بابل فجعلوا موسى يبتهل إلى ربه كما يبتهل عباد مردوخ إلى مردوخ ، فلم يسأل موسى ربه في التوراة التي وضعها أحبار اليهود إلا منافع أرضية ، ولنر كيف يسأل موسى ربه في القرآن : « قال رب اشرح لي صدري . ويسر لي أمري . واحلل عقدة من لساني . يفقهوا قولي . واجعل لي وزيرا من أهلي . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه في أمري . كى نسبحك كثيرا . ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا »^(١) . ونلقى أسماعنا إلى قول السحرة في القرآن المجيد : « فالتقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى . قال آمنتُم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبير كم الذى علمكم السحر فلا تقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أننا أشد عذابا وأبقى . قالوا لن نؤثرَكَ على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تركنى »^(٢) .

آيات الله بينات منذ كان موسى عليه السلام في مصر ، وإيمان الناس ليغفر
رهبهم خطاياهم وليدخلهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها .
ولم يكن الإيمان صفقة تجارية تعقد بين الرب وعباده أن يؤمنوا به لقاء إعطائهم
الأرض وسعادة الدنيا . إيمان مقابل ثمن يقبض في الدنيا . أما ما وعد الله المتقين
فشئ غير ملموس لا يدخل في حساب الذين أعادوا كتابة التوراة في المنفى .
مات موسى عليه السلام قبل أن يدخل فلسطين مع الداخلين ، وقد قاد
يوشع فتى موسى جيوش بني إسرائيل حتى عبروا نهر الأردن ، فجعل الذين
كتبوا التوراة بأيديهم ذلك الذي حدث فعلا قبل إعادة كتابة التوراة أمرا
إلهيا : « وغضب الرب على بسببكم وأقسم أنى لا أعبر الأردن ولا أدخل
الأرض الجيدة التى الرب إلهك يعطيك نصيبا . فأموت أنا فى هذه الأرض .
لا أعبر الأردن . وأما أنتم فتعبرون وتملكون تلك الأرض الجيدة . احترزوا
من أن تنسوا عهد الرب إلهكم الذى قطعه معكم وتصنعوا لأنفسكم تمثالا
منحوتا صورة كل ما هناك عنه الرب إلهك ، لأن الرب الهك هو نار آكلة .
إله غيور » .

ويسرد الذين كتبوا التوراة ما حدث لبني إسرائيل واليهود حتى حملوا إلى
بابل أرض السبي على أنه وعد من الله ، ثم لا يتركون اليهود فى ظلام بل
يدبرون لرفع الروح المعنوية لشعبهم فيجعلون الله لا يتخلى عن شعبه . ولأول
مرة نجد أن الرب قد وصف بالرحمة لأن الأمر يتعلق باليهود : « إذا ولدت
أولادا وأولاد أولاد وأطلت الزمان فى الأرض وفسدت وصنعت تمثالا منحوتا
صورة شئ ما وفعلت الشر فى عينى الرب إلهكم لإغاظته . أشهد عليكم اليوم
السما والأرض أنكم تبيدون سريعا عن الأرض التى أنتم عابرون الأردن إليها
تتملكوها . لاتطيلون الأيام عليها بل تهلكون لا محالة ويبددكم الرب فى

الشعوب فتبقون عددا قليلا بين الأمم التى يسوقكم الرب إليها . وتصنعون هناك آلهة صنعت أيدي الناس من خشب وحجر مما لا يبصر ولا يسمع ولا يأكل ولا يشم ، ثم إن طلبت من هناك الرب إلهك تجده إذا التمسته بكل قلبك وبكل نفسك . عندما ضيق عليك وأصابتك كل هذه الأمور فى آخر الأيام ترجع إلى الرب إلهك وتسمع لقوله ، لأن الرب إلهك إله رحيم لا يتركك ولا يهلكك ولا ينسى عهد آبائك الذى أقسم لهم عليه .

أحداث وقعت قبل عصر التدوين ودعوة إلى العودة إلى الله لاستنهاض الهمم وتذكير بوعد الله للآباء . إنها عبارات لا يمكن أن تكون قد أوحيت إلى موسى عليه السلام إنما هى تصوير للحالة النفسية التى كان فيها عزيز ودانيال والذين شاركوا فى إعادة كتابة التوراة بعد أن أحرق كل نسخها نبوخذ نصر (بختنصر) . إن اليهود فى المنفى عبدوا مردوخ وشمس وعشتار وسجدوا للأصنام ، فأراد عزيز ودانيال وأحبار اليهود أن يثيروا فيهم الحماس فذكروهم بإسرائيل ورب إسرائيل ، وأسرفوا فى الوعود على لسان الرب لعل النخوة الدينية تفعل فيهم ما عجزت عنه الخطب والنصائح والخير الذى به يوعدون . إنهم فى كل إصحاح من إصحاحات الأسفار الخمسة لا ينسون الوعد ، وما من مناسبة تمر دون أن يجعلوا الله يكرر ذلك الوعد وإن موسى عليه السلام يقول فى زعمهم : « ودعا موسى جميع إسرائيل وقال لهم : اسمعى يا إسرائيل الفرائض والأحكام التى أتكلّم بها فى مسامعكم اليوم وتعلموها واحترزوا لتعملوها . الرب إلهنا قطع معنا عهدا فى حوريب . ليس مع آبائنا قطع الرب هذا العهد . بل معنا نحن الذين هنا اليوم جميعا أحياء : وجهها لوجه تكلم الرب معنا فى الجبل من وسط النار . أنا كنت واقفا بين الرب وبينكم فى ذلك الوقت لكى أخبركم بكلام الرب . لأنكم خفتم من أجل النار ولم (فتعبرمكة)

تصعدوا إلى الجبل . فقال : أنا هو الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية .. » .

فالوعد كان لإسرائيل وقد جددته الله لموسى وقومه فى سيناء . وإن الذين كتبوا التوراة بأيديهم لا يفتأون يذكرون ذلك الوعد بمناسبة وبدون مناسبة حتى يصبح حقيقة فى أذهان اليهود الذين كانوا يرتجفون فرقا كلما تصوروا أنهم قد يضطرون للحرب للعودة إلى الأرض التى حملهم منها بختنصر يوم حملهم إلى العراق أذلة صاغرين .

وتستمر إصحاحات سفر التثنية تتحدث عما أوصى به موسى شعبه عندما يدخلون الأرض التى حلف الرب للآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب بأن تكون لنسلهم . وإن قارئ الإصحاحات السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ليضيق من كثرة ترديد الوعد . فالذين كتبوا التوراة بأيديهم بالغوا مبالغة تضيق بها الصدور من زعمهم فى كل إصحاح أن الرب لا هم له فى ملكه إلا ذلك الوعد الذى لا يبرره منطق الأحداث ولا تصرفات بنى إسرائيل ، فإنهم أعرضوا عن وصايا الرب وعصوه فى سيناء وعصوه لما أمرهم بأن يقاتلوا أعداءهم : « وحين أرسلكم الرب من قادش برنيع قائلا : اصعدوا امتلكوا الأرض التى أعطيتكم عصيتم قول الرب إلهكم ولم تصدقوه ولم تسمعوا لقوله . قد كنتم تعصون الرب منذ يوم عرفتكم » .

فإذا كان بنو إسرائيل — فى زعم الذين كتبوا التوراة — يعصون الرب منذ عرفهم موسى فهل يستحقون ذلك الوعد الذى لا يكاد يخلو منه إصحاح ؟ إنها دعوة سياسية قبل أن تكون دعوة دينية ، وقد أفلحوا فى أن يستغلوا الدين لخدمة قضية الشعب الذى كان مشردا بين الشعوب .

وإن الذين كتبوا التوراة فى بابل جعلوا موسى عليه السلام يتحدث كما

يتحدث كهنة بابل ، فصلاته لله إنما ليطيل أيامه في الأرض كما كانت صلاة البابليين ، وتسبيحه وتسبيح بنى إسرائيل إنما ليطرد الرب الشعوب من أمامهم ليرثوا أرضهم ولا شيء بعد ذلك . إن موسى التوراة يقول : « فضعوا كلماتي هذه على قلوبكم ونفوسكم واربطوها علامة على أيديكم ولتكن عصائب بين عيونكم . وعلموها أولادكم متكلمين بها حين تجلسون في بيوتكم وحين تمشون في الطريق وحين تنامون وحين تقومون . واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك . لكي تكثر أيامك وأيام أولادك على الأرض التي أقسم الرب لآبائك أن يعطيهم إياها كأيام السماء ، ولأنه إذا حفظتم جميع هذه الوصايا التي أنا أوصيكم بها لتعلموها ، لتحبوا الرب إلهكم وتسلكوا في جميع طرقه وتلتصقون به ، يطرد الرب جميع هؤلاء الشعوب من أمامكم فترثون شعوبا أكبر وأعظم منكم ، كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم . من البرية ولبنان . من النهر نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم . لا يقف إنسان في وجهكم . الرب إلهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التي تدوسونها كما كلمكم » .

إنها الأرض ، كل همهم أن يطرد الرب الشعوب من أمامهم ليرثوها ، أما طاعة الرب ليرثوا جنات عرضها السماوات والأرض فما خطرت على قلب الذين أعادوا كتابة التوراة في المنفى ، إنهم كانوا في جحيم أرضى فكانت أحلامهم تنحصر في فردوس أرضى ، وفي إله يطرد لهم الشعوب ويحمل عنهم قسوة الحرب ويقدم لهم الأرض هدية من إله يتהלل بالفرح لأنهم يعبدونه وهو غافل لا يدري أن عبادته إن هي إلا رشوة ليمنحهم كل مكان تدوس بطون أقدامهم .

ويذكر موسى عليه السلام وصاياه ولا ينسى الذين كتبوا التوراة أن يجعلوه

يعيد ذكر الذبائح ، وفي الإصحاح الرابع عشر يضعون على لسانه أن الله جعلهم شعباً مختاراً : « .. وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » .

وتعود الإصحاحات لتشريع بيع العبراني للبراني وما يقدم من الأنعام والغنم للرب . والفصح وكيف يصنع وعيد المظال وحدد الشرع مدته بسبعة أيام احتفالاً بالحصاد . وقد أخذ هذا العيد عن أعياد النيروز فقد أعيدت كتابة التوراة أيام أن كانت العراق في حكم فارس في عهد الساسانيين . وحدد الشرع « ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره في عيد الفطير وعيد الأسابيع وعيد المظال . ولا يحضروا أمام الرب فارغين . كل واحد حسبما تعطى يده كبركة الرب الذي أعطاك » . أليست هذه وصية كهان ينتظرون ما في أيدي الناس : « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد »^(١) . « وربك الغني ذو الرحمة »^(٢) . « إن الله لغني عن العالمين »^(٣) . « لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني الحميد »^(٤) . ولا عجب أن قال اليهود في أيام محمد — ﷺ : « إن الله فقير ونحن أغنياء »^(٥) . ما دام كهان التوراة قد خدعهم بتحذيرهم من الوقوف بين يدي الرب وأيديهم فارغة ، كأنما الرب في حاجة إلى لحوم الأضاحي والحنطة والفطير !

ويوصي الرب موسى عليه السلام — حسب أقوال الذين كتبوا التوراة بأيديهم — بأن يجعل ثلاث مدن في وسط الأرض التي وعده الله بها حراماً

(١) فاطر ١٥ (٢) الأنعام ١٣٣

(٣) العنكبوت ٦ (٤) لقمان ٢٦ .

(٥) آل عمران ١٨١ .

يأمن فيها من قتل آخر خطأ ، ويشرع له في الشهادة أن شاهدا واحدا لا يكفي لإثبات ذنب أو خطيئة فلا بد من شاهدين أو ثلاثة .

ويوصي رب إسرائيل موسى عليه السلام — حسب مزاعم الذين أعادوا كتابة التوراة في المنفى — وصية تقشعر منها أبدان الذين يعرفون الله ، فإنه يوصيه إذا ما حارب شعبا وطلب ذلك الشعب الصلح فإن على بنى إسرائيل استعباد ذلك الشعب ، أما إذا أتى الشعب الصلح وكان النصر حليف اليهود فإن رب إسرائيل يأمر بضرب رقاب جميع الذكور واستحياء النساء والأطفال وأخذهم موالى وعبيدا . وإنه لحكم لا يمكن أن يصدر عن رب الناس إله الناس الرحمن الرحيم ، ولكنه حلم الذين ذاقوا مرارة ذل الأسر . إنهم يشتهون أن ينفسوا عن أحقاد قلوبهم فوضعوا على لسان الرب أقوالا لا تصدر عن قائد جيش في قلبه ذرة من رحمة . فما بالك بإله رحيم وسعت رحمته كل شيء ، برغم أنف كهان بنى إسرائيل الذين أنطقوه بكراهية أبشع من الصديد ؟

« حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما .. » .

قول يقطر مرارة لا يمكن أن يكون وحى إله حكيم ، إن الله يقول في محكم كتابه : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع

العليم » . « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .
 ويزعم الذين كتبوا التوراة بأيديهم أن الرب نهى موسى عن أشياء لا تقدم ولا تؤخر في حياة البشرية : « إذا اتفق قدامك عش طائر في الطريق في شجرة ما أو على الأرض فيه فراخ أو بيض والأم حاضنة الفراخ أو البيض فلا تأخذ الأم مع الأولاد . أطلق الأم وخذ لنفسك الأولاد لكي يكون لك خير وتطيل الأيام » . « لا تزرع حقلك صنفين .. » . « لا تحرث على ثور وحمار معا . لا تلبس ثوبا مخططا صوفا وكتانا معا » .

ثم يوضح رب إسرائيل — على حسب مزاعم الذين كتبوا التوراة — ما يفعله شيوخ إسرائيل فيمن يدعى أن الفتاة التي دخل بها لم تكن بكرا وفيما يفعلونه لو أثبت أبواها أنها كانت عذراء . « إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فأمسكها واضطجع معها فوجد ، يُعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة وتكون له زوجة من أجل أنه قد أذلها . لا يقدر أن يطلقها كل أيامه » .

شرائع سبق أن تقررت في إصحاحات سابقة ، ومن عجب أن رب إسرائيل الذي خلقه خيال أحبار اليهود في المنفى يحرم الربا ويحلله في نفس الوقت . إنه حرام أن يقرض إسرائيلي إسرائيليًا آخر بالربا . أما إقراض إسرائيلي لأجنبي فينبغي أن يكون بالربا . « ولا تقرض أخاك بربا : ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يقرض بربا . للأجنبي تقرض بربا ، ولكن لأخيك

لا تقرض بربالكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها .

ويحرم رب إسرائيل أن تعود المرأة إلى زوجها الأول إذا طلقها زوجها الثانى أو مات عنها ، فذلك فى شريعة الذين كتبوا التوراة رجس من عمل الشيطان يغضب الرب . ويعود ذلك الرب ليقرر مبدأ عادلا وإن كان يتنافى مع ما سبق أن قرره أكثر من مرة ، فإنه ينتقم من الآباء فى الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع : « لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء . كل إنسان بخطيئته يقتل » .

ويتذكر رب إسرائيل فجأة الغريب واليتيم والأرملة وإن كان لم ينس أبدا اللاويين والكهان : « متى فرغت من تعشير كل عشور محصولك فى السنة الثالثة سنة العشور . وأعطيت اللاوى والغريب واليتيم والأرملة فأكلوا فى أبوابك وشبعوا ، تقول أمام الرب إلهك : قد نزعنا المقدس من البيت ، وأيضا أعطيته لللاوى والغريب واليتيم والأرملة حسب كل وصيتك التى أوصيتنى بها . لم أتجاوز وصاياك ولا نسيتها . لم أكل منه فى حزنى ولا أخذت منه فى نجاسة ولا أعطيت منه لأجل ميت بل سمعت لصوت الرب إلهى وعملت حسب كل ما أوصيتنى . اطلع من مسكن قدسك من السماء وبارك شعبك إسرائيل والأرض التى أعطيتنا كما خلفت لآبائنا أرضا تفيض لبنا وعسلا » .

ويروى الإصحاح الثامن والعشرون من سفر التثنية ما ينعم به بنو إسرائيل من نعم أرضية إذا ما سمعوا وأطاعوا ، فإن الرب يرفعهم فوق جميع الأمم ويبارك فى أولادهم وفى زرعهم ، ويسوق لهم السحاب وتمطر لهم السماء ، أما إذا عصوا الرب ولم يسمعوا ويطيعوا فإنه ينزل بهم سوط عذاب . وقد

جعل الذين كتبوا التوراة في المنفى ما هم فيه كأنه نبوءة ، قالوا على لسان الرب :
« .. تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها . تبني بيتا ولا تسكن فيه .
تغرس كرما ولا تستغله . يذبح ثورك أمام عينك ولا تأكل منه ، يغضب
حمارك أمام وجهك ولا يرجع إليك . تدفع غنمك إلى أعدائك وليس لك
مخلص . يُسلم بنوك وبناتك لشعب آخر وعيناك تنظران إليهم طول النهار
فتكلان وليس في يدك طائلة . ثمر أرضك وكل تعبك يأكله شعب لا تعرفه .
فلا تكون إلا مظلوما ومسحوقا كل الأيام . وتكون مجنونا من منظر عينيك
الذى تنظر » . ويستمر الرب في ذكر ألوان العذاب ولا تفرق في كثير ولا
قليل عما حاق ببني إسرائيل في أرض السبي .

وفي الإصحاح الخامس والعشرين كلام لا يمكن أن يكون وحى إله :
« إذا سكن إخوة معا ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير امرأة الميت إلى
خارج لرجل أجنبي . أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم
لها بواجب أخى الزوج . والبكر الذى تلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحي
اسمه من إسرائيل .

وإن لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى
الشيوخ وتقول : قد أبى أخو زوجى أن يقيم لأخيه اسما في إسرائيل ، لم يشأ
أن يقوم لى بواجب أخى الزوج . فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه ، فإن
أصر وقال : لا أرضى أن أتخذها . تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ
وتخلع نعله من رجله وتبصق في وجهه وتصرخ وتقول : « هكذا يفعل بالرجل
الذى لا يبنى بيت أخيه فيدعى اسمه في إسرائيل : بيتا مخلوع النعل » ..

إن عادة زواج الأخ من زوجة أخيه المتوفى عادة يابانية ، وقد يكون
مردوخ أو شماس أو أى آلهة البابليين قد شرعها ولكنه لم يقل أبدا بما قال به

كهان بنى إسرائيل وأنطقوا به إلههم . فهل يمكن أن تتصور أن إلهها يأمر بخلع نعل رجل لا يرغب في الزواج من امرأة أخيه وأن يحرضها على أن تبصق في وجهه ؟ إنه إله سوق لا يمكن أن يكون له مكان إلا في عقول مريضة أضناها ذل الأسر وتأثرت بأسوأ ما في أساطير الشعوب .

وتستمر الوصايا وهي جميعا وصايا سبقت في أسفار سابقة حتى يحين أجل موسى عليه السلام : « وقال الرب لموسى هو ذا أيامك قد قربت لكى تموت . ادع يشوع وقفا في خيمة الاجتماع . فترأى الرب في الخيمة في عمود سحب ووقف عمود السحاب على باب الخيمة . وقال الرب لموسى : ها أنت ترقد مع آبائك فيقوم هذا الشعب ويفجر وراء آلهة الأجنيين في الأرض التى هو داخل إليها فيما بينهم ويتركنى وينكث عهدى الذى قطعته معه . فيشتعل غضبى عليه في ذلك اليوم وأتركه وأحجب وجهى عنه .. » .

موسى عليه السلام يرقد مع آبائه . هذا كل جزائه . لا جنة عالية ولا نعيم مقيم . ورب يعلم أن بنى إسرائيل سيعبدون آلهة الشعوب وعلى الرغم من ذلك يباركهم ويجعلهم في زعمهم شعبه المختار . وهو يخبر رسوله وهو على حافة القبر أن الشعب الذى أخرجه من مصر وأراهم المعجزات سرعان ما يرتدون إلى الكفر ، ومع ذلك يستمر ذلك الإله بينهم ويوصى يشوع بن نون بأن يتشدد : « وأوصى يشوع بن نون وقال : « تشدد وتشجع لأنك أنت تدخل بنى إسرائيل الأرض التى أقسمت لهم عنها وأنا أكون معك » .

ألست معى أنه إله غريب يصير على أن يعطى الأرض لأناس لم يصدقوه يوما ، بل إنه يعرف أنهم سيرتدون عن عبادته إلى عبادة آلهة آخرين ، ومع ذلك يصمم على أن يسير معهم ليهزم أعداءهم ويمنحهم الأرض التى أقسم لهم عنها جزاء كفرهم وعصيانهم ؟

استمع إلى موسى عليه السلام يقول لهم : « خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهدا عليكم . لأنى أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة . هو ذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتى ؟ » .

هذه هى الأسفار الخمسة التى يؤمن بها بنو إسرائيل جميعا ، السامريون واليهود ، وقد عبث بها الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى وسناقش باقى الأسفار التى لا يؤمن بها السامريون فى التذييل التالى إن شاء الله .

القاهرة فى : ٢٦ / ٩ / ١٩٦٩

المراجع

- القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى
السيرة النبوية
إنسان العيون (السيرة الحلبية)
بلوغ الأرب
نهاية الأرب
إيران فى عهد الساسانيين
لكرستينس — ترجمة د . يحيى الخشاب
نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار
للغزالى
إحياء علوم الدين
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
حقوق الإنسان فى الإسلام
محمد رسول الله
الرسول . حياة محمد
الإسلام والنظام العالمى الجديد
لابن هشام
لعلى بن برهان الدين الحلبي
للألوسى
للنويزى
لكرستينس — ترجمة د . يحيى الخشاب
للشيخ الشبلنجى
للقزالى
لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى
للدكتور على عبد الواحد وافى
مولاى محمد على
ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد
فرج وعبد الحميد جوده السحار
مولاى محمد على
ترجمة أحمد جوده السحار

الدین القيم	لأبى الأعلى المودودى
المستشرقون والإسلام	للمهندس زكريا هاشم زكريا
نساء النبى	للدكتورة بنت الشاطئ
عقزية محمد	لعباس محمود العقاد
الروض الآنف	للسهيلى
تاريخ الطبرى	للدكتور زكريا إبراهيم
مشكلة الحرية	لعباس محمود العقاد
فاطمة الزهراء والفاطميون	للوحدى
أسباب النزول	لابن أبى الحديد
شرح نهج البلاغة	للشهرستانى
الملل والنحل	

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

- أحسن بطل الاستقلال
- أبو ذر الغفاري
- بلال مؤذن الرسول
- في الوظيفة
- سعد بن أبي وقاص
- همزات الشياطين
- أبناء أبي بكر الصديق
- في قافلة الزمان
- أميرة قرطبة
- النقاب الأزرق
- المسيح عيسى بن مريم
- أهل بيت النبي
- محمد رسول الله

- تأليف : مولاي محمد علي
- ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمي
- قصص من الكتب المقدسة
- صدى السنين
- حياة الحسين
- الشارع الجديد
- وكان مساء
- أذرع وسيقان
- المستنقع
- ليلة عاصفة
- (مجموعة أقاصيص)
- (رواية)
- (قصة)
- (قصة)
- (قصة)
- (مجموعة أقاصيص)

(رواية)	— الحصاد
(قصة)	— جسر الشيطان
(قصة)	— النصف الآخر
(رواية)	— السهول البيض
(قصة)	— أم العروسة
(قصة)	— قلعة الأبطال
— عدو البشر	— وعد الله وإسرائيل
— أبطال الجزيرة الخضراء	— عمر بن عبد العزيز
— النمر	— هذه حياتي
— الله أكبر	— الحفيد
— ثلاثة رجال في حياتها	— ذكريات سينائية
— مسجد الرسول	— كشك الموسيقى
— فات الميعاد	— خفقات قلب
— آدم إلى الأبد	— صور وذكريات
— العرب في أوروبا	— الإسراء والمعراج
— الدستور من القرآن العظيم	— القصة من خلال تجاربي الذاتية

القصص الدينية (للأطفال)

في ١٨ جزءا
في ٢٤ »
في ٢٠ »
في ٢٤ جزءا

قصص الأنبياء
قصص السيرة
قصص الخلفاء الراشدين
العرب في أوروبا

السيرة النبوية في ٢٠ جزءًا

- | | |
|---------------------------|-------------------|
| ١ — إبراهيم أبو الأنبياء | ١١ — الهجرة |
| ٢ — هاجر المصرية أم العرب | ١٢ — غزوة بدر |
| ٣ — بنو إسماعيل | ١٣ — غزوة أحد |
| ٤ — العدنانيون | ١٤ — غزوة الخندق |
| ٥ — قريش | ١٥ — صلح الحديبية |
| ٦ — مولد الرسول | ١٦ — فتح مكة |
| ٧ — اليتيم | ١٧ — غزوة تبوك |
| ٨ — خديجة بنت خويلد | ١٨ — عام الوفود |
| ٩ — دعوة إبراهيم | ١٩ — حجة الوداع |
| ١٠ — عام الحزن | ٢٠ — وفاة الرسول |

